وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

الكتاب الشهري ٦٨

قلعة دمشق

تأليف: الدكتور عبد القادر الريحاوي

تقديم وإعداد: خيري الذهبي

قلعـة دمشـق

آفاق ثقافية دمشقية

الدكتـور
عبد القادر الريحاوي

قلعـة دمشـق

تقديم وإعداد وضبط :

خيري الذهبي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٨

آفــاق ثقافيــة دمشقيـة

العـدد (٦٨)

تشرين الثاني ٢٠٠٨

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٩

هذه القلعة المدينة

خيري الذهبي

وهل يمكن لمدينة، أي مدينة قامت منذ التاريخ القديم وحتى نهايات القرن التاسع عشر أن تقوم دون أن تكون شريكة وتوأماً للقلعة، الحماية، لمركز الدفاع والسلطة.

ربما كان أول ما يميز المدينة عن القرية، أي مكان الحضارة القانون والثقافة، عن مكان الاستقرار المحايد، المستوطنة، القرية، ربما كان أول مايميز هذه عن تلك هي السور والقلعة، القلعة- التحصين والسور- الحماية ضد الغازي الغريب، ولنذكر الفارق اللغوي بين القرية، المشتقة حسب اعتقادي من فعل قَرَّ، أي حل وسكن، والمدينة المشتقة من الفعل دان أي خضع للدين - القانون - التنظيم -الذي ينقل المستقَر- المستوطَنَة، القرية إلى الدين- التنظيم - القانون -الإدارة، للمستقر القرية، ولنذكر أن أول قرية حملت اسم المدينة في اللغة العربية - القرشية هي يثرب التي ما إن خضعت للدين الجديد الإسلام حتى تحول اسمها من القرية كما في مكة، أم القرى إلى المدينة، أي الخاضعة للدين - القانون - التنظيم - الإدارة. ولنذكر أن هذه القرية المتدينة - المدينة ما إن

جابهت خطر الغزو الكبير، غزوة الأحزاب حتى اقترح الفارسي سلمان على النبي الكريم حفر خندق يحمي المدينة من هجمة الغزاة، وحفروا الخندق وكانت نصيحة سعيدة أنقذت المدينة الجديدة والدين الجديد من الأحزاب الغازية.

الخندق كان المحاولة الأولى للدفاع عن الدين -المدينة- القانون الجديد. وكان هذا في الجزيرة العربية، أما في الشام حيث المدن القائمة منذ زمن طويل، فكان لابد لهذه المدن من حماية ضد الغزاة الكثر، فرس مرة، وروم أو رومان أخرى، مصريون فراعنة مرة، وآسيويون غامضون قادمون من عمق آسيا أخرى، وحثيون أو أناضوليون مرة أخرى. فكيف كان لهذه المدن أن تقف وتدافع إلى أن تأتيها النجدات إن لم يكن هنالك سور وخنادق وقلاع.

كانت القلعة وهي مايعنينا في مقدمتنا هذه، أعني قلعة دمشق التي يعود الدارسان الألمانيان ولتسنجرو واتسنجر إلى أن أول لقى أثريه لدينا فيها تعود إلى عهد الامبراطور ديوقلسيان الذي يفترض كريمر، أن برج الزاوية الشمالية في القلعة ربما كان بقايا معسكر ديوقلسيان الذي يفترض وجوده في مكان القلعة الحالية. فإذا صدقت مقولة كريمر وأنا أميل إلى الاعتقاد أنه صادق فيها، فمدينة في قِدَمْ دمشق لايمكن ألا تكون محصنة وهي الواقعة على بوابة البادية الشامية حيث القبائل البدوية الجوالة تبحث عن غنيمة ورزق سهل، وهل هناك ما هو أسهل من غوطة، جنة في فواكهها وخضرتها ثمرة جهود أبنائها، ومدينة وحيدة لم تستطع أن تشكل عاصمة لدولة تكبر عن محيطها، ولنذكر أن آرام لم تستطع أبداً تشكيل دولة تكبر عن المدينة الدولة، ولنذكر أنه بعد سقوط

الإمبراطورية الأموية، وتحلل الدولة العباسية الفعلي السريع، وقيام الدول البدوية، السلجوقية، الأتابكية الخ.. عادت الشام إلى دويلات المدن، ودويلات المدن كانت في حاجة دائمة إلى ما يحميها من غزو حتمي، بدوي قرمطي، أو بدوي غير قرمطي خوارزمي مثلاً أو سلجوقي - سلجوقي، وأتابكي- أتابكي و... صليبي- أتابكي، ثم صليبي- أيوبي. وربما كانت أفظع التجارب التي تعرضت لها دمشق وبغض النظر عن تداولها بين الطولونيين والعباسيين، ثم الاخشيديين والعباسيين، والعباسيون هنا ليسوا مركزية بغدادية حقيقية، بل ولائية إقطاعية فقط، أي اعتراف بالسلطة العباسية مع بعض الخراج والاحتفاظ بالسلطة العباسية مع بعض الخراج و... الاحتفاظ بالسلطة المحلية الصغيرة بكامل قوتها.

ولنعد إلى أخطر التجارب التي مرت بها دمشق حينما قررت أورية الصليبية بكامل أوربيتها الاستيلاء على دمشق، فالاستيلاء عليها إنهاء للوجود الإسلامي في المنطقة وتثبيت للوجود الفرنجي ربما كان نهائياً، ففي تلك الحملة الصليبية اجتمع امبراطور ألمانيا المقدسة ومعه ملك بوهيميا، وملك بولندا، وإمبراطور بيزنطة، وملوك فرنسة وإنكلترا، والفلاندر وأمراء الصليبيين المحليين بدءاً من ملك بيت المقدس إلى أمراء أو كونتات طرابلس وأنطاكية والكرك والفرقتان الأشد تعصباً أي الكهنة المحاربون، من فرسان المعبد، إلى فرسان الضيافة أو الداوية، والاسبتارية، ثم تقدموا لحصار دمشق التي لم تكن تملك القوة القتالية الكافية لصد مثل هذا التحالف العالمي، وكان يحكم دمشق واحد من مماليك بقايا الأتابكية الذين تلوا التمزقات السلجوقية، هذا الحاكم كان اسمه معين الدين أنسر وكان ثعلباً داهية استطاع البقاء في الحكم في

اللعب على التوازن مابين الكونتات الصليبيين الذين صار اسمهم البلديين، أي الذين ولدوا في الشرق وبين المعسكر الإسلامي بقيادة عماد الدين زنكي أولاً، ثم نور الدين محمود ابنه فيما بعد، وكان هذا التوازن يقوم على أنه إذا هاجمه الفرنجة مد يده إلى عماد الدين أو نور الدين طالباً العون، وإذا هاجمه عماد الدين أو نور الدين طالباً ضم دمشق إلى الدولة الإسلامية التي امتدت من الموصل إلى أورفه فحلب، فحماة فحمص، مدّ يده إلى الصليبيين.... وأخيراً جاءت الحملة الصليبية الدولية الكبرى، ولم يعد هذا التلاعب والمكر مفيداً، وتم الحصار وعيّن الأوربيون كونتاً جديداً على دمشق، هذا التعيين الذي أغضب الكونتات البلديين وعلى رأسهم ريمون حاكم طرابلس الذي كان يرى أنه الأحق في ضم دمشق إلى كونتيته في طرابلس...

ذعر مسلمو الشرق، ولكن الداهية معين الدين لم يذعر، وكان يطل على الحملة من شرفات القلعة التي ستكون موضوع بحثنا في هذا الكتاب، وسلط على الصليبيين الفدائيين من أبناء الشعب، والتاريخ يحدثنا عن شيخين عجوزين واحد منهما كان يدعى بالشيخ يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي، وكان عابداً مسناً، والآخر هو الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول فنظر أحدهما إلى الآخر وسأله! أليس هؤلاء هم الروم؟، فقال الآخر: بلى، فقال: أليس هؤلاء هم من أمرنا الله بقتالهم، فقال الآخر: بلى. فقال: فما يمنعنا من قتالهم؟ ونزلا متدليين مع الفدائيين إلى خارج القلعة، وما كانت إلا جولة حرب صغيرة، وهما العجوزان حتى استشهدا.

وكانت جواسيس معين الدين تجول بين صفوف الفرنجة،

فعرف معين الدين بغضب ريمون لحرمانه من كونتية دمشق وإعطائها لكونت أوربي، فأرسل إليه يعده بمئة ألف دينار بيزنطي إن استطاع صرف هذه الحملة عنه، ووافق ريمون فلقد يئس من كونتية دمشق، ولم لايكسب هذا المبلغ الهائل، وأرسل إليه معين الدين بالمال، ثم أرسل إلى نور الدين رسالة من عشر نسخ أرسلها مع الحمام، وهو يعرف أن العدو يتربص بالحمام، يعرف أنه وسيلة البريد بين المحاصرين وأحلافهم. وكان معين الدين يعرف أن حمامة برسالة واحدة ربما نجت، أما عشر فلا بد أن نسقط واحدة، وكان ما حدس، فقد أسقط الصليبيون واحدة من الحمائم، وقرأوا الرسالة واستشاطوا غضباً، وهاجموا خيمة الكونت ريمون ليجدو فيها مدفوناً الدنانير الرشوة، واختبط الفرنجة مابين أوربيين وبلديين انتصروا لريمون، وغضب الأوربيون فانسحبوا متخلين عن حصار دمشق بعد أن أثخن فيهم الفدائيون ما أثخنوا، ونجت دمشق، وكان معين الدين على شرفات (قلعتنا) يراقب انسحابهم سعيداً.

هذه القلعة ستشهد أحداثاً كثيرة فيما بعد، ستشهد الصراع مابين المماليك الشراكسه بقيادة برقوق والمماليك الأتراك بقيادة منطاش. وستشهد احتلالها، والتخلي عنها، وستشهد القتلى على أبوابها والحرائق على أسوارها.

هذه القلعة ستشهد تخلي المماليك بقيادة الناصر فرج الحاكم المملوكي الطفل عن المدينة، وحفاظ رجال القلعة عليها أثناء حصار تيمورلنك لدمشق ثم استيلائه عليها خديعة وحصاره القلعة وإقامته الأبراج من حولها تطاولها ارتفاعاً، ثم إحراقها واستسلامها.

هذه القلعة ستشهد استسلام دمشق المملوكية لسليم العثماني ثم ثورتها على سليمان القانوني، ثم استسلامها مهزومة، واستيلاء الانكشارية عليها، وقتل المملوك المنقلب على العثمانيين، وستشهد رحلات الصراع الطويلة مابين نظام الانكشارية العجوز وقد تحولوا إلى انكشارية يرلية أي محليين وبين القبوقولية، أي الحرس السلطاني، الجيش السلطاني الجديد البديل، وستشهد الحرائق والقتل والخوزقة والتوسيط والتسمير والصلوات والدعاء للسلطان بالنصر.

ستشهد انهيارات السلطنة العثمانية، ثم هزيمتها أمام الحلفاء الأوروبيين واستيلائهم على دمشق بعد فرحة قصيرة بفيصل الأمير الحجازي وحكمه القصير. وستشهد تحولها من حصن للدفاع عن المدينة والنظام والسلطة إلى سجن للأحرار والمغضوب عليهم، ثم إلى سجن للمجرمين العاديين. وفي زيارة لي للقلعة أثناء تحولها سجناً للمجرمين العاديين زرتها زائراً ومستكشفاً وليس سجيناً والحمد لله . شاهدت سجناً قروسطياً طريفاً فيه سوق للسجناء، يبيعون السجناء الخضار والفواكه واللحوم، وشهدت سجوناً إفرادية، من أغرب ما شهدت بئر عميقة مغطاة الفتحة بشبك حديدي كان السجين ينزل إليها مدلى، ثم ينزل إليه طعامه وشرابه وإناء فضلاته مدلى وليس من جليس أو أنيس إلا أصوات السجناء البعيدين أثناء فسحة تنفسهم ورؤية تبدلات الزمن عبر شروق وغروب الشمس في مرورها عبر شبك السقف الحديدي.

طبعاً لم تكن هذه المرة الأولى في تحول هذه القلعة كلها، أو بعضها إلى سجن، ففي العام ١٥٩٠ قبض الوالي العثماني على القنصل الفرنسي المسمى (لامبرور) وسجنه في قلعة دمشق ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية قدرها ثلاثة آلاف قرش، ثم اعتقل فيما بعد أمير بعلبك علي بن الحرفوش فيها إلى أن ضرب عنقه فيما بعد..وقد اعتقل أسعد باشا العظم العام ١٧٤٨ بعضاً من رجالات العشائر فيها كرهائن وذلك خلال الصراع في لبنان وجبل الشوف.

قلعة دمشق لم تكن حصناً للدفاع عن المدينة فقط، ولم تكن سجناً للمغضوب عليهم، فقط، ولم تكن ملجأ لكبراء المدينة أثناء ثورات العوام المطالبين بالعدل والخبز، فقط، بل كانت الأداة الإعلامية الكبرى للسلاطين والحكام، فحين يحرز السلطان البعيد في استانبول أو القاهرة نصراً ما كانت مشاعل النفط تضاء في أبراج القلعة وعلى سورها لعدة أيام، ثم يطلب من السكان المشاركة في الاحتفال بالزينة وإشعال المشاعل والدعاء للسلطان.

أما في العهد المصري أيام إبراهيم باشا فقد تحولت الاحتفالات من إشعال النيران إلى إطلاق (الشنيك) هذا التعبير الذي مايزال يستخدم حتى يومنا هذا والذي يعني الألعاب النارية، أو الأسهم النارية.

لم تكن القلعة مكاناً محايداً، ولم تكن حصناً مفارقاً، ولم تكن مقراً للولاة فقط، بل كانت كل هذا وكانت الحصن الأخير والأقوى في الدفاع عن المدينة.

أما في القرن العشرين، فقد أخذت مكانتها تتراجع مع

تراجع أهمية القلاع العسكرية، وأخيراً قررت السلطات الثقافية تحويلها إلى متحف عسكري، وإلى مكان سياحي، فقامت قبل كل شيء بترميم البرج الجنوبي الغربي الملاصق لسوق الحميدية بعد أن أزالت الأسواق الطفيلية الملتصقة بسورها مثل سوق الخجا، وسوق الأروام، فانكشف جدارها الغربي الجميل والبرجان الشمالي والجنوبي الذي رمم وصارت واجهتها الغربية واحداً من أجمل معالم دمشق.

بين يدينا الآن كتاب هام عن قلعة دمشق أعده الباحث التاريخي و الأثري الدكتور عبد القادر الريحاوي، صحيح أن الكتاب قد أنجز وطبع في العام ١٩٧٩ وهذا يعني أنه طبع قبل اكتشافات كثيرة تمت في القلعة بعد الحفريات الكثيرة التي تمت في ربع القرن الأخير، ويعني أيضاً أن هذا الكتاب قد أنجز قبل إزالة الأسواق الطفيلية الغربية الملتصقة بالقلعة وقبل الكشف عن البرجين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي ولكنه سيظل واحداً من أهم الكتب التي وضعت عن قلعة دمشق معلم دمشق الكبير.

وعلينا أن نشكر الدكتور الريحاوي على جهده الكبير في تقديم هذا الكتاب، ونأمل أن يرفدنا باحثون جدد بما استجد ويستجدآثارياً وكشفياً عن ... قلعة دمشق .

خيري الذهبي

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ..

قد يدهش أناس من وضع كتاب بهذا الحجم من أجل الحديث عن قلعة دمشق. وهو أمر لم تألفه مكتبتنا العربية. لقد عرف الناس كتباً توضع في تاريخ الدول أو تاريخ مدينة من المدن. أو في ترجمة عظيم من عظماء التاريخ.

ولكن من يلقي نظرة على فهرسة هذا الكتاب أو مخطط البحث يجد بأني لم أسرف في وضع هذه الصفحات جميعها كي أوفي هذه القلعة العظيمة حقها من البحث في تاريخها وآثارها وما حوته مبانيها من فنون معمارية وعسكرية، ونقوش ووثائق، منذ نشأة القلعة في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وحتى يومنا هذا.

وشأن قلعة دمشق كشأن مدينة دمشق في التاريخ، من حيث الدور الذي لعبته في تاريخ العرب القومي وفي الصراع الطويل مع

الطغيان والغزو والأطماع الخارجية وعلى رأسها غزوات الصليبيين والمغول، ومن حيث تثبيت دعائم وحدة العالم العربي وتحريره كاملاً من آثار الاحتلال، في مختلف العصور.

ليس هذا فحسب. بل كان لها الدور الفعال في تقدم الحضارة العربية ودعمها وتشجيع الأعمال الفكرية والثقافية والفنية. يوم كانت القلعة دار ملك لسلاطين عظام بيدهم تصريف شؤون المنطقة العربية سياسياً وعسكرياً وحضارياً من أمثال نور الدين وصلاح الدين والملك العادل أبي بكر والظاهر بيبرس وغيرهم.

سيجد من يستهويه قراءة هذا الكتاب مابذلته من سنوات طويلة من البحث والتحري في بطون المصادر وبين أسوار القلعة وأبراجها وحجارتها، بدأت في عام ١٩٦٥ وانتهت في عام ١٩٧٥.

ولكن الفضل كله مع ذلك لايعود إلي وحدي بل إلى جنود مجهولين كانوا وراء هذا التوفيق والنجاح أذكر منهم الكتاب والمؤلفين الذين رجعت إليهم والذين تزخر بهم لائحة المصادر العربية والأجنبية المنشورة في آخر الكتاب.

وأذكر الأساتذة الكبار الذين كان لبعضهم فضل المشورة والتشجيع أمثال الدكتور المرحوم ميشيل آلارد[١] مدير معهد

---

(١) يعتبر الأب «الارد» من كبار المستشرقين الفرنسيين اشتهر في اتقانه اللغة العربية وتعمقه في الدراسات الاسلامية. لقي مصرعه بقذيفة طائشة خلال أحداث بيروت الدامية في كانون الثاني عام -١٩٧٧-.

الدراسات الشرقية في الجامعة اليسوعية ببيروت. وهي المؤسسة العلمية التي منحتني درجة الدكتوراه، على هذا المؤلف.

وأذكر أيضاً فضل المديرية العامة للآثار والمتاحف التي أتاحت لي فرصة الإفادة من وثائقها وصورها ومخططاتها.

وأخيراً فإن الفضل في إخراج هذا الكتاب إلى النور وتحويله من دراسة مخطوطة إلى كتاب مطبوع ينفع الناس، ويضاف إلى تراث المكتبة العربية ومؤلفاتها، هذا الفضل إنما يعود إلى السيد العماد مصطفى طلاس نائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة، وزير الدفاع في القطر العربي السوري الذي لاتقف مسؤولياته وجهوده عن النواحي العسكرية بل تتعداها إلى الجوانب الفكرية والعلمية.

وما أكثر مواقفه التي يشجع فيها البحث العلمي والعلماء وقضايا نشر التراث وأمهات الكتب. فله خالص شكري وشكر كل من سيتاح له قراءة هذا الكتاب والافادة منه.

والله الموفق لكل عمل بناء.

المؤلف

المقدمة

ماتزال قلعة دمشق قائمة داخل أسوار المدينة القديمة، محتفظة بالقسم الأعظم من أسوارها وأبراجها، ولكن الأسواق المحيطة بها اليوم تحجب القلعة عن الأنظار، فلاتكاد تظهر منها إلا أجزاء يسيرة.

إنها تحتل الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة وتشغل أرضاً تقارب مساحتها أربعة هكتارات.

وتعتبر من أهم أوابد مدينة دمشق من الناحيتين التاريخية والمعمارية، لايضاهيها في الأهمية سوى الجامع الأموي.

ولقد كانت طوال قرون عديدة، ولاسيما في العهدين الأيوبي والمملوكي حصن دمشق الحصين ومركز نشاطها السياسي والحربي، لايكاد يخلو حدث من أحداث تلك الحقبة من خبر عنها، وذكر لما يجري فيها وحولها من أعمال تتصل بشؤون الحرب والسياسة والعمران وغير ذلك من ألوان النشاطات اليومية.

لقد لعبت قلعة دمشق في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس

والعاشر الهجريين (الحادي عشر والسادس عشر) دوراً هاماً في تاريخ المدينة بل في تاريخ المنطقة العربية. شهدت أحداث الحروب الصليبية[1] وغزوات المغول العديدة، وعاش بين ظهرانيها سلاطين وحكام، بدءاً من ملوك الأتابكة السلجوقيين ثم سلاطين الأيوبيين وبعضاً من المماليك.

وتتحول القلعة بعد الفتح العثماني إلى ثكنة، تعتصم بها فرق الجيش العثماني المتنازعة. لتصبح القلعة بهم مصدر بلاء على المدينة وأهلها، ثم تفقد في نهاية الحرب العالمية الأولى قيمتها الحربية كلياً. وتستخدم في ظل الانتداب الفرنسي سجناً ومقراً لبعض عناصر الشرطة. ويستمر حالها كذلك بعد الاستقلال بانتظار تحقيق مشروع وضعته مؤخراً يوجب اخلاءها وترميمها وكشف بعض واجهاتها الخارجية، واستخدامها في أغراض ثقافية وسياحية وبإحلال المتحف الحربي فيها. وبذلك تخرج من عزلتها لتتصل من جديد بالعالم الخارجي وبالناس كمعلم تراثي هام تقص عليهم من تاريخها وذكرياتها، وتمتعهم بآثار عمارتها وفنون تحصينها، كما هو حال القلاع الأخرى المنتشرة في أنحاء العالم.

لفتت القلعة أنظاري من سنوات بهندستها وفنون تحصينها وبأبنيتها الحجرية المتقنة النحت، والكتابات التاريخية المنقوشة في كل

---

(١) بدأت الحروب الصليبية في الشام باحتلال لنطاكية سنة ٤٩١/ ١٠٩٨.

ناحية من أسوارها وأبراجها وأبوابها والتي تؤرخ أعمال البناء والأحداث الهامة. ووجدنا في هذه القلعة أثراً من أهم الآثار المعمارية التي خلفتها الحضارة العربية الاسلامية، بل نموذجاً كاملاً من منجزات فنون العمارة العسكرية في القرون الوسطى. فاستهوتنا دراستها، وعكفنا على مراجعة ما قدرنا علي مرجعته من المصادر والمراجع، عربية وأجنبية، مطبوعة ومخطوطة، وجمعنا إلى ذلك سلسلة من التحريات قمنا بها على أرض القلعة نفسها، فلم نترك عنصراً من عناصرها أو حجراً من أحجارها إلا وعرفنا وظيفته وتاريخه وخصائصه، كي نقدم للقراء والمختصين هذه الدراسة الشاملة عنها.

والذي استخلصناه من كل ذلك هو أن القلعة التي نشاهدها اليوم، إنما يعود الفضل في تشييدها إلى الملك العادل الأيوبي، محمد أبي بكر بن أيوب، وأنه حين أقدم على هذا العمل الجليل، هدم قلعة قديمة كانت في مكانها، وهي القلعة التي ذاعت شهرتها في عهد أخيه صلاح الدين والسلطان نور الدين وكل ملوك الأتابكة من قبله. ولقد أكدت المصادر العربية على أن السلاجقة شيدوا قلعة في دمشق منذ بداية سيطرتهم عليها في عام ٤٦٩ للهجرة (١٠٧٦ للميلاد).

ولذلك، فقد اضطررنا في دراستنا هذه للحديث عن قلعتين لاقلعة واحدة. الأولى زالت وهدمت، والثانية ماتزال باقية. أسمينا الأولى اصطلاحاً القلعة السلجوقية وأسمينا الثانية القلعة الأيوبية، وذلك بالنسبة إلى بناة كل منهما، لابالنسبة للعصر الذي عاشته.

وسوف نناقش في الفصل الأول، الذي خصصناه للحديث عن القلعة الأولى الزائلة ما إذا كانت هي أول قلعة عرفتها دمشق، وفيما إذا كانت قد حلت محل حصن أقدم، كما زعم.

لقد شيدت قلعة دمشق الأيوبية التي نشاهدها اليوم في فترة تطورت معها فنون العمارة العسكرية تطوراً ملحوظاً وبلغت أوجها من الرقي والمنعة. وكانت القلاع وقتئذ الملجأ والملاذ، يعول عليها إلى حد كبير في الدفاع ضد غزوات الأعداء وافشال أهدافهم. كما كانت الركن الذي لايستغنى عنه في توطيد حياة آمنة للشعب والحكام.

ولايضاهي قلعة دمشق من حيث القوة والحصانة واتقان البناء سوى تلك الحصون التي شيدها الفرنج في الشرق العربي. ويأتي في طليعتها قلعة الحصن وقلعة المرقب وقلعة صهيون (قلعة صلاح الدين). ولكن الاختلاف بين هذه القلاع وبين قلعة دمشق ظاهر في كثير من النواحي. فالقلاع العربية التي شيدها الأيوبيون كانت حصيلة الفنون العسكرية التي عرفتها سورية منذ أقدم العصور وما لقيته هذه الفنون من تطور في عهود الرومان والبيزنطيين والعرب المسلمين. بينما نجد القلاع التي شيدها الفرنج في الشام متأثرة بفنون العمارة العسكرية السائدة وقتئذ في أوربا والتي تستمد أصولها من الفنون الرومانية والقوطية. على أنها تأثرت إلى حد كبير بالفنون

المحليـة السـائدة في الشـرق، ولاسـيمـا تلك التي تخلفت عن البيزنطيين، في سورية والأناضول. وبينما نجد دراسات ومؤلفات عديدة عن القلاع الصليبية، فإنا لانجد عن القلاع العربية دراسات كافية.

أما قلعة دمشق، فقد حظيت ببعض الأبحاث والمقالات العلمية نشرها عدد من المختصين والمستشرقين، وها نحن نحصيها فيما يلي:

١- بحث عن الكتابات المنقوشة على مباني القلعة نشره المستشرق الألماني سوبر نهايم «sobernnheim» في مجلة «Der Islam» بتاريخ عام ١٩٢٢.

٢- بحث عن القلعة ضمن كتاب ألفه عن مدينة دمشق اثنان من المستشرقين باللغة الألمانية هما:

فاتزنجر Watzinger وفولزنجر Wulzinger وهو في جزأين نشرا في عامي ١٩٢١، ١٩٢٤. وقد عالجا في الجزء الأول المخصص لمدينة دمشق قبل الإسلام موضوع الحصن الروماني وآثاره. وعالجا في الجزء الثاني المخصص لدمشق الاسلامية القلعة الأيوبية.

٣- نشر سوفاجه Sauvaget سنة ١٩٣٠ بحثاً هاماً عن القلعة في مقالين في مجلة سيريا -Syriaبلغ مجموعهما خمساً وخمسين صفحة تخللتها مخططات وصور لبعض مباني القلعة. أشار إلى أن

«ماكتبه عن قلعة دمشق لايعدو كونه دراسة أولية، وأن دراسة أوسع يجب أن تعتمد على النصوص التاريخية، وأن هذه النصوص جد موزعة بحيث أن استخراجها يتطلب مطالعة واسعة».

٤- وكانت آخر دراسة وضعت عن قلعة دمشق ذلك المقال الذي نشره كينك King بالانكليزية في مجلة أركولوجيا Archéologia لعام ١٩٥١، اهتم كينك في بحثه بالناحية المعمارية، وقدم وصفاً لأسوار القلعة وأبراجها. وتضمن بحثه الذي يلغ أربعين صفحة، مصوراً عاماً للقلعة ومخططات لعدد من الأبراج والبوابات.

إن الأهمية البالغة التي تمتعت بها قلعة دمشق من النواحي التاريخية والمعمارية وعدم كفاية الدراسات الموضوعة حولها، بالرغم مما في الأبحاث التي أشرنا إليها من فوائد وقيم علمية، كانت في طليعة الأسباب التي حفزتني على اختيار قلعة دمشق موضوعاً للدراسة. ولقد بذلت جهدي في أن تكون هذه الدراسة متكاملة تشمل النواحي التاريخية والمعمارية.

ولقد اعتمدت في الدراسة المعمارية على المخططات المنشورة في أبحاث «سوفاجه» و«كينك» وعملت جهدي على استكمال النقص وتصحيح الأخطاء وإضافة ماأمكنني استكشافه من العناصر ضمن الحدود الضيقة التي تسمح بها أوضاع القلعة الحاضرة التي سبق الاشارة إليها.

الفصل الأول

القلعة السلجوقية

ذكرت في مقدمة هذا البحث بأن قلعة دمشق الحالية التي شيدها الملك العادل الأيوبي لم تكن أول قلعة تبنى في دمشق، وإنما حلت محل قلعة عربية بناها السلاجقة، فكانت أول قلعة عرفتها المدينة. وهذه الفرضية سوف نعمل على اثباتها بالأدلة المختلفة.

إن هذه القلعة التي عاشت أكثر من قرن (١٣٠ عاماً) مليء بالأحداث لجديرة بأن نفرد لها فصلاً خاصاً في دراستنا هذه. نتقصى فيه أخبارها ونتعرف على معالمها، ونبرز ما كان لها من دور خطير في التاريخ.

آ- الاطار التاريخي

(تاريخ دمشق في عهد الاتابكة ونور الدين وصلاح الدين)

يبدأ تاريخ القلعة السلجوقية مع بداية عهد جديد من عهود دمشق بكل مالهذا العهد كمن مقومات سياسية ودينية وثقافية.

فبدخول الأمير اقسيس [1] أو اتسزبن أوق الخوارزمي التركي إلى دمشق واستيلائه على السلطة فيها عام ٤٦٨/ ١٠٧٥ انتهى العهد الفاطمي الذي دام زيادة على مئة عام وبدأ حكم يرتبط بالسلاجقة، ويعتنق مذهب السنة ويدين بالولاء للخلافة العباسية في بغداد، حيث خطب على المنابر للامام المقتدى بالله العباسي بدلاً من الامام المستنصر الفاطمي. في سنة ١٠٧٨/٤٧١ عاد الفاطميون لأخذ دمشق، فاستنجد اقسيس المذكور بأمير سلجوقي آخر هو تتش بن آلب أرسلان [2] الذي كان يغزو شمالي الشام ويحاول دون جدوى الاستيلاء على حلب. وخف تتش لنجدة اقسيس، وما إن دخل دمشق حتى قتل الاقسيس، واستولى على السلطة واتخذ دمشق مقراً

---

(١) ويسميه الذهبي في العبر (٣/ ٧٩) أيضاً أتسِز واطسز. قدم وجماعته التركمان مع الحملة التي قام بها سنة ٤٦٣/ ١٠٧١ السلطان السلجوقي ألب أرسلان إلى الشام لضمها إلى الخلافة العباسية والقضاء على الدويلات المستقلة في شمالي الشام والجزيرة، والمتعاونة غالباً مع الدولة الفاطمية. وانساحت فرق التركمان في أنحاء الشام، وعمل اقسيس وجنوده على طرد الفاطميين من جنوب الشام، واستولى على فلسطين وحاصر دمشق أكثر من مرة حتى فتحها. (انظر ترجمته في ابن الأثير، الكامل، ١٠/ ٢٢, ٢٤. وفي ابن عساكر، تهذيب بدران ٢/ ٣٣١).

(٢) انظر أخبار تتش وترجمته في:

آ- ابن القلاني ص ١١٢

ب- ابن الأثير ١٠/ ٣٨

ج- ابن عساكر ١٠/ ٤٣٤ طبعة المجمع العلمي بدمشق.

لحكمه، وفي سنة ٤٨٨/ ١٠٩٥ توفي تنش فخلفه في دمشق ابنه شمس الملوك «دقاق» [١] الذي حكم بين عامي ٤٨٨ و٤٩٧ (١٠٩٥-١١٠٣).

وخلف دقاقاً ابنه الصغير «تتش» (الثاني) وجعل اتابك [١] أبيه الأمير «طغتكين» وصيا عليه فغدا هذا الأخير الحاكم الفعلي، ولقب بظهير الدين، وأصبح الحكم وراثيا في أسرته، التي عرفت بالاتابكة [٢].

ونجعل فيما يلي ثبتاً بأسماء هؤلاء الأتابكة وسني حكمهم:

١- ظهير الدين طغتكين -٤٩٧- ٥٢٢ (١٠٩٤-١١٢٨)

٢- تاج الملوك بورى بن طغتكين -٥٢٢- ٥٢٦ (١١٢٨-١١٣١)

٣- شمس الملوك اسماعيل بن بورى -٥٢٦- ٥٢٩ (١١٣١-١١٣٤)

---

(١)- كلمة تركية معناها الوصي أو المربي ثم أصبحت تطلق على الامراء الكبار والعظماء.

وهي مؤلفة من «أنا» وتعني الأب «بيك» السيد انظر:

Cl.Cahen: Encyclopedie de I,Islam, Nl.Ed.T.1,Livraion 12,p.752

(٢)- انظر تاريخ هذه الأسرة الحاكمة عند ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق في الصفحات (١٤٤-٣٢٧). وفي زامباور: الأسر الحاكمة الذي يسميها دون مبرر معقول «اليوريوت». وانظر امراء دمشق لصلاح الدين الصفدي.

٤- شهاب الدين محمود بن بورى -٥٢٩- ٥٣٣(١١٣٤-١١٣٨)

٥- جمال الدين محمد بن بورى-٥٣٣-٥٣٤ (١١٣٨- ١١٣٩)

٦- مجير الدين أبق بن محمد -٥٣٤-٥٤٩(١١٣٩-١١٥٤).

كانت دمشق في عهد هؤلاء الاتابكة عاصمة دولة صغيرة تشتمل على مناطق دمشق، وحوران، وجبل الدروز، وبعلبك، وصور، وتمتد شرقا إلى الفرات عند الرحبة(١)، وجنوباً إلى بانياس وطبريا، وتقف شمالاً عند حماة وغرباً إلى رفنية، وأحياناً إلى جبلة (٢).

أما علاقة الأتابكة مع جيرانهم، فلم يكن يسودها السلام والاستقرار. نراها مهددة غالباً من قبل حكام الموصل وحلب من آل زنكي الأتابكة، لاسيما في عهد ملكي حلب عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود. وتتحسن العلاقات بين الدولتين أحياناً فتقوم بينهم مصاهرات وصلات عائلية. وتسوء أحياناً أخرى بسبب الميول التوسعية لملكي حلب المذكورين، مما يدفع ملوك دمشق في بعض الأحيان للتحالف مع الفرنج، من أجل ردهما والحفاظ على استقلالهم. كما حدث في عام ٥٣٤/ ١١١٣ حينما احتل عماد الدين

---

(١) بلدة على ضفة الفرات اليمنى تسمى اليوم الميادين وتقع إلي الجنوب الشرقي من دير الزور. وإلى جوارها توجد قلعة الرحبة التاريخية.

(٢) انظر ابن القلاني (ص١٣٩, ١٤٢, ١٥٠, ٢١٠, ١٨٨, ١٧٥).

بعلبك وجاء يحاصر دمشق. وكما حدث في عهد نور الدين ابنه حين حاول انقاذ حوران من الفرنج فتعاهد معهم مجير الدين على أن يكونوا يداً واحدة ضد نور الدين [1].

أما علاقاتهم مع جيرانهم الفرنج، ملوك القدس والمنطقة المحتلة، فكانت تتأرجح بين الحرب والسلم. وكان الفرنج كلما لمسوا ضعفاً من حكام دمشق توغلوا في الأراضي التابعة لمملكتهم، فيعتدون على القرى والمزارع في حوران والجولان، وينهبون الغلات والمواشي، فيرسل الأتابكة من يردهم ويشتبك معهم في معارك لاتنتهي. ولقد تشجع الفرنج مرتين على محاولة احتلال دمشق. أولها حين أصبح ثغر بانياس المطل على بحيرة الحولة بأيديهم، وقد كان هذا الثغر، حصن دمشق الأمامي، في عهدة الباطنية أو الحشيشية. ولكن زعيمهم اسماعيل الداعي سلمه للفرنج في عام ١١٢٧/٥٢٢. ولم يمض عام حتى كانت جموعهم تعسكر على بضعة كيلومترات إلى الجنوب من دمشق بقيادة وليام دوبور Wiliam

(١) بدأت الحروب الصليبية في عهد أسرة الأتابكة، ووصلت الحملة الأولى إلى الشرق في عام ١٠٩٧/٤٩١ فاحتل الفرنج انطاكية والقدس وأقاموا فيها أمارتين فرنجيتين. لم تمض بضع سنوات حتى كانت بلاد الشام وفلسطين بأيديهم وامتنعت عليهم المدن الكبرى كدمشق وحلب وحمص وحماة وبصرى وصلخد وبعلبك والأطراف البعيدة في الداخل.

de Bort أمير طبريا ويخرج عسكر دمشق إليهم فيحاربهم ويضطرهم للجلاء والعودة (١).

أما المرة الثانية فقد تعرضت دمشق فعلا لحصار خطير وحدث ذلك أثر وصول الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق. ووجدت دمشق نفسها في عام ٥٤٣/ ١١٤٨ أمام جموع يقودها «كونراد الثالث» ملك الألمان ConradIII ولويس السابع Louis VII ملك فرنسا وعدد آخر من ملوك المنطقة المحتلة ويعسكر بعضهم في داريا، والبعض يتقدم إلى المزة والربوة. وتقع مناوشات في البساتين المحيطة بأسوار المدينة بين فرسان الصليبيين من جهة وبين الشجعان من أهل دمشق وعسكر الأتراك (٢). ثم يتحول الصليبيون لمحاصرة أسوار المدينة من الشرق والجنوب. وبعد خمسة أيام من الحصار ينسحب الفرنج ويقع الخلف بينهم، ويعزى ذلك إلى وصول نور الدين محمود بن زنكي ملك حلب وأخيه سيف الدين ملك الموصل إلى حمص وإلى تهديد معين الدين أنر نائب ملك دمشق الأتابك مجير الدين للصليبيين بتسليم دمشق إلى نور الدين. ويؤثر عندئذ ملوك الفرنج المحليون الانسحاب

---

(١) انظر ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٢٥٥ وكذلك «سيتون»:

Setton: History of Crusades,I,P. 430, 456

(٢) كتاب الروضتين، ١/ ٥٣، الطبعة القديمة.

خوفاً من امتدا سلطان نور الدين إلى دمشق ووقوفه في وجههم بدلاً من حكام دمشق المسالمين، الأمر الذي يهدد مصير أماراتهم [(١)].

وأخذ الناس في دمشق منذ ذلك اليوم يتطلعون إلى من ينقذهم من الفرنج ويرون في نور الدين [(٢)] الزعيم الذي تهفو إليه النفوس لما كان يتحلى به من صفات البطولة والعدل وحسن السيرة والاخلاص للدين والوطن، «وكان الدعاء له من أهل دمشق وأعمالها متواصل»[(٣)] مما شجعه للقدوم إلى دمشق وضمها إلى دولته فصار يحاول مرة، ويتراجع أخرى خشية من تحالف حكامها مع الفرنج، بغية الحفاظ على ملكهم، ثم وأتت الفرصة نور الدين فاحتل دمشق في عام ٥٤٩/ ١١٥٤، دون مقاومة تذكر.

انتهى بدخول نور الدين دمشق حكم الأتابكة من أسرة ظهير الدين. وغدت دمشق جزءاً من دولة أكبر، تضم سورية الداخلية بكاملها. وتمكن نور الدين في عام ٥٦٤/ ١١٦٨ من أن يأخذ مصر، حين أرسل جيشاً لانقاذها من الفرنج بقيادة أسد الدين شيركوه وابن

---

(١) انظر ابن القلانسي، ص٢٩٨. وكتاب:

Setton: Hist.of Crus. I,P.507

(٢) انظر بشأن سيرة نور الدين كتاب الروضتين، الجزء الأول. والدراسة التي وضعها المستشرق الفرنسي «اليسيف- N.Elisseeff» تحت عنوان: Nour- el Din طبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، سنة ١٩٦٧.

(٣) ابن القلانسي، ص٣٠٨.

أخيـه صـلاح الدين الأيوبي. وبعـد ثلاث سنوات، يقـضي صـلاح الدين على الخلافة الفـاطمـية نهـائيـاً منتـهزاً فـرصـة مرض الخليفـة الفـاطمي ثـم وفـاته بعد أيام [1]. وتصبح مصـر والشـام دولة واحدة، وتشتد المقاومة للاحتلال الصليبي، وتغدو المعارك أكثر جدية وتبدأ عمليات تحرير الأراضي المحتلة حصناً بعد حصن ومدينة تلو أخرى. ثم يتـوفى نور الدين في عـام ٥٦٩/ ١١٧٣، فـيـواصـل صـلاح الدين تحقيق وحدة الشرق العربي الاسلامي، وتحرير الأراضي المحتلة.

وحينما توفي نور الدين في قلعة دمشق بـويع ابنه الملك الصالح اسماعيل، وكـان صغيراً، وكان صلاح الدين يحكم مصر كوزير لنور الدين، ولكن أوصـيـاء الملك الصـغـير أسـاؤوا التـصـرف وأفسـدوا العـلاقات بين دمـشق والقـاهرة، الأمـر الذي حفـز كـبار الأمـراء في دمـشق لدعـوة صـلاح الـدين لتـولي السلطنة. ويدخـل صـلاح الدين دمـشق بعـد عـام واحـد من وفـاة نـور الدين. ويبـدأ مع هذا الحـدث التاريـخي قيام دولة الأيـوبيين في الشام ومـصر. وكان لدمشق في أيام نور الدين وصـلاح الدين شأن هام. فقـد عادت إلى مسرح الأحـداث كـعاصـمة لزعيـمين عظيـمين من زعـماء العـالم الاسلامي وحظيت في عـهدهمـا بقدر من العـزة والمجـد والازدهار، وعـادت لهـا مكانتـهـا المفقودة منذ انتهاء العصر الأموي.

---

(١) كتاب الروضتين، ١/ ١٩٧.

وتغدو دمشق مركزاً سياسياً وحضارياً مرموقاً، وتنشط فيها الحركات الثقافية والعمرانية والاقتصادية. وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩/ ١١٩٣ تتجزأ الدولة الكبرى التي شملت الشام ومصر والجزيرة السورية واليمن، ويقوم النزاع بين أولاده، وبينهم وبين عمهم الملك العادل أبي بكر، وتقع الحرب بين الأخوة وتطغى شخصية الملك العادل فيتسلطن في عام ٥٩٦/ ١١٩٩ على الشام ومصر، ويعين أولاده وأولاد أخيه ملوكاً وأمراء في أنحاء الدولة الواسعة. ويجري في عهده الحدث الذي نحن بصدده إلا وهو هدم القلعة السلجوقية وبناء القلعة الأيوبية الباقية إلى اليوم والتي ستكون موضوع بحثنا في الفصول التالية.

ب- بناء القلعة السلجوقية

لم نجد في المصادر العربية العديدة من يروي لنا خبر بناء القلعة بشكل واضح، سوى المؤرخين المتأخرين أمثال ابن شداد في القرن السابع الهجري وابن كثير في القرن الثامن. أما المؤرخون الأقدم عهداً ممن عاصروا القلعة السلجوقية، كابن القلانسي وابن عساكر وابن الأثير، فمنهم من أهمل موضوع بناء القلعة ولم يشر إليه بشيء، ومنهم من أشار إليه عرضاً، كما فعل ابن عساكر لدى حديثه عن أبواب دمشق حيث قال عن القلعة: «أحدثت في غربي البلد في دولة الأتراك..[1]» وطبيعي أنه يقصد بالأتراك هنا السلاجقة.

---

(١) تاريخ دمشق، المجلد ٢، ص١٨٦.

أما ابن شداد فقد قال: «... ولم يبق بدمشق دار أمارة إلى أن ملكها تاج الدولة تتش سنة إحدى وسبعين وأربعمائة (١٠٧٨)، فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار أمارة وسكنها ...[١]».

وأما ابن كثير فقد قال في حوادث عام ٤٦٩/ ١٠٧٦: «وفيها كان ابتداء عمارة قلعة دمشق وذلك أن الملك المعظم «أتسز بن أوق» الخوارزمي لما انتزع دمشق من العبيديين[٢] في السنة الماضية، أسرع في بناء الحصن المنيع بدمشق في هذه السنة، وكان في مكان القلعة اليوم أحد أبواب البلد يعرف بباب الحديد، وهو الباب المقابل لدار رضوان فيها اليوم، داخل البركة البرانية منها، وقد ارتفع بعض أبرجتها فلم يتكامل حتى انتزع ملك البلد منه الملك المظفر تاج الملوك تتش بن الب أرسلان السلجوقي، فأكملها وأحسن عمارتها وابتنى بها دار رضوان للملك[٣] واستمرت على ذلك البناء في أيام الملك نور الدين محمود بن زنكي ...[٤]».

نلاحظ بأنه ليس بين النصين المتقدمين كبير اختلاف، ويمكن أن

---

(١) الأعلاق الخطيرة، ٢/ ٣٨. ورد في ترجمة تتش عند ابن عساكر (١٠/ ٤٣٤): أنه دخل دمشق، سنة ٤٧٢ وقتل سنة ٤٨٨.

(٢) العبيديون هم الفاطميون نسبة إلى مؤسس دولتهم عبيد الله (انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا).

(٣) لعل الصحيح هو: (دارا للملك رضوان). ورضوان هو أحد أولاد تاج الملوك تتش.

(٤) البداية والنهاية، ١٢/ ١١٤.

نستنتج منهما بأن يناء القلعة اكتمل على يد الأمير السلجوقي «تتش» الذي كان أول من من أقام بها واتخذها دار أمارة، بينما كان الأمير اتسز الخوارزمي هو أول من وضع المشروع وباشر ببناء بعض الأبراج في عام ٤٦٩/ ١٠٧٦ ولكنه قتل بعد عامين وقبل أن يكتمل أي يكتمل أي من هذه الأبراج.

جـ - موقع القلعة وحدودها

احتلت القلعة الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة (١)، ولعل السبب في هذا الاختيار هو الاعتماد على أسوار المدينة القديمة في الجهتين الغربية والشمالية، وبذلك يمكن الاكتفاء باحداث سورين آخرين لها في الجهتين الشرقية والجنوبية لعزلها عن المدينة كلياً. شاهدها الرحالة ابن جبير قبل هدمها ووصف لنا وضعها كمايلي: «ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بازاء باب الفرج. وعلى مقربة منها خارج البلد في جهة الغرب ميدانان والنهر بينهما (٢).

وقوله ازاء باب الفرج لايعني حتماً أن حدود القلعة الشرقية كانت تمتد إلى جوار الباب، وهو حالياً متصل بالقلعة لايفصله عنها

---

(١) انظر المخطط رقم ٦ الذي يبين أسوار المدينة وموقع قلعة دمشق منها.

(٢) الرحلة، ص٢٧٧، انظر المصور رقم (٥) في الملحق الخاص بالخرائط والمخططات.

سوى الطاحونة الحصينة. وباب الفرج هذا لم يكن موجوداً عند بناء القلعة السلجوقية، بل أحدثه نور الدين فيما بعد، ويبدو لي بأن القلعة السلجوقية كانت أقل امتداداً من ناحية الشرق من القلعة الحالية. فقد ذكر ابن عساكر في معرض حديثه عن باب الفرج، بأن بابا أحدث حين بناء القلعة في سور المدينة، وعرف بباب العمارة، ويقول بأنه سد، وأثره باق في السور[1].

وحينما نقل أبو البقاء هذا الخبر عن ابن عساكر علق عليه بما يلي: «ولما جدد الملك العادل أبو بكر بن أيوب القلعة أذهب باب العمارة[2]».

ومن ذلك نستطيع أن نستنتج بأن باب العمارة هذا كان يقع في السور بين القلعة السلجوقية وبين باب الفرج الحالي. وأن القلعة الأيوبية امتدت نحو الشرق فشملت باب العمارة وأذهبته، وبالتالي فإن القلعة السلجوقية كانت أقل امتداداً في هذه الجهة من القلعة الأيوبية التي حلت محلها فيما بعد.

أما حدود القلعة في الجهات الأخرى، فأنا لم نعثر على أي نص أو دليل يوضح لنا حدودها، ونرجح بأنها كانت لاصقة بسور المدينة من جهتي الشمال والغرب.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ٢/ ١٨٦.

(٢) نزهة الانام، ص٢٦.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار عناصر التحصينات السابقة للقلعة الأيوبية والمتبقية آثارها داخل زاويتها الشمالية الشرقية، فإن هذه العناصر يمكنها أن تعطينا الحدود الحقيقية للقلعة السلجوقية عند جهتيها الشرقية والشمالية. وسوف نناقش فيما بعد موضوع العصر الذي تنتمي إليه هذه العناصر وقد اعتبرها فاتزنجر وسوفاجه من العهد الروماني أو البيزنطي.

لقد عين سوفاجه في مخططه [1] العناصر الباقية لهذه التحصينات القديمة وكذلك فعل «كينك» [2]. وتتألف هذه العناصر من برج مستطيل صغير في الزاوية الشمالية الشرقية يتصل به من جهتيه بدنة شمالية وأخرى شرقية. تنتهي الشرقية كذلك بباب مماثل. ويقال أن هذين البابين كانا يتوسطان جبهتي القلعة كما هو مألوف في الحصون الرومانية.

وإذا تفحصنا حدود هذه التحصينات القديمة لاحظنا بأنها أقل امتداداً في هاتين الجهتين بحوالي ١٢ [3] متراً عن حدود القلعة الأيوبية.

---

(١) المخططان رقم (٣و١٠) في مجموعة المخططات.

(٢) انظر المخطط رقم (٤).

(٣) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٣٢٤.

د- خندق القلعة

حينما قرأنا خبر «مقتل الوزير حيدرة رئيس دمشق الذي ضرب عنقه في عام ٥٤٨/ ١١٥٣ في حمام القلعة ونصب على حافة الخندق [1] تأكد لدينا بأن القلعة السلجوقية كانت محصنة بخندق. ولكن تساءلنا هل المقصود بالخندق هنا خندق المدينة المحيط بالسور بسبب إحاطة جزء من هذا السور بالقلعة، أم أنه الخندق الذي يطوق القلعة من كل جهاتها؟ ولكن سرعان ما عثرنا على خبر يؤكد وجود خندق يحيط بالقلعة من كل جهاتها، وهو خبر توسعة الخندق الشرقي في أيام الملك العادل الأيوبي في مرحلة بناء القلعة الأيوبية. وطبيعي أن يكون الخندق الشرقي خاصاً بالقلعة ولاعلاقة له بسور المدينة. ويؤكد ذلك أيضاً عبارة: «باب جسر الخندق الشرقي» التي أوردها ابن القلانسي في معرض الحديث عن الأعمال التي استجدها في القلعة شمس الملوك اسماعيل في عام ٥٢٧/ ١١٣٢(٢٧).

إذاً فالقلعة السلجوقية كانت هي الأخرى محاطة بخندق، لاندري ماسعته وما عمقه؟ ونرجح أنه كان يملأ بالمياه وإن كنا لم نعثر بعد على نص يشير إلى ذلك صراحة.

هـ- أبواب القلعة وأسوارها

وأشهر هذه الأبواب هو «باب الحديد». وكان أحد أبواب سور

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣٩.

المدينة في هذه الناحية أي الناحية الشمالية الغربية، وظل اسم باب الحديد يطلق على باب القلعة الشمالي في أيام القلعة الأيوبية أيضاً. ذكر ابن عساكر باب الحديد كباب من أبواب المدينة، وأضاف: «هو الآن خاص بالقلعة. سمي بذلك لأنه كله حديد[١]»

ولأبي البقاء رأى آخر في أصل التسمية، فالاسم الأصلي في زعمه، الباب الجديد، ثم صحفته العوام بالحديد[٢].

ونعتقد بأن هذا التفسير ضعيف وليس هناك ما يؤيده. لاسيما أن اسم باب الحديد كان يأتي كثيراً في أخبار العهد الفاطمي. كما أن ابن عساكر شاهد الباب ووصفه بأنه كله حديد، بينما جاء أبو البقاء في وقت متأخر (القرن التاسع الهجري).

وكان لهذا الباب جسر على النهر، ورد ذكره كثيراً قبل بناء القلعة وبعد بنائها، بصفته أحد أبواب المدينة. روى «ابن تغري بردى» بأن هذا الجسر بني في عهد الداعي الفاطمي «ساوتكين» سنة ٤٠٨/ ١٠١٧ [٣]. وذكره كذلك ابن كثير لدى حديثه عن دخول صلاح الدين إلى القلعة قبيل وفاته [٤]. كما ذكره قبل ذلك ابن شداد[٥].

---

(١) المصدر السابق، ٢/ ١٨٤.

(٢) نزهة الأنام، ص٢٦.

(٣) النجوم الزاهرة، ٤/ ٢٤٢.

(٤) البداية والنهاية، ٤/ ٢٤٢.

(٥) قال: «مسجد عند عقب جسر الحديد تحت القلعة» (الأعلاق ص١٤٦).

ويحدثنا ابن القلانسي عن أبواب القلعة السلجوقية فيقول: «ومن اقتراحات شمس الملوك الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق، الأوسط منها، وباب جسر الخندق الشرقي منها، وهو الثالث لها أنشأهم في سنة خمسمائة وسبعة وعشرين، مع دار المسرة في القلعة والحمام المحدثة من شآمها على قضية اخترعها، وبينة اقترحها، فجاءت في نهاية الحسن والاعتدال، وفرغ في أوائل سنة خمسمائة وثمانية وعشرين[1]» وليس من السهل فهم هذا النص وما عناه ابن القلانسي بعبارته المعقدة ومصطلحاته الغريبة وقد تكون هناك كلمة أو كلمات ناقصة. ونرى من المستحسن قبل أن نبدأ في استنباط المعاني منه أن نستأنس برواية ابن شداد، حول هذا الخبر نفسه، ولعله نقله عن ابن القلانسي، ولكنه عرضه بأسلوبه الخاص، ولم يتقيد بعباراته الحرفيه.

قال ابن شداد: «.. جدد باب الحديد الأوسط بقلعة دمشق الذي يفتح شمالاً، وعمل جسر الباب الشرقي، وعمل جسر خشب، في وسطه باب يفتح ويغلق، ويشال الجسر متى أحب ذلك[2]».

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص٢٣٩.

(٢) الأعلاق، ص٣٨.

ونستنتج من هذين النصين المعلومات التالية :

آ- بالنسبة لنص ابن القلانسي : أحدث شمس الملوك في القلعة السلجوقية بالاضافة[1] إلى باب الحديد الموجود سابقاً، الباب الغربي، وهو الباب الأوسط بالنسبة لأبواب القلعة. وكذلك أحدث الباب الشرقي، وكان لهذا الباب جسر على الخندق.

والاشارة إلى أنه ثالث أبواب القلعة تعني وجود باب لها في الجهة الغربية، وهو الباب الأوسط المار ذكره.

ب- أما بالنسبة لنص ابن شداد : فالذي جدده شمس الملوك هو باب الحديد وهو الباب الأوسط بالنسبة لأبواب القلعة وهو في الجهة الشمالية منها، وعمل جسراً عند باب القلعة الشرقي، وعمل جسراً آخر من خشب متحركاً Pont- Levis وكان لهذا الجسر باب في وسطه. ومعنى ذلك أن الباب كان يصل بين القسم الثابت من الجسر وبين القسم المتحرك، لأنه من الصعب أن يكون الجسر بأكمله متحركاً، فوق خندق قدرنا عرضه بعشرين متراً.

ولكن ابن شداد لايوضح أين عمل هذا الجسر المتحرك. ألا أننا نرجح أن يكون عند باب القلعة الغربي. لاسيما وأن هذا الباب ظل مزوداً بباب متحرك حتى أواخر العهد المملوكي وقد وصفه أبو البقاء، كما سيأتي الحديث عنه في حينه. فضلاً عن أن جسر باب الحديد كان موجوداً قبل بناء القلعة، وهو جسر ثابت.

---

(١) أوحى بها إلينا الأستاذ الدكتور نيقولا زيادة فاستقام المعنى إلى حد ما.

وهكذا فإن أبواب القلعة السلجوقية، كانت ثلاثة: في الغرب والشمال والشرق.

نلاحظ أن ابن عساكر حينما يذكر أبواب القلعة لايعين أي باب يريد، وإنما يقول: باب القلعة[1]. ولابد أنه يقصد بذلك بابها الشرقي، لأنه الباب الرئيسي المفتوح إلى المدينة. ويؤيد ذلك استخدام المؤرخ أبي شامة التعبير نفسه دلالة على هذا الباب. يقول أبو شامة في خبر اخراج تابوت صلاح الدين من القلعة: «وأخرج من باب القلعة في البلد، على دار الحديث إلى باب البريد»[2]. ودار الحديث تقع خلف باب القلعة الشرقي من جهة المدينة.

وأخيراً إذا حاولنا التوفيق بين المعلومات التاريخية المتقدمة حول أبواب القلعة وبين العناصر المعمارية السابقة للقلعة الأيوبية التي ماتزال ظاهرة المعالم، كما أوضحها لنا «سوفاجه وكينك» في مخططهما المار ذكرهما، بصرف النظر عن العصر الذي ينسبان إليه هذه العناصر، نستنتج بأن باب القلعة السلجوقية الشمالي أو باب الحديد كان، كما هو مبين في هذين المخططين، يتوسط جبهة القلعة الشمالية، ويحف به برجان صغيران مربعان. وأن بابها الشرقي مماثل له أيضاً. وسوف نناقش في فقرة تالية موضوع تاريخ هذه العناصر

(١) تاريخ دمشق، ٢/ ٧٨.

(٢) كتاب الروضتين، ٢/ ٢١٤ الطبعة القديمة.

القديمة المشار إليها والتي ننسبها نحن إلى القلعة السلجوقية وينسبها سوفاجه وغيره إلى عصر أقدم.

هذه القطعة من السور المار ذكرها بأبراجها المربعة الصغيرة، هي كل ما تبقى من القلعة السلجوقية بعد هدمها وإقامة قلعة جديدة في مكانها أيام العادل الأيوبي. ويمكن أن نستنتج من شكل هذه القطعة بأن سور القلعة السلجوقية كان على شكل مستطيل يتوسط أضلاعه أبواب، وفي زواياه الأربع أبراج مربعة كالبرج المتبقي منها في الزاوية الشمالية الشرقية داخل القلعة الحالية (الشكل رقم ١٠). ونعتقد بأن السور كان مزوداً بأبراج مستديرة أيضاً أضيفت إليه أو جددت في عهد نور الدين وصلاح الدين، وذلك أسوة بأكثر أبراج سور المدينة الذي عمل على تجديده نور الدين وجعل كثيراً من أبراجه مستديراً، كما أن البرج الذي جدده صلاح الدين سنة ٥٧٤/ ١١٨٨ في الجانب الشمالي من القلعة كان كذلك مستديراً، بدليل الحجر الذي عثر عليه في عام ١٩٢٤ بين أنقاض تلك المنطقة[١]. فكان

---

(١) عثر على هذا الحجر المهندس الفرنسي «أوستاش دولوري» وأطوال هذا الحجر ٧٠×٦١سم وله إطار ينتهي من طرفيه بما يعرف بذيل السنونو، وهو الشكل المألوف في الألواح الحجرية التي تنقش عليها الكتابات التاريخية. والحجر المذكور محفوظ الآن في متحف دمشق الوطني (انظر الصورة رقم (١) في مجموعة الصور). يُرجع أيضاً إلى مقال فييت:

WIET: NOTE D'EPIGRAPHIE SYRO- MUSUL MAN, SYRIA, VOL,VII, P50

وجهه محدباً ويحمل كتابة تؤرخ تجديد البرج[1] وفيما يلي نصها:

١- جدد هذا البرج في أيام.

٢- مولانا الملك الناصر صلا.

٣- ح الدنيا والدين أو المظفر.

٤- يوسف بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

وبرج آخر مستدير عثرنا عليه في الجهة الغربية من القلعة داخل سورها الحالي قريباً من برج الزاوية الشمالية الغربية للقلعة الأيوبية (البرج رقم ٩)، نعتقد بأنه من بقايا القلعة السلجوقية[2].

لاشك أن أبراج القلعة السلجوقية كانت صغيرة الحجم بالنسبة لأبراج القلعة الأيوبية، ولم تكن تماثلها من حيث الحصانة. ويتأكد لنا ذلك من مقارنة أبراج القلعة الحالية بأبراجها المتبقية من القلعة السلجوقية، وكذلك بأبراج سور دمشق المعاصرة للقلعة السلجوقية، كبرج نور الدين المستدير الشكل الذي يعتبر أكبرها وأقواها[3].

ونستخلص من وضع أبراج القلعة السلجوقية بأنها لم تكن

---

(١) أعطينا لهذا النص رقم (١) في لائحة الكتابات (الملحق رقم ١).

(٢) انظر المخطط رقم (١٢).

(٣) يقع هذا البرج في السور الغربي لمدينة دمشق ممايلي باب الجابية باتجاه الجنوب في المحلة المعروفة اليوم بالسنانية.

صالحة للسكن كما هو حال الأبراج الأيوبية، بل كانت هناك دور خاصة داخل القلعة مستقلة عن سورها، يعول عليها في ذلك، وقد تحدثت عنها المصادر التاريخية.

و- المباني العامة والخاصة في القلعة السلجوقية

حصلنا من المصادر التاريخية على معلومات تتعلق بدور وحمامات ومساجد كانت موجودة في القلعة السلجوقية سنلخصها فيما يلي:

دار رضوان:

بناها «تتش» بن آلب أرسلان لابنه رضوان[1]. وظلت تحتفظ بهذا الاسم كأشهر دور القلعة طوال حياة القلعة السلجوقية وبعدها، وكان موقعها، كما حدده ابن كثير، مقابل باب القلعة الشمالي، ويقول خلال حديثه عن باب الحديد: «وهو الباب المقابل لدار رضوان فيها اليوم» ونفهم من كلمة اليوم أنها كانت موجودة في أيامه (القرن الثامن الهجري).

ويذكر ابن شداد بأن هذه الدار رممت وجددت في أواخر العهد

(١) أصبح ملكاً على حلب بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٨هـ- وتوفي فيها سنة ٥٠٧. ولكنه عاش في دمشق وترعرع فيها في حياة والده.

(٢) البداية والنهاية، ١٢/ ١١٤.

(٣) الأعلاق، ص٣٧, ٢٩.

الأيوبي. «جددها الناصر صلاح الدين (الثاني) (الذي حكم دمشق سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠) بعد أن سقط روشنها»[١].

ونعتقد استناداً إلى ما توفر لدينا من معلومات بأن هندسة هذه الدار كانت على شاكلة المباني ذات الأواوين المطلة على باحة سماوية والتي شاعت في دمشق منذ دخول السلاجقة. يقول أبو شامة في خبر وفاة نور الدين «وأخرجوا ولده الملك الصالح اسماعيل وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش»[٢]. وقال أيضاً في خبر وفاة صلاح الدين: «وجلس الملك الأفضل [٣] للعزاء في الايوان الشمال». وجلس الأفضل في دار رضوان المعروفة بسكنه لتحليف الناس. ويقول في مكان آخر: «قال القاضي ابن شداد ودخلت إلي الايوان القبلي وقدموا الطعام [٤]». ويذكر ابن القلانسي في أخبار العهد السلجوقي قبة تعرف بقبة الورد كقاعة شهيرة من قاعات دار القلعة [٥]. نعتقد أن تكون الدار المقصودة هي دار رضوان، فهي الدار الرئيسية في القلعة.

---

(١) لاندري ماذا أريد هنا بالروشن، ولكن هذه الكلمة استخدمها بعض المؤرخين القدماء بمعنى الشرفة الدفاعية وقد استعملناها كمصطلح مقابل العنصر المعماري المسمى بالفرنسية Breteche كما سيأتي (انظر لائحة المصطلحات- الملحق رقم ٣).

(٢) كتاب الروضتين، الطبعة القديمة، ١/ ٢٣٠.

(٣) هو أكبر أولاد صلاح الدين وولي عهده واسمه نور الدين علي، توفي سنة ١٢٢٥/٦٢٢.

(٤) كتاب الروضتين، المصدر السابق، ٢/ ٢١٢.

(٥) المصدر السابق، ص٢٢٣.

دار المسرة:

أنشأها شمس الملوك اسماعيل سنة ٥٢٧/ ١١٣٢ كما رأينا قبل قليل لدى الحديث عن أبواب القلعة فيما نقلناه عن ابن القلانسي بينما ينسب ابن شداد[١] بناءها إلى السلطان نور الدين في أعقاب زلزال عام ٥٦٥/ ١١٦٩ الذي ألحق أضراراً بالقلعة كما حدثنا ابن كثير. يقول في حوادث هذا العام: «حدث زلزال عظيم في الشام وسقطت أسوار دمشق وأكثر قلعتها فجدد نور الدين عمارة أكثر ما وقع»[٢]. ولقد ظلت دار المسرة قائمة هي أيضاً بعد زوال القلعة السلجوقية. فجدد بناءها الملك الأشرف موسى سنة ٦٢٦/ ١٢٢٨ كما ذكر ابن شداد[٣].

هاتان هما الداران الشهيرتان في قلعة دمشق. وقد ذكر ابن كثير دارا أخرى بناها «ابن المقدم» نائب صلاح الدين في دمشق، وذلك في معرض حديثه عن قلعة دمشق: «فلما كان الملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب، جدد فيها شيئاً، وابتنى ابن المقدم فيها داراً هائلة للمملكة[٤]».

وحدثنا أبو شامه أيضاً عن بيت من الخشب بناه نور الدين في القلعة بازاء داره سنة الزلزال ليأمن على نفسه، وصار يبيت فيه ويخلو لعبادته ولا يبرحه. وقد توفي فيه[٥].

---

(١)- انظر الأعلاق، ص٣٧.
(٢)- البداية والنهاية، ١٢/ ١٦١.
(٣)- الأعلاق، ص٣٩.
(٤)- البداية والنهاية، ص١٢/ ١١٤.
(٥)- كتاب الروضتين، ٢/ ٢١١، الطبعة القديمة.

المساجد:

وأهمها مسجد كبير بناه نور الدين، كما قال ابن عساكر، وكانت فيه منارة وبركة، وعلى بابه سقاية (سبيل ماء) وله أمام ومؤذن ووقف[1] وكانت تقام فيه صلاة الجمعة كما روى ابن جبير[2] الذي زار دمشق في عهد صلاح الدين، وسمى الجامع بجامع السلطان.

ويذكر ابن عساكر[3] مساجد أخرى صغيرة في القلعة، هي: «مسجد في الدركاه لطيف سفل[4] انشاء نور الدين». ومسجد داخل باب القلعة معلق تحته سقاية، ومسجد آخر قبلي القلعة فيه عريش، وله إمام، يقال إنه مسجد الضحاك[5] بن قيس».

ولعل مكان مسجد الدركاه عند باب القلعة الشرقي.

---

(١) تاريخ دمشق، ٢/ ٧٨.

(٢) الرحلة، ص٢٧٧.

(٣) تاريخ دمشق، ٢/ ٧٨.

(٤) الدركاه معناها البهو الذي يلي الباب، والسفل يعني أن الجامع مبني في الطابق الأرضي بعكس المعلق الذي يرتفع عن مستوى الأرض.

(٥) الضحاك زعيم من زعماء العرب المشهورين في العهد الأموي، وهما اثنان: الأول يشتهر بالاحنف، عاصر معاوية وتوفي بالكوفة سنة ٦٧ للهجرة (وفيات الأعيان ٢/ ١٨٦).

والثاني الأحنف بن قيس الفهري، عاصر مروان بن الحكم وتزعم القيسيين في معركة مرج راهط.

الحمامات:

مر معنا في النص المتقدم المتعلق بأبواب القلعة الذي نقلناه عن ابن القلانسي[1] خبر الحمام الذي بناه شمس الملوك في شمالي القلعة سنة ٥٢٨/ ١١٣٣، وقد يكون هو نفسه الحمام الذي ذكره بعد ذلك ابن عساكر في عداد حمامات دمشق[2]. ويحسن أن نشير إلى أنه لاوجود لهذه الدور والحمامات والمساجد في القلعة القائمة حالياً، باستثناء جامع أبي الدرداء الذي يخص القلعة الأيوبية وسوف يأتي الحديث عنه في حينه.

طاحونة القلعة:

قال ابن عساكر وهو يتحدث عن دار حبيب بن مسلمة الواقعة على نهر بردى بأنها عند «طاحونة الثقفيين، يعني طاحونة القلعة»[3]. وكلمة الثقفيين اسم لمحلة تعرف بحصن الثقفيين أو قصر الثقفيين، كانت معروفة قبل بناء القلعة، وتمتد داخل باب الفرج وعلى جانب من موقع القلعة. وسوف يأتي الحديث عنها في مكان آخر من هذا الفصل. وقوله طاحونة القلعة قد لايعني بالتأكيد أن الطاحونة تقع داخل القلعة. وقد يكون مكانها حيث توجد اليوم طاحونة المناخلية الواقعة بين القلعة وباب الفرج[4] وهي طاحونة قديمة، يدل طراز

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص٢٣٩.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ١٦٢.

(٣) المصدر السابق،، ٢/ ١٤٠.

(٤) المخططان ٥ و١١ في الملحق رقم (٥).

بنائها على أنها من العهد الأيوبي. ونرجح أن تكون هي الطاحونة المقصودة، وكانت تعرف بطاحونة الثقفيين فلما بنيت القلعة السلجوقية في هذه المحلة تغير اسمها وأصبحت تعرف بطاحونة القلعة.

ز- مياه القلعة

كانت تتزود القلعة بالمياه لدورها ومساجدها وحماماتها والسقايات والبرك التي فيها، وربما لملء الخندق المحيط بها. فمن أين تأتيها المياه؟ لاشك أن مصدرها نهر بردى وفروعه. إن نهر بانياس اليوم يدخل القلعة من قرب بابها الغربي ضمن قناة أرضية ثم يتفرع إلى فرعين، الأول يتجه نحو الشرق ويخرج من تحت سور القلعة الشرقي، والثاني يتجه نحو الجنوب ويخرج من تحت سورها الجنوبي. وكان في القلعة حتى وقت قريب بركتان تمتلئان من نهر بانياس وتفرغان مياههما في القناة المارة خارج سور القلعة الشمالي. وقد تبين لي بأن هذه القناة التي تسمى خطأ قناة بانياس[1] ليست من مياه بانياس، وإنما تتفرع من نهر بردى الرئيسي عند ساحة المرجة فتملأ خندق القلعة الشمالي، ثم تدير رحى طاحونة القلعة المار ذكرها، وتتجه في أحياء دمشق وتظهر مكشوفة عند «زقاق بين السورين» ثم تظهر من جديد في أسفل سور المدينة بين باب السلام وباب توما (جادة الفرايين)، وتعرف هنا بنهر عقربا أو العقرباني.

---

(١)- في مصور «كينك»، المخطط رقم ٤، وفي أكثر المصورات الموضوعة عن دمشق، (انظر المخطط رقم ١).

هذه القناة كانت موجودة من أيام ابن عساكر وقبيل بناء القلعة الأيوبية وقد سماها بالنهر المجدول [١]. وسماها أبو البقاء [٢] في العهد المملوكي بنهر الصالح الشيخ رسلان بسبب مرور هذه القناة بحذاء قبره وجامعه الكائن شرقي السور.

نعتقد بأن نظام المياه الخاص بالقلعة الأيوبية، كان قائماً أيضاً على عهد القلعة السلجوقية التي نحن بصددها. لقد حدثنا ابن عساكر عن قناة في القلعة عند الباب، وأخرى قبلي القلعة [٣]. (ونكرر هنا بأن القلعة بالنسبة لابن عساكر هي القلعة السلجوقية دائماً لأنه توفي قبل هدمها). ونرجح أن يكون المقصود بهاتين القناتين فرعا نهر بانياس اللذان تحدثنا عنهما قبل قليل. فقناة باب القلعة تمثل الفرع المتجه نحو الشرق حيث باب القلعة الرئيسي، والقناة القبلية تمثل الفرع المتجه نحو سورها الجنوبي.

ويحدثنا أبو شامة عن نهر كان يدخل القلعة من الشمال في عهد نور الدين حيث يقول: «كانت لنور الدين صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال[٤]». ربما ظل هذا الوضع مستمراً إلى عهد أبي شامة في القلعة الأيوبية التي عاصرها. ويجب أن نفهم من عبارة من الشمال، أن الدار كانت تقع شمالي النهر

---

(١) انظر ابن عساكر - المصدر السابق، ٢/ ٨١، ٨٢/ ٧٨.

(٢) نزهة الأنام، ص٦٥.

(٣) تاريخ دمشق، المصدر السابق، ٢-١٥٦.

(٤) كتاب الروضتين، المصدر السابق، ١/ ٢٢٨ قديمة.

الداخل إلي القلعة، لأنه لايوجد سوى نهر بانياس يدخل القلعة ولكن من الغرب لامن الشمال.

هذا التوزيع للمياه سواء كان خاصاً بالقلعة السلجوقية أم بالقلعة الأيوبية، فإن الغرض منه كان تزويد القلعة بالمياه النظيفة من جهة، وتحصين القلعة بملء خندقها بالمياه من جهة أخرى. فدخول مياه بانياس إلى القلعة وتفرعها إلى فرعين أحدهما يتجه للجنوب والآخر للشرق، كان الغرض منه ملء الخندق في جهاته الغربية والجنوبية الشرقية. بينما كان النهر المجدول المار بمحاذاة السور الشمالي يؤلف حاجزاً طبيعياً في هذه الناحية.

وكان في القلعة آبار يلجأ إليها عند انقطاع مياه بردى بسبب الحصار أو لاسباب أخرى. تحدثت المصادر عن وجود مثل هذه الآبار في القلعة الأيوبية كما سنرى، ونرجح أن تكون هذه الآبار موجودة من قبل. وكل ما عثرنا عليه من ذكر لآبار القلعة السلجوقية هو الخبر التالي الذي رواه ابن القلانسي: «في عام ٥٠٢/ ١١٠٨ اعتقل الوزير الأصفهاني في القلعة ثم أمر بخنقه، ورمي في جب القلعة ثم أخرج ودفن [1]».

ح- الدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته القلعة السلجوقية:

أعطتنا اللمحة التاريخية التي وضعتها في بداية هذا الفصل فكرة عامة عن الفترة التاريخية التي عاشتها القلعة السلجوقية.

---

(١)- ذيل تاريخ دمشق، المصدر السابق، ص١٦٣.

وحددت هذه الفترة الدور الهام والخطير الذي لعبته القلعة ليس بالنسبة لدمشق وحدها، بل بالنسبة لمنطقة الشرق العربي الاسلامي عامة. ولم يكن دورها وقتئذ يقل شأناً عن دور القلعة الأيوبية التي تلتها. ويكفي للتدليل على أهمية القلعة السلجوقية أن تكون مقر السلطانين العظيمين نور الدين وصلاح الدين، كي تستقطب في داخلها كل نشاط سياسي وعسكري واجتماعي، ليس في عهدهما فقط بل في عهد كل الملوك والامراء من سلاجقة وأتابكة.

إنها لحقبة تاريخية على جانب من الخطورة تلك السنوات التي حفلت بأعظم صراع دار بين الشرق والغرب، وعرفت أشد المعارك في الحروب الصليبية، كما عرفت حركة توحيد جانب هام من العالم العربي والدفاع عنه وتهيئة طاقاته لمعارك التحرير وبناء النهضة.

ولاشك أن قلعة دمشق كانت في ذلك العصر مركز كل هذه الحركات والنشاطات المتنوعة. ومن داخلها كانت تصدر الأوامر ويخطط للمشاريع العمرانية والثقافية والحربية.

لقد رأينا عند الحديث عن بناء القلعة بأن الهدف من بنائها كما عبر عنه المؤرخون يتلخص في أمرين:

الأول- أن تكون دار أمارة، أي مقراً للحكم والحكام.

الثاني- أن تكون حصناً ومعقلاً.

فمن الناحية الأولى، نلاحظ فرقاً كبيراً بين ظروف حكام دمشق في العهدين العباسي والفاطمي من حيث كونهم ولاة قادمين

من بغداد أو القاهرة خاضعين لأسيادهم في هاتين العاصمتين، وكان أهل دمشق ينظرون إليهم على أنهم غرباء وحكام مؤقتون، يسود علاقتهم بهم جو من عدم الرضى والفتن والثورات[١]، وبين حكام دمشق بعد ذلك في عهد دولة الأتابكة وعهد نور الدين وصلاح الدين. ومن ملاحظة الاختلاف في الظروف بين الفريقين ندرك السبب في وجود قصر الولاة أو دار الأمارة في عهد الحكام الأول خارج المدينة[٢]، بينما عمد الآخرون للإقامة داخل المدينة وبين أهلها، كما فعل من قبلهم خلفاء بني أمية[٣]. وها هو قصر حكام دمشق (دار الامارة) يظهر ثانية داخل المدينة على هيئة قلعة حصينة.

لقد أصبح حكام دمشق مستقلون، يصدرون عن ارادتهم في الحكم، ولايدينون بالتبعية لخلافة بغداد إلا من الناحية الروحية، أما من الناحية السياسية فكان ولاؤهم لسلطان بغداد السلجوقي شكلياً، يُصدر مرسوماً (منشور بلغة العصر) بالولاية كلما مات حاكم وتولى حاكم جديد[٤].

وكان حكام دمشق في هذه الفترة دائمو الاقامة في دمشق،

---

(١) انظر الفصل الأول من كتابنا مدينة دمشق.

(٢) انظر مقالنا: قصور الحكام في دمشق، القسم الأول، المجلد ٢٢ لعام ١٩٧٢ من مجلة الحوليات الأثرية السورية.

(٣) كان بنو أمية يقيمون في «الخضراء» قصر معاوية الواقع إلى الجنوب من الجامع الأموي، انظر المصدر المتقدم ذكره في الحاشية لسابقة.

(٤) راجع «المنشور» بولاية ظهير الدين طغتكين في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، الصفحات ١٩٣-١٩٧.

يتولون الحكم فيها مدى الحياة ويورثونه لأولادهم من بعدهم. وهذا الوضع الجديد لحكام دمشق يستتبع أن لايكونوا بعيدين عن الشعب، بل على صلة وثيقة به وأن يعيشوا بين ظهرانيه. ويؤكد حقيقة هذه الظاهرة ومغزاها عدم قيام ثورات ضد الحكام خلال هذه الفترة كما كان يحدث في العهدين السابقين العباسي والفاطمي. ومن الطبيعي أن يقوم في القلعة، كقصر للسلطان، عدد من المنشآت والمباني العامة والخاصة، كالحمام والمسجد والمدرسة وقاعة الاجتماعات والدواوين وخزائن السلاح ودور الامراء ودار الضيافة ومساكن الحاشية والحرس.

أما الهدف الثاني لبناء القلعة وهو اتخاذها حصنا ومعقلاً، فسوف يتضح لنا من خلال الدور الحربي الذي لعبته القلعة السلجوقية، الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

ويحسن بنا الآن ما دمنا في صدد الحديث عن دور القلعة السياسي أن نستعرض أهم النشاطات والأحداث التي عرفتها القلعة السلجوقية منذ تاريخ بنائها في عام ٤٦٩-١٠٧٦ إلى أن هدمت في عام ٦٠٧/ ١٢١٠.

كان أول من سكن القلعة من الملوك والسلاطين، تاج الدولة «تتش» ثم ابنه شمس الملوك «دقاق» ثم سائر من حكم دمشق من الأتابكة والملوك. وكان يقيم مع هؤلاء الحكام بالطبع أهلوهم وخدمهم وحواشيهم.

ولقد هيأ فيها شمس الملوك «دقاق» قاعة يوضع فيها كرسي الملك أو كرسي العرش أطلق عليه «التخت» و«الدست» وهما كلمتان فارسيتان. ذكر هذا التخت أو العرش ابن القلانسي في حوادث عام ٥٠٧/ ١٢١٣ قال: «قصد ملك حلب آلب أرسلان (حفيد تتش) دمشق فاستقبله الأتابك ظهير الدين وأدخله إلى قلعة دمشق وأجلسه في دست عمه شمس الملوك «دقاق»، وقام هو والخواص في خدمته[1]». ولكن أبا شامة ينسب هذا الدست إلى تاج الدولة تتش، يقول: «ولما توفي نور الدين أخرجوا ولده الملك الصالح اسماعيل ولما يبلغ الحلم وأجلسوه في الايوان الشمالي في الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش[2]».

وكان للقلعة منذ نشأتها قيم خاص سمي في عهد الأتابكة «متولي القلعة» ذكرلنا الذهبي خبرا عنه في حوادث ٤٨٨/ ١٠٩٥ أي في أيام شمس الملوك دقاق ابن تتش فقال: «... متولي قلعة دمشق الخادم ساوتكين[3]».

وفي عهد نور الدين يظهر لقب «نائب القلعة»[4] ليظل مستعملاً في كل العهود اللاحقة. إننا لم نعثر سوى على عدد قليل من الأسماء لنواب قلعة دمشق في هذه الفترة، ذلك لأن دورهم كان

(١)-ذيل تاريخ دمشق، ص١٩٠.

(٢)-كتاب الروضتين، الطبعة القديمة، ١/ ٢٣٠.

(٣)- سير أعلام النبلاء، ٣/ ٣١٩، طبعة الكويت، ١٩٦١.

(٤)- انظر البداية والنهاية، ١٣/ ٧١.

ثانوياً بالنسبة للقلعة نظراً لتركيز الاهتمام وقتئذ على السلطان أو الحاكم المقيم في القلعة. ومن هؤلاء النواب الذين ذكرت المصادر أسماءهم، الخادم ساوتكين المتقدم ذكره. والطواشي ريحان[1] الذي كان نائباً للقلعة عندما استولى عليها صلاح الدين، كما سيأتي شرحه بعد قليل، وعز الدين والي القلعة أيام نور الدين، ذكره أبو شامة في حوادث سنة ٥٥٤/ ١١٥٩[2].

وكانت القلعة منذ نشأتها تشهد اجتماعات رسمية للأمور الخطيرة كانت تعقد في «قبة الورد» الشهيرة، يحضرها القواد والأمراء والأعيان من العرب والأتراك. وكان يجري فيها حفل تقليد الوزارة، وصف هذا الحفل ابن القلانسي[3] فكان الوزير يستدعى من داره إلى القلعة لتشريفه بالخلع الثمينة ويعود منها بالمواكب الحافلة.

وكان يعتقل السياسيون والشخصيات الخطيرة في قلعة دمشق. نذكر من هؤلاء: الأمير مجاهد الدين «بزان»[4] صاحب قلعة صرخد، اعتقله الاتابك مجير الدين عام ٥٤٨/ ١١٥٣[5]. كذلك اعتقل فيها الوزير هبة الله الأصفهاني في عام ٥٠٢/ ١١٠٨ من قبل

---

(١) انظر ابن كثير، ١٢/ ٢٨٨.

(٢) انظر كتاب الروضتين، الطبعة القديمة ١/ ١٢٢.

(٣) المصدر السابق، الصفحات ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٦.

(٤) من الشخصيات الهامة في عهد الأتابكة ونور الدين، توفي سنة ٥٥٥/ ١١٦٠، وله في دمشق مدرستان تنسبان إليه. انظر ترجمته في الروضتين، الطبعة القديمة، ١/ ١٢٣.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢٤.

الأتابك ظهير الدين [١]. كما كانت تنفذ في القلعة أحكام الاعدام بالمعتقلين والشخصيات السياسية.

وكان صلاح الدين يعتقل في قلعة دمشق أسرى الفرنج من الملوك والفرسان [٢]. ومن غريب ما وقع في القلعة من الأحداث، اغتيال اثنين من ملوك الأتابكة بالرغم من الحراسة المشددة. فقد اغتيل فيها تاج الملوك بورى بن ظهير الدين في عام ٥٢٥/ ١١٣٠، هاجمه اثنان من الباطنية المندسين في خدمته، مرسلين من قبل زعماء الباطنية في قلعة «الموت» الكائنة في خراسان [٣].

واغتيل فيها كذلك ابن تاج الملوك بوري المتقدم ذكره وهو شهاب الدين محمود. اغتاله في فراشه سنة ٥٣٣/ ١١٣٨ ثلاثة من غلمانه كانوا يبيتون حول سريره في داره بالقلعة [٤].

لقد حفلت القلعة في أيام نور الدين بنشاط ديني ملموس. فبنى فيها جامعاً كبيراً تقام فيه صلاة الجمعة كما ذكرنا، وجعل فيه مدرسة [٥].

ويحدثنا أبو شامة عن النشاط الديني والثقافي في أيام نور الدين فيقول: «واظب نور الدين على عقد مجالس الوعاظ ونصب الكراسي لهم في القلعة للانذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري [٦]».

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٣

(٢) البداية والنهاية، ١٢/ ٣٠٢.

(٣) ابن القلانسي، ص٢٣٠

(٤) المصدر السابق، ص٢٦٨.

(٥) انظر الأعلاق الخطيرة لابن شداد، ص٢١٨.

(٦) كتاب الروضتين، الطبعة القديمة، ص١/ ١١.

ويدخل في عداد هذا النشاط واستمراره ما حدث في أيام الملك الأفضل ابن صلاح الدين من عقد مجالس المناظره بين الفقهاء في القلعة في عام ٥٩٠/ ١١٩٣ بحضور نائب القلعة [١].

وبدأت في عهد نور الدين عادة ضرب الطبل في القلعة في ساعات الليل المختلفة، أمر بذلك نور الدين لايقاظ النيام لصلاة الفجر [٢]. وسوف تتأصل هذه العادة في العهود اللاحقة، وتستخدم «دقة القلعة» في العهد المملوكي للتوقيت الليلي، كما سيأتي الحديث عنها تفصيلاً في الفصل الثالث.

وهكذا نرى بأن القلعة تستقطب كل النشاطات، وتصبح في عهد نور الدين دار مُلك متكاملة. وقد لاحظ ذلك ابن القلانسي وهو يروي خبر أمر أصدره نور الدين في عام ٥٥٢/ ١١٥٧ لزينة البلد والقلعة فقال معبراً عن أهمية القلعة: «وأمر مع ذلك بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الافرنجية والقنطاريات والأعلام والمنجنيقات والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفة مدة سبعة أيام [٣]».

ط- الدور الحربي للقلعة

لم يكن الدور الحربي للقلعة السلجوقية على جانب من الأهمية كدورها السياسي فهي على عكس القلعة الأيوبية اللاحقة، لم تشهد حصاراً بالمعنى الصحيح، ولم تطوق من قبل العدو ولم

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٧١.

(٢) المصدر السابق، ١٢/ ٧٩.

(٣)- ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣٨.

تقصف بالمنجنيقات. وبالرغم من أنها عاصرت أخطر مراحل الحروب الصليبية، فإنها لم تقم بأي دور حربي أثناء حصار دمشق، بينما سيكون للقلعة الأيوبية دور حربي هام وفعال في كل عملية حصار تلقاها دمشق، من المغول وغيرهم. فنراها تذوق مرارة القصف والتدمير، وذل الاستسلام تارة، ولذة النصر والصمود تارة ثانية.

نستطيع أن نستنتج من ذلك أن القلعة السلجوقية لم تكن تتمتع بحصانة خاصة تميزها عن حصانة أسوار المدينة، وأنها لم تكن أكثر من قصر للامارة وثكنة واسعة، تقبع وراء أسوار المدينة الشمالية والغربية، ولذلك لم يكن يعول عليها في تحصن وامتناع، ولم تكن تبتغي في حصار واستيلاء.

ويحسن أن نستعرض مع ذلك حالات الحصار العديدة التي واجهتها دمشق، والتجربة التي مرت بها القلعة خلالها.

أما بالنسبة للعدوان الصليبي، فقد حوصرت دمشق مرة واحدة طيلة فترة الحروب الصليبية كما رأينا في بداية هذا الفصل، وذلك في عام ٥٤٣ (تموز ١١٤٨). ولقد احتلت جيوش الفرنج في البدء داريا والمزة والربوة في ضواحي المدينة، وحاولت التقدم نحو أسوارها الغربية، ولكن كثافة البساتين وأسوار اللبن المحيطة بها سهل على المقاتلين الدمشقيين التحصن وراءها بحيث لا يراهم العدو، وحال ذلك دون تمكن فرسان الصليبيين من التغلغل داخل البساتين والاقتراب من الأسوار، ثم آل الأمر إلى انتقالهم للاحاطة بأسوار المدينة في الشرق والجنوب. وقد لاحظوا الخطأ الذي ارتكبوه بسبب

ماتتمتع به هذه الأسوار من متانة لايمكن اختراقها، فكان ذلك من أسباب يأسهم وتخليهم عن فكرة الحصار بعد خمسة أيام فقط(١).

أشار «فييت»(٢) كما تقدم معنا خلال دراسته للنص المتعلق بترميم أحد أبراج القلعة من قبل صلاح الدين، بأن هذا الترميم حدث في ذي القعدة من عام ٥٧٤ (نيسان ١١٧٤) إثر معركة مع الفرنج. ولكن في هذا التاريخ لم تحدث أية معركة في دمشق مع الصليبيين، وبعد مراجعة المصادر العربية والأجنبية، تبين أن الذي حدث في هذا التاريخ بالفعل هو أن صلاح الدين كان في قلعة دمشق وبلغه تجمع الفرنج فأرسل ابن أخيه «فرخشاه» يستجلي الخبر، فالتقى بهم عند احراش بانياس وكانوا بقيادة الملك «بلدوين» «Baldwin» فانتصر عليهم وقتل في المعركة صاحب الناصرة المدعو «بالهنفري «Hanfry» واسمه في المصادر الفرنسية Onfroi de Toron ويعتبر من أشهر ملوك المنطقة المحتلة وأشجع فرسانها كما وصفه ابن كثير(٣). وتلت هذه الموقعة في العام نفسه معركة مرج عيون(٤) عند طبريا، حدثت في ٩

---

(١) انظر ابن القلانسي، ص٢٩٨. وانظر أيضاً:

S.Runciman:A History of the crusaaes,P.281-285

R.Grousset:Histoire des Croisades, T.II,P.255-266

(٢) المصدر المذكور في الحاشية (٢٨) من هذا الفصل.

(٣) البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٠. انظر عن هذه المعركة أيضاً:

a)Runciman,op.cit.T.II,P.418

b)Grousset:op.cit.,T.II,P.667

(٤) وهي «مرج عيون» المعروفة اليوم في الأرض اللبنانية شمالي طبريا، تبعد عنها خمسين كيلومتراً.

حزيران ١١٧٤، وقادها صلاح الدين بنفسه وانتصر فيها واسر عدداً من ملوك الفرنج بينهم ثلاثمائة من فرسان القدس أرسلهم صلاح الدين ليعتقلوا في قلعة دمشق[١]. ويروي أبو شامة بأن صاحب الرملة Baudoin De Ramla افتدى نفسه بمبلغ (١٥٠) ألف دينار صورية (نسبة لمدينة صور)، وأما صاحب طبريا (Hugue de Ttberiade) فقد افتدته أمه دوقة طرابلس بمبلغ (٥٥) ألف دينار[٢].

أما حالات المجابهة الأخرى فنذكر منها الحوادث التالية:

الحادثة الأولى:

حصار دمشق من قبل عماد الدين زنكي صاحب حلب في عام ٥٣٤/ ١١٣٩ وصل جيشه إلى أسوار دمشق وتجمع الناس على الأسوار، نشبت الحرب بينه وبين عسكر دمشق الذين فتحوا الأبواب وخرجوا خيالة ورجاله لحربه[٣].

ويلاحظ أن الدور الحربي في الحصار كان لأسوار المدينة. ولم يكن للقلعة أي دور يذكر.

الحادثة الثانية:

وقعت في عام ٥٤٤/ ١١٤٩ فتنة سببها نزاع بين ملك دمشق

---

(١) انظر البداية والنهاية، ١٢/ ٣٠٢، وانظر أيضاً:

Grousset:op.cit. ,T.II,P.667

(٢) انظر كتاب الروضتين، الطبعة القديمة، ٢/ ٨

(٣) ابن القلانسي، ص ٣٧١, ٣٧٣.

مـجيـر الدين وبين رئيس دمـشق (١) مـؤيد الدين المسيب. فـأثار هذا الأخير الأحداث (٢) والغوغاء (على حد تعبير ابن القلانسي). وجمع الكثير من الأجناد والمقدمين والفلاحين، فكسروا السجن وأطلقوا من فيه واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحصر من بها ونشبت الحرب بين الفريقين (٣). وهدأت الثورة عندما بادر «مجير الدين» إلى استبعاد شحنة دمشق من بين خواصه، ارضاء للثوار، وعمد إلى التقرب منهم باعادة رئيس دمشق إلى منصب الوزارة وخلع عليه وعلى أخيه الخلع الفاخرة.

الحادثة الثالثة:

حينما احتل نور الدين دمشق في عام ٥٤٩/ ١١١٥٤، حاصر المدينة من جهة باب شرقي وباب كيسان الكائن في السور الجنوبي، وتمكن بمساعدة الأهلين من فتح باب شرقي وباب توما وتم احتلال المدينة دون مقاومة تذكر. إلا أن مجير الدين صاحب دمشق انهزم مع خواصه إلى القلعة، ولكنه لم يقو على المقاومة وطلب الأمان فأمنه نور الدين وسمح له باخراج ماله من مال وأثاث ثم دخل القلعة واستقر فيها. ويضيف ابن كثير على هذا بأن العامة حاصرت مجير الدين في القلعة مع وزيره مؤيد الدولة لسوء سيرته قبل قدوم نور الدين لحصار دمشق (٤).

---

(١) زعيم من زعماء البلد والمتنفذين فيها، وكان يمارس شؤون الوزارة وديوان القلعة.

(٢) الأحداث منظمة شعبية شبه عسكرية كانت قائمة في أكثر المدن السورية في العهد السلجوقي، وقبله بشكل خاص. (انظر: سهيل زكار: مدخل إلى الحروب الصليبية من ٨٠-٨٣).

(٣) ابن القلانسي. ص٣٠٧.

(٤) ابن القلانسي ص٣٢٧، وابن كثير ١٢/ ٢٣١.

الحادثة الرابعة:

حينما قدم صلاح الدين من مصر بعد وفاة نور الدين لأخذ دمشق في عام ٥٧١/ ١١٧٥، دخل دمشق دون حصار، وبقيت القلعة مستعصية وكان نائبها آنذاك «الطواشي ريحان» فكاتبه صلاح الدين وأغراه بالمال حتى سلمها إليه[1].

الحادثة الخامسة:

حوصرت دمشق في أيام العادل أبي بكر سنة ٥٩٥/١١٩٨، من قبل أولاد أخيه صلاح الدين. وكان العادل في القلعة (نقصد بها القلعة السلجوقية القديمة). وكسر المحاصرون باب السلامة ثم حاصروا باب الفراديس فخرج إليهم العادل يحاربهم، ولم يقم بالاعتصام داخل القلعة[2].

ي- القلعة السلجوقية هي أول حصن عرفته دمشق

تحدث علماء الآثار الذين عالجوا موضوع قلعة دمشق في كتبهم وأبحاثهم عن حصن كان موجوداً في مكان القلعة الحالية التي شيدها الملك العادل الأيوبي. وأول هؤلاء «فاتزنجر وفولزنجر[3]» اللذان نشرا كتاباً عن مدينة دمشق في جزأين، وتحدثا في الجزء الأول منه

---

(١) ابن كثير، ١٢/ ٢٨٨.

(٢) النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٨.

(٣) سنرمز بعد الآن إلى اسميهما بالحرفين

Watzinger, Wulzinger (W.W.)

المخصص للعهد الروماني من دمشق عن وجود حصن روماني بناء الامبراطور «ديوكليسيان» في القرن الثالث الميلادي [١] في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة حيث توجد قلعةدمشق الحالية. واعتمدوا في هذا الرأي على وجود عناصر جدران وأبراج من العهد الروماني، داخل القلعة الحالية، ومن أهمها العناصر التالية:

آ- جدار خلف سور القلعة الشمالي يلفت الأنظار بسماكته المفرطة. (انظر المخطط رقم٣).

ب- أجزاء من أعمدة وحجارة مزخرفة من العهد الروماني تشاهد في بعض الجدران.

جـ- برج في الزاوية الشمالية الشرقية وراء البرج الأيوبي الحالي. (المخطط رقم١٠).

وقد ورد في هذا البحث بأن الحصن الروماني المذكور كان على شكل مربع طول ضلعه ١٢٠ متراً وهو مزود ببرج مربع في كل من زواياه الأربع. وببابين أحدهما من الجهة الشرقية والثاني من الجهة الشمالية. وعلى جانبي كل من البابين برجان مربعان، وقد أشارا من أجل تأييد رأيهما إلي التطابق بين موقع هذا الحصن وبين موقع حصن ديوكليسيان في تدمر لقيام الاثنين في الزاوية الشمالية الغربية من دمشق وتدمر [٢].

---

(١) حكم الامبراطور ديوكليسيان بين عامي ٢٨٤و٣٠٥ للميلاد وزار دمشق سنة ٢٩٥.

(٢) Damascus.I.P.55-57

انظر اسم الكتاب بالتفصيل في لائحة المصادر، الملحق رقم ٤).

ثم جاء «سوفاجه»[1] فأيد هذا الرأي في كتابه عن مباني دمشق التاريخية، وقال: «إن الآثار القديمة الباقية داخل القلعة الحالية هي جزء من حصن روماني أو بيزنطي، وهو على شكل مربع ضلعه ١٢٠ متراً، وفي كل زاوية من زواياه برج مربع مزود بمرامي النبال، وفي وسط كل ضلع باب مزود ببرجين مربعين على جانبيه، وأن برج الزاوية الشمالية الشرقية محفوظ بحالة جيدة» وإن البابين الشمالي والشرقي هما في مكان بابي القلعة التي ترجع إلى العهود الوسيطة والتي نعرف القليل عن تاريخها قبل القرن الثالث عشر. ومن المحتمل أن تكون قد احتفظت بصورة سليمة بتنظيم الحصن الروماني. وشرح سوفاجه رأيه هذا مفصلاً في مقال عن قلعة دمشق[2] فقال: «يجب تأريخ هذه الآثار القديمة في القلعة الحالية بالعهد البيزنطي Basse antiquit وبعيده في بداية العهد الاسلامي. ويحتمل أن تكون قد تلت حصناً أقدم عهداً. وإن وجود مثل هذا الحصن القديم يكفي لتفسير سبب قيام القلعة في هذا المكان بالذات من سور المدينة».

«وأننا نجهل إلى أي حد إستفيد من الحصن القديم عند بناء القلعة في القرن الثالث عشر. فهل أدمج الحصن في القلعة الجديدة، أم أن دوره كان مقتصراً على تحديد موقع القلعة وشكلها العام؟ ستبقى هذه المسألة بعيدة عن الحل لأننا لانعرف حالة السور وقت قيام

(١) انظر: Les Monuments Historiques de Damas,P.44

(٢) انظر: Citadelle de Damas,op.cit.PP.44

الملك العادل ببناء القلعة. ومن الطبيعي أن لا يبقى البناء وهو يمثل هذا القدم عدة قرون دون ترميم. فإشادة القلعة من قبل الأمير «أتسز» يستوجب حجب أعمال لها شأن ما، وإن أعمال من تلاه التي يذكرها المؤرخون، تشير إلى تغييرات ملحوظة طرأت على القلعة. يجب هنا أن نتساءل فيما إذا كان قد بقي من الحصن الروماني في بداية القرن الثالث عشر شيء آخر غير مانراه اليوم. إن فقدان التماسك بين القطع الباقية وندرتها يدعوان إلي الاعتقاد بأنه عند إعادة البناء في أيام الملك العادل كانت القلعة الرومانية قد زالت، إما بسبب الأحداث وإما بسبب التغيير والتعديل».

«بقي أن نشرح لماذا بقيت الآثار الرومانية وحدها في القلعة الحديثة من دون أعمال التجديد العربية كأعمال صلاح الدين مثلاً التي لم يكن قد مضى عليها أكثر من ثلاثين عاماً؟. وكما قلت من قبل تبقى القضية مستعصية الحل في الوقت الحاضر بحسب معلوماتنا. ويجب أن نكتفي بتسجيل توضع قلعة وسيطة فوق قلعة رومانية Antique كما يجب أن ننسب دون شك التخطيط العام للقلعة إلى تأثير الحصن الروماني، ومن ذلك المخطط المستطيل».

«ومهما يكن فإن قلعة العادل بسورها البالغ (٢٢٠×١٥٠) تمثل توسيعاً ملحوظاً للبناء القديم الذي لم تكن مقاييسه لتزيد على ١٢٠ متراً للضلع الواحد».

انتهى هنا كلام سوفاجه عن الحصن القديم السابق لقلعة العادل، الذي ضمنه بحثه عن قلعة دمشق.

وبعد سنوات من نشره هذا البحث عدل سوفاجه رأيه في مقال جديد تحت عنوان «مخطط مدينة دمشق القديمة»(١) فكتب يقول: «لقد أخذت في البدء برأي العالمين «.W.W» ثم قادتني الخبرة الطويلة والدراسة إلى الشك بالرأي القائل بأن هناك حصناً قديماً من عهد «ديوكليسيان». إذن فالذي جعل للقلعة صفة رومانية إنما هو وجود أحجار ضخمة، وطريقة البناء في الأقسام الأكثر قدماً، فكل ما هنالك أحجار أعيد استعمالها، ويدل عليها وجود جذوع أعمدة في الجدران وأحجار جيدة النحت يمكن ارجاع المخطط إلى العهد البيزنطي أو إلى القرون الوسطى. ومع ذلك فإن تاريخ بناء الحصن يبقى موضع شك». ثم يأتي سوفاجه برواية ابن شداد(٢) ليقول بأن تأسيس القلعة الأول حدث في آخر القرن الحادي عشر، وليس في عهد ديوكليسيان.

ويفسر سوفاجه الجدار السميك الكائن في السور الشمالي المار ذكره كما يلي: إذا أخذنا خطاً مستقيماً متعامداً مع الشارع المستقيم يمتد من الباب الغربي (أي باب الجابيه) فإنه يلتقي بهذا الجدار الذي يعتبر وجوده داخل القلعة لامعنى له، وليس له تفسير سوى كونه جزءاً من سور المدينة القديم الذي يتقدم نحو الداخل عن سوية السور

(١) Le Plan Antique de Damas,Syria,XXVI,1949,P,333

(٢) نقلنا نص ابن شداد في مكان سابق من هذا الفصل، ويتعلق ببناء القلعة في عهد تتش.

الشمالي بسبب قرب النهر في هذه الناحية، كما هو الحال في الجهة الشرقية، حيث يتراجع السور أيضاً بعد باب توما نحو الجنوب بسبب مجرى النهر[1].

وفي عام ١٩٥١ «نشر كينك» بحثاً عن قلعة دمشق[2] تحدث فيه عن القلعة القديمة السابقة للقلعة الأيوبية، فاستعرض آراء من تقدمه من الآثريين أمثال «فاتزنجر وفولزنجر وسوفاجه» وأضاف قائلاً: «لقد تخلف عن القلعة القديمة التي كانت تحتل نفس الموقع آثار ذات شأن، وهي جزء من برجي باب يقع داخل الباب الشمالي للقلعة الوسيطة Medievale، وآثار برج واسع في الزاوية الشمالية الشرقية، وبرج آخر جنوبية تصله به بدنة[3] (جدار بين برجين)». «لقد تفحصت بشكل سريع البرجين رقم ١٦ و١٧ الواقعين ضمن منطقة السجن فلاحظت إن البرج ١٦ (برج الزاوية الشمالية الشرقية) مبنى بناء متيناً، ومنظم تنظيماً جيداً من الداخل، ويعتبر قطعة متكاملة من العمارة العسكرية، ومن المحتمل أن يؤلف مع البرج رقم ١٧ الذي يعتبر أقل اتقاناً قطعة متكاملة من عمل معماري واحد، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة للمباني الكائنة عند الباب الشمالي، فحالتها سيئة لدرجة يصعب أن نطلق عليها عملاً معمارياً. ويبدو لي أن بقايا القلعة القديمة تمثل نتاج عصرين أو ثلاثة، يؤكد هذا اكتشاف كتابة من

(١) انظر المخطط رقم (٦).

(٢) انظر: The Defences of Citadel, op. cit.p.83

(٣) انظر المخطط رقم (٤).

عهد صلاح الدين تؤرخ ترميم[1] برج كان دائرياً كما يبدو من تحدب الحجر».

نلاحظ في هذه الآراء التي استعرضناها لعلماء الآثار بأن القلعة القديمة التي سبقت قلعة الملك العادل الأيوبي، لم تكن موضع دراسة جدية، إذ لم تستقصى أخبار القلعة السلجوقية أو يجري الاهتمام بها كقلعة ذات شأن، كما لم تعتبر القلعة الوحيدة التي سبقت القلعة الأيوبية. وكل ما عرضه هؤلاء العلماء حول التحصينات السابقة للقلعة الأيوبية كانت غير يقينية، ويعتورها التردد والإفتراض.

فبالنسبة للحصن الروماني المزعوم، ليست هناك أدلة كافية علي وجوده، وأن ما أورده العالمان «.W.W» من أدلة لاثيات وجوده ضعيفة غير مقنعة، فهما لم يشيرا إلى أي مصدر أو رواية تاريخية تؤيد ما ذهبا إليه. فليس هناك أي مصدر قديم يذكر قيام الامبراطور «ديوكليسيان» ببناء حصن في دمشق. وكل ما هنالك أن «ديوكليسيان» اهتم بإقامة المنشآت والحصون على الحدود الشرقية للامبراطورية وعلى الطرق العسكرية فيها للوقوف في وجه الفرس.

إن وجود حصن من عهد «ديوكليسيان» في تدمر لايستتبع في رأيي وجود حصن مثله في دمشق، وإن وجود قلعة دمشق في الزاوية

---

(١) سبق أن تحدثنا عن ترميم هذا البرج وأثبتنا نص الكتابة التي تؤرخ الترميم (الكتابة رقم ١).

الشمالية الغربية كما هو الحال بالنسبة للحصن التدمري لايعني بأن قلعة دمشق تلت حصناً من العهد الروماني كان قائماً في هذه البقعة من المدينة.

هذا فضلاً عن أن فرضية حصن تدمر قد تلاشت مؤخراً بنتيجة الحفائر التي أجرتها في موقعه البعثة الأثرية البولونية ولم تجد أي أثر لحصن من عهد ديوكلسيان.

أما الآثار القديمة السابقة لعصر القلعة الأيوبية والتي اتخذت دليلاً محسوساً من قبل الآثريين على وجود الحصن الروماني، فليس هناك مايثبت انتسابها إلى فن العمارة الروماني، وذلك للاسباب التالية:

١- إن العالمين («W.W.») لم يقوما بتحليل هذه العناصر وابراز الطابع الروماني فيها، وإن وجود بعض القطع الحجرية التي تنتسب من حيث فن النحت والزخرفة إلى العهد الروماني، يمكن تفسيره بأن هذه القطع منقولة من أبنية أخرى لاصلة لها بحصن روماني. لقد تفحصنا أحد أبراج القلعة القديمة وهو برج الباب الشمالي (رمز إليه في المخطط -٣- بـ(O) فوجدنا حجارة واجهتها ملساء ولايبدو عليها أية صفة من صفات العمارة الرومانية. وكذلك الحال بالنسبة للجدار السميك الشمالي المار ذكره، فهو أيضاً لايبدو عليه صفة العمارة الرومانية، كما لايبدو عليه أنه مؤلف من تلاصق جدارين من عهدين مختلفين. وقال سوفاجة [١] بصدد تفسير وجود أعمدة قديمة ذات

---

(١) انظر Citadelle,op.cit.p.88

تيجان كورانتية، مستخدمة في حمل قبة في القاعة المربعة (رمز إليها في مخططه بحرف (C) [١]، إن هذه الأعمدة هي بدون شك قديمة Antique وأن تيجانها ترجع إلى أواخر العهد الامبراطوري، ولايوجد مايمنع من أن تكون قد وضعت في هذا المكان يوم جدد بناء القلعة في القرن الثالث عشر، ولكن لايوجد ما يسمح لنا بالجزم بذلك.

ومن المعروف أن استخدام أحجار المباني القديمة في القصور والقلاع والمساجد في العهود العربية، عادة متبعة. وسنرى في النص التالي الذي عثرنا عليه لدى العمري صاحب «مسالك الابصار» مايؤكد هذه الحقيقة ويزيل الكثير من الغموض حول هذه القضية. يروي العمري عن المهندس علي بن محمد بن التقي ما يفيد بأن الملك العادل أبا بكر فك حجارة باب السور الخارجي الغربي لمعبد جوبيتر المقابل لباب البريد، لما عمر القلعة، ونقل حجارته إليها [٢]. وهذا ما يفسر وجود الأعمدة المشار إليها آنفاً وغيرها من عناصر العمارة الرومانية في القلعة الأيوبية.

٢- إن استخدام جذوع الأعمدة بصورة أفقية في الجدران En-Parpaing لربط (كليني) الجدار - Parment- ظاهرة مألوفة في العمارة العربية أكثر منها في العمارة البيزنطية، ونشاهدها في كثير من المناطق السورية كتدمر وبصرى [٣] التي تكثر فيها اطلال العمارات القديمة،

---

(١) المخطط رقم (٣).

(٢) المصدر السابق، ١/ ١٨٩.

(٣) انظر صورة واحد من أبراج قلعة بصرى (الصورة رقم ٢).

وبالتالي فإن وجود هذه الظاهرة في الأبراج القديمة من قلعة دمشق (البرجان ٥و٥) في المخطط رقم -٣-) لايعني أنهما من العهد البيزنطي.

٣- إن بقايا الحصن القديم أو القلعة المار ذكرها قد أوحت لعلماء الآثار أمثال سوفاجه والعالمين (W.W) من قبله بأن مخطط القلعة القديمة كان على شكل مربع طول ضلعه / ١٢٠/ متراً مزودة في منتصف كل ضلع بباب يحف به من الجانبين برجان، وفي كل من زواياه الأربعة برج وإن مثل هذا المخطط ينطبق على الشكل العام للحصون الرومانية المعروفة.

إلا أننا إذا رجعنا إلى مخطط سوفاجه (المخطط رقم ٣)، نلاحظ بأن المسافة بين الباب الشمالي للقلعة القديمة وبين برج الزاوية الشمالية الشرقية تبلغ / ١١٠/ متراً، وبما أن الباب يتوسط جدار القلعة في زعمه، فإن طول الضلع الشمالي للقلعة يجب أن يكون / ٢٢٠/ متراً، كما أن هذه الواجهة إذا امتدت بصورة مستقيمة نحو الغرب فسوف تخرج عن حدود القلعة الحالية وكذلك عن حدود سور المدينة.

ونلاحظ أيضاً بأن المسافة بين برج الزاوية الشمالية الشرقية ومحور الباب الشرقي في القلعة القديمة هو / ٦٠/ متراً، أي أن طول ضلعها الشرقي بكامله هو / ١٢٠/ متراً. وبذلك يكون مخطط القلعة القديمة مستطيلاً لامربعاً، وأطواله (١٢٠× ٢٢٠)متراً.

يتضح مما تقدم بأن نظرية الحصن الروماني ضعيفة، ولاتدعمها الأدلة الكافية من الناحيتين التاريخية والمعمارية. وسأثبت فيما يلي أن القلعة التي أطلقت عليها اسم القلعة السلجوقية كانت أول قلعة عرفتها دمشق.

الدليل الأول:

حصن دمشق في أخبار الفتوحات والحروب

لانجد في كتب التاريخ والفتوحات قبل قيام القلعة السلجوقية أي ذكر لقلعة أو حصن في مدينة دمشق. لقد تحدثت هذه الكتب عن أحداث فتح دمشق [1] من قبل العرب المسلمين في عام ١٤ للهجرة (٦٣٥م) وذكرت بالتفصيل توزع السرايا والجيوش على أبواب المدينة، وكيف تم فتحها عنوة من الباب الشرقي، وعقد الصلح عند باب الجابية، وانتهت المقاومة بدخول المدينة، دون أية إشارة إلى احتلال حصن كان فيها. وقد جرت العادة عند فتح المدن الأخرى التي تحتوي على حصن كحلب مثلاً أن يجري محاصرته بشكل خاص، بعد الانتهاء من احتلال المدينة. وأننا لنستبعد أن تهمل أخبار الفتح الحديث عن حصن دمشق، لو كان موجوداً فعلاً، بينما تصف بالتفصيل قصة فتح قلعة حلب أو حصن حلب [2].

---

(١) انظر فتوح البلدان، البلاذري، ص١٢٧، طبعة مصرية ١٣١٨).

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص١٥٣.

هذه الملاحظة يمكن ابداؤها أيضاً عند كل عملية فتح لمدينة دمشق جرت قبل بناء القلعة السلجوقية.

فالعباسيون يحتلون دمشق في عام هـ=٧٤٩م، ويهدمون أسوار المدينة وقصور الأمويين، دون أن يأتي أي ذكر لحصن أو قلعة، في هذا الفتح. وكذلك الفاطميون يفتحون المدينة في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م فلانجد أي خبر عن قلعتها أو حصن كان فيها في أخبار الفتح. وهكذا الحال بالنسبة لكل أحداث الحصار التي سبقت بناء القلعة السلجوقية.

الدليل الثاني: حصن دمشق في النصوص التاريخية

لقد عثرنا بعد تفحص المصادر العربية وسبر غورها على أربعة مواضع فقط ذكر فيها حصن دمشق. وهذه المواضع هي التالية:

١ - المقدسي هو أقدم من ذكر حصن دمشق. قال في معرض حديثة عن دمشق مايلي: «... وعليها حصن أحدث وأنابه [١] من طين [٢]».

نفهم من قول المقدسي هذا أن حصنا أحدث خلال وجوده في دمشق. ولكن علينا أن نعلم أين ومتى شيد هذا الحصن، مع الإشارة إلى أن كلمة أحدث يجب أن تعني أنه لم يكن موجوداً من قبل. نحن

---

(١) يرجح أن تكون الكلمة (بها) ليستقيم المعنى، أي وأنا بدمشق، لابالحصن.

(٢) كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٥٦، طبعة لايدن.

نعلم أن المقدسي وضع كتابه في النصف الثاني من القرن الرابع أي في أيام الحكم الفاطمي. ونعلم أيضاً أن جعفر بن فلاح الذي ضم دمشق إلى الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩/ ٩٦٩ قام في هذا العام ببناء قصر في دمشق دعي «قصر الولاة» ثم جرى تجديده بعد ذلك من قبل وال آخر يدعى بشارة الأخشيدي سنة ٣٨٨/ ٩٩٨، كما سنرى في الدليل الثالث الخاص بقصور حكام دمشق ودار الامارة.

٢- وأتى ذكر الحصن ثانية عند ابن عساكر في حديثة عن قصة بناء دمشق في عهد الاسكندر المكدوني. قال: «فرجع دمشقش (غلام الاسكندر) وبناها وعمل لها حصناً، والمدينة التي كانت رسم دمشقش هي المدينة الداخلة، وعمل لها ثلاثة أبواب». ويتابع ابن عساكر حديثه عن مدينة دمشق فيقول: «إن ملك دمشق بنى حصن دمشق الذي حول المسجد، داخل المدينة على مسحة بيت المقدس [1]. وقد سمي هذا الحصن في مكان آخر حصن جيرون. يقول عن مسجد السراجين هو في رأس الأساكفة الملاصق لحصن جيرون». ويقول أيضاً: «مسجد في درب الما خلف الحصن[2]»

ونستخلص من روايات ابن عساكر أن الحصن في رايه هو سور معبد جوبيتر الخارجي الذي ماتزال أقسام منه موجودة وحدوده

(١) المصدر السابق، المجلد الأول، ص١٤-١٦.

(٢) المصدر السابق، المجلد الثاني، ص٧١

معروفة [1]. وهو فعلاً يشبه سور مدينة أو حصن بالنسبة لاتساعه (٣٨٠×٣١٠ متراً)، وحجارته الضخمة وجدرانه المزودة بالدعامات الجدارية «PILASTRE» والأبراج في زواياه. ويحصر داخله مساحة واسعة أشبه بمدينة، أطلق عليها ابن عساكر اسم المدينة الداخلة، وهو ما يدعى بالاصطلاح الفرنسي «CITE».

٣- ومعبد جوبيتر هذا هو أيضاً الحصن الذي تحدث الذهبي عن وجوده في العهد الأموي في الخبر التالي، قال: «أول من خرج بالسلاح في العبد يزيد بن الوليد [2]، خرج يومئذ بين صفين من الخيل عليهم السلاح من باب الحصن إلى المصلى [3]».

ولقد روى هذا الخبر ابن كثير بشكل واضح فقال: «خرج يزيد بن الوليد يوم عيد الفطر إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة، والسيوف مسلولة عن يمينه وشماله، ورجع من المصلى إلى الخضراء كذلك [4]».

ويجب أن نعلم أن المصلى المذكور هو مصلى العيد، وقد جرت السنة أن تكون صلاة العيد خارج المدينة، في مكان خلوي، ونعتقد أن مكانه هو حيث يوجد اليوم جامع باب المصلى، في محلة

---

(١) انظر مخطط المعبد (المخطط رقم ٧).

(٢) الخليفة الأموي الثاني عشر، حكم سنة ١٢٦/ ٧٤٣.

(٣) تاريخ الاسلام، ٥/ ١٨٩.

(٤) البداية والنهاية، ١٠/ ١٢٦.

ميدان الحصى في الجزء الجنوبي من دمشق، وأما الخضراء، فهو قصر معاوية الكائن إلى جوار الجامع الأموي من جهة الجنوب [١]. ونعتقد أن باب الحصن المقصود في رواية الذهبي هو باب معبد جوبيتر الخارجي أو باب قصر الخضراء.

٤- ورد ذكر الحصن أيضاً عند مؤرخ متأخر هو النعيمي [٢] الذي يذكر محلة في دمشق تعرف «بحصن الثقفين [٣]» وهي محلة تقع داخل باب الفرج وفيها المدرسة المعينية [٤]. ولكن ابن عساكر [٥] يسمي هذه المحلة «قصر الثقفيين» وكذلك فعل ابن القلانسي [٦].

ونرجح على ضوء هذه الروايات، أن يكون اسم المحلة في الأصل قصر الثقفيين نسبة لقصر كان يخص آل الثقفي التي اشتهر منها الحجاج في العصر الأموي. ثم طرأ تحوير على الكلمة، فأصبحت المحلة في العصور المتأخرة تعرف بحصن الثقفيين. وعلى ذلك لم يكن في هذه المحلة حصن ما.

---

(١) انظر عن هذا القصر مقالنا قصور الحكام في دمشق، المصدر السابق، ص٢٤.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس، ١/ ٥٨٨.

(٣) أضاف محقق الدارس المرحوم جعفر الحسني في الهامش مايلي: وفي هذه المحلة زقاق يعرف اليوم بحصن السقافين.

(٤) نسبة للأمير معين الدين أثر، من امراء دمشق في العهد السلجوقي، توفي سنة ٥٤٤/ ١١٤٩، وقد زالت المدرسة المذكورة.

(٥) المصدر السابق، ٢/ ٧٦.

(٦) المصدر السابق، ص١٠.

الدليل الثالث: الحصن وقصور الحكام:

إن من أهم أسباب وجود القلاع والحصون داخل المدن، هو استخدامها مقراً لحاكم المدينة وحاميتها. فهي تعزلهم عن السكان، ويجدون داخل أسوارها معتصماً يحميهم في أيام الثورات والاضطرابات بينما تنحصر وظيفة أسوار المدينة في صد العدوان الخارجي وحماية السكان.

ونلاحظ بأن هذه القصور الحصينة قد شيدت على الغالب فوق مرتفع طبيعي، أو فوق تل أثري، كما هو الحال في أكثر المدن السورية كحلب وحمص وحماة وأفاميا وانطاكية. ويختلف الحال في دمشق، التي تخلو من مرتفع طبيعي داخل أسوارها. ويلاحظ وجود تل قليل الارتفاع يقع في قلب المدينة يعرف بتل السماكة، ويعتقد العلماء بأنه مكان قصر الملوك الآراميين، الذي هدمه الآشوريون في حملة «تغلات فلازار الثالث» في عام ٧٣٤ق. م. ولم يتأكد هذا الزعم بعد، بسبب عدم التنقيب حتى الآن في هذا المكان.

ويرى سوفاجه [١] بأن الملوك السلوقيين أقاموا قصرهم على هذا التل. لكني أرجح أن يكون قصر حاكم دمشق في العهد الروماني والبيزنطي قد أقيم بالقرب من معبد جوبيتر في المنطقة الواقعة بين

---

(١) انظر: Plan Antique de Damas.Syria,XXVI,1949

السورين، وعلى الغالب، في المكان الذي شيد عليه قصر معاوية «الخضراء[1]» فيما بعد، فهو أفضل مكان بالنسبة للمدينة.

وتحدثت المصادر عن قصر آخر يقع في سفح قاسيون، دعاه العمري قصر هرقل، وكان يعرف في زمنه (القرن الثامن الهجري) بقصر شمس الملوك. نزله صلاح الدين[2].

وكان للعباسيين والفاطميين قصر أطلق عليه المؤرخون أسماء عديدة. سماه المقدسي «دار السلطان» وسماه ابن عساكر «دار الملك» وابن الجوزى «دار الخلافة» وقد أجرينا تحقيقاً عن قصور الخلفاء والامراء في العهدين العباسي والفاطمي[3] فتبين لنا مايلي:

١- أقام الخليفة المأمون عند نزوله في دمشق سنة ٢١٥/ ٨٢١ في قاسيون في المكان المسمى بدير مران عند مجرى نهر يزيد. وإن المتوكل حين قدم إلى دمشق سنة ٢٤٢/ ٨٥٦ بنى قصراً في داريا. وكان لخمارويه بن أحمد ابن طولون قصر في دير مران قتل فيه سنة ٢٨٢/ ٨٩٥.

٢- بنى العباسيون قصراً لولاة دمشق دعي دار الامارة، وكان مكانه خارج السور من الناحية الغربية في المحلة المعروفة وقتئذ

---

(١) أظهرت الحفريات التي أجريت مؤخراً، وبعد كتابة هذه السطور للبحث عن قصر معاوية، آثاراً معمارية هامة في العهد الروماني.

(٢) مسالك الأبصار، ١/ ٢٤٩.

(٣) قصور الحكام في دمشق، المصدر السابق، القسم الأول، ص٣٧.

باللؤلؤة الصغرى وهما على نهر بانياس. وقد احترق سنة ٣١٦/٩٢٨.

٣- كان للفاطميين قصر في قاسيون عند الموقع المشهور بالدكة على نهر يزيد بالقرب من دير مران شيده الوالي جعفر بن فلاح سنة ٣٥٩/ ٩٦٩، واحترق في أواخر العهد الفاطمي أثناء الثورة على الوالي بدر الجمالي سنة ٤٦٠/ ١٠٧٦. وزالت آثاره.

٤- كان بعض الولاة الفاطميين يتخذون لهم دار أمارة داخل المدينة ويدعون قصر الولاة المار ذكره في «الدكة» لقائد الجيش الفاطمي. ذكرت المصادر منها اثنتين: الأولى دار العقيقي التي تحتلها اليوم المدرسة الظاهرية [١]، ودار الروذباري [٢] الكائنة في محلة قصر الثقفيين المار ذكرها.

الدليل الرابع: الحصن في خطط المدينة:

إذا تحرينا المنطقة التي قامت عليها القلعة السلجوقية، ودرسنا خططها ومعالمها قبل العهد السلجوقي، فإنا لانجد أثراً للحصن الروماني الذي افترض وجوده فيها. بل لانجد أثراً لاية اطلال أو خرائب متخلفة عن حصن ما من أي عصر آخر. وكل ما هنالك أحياء

(١) شيدت سنة ٦٧٦/ ١٢٧٧. انظر كتابنا مدينة دمشق، ص١٩٠.

(٢) نسبة لأمير فاطمي يدعى صالح بن علي الروذباري (انظر الحاشية رقم ٥٥ من قصور الحكام، المصدر السابق، القسم الأول، ص٤٢).

سكنيـة ودور وأزقـة تتـصـل بخـارج المدينة عن طريق باب في السـور الشمالي عرف باسم باب الحديد، وآخر في السور الغربي عرف باسم باب الجينين. ولنستعرض الآن خطط هذا القطاع كما تحدثت عنها المصادر التاريخية.

قدم لنا ابن عساكر وصفاً لخطط المدينة داخل السور كما كانت قبل بناء القلعة السلجوقية، معتمداً في ذلك على أقوال شيوخه ومن نقل عنهم، وبعضهم عاش قبل بناء القلعة السلجوقية وبعضهم عاصر بناءها، فعدد دورها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وأسواقها وأقنيتها، ولم يترك أثراً فيها إلا ذكره وصنفه، وميز خلال ذلك بين القديم والحديث من المباني في عبارته «من بناء أهل الجاهلية» أو «من البناد القديم»[1]. ونراه حين يتحدث عن المنطقة التي نحن بصددها لايذكر مرة واحدة حصناً كان فيها، قائماً أو خرباً، فهل يعقل أن يفوته ذكر مثل هذا البناء العام؟ وفيما يلي أهم النصوص التي تتصل بخطط المنطقة:

آ- دار حبيب بن مسلمة الفهري، إلى جانب دار بني طلحة من القبلة، عند حمام طلحة، وهي الدار المشرفة على نهر بردى عند طاحونة الثقفيين يعني طاحونة القلعة[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ٢/ ١٣٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ٢/ ١٤٠.

إن طاحونة القلعة هنا يقصد بها طاحونة القلعة السلجوقية. وكانت تعرف قبل بناء القلعة بطاحونة الثقفيين لوقوعها في محلة قصر الثقفيين، ونرجح بأنها كانت تحتل نفس البقعة التي تحتلها الطاحونة الحالية الكائنة خلف باب الفرج (باب المناخلية) ملاصقة للقلعة من جهة الشرق. أما الداران المطلتان على بردى المذكورتان في النص، فلا بد أن تكونا في أقصى المدينة من جهة سورها الشمالي، وموقعها إما غربي طاحونة القلعة أي في مكان القلعة الحالية، وإما في شرقيها.

ب- الدار المعروفة بدار الضحاك وحمام الضحاك في حجر الذهب هي دار الضحاك بن قيس [١] وهي مما يلي حائط المدينة... وهي غرب حمام الضحاك. ووجدت في موضع آخر: دار الضحاك هي الدار المشرفة على بردى، كانت لأبي الدرداء [٢] فقايضه معاوية بموضع دار أبي الدرداء[٣].

و«حجر الذهب» هي محلة تقع شرقي القلعة[٤]، بدليل وجود دار الحديث النورية وهي معروفة في هذه المحلة أيضاً، وتقع على بعد

(١) تقدمت ترجمته في الحاشية (٥)، ص(٢٧).

(٢) صحابي مشهور، توفي سنة ٣٢/ ٦٥٢. عاش في دمشق في أيام ولاية معاوية. انظر مقالنا قبور العظماء في دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٣٤، الجزء الرابع، سنة ١٩٥٩ ص٦٥٧.

(٣) المصدر السابق، ٢/ ١٤٠.

(٤) انظر المصور المنشور مع المجلد الثاني من كتاب ابن عساكر.

حوالي خمسين متراً من القلعة . أما دار الضحاك التي كانت داراً لأبي الدراء والمشرفة على نهر بردى ، فيجب أن تكون في أقصى السور الشمالي ، وربما كان مكانها حيث يقع اليوم جامع أبي الدراء داخل باب القلعة الشمالي (باب الحديد) . ويضم قبراً لأبي الدراء أحدث في العهد العثماني ذلك أن قبره وجد في مقبرة باب الصغير . وقد تحول المكان من جامع أبي الدراء في العهد الأيوبي [١] إلى مقام أبي الدراء في العهد العثماني[٢] .

ومهما يكن فإن بقاء اسم أبي الدراء لاصقاً بهذا المكان من القلعة سببه وجود الدار التي سكنها في الأصل . ومما يزيد في احتمال وقوع دار الضحاك ودار أبي الدراء حيث أقيمت القلعة السلجوقية هو ما ذكره ابن عساكر في مكان آخر عن مسجد في هذه المنطقة نسب أيضاً للضحاك . قال : « مسجد آخر قبلي القلعة فيه عريش وله إمام ، ويقال أنه مسجد الضحاك بن قيس[٣]» .

وهذا يعني بأن هناك مجموعة معمارية هامة تتألف من دار الضحاك حمام الضحاك ومسجد الضحاك كانت تحتل هذه المنطقة التي قامت عليها القلعة السلجوقية .

---

(١) ابن كثير ، ١٣/ ١٤٨ .

(٢) ذكره المؤرخ ابن طولون في الشعلة المضيئة ، ص٢و١٦ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق ، ٢/ ٧٨ . والأعلاق ، ص١٢٥ .

ب- في النص التالي الذي يرويه ابن كثير نلحظ وجود دار مشهورة في العهد الأموي كانت في مكان القلعة. قال: «ممن هلك أيام الوليد بن عبد الملك زياد بن حارثة التميمي، كانت داره غربي قصر الثقفيين» وغربي الثقفيين هو المكان الذي تقع فيه القلعة.

ج- لنتقصى الآن خطط دمشق في العهد الفاطمي بالاعتماد على الأحداث التي وقعت في هذه المنطقة من المدينة.

قال ابن القلانسي في حوادث الصراع بين جند الفاطميين وأهالي دمشق في عام ٣٦٣/ ٩٧٣ وبعده: ... وكان المغاربة في وقت يمكنهم من باب الحديد، وقد طرحوا النار في دار عمرو بن مالك ودار ابن طغج ... والقوا النار أيضاً في باب الحديد و«المظلمة» بازاء دار الحمامي إلى الطريق الآخذ إلى «حجر الذهب» ووجدوا بين أيديهم من الرعية من منعهم من دخول الزقاق. وقويت النار في دار ابن مالك فاحترقت وما يليها من الطاحونة إلي حد حمام الضحاك ... واجتمع قوم في تلك الليلة من حجر الذهب والفسقار والنواحي المعروفة بباب الحديد وعملوا على المحاربة عن الدروب والأزقة وأبواب الدور، فما لاح الصباح بضيائه إلا وقد بنوا حائط باب الحديد وسووا الباب وأتى الله بالفرج[1]».

وفي معركة أخرى جرت في عام ٣٧٨/ ٩٨٣ يزحف قائد

---

(١) ابن القلانسي، ص٦ . ٧ .

الفاطميين على ابن جعفر بن فلاح من باب الحديد ومعه النفاطون ويستولي على البلد وطرح النار في محلة حجر الذهب وهو أجلُّ موضع في البلد[١]».

ويتضح من خلال هذين النصين معالم وخطط المنطقة التي قامت عليها القلعة السلجوقية فلا نجد داخل باب الحديد الذي غدا باب القلعة الشمالي سوى دروب وأزقة تمتد من السور عند باب الحديد إلى محلتي قصر الثقفيين وحجر الذهب الواقعتين شرقي القلعة. فدار ابن طغج[٢] ودار ابن مالك قريبتان من باب الحديد تليهما من الشرق طاحونة القلعة.

د- إن ابن كثير حين يتحدث عن خبر بناء القلعة السلجوقية يورد العبارة التالية:

«وكان في مكان القلعة اليوم أحد أبواب البلد، باب يعرف بباب الحديد[٣]». ومعنى هذا أنه لم يكن في مكان القلعة عند بنائها شيء هام، أو مبنى تاريخي من حصن أو غيره يستحق أن يذكر سوي باب الحديد.

---

(١) ابن القلانسي، ص٤٧.

(٢) لعله محمد ابن طفج كان أميراً على دمشق من قبل الدولة الطولانية ثم تولى حكم مصر والشام، ولقب بالأخشيد، وأصبح مؤسس الدولة الأخشيدية، توفي سنة ٣٣٤/ ٩٤٥.

(٣) المصدر السابق، ١٢/ ١١٤.

وكذلك ابن عساكر حين يتحدث عن خبر بناء القلعة السلجوقية لايشير إلي أي شيء هام كان في مكانها بل يورد العبارة التالية فيقول: «أحدثت غربي البلد». وهذا التعبير له دلالة عند القدماء. فهو يعني أن البناء تأسس لأول مرة. بينما اعتادوا استخدام تعبير «جدد» عندما يكون للبناء أصل قديم.

وكذلك نجد ابن شداد يستعمل كلمة «بناء». ويقول ابن كثير: «وكان ابتداء عمارة قلعة دمشق ... وأسرع في بناء هذا الحصن المنيع بدمشق». كل ذلك يدل على جدة في الحدث العمراني. لم يسبق إليه.

فمن كل الأدلة السابقة التي أكدت خلو الأخبار كلها من الاشارة إلى حصن سابق أو قصر أو قلعة أو دار امارة في هذا المكان من مدينة دمشق الذي احتلته القلعة السلجوقية، وخلو خطط المدينة في هذه المنطقة من آثار لحصن أو قلعة قديمة، نستطيع أن نصل إلى الحقائق التالية:

١- لم يكن عند بناء القلعة السلجوقية أي حصن أو قلعة في مكانها، وكذلك في أي مكان آخر من المدينة.

٢- لم يكن السبب في اختيار الزاوية الشمالية الغربية للمدينة مكاناً للقلعة هو كونها تلت حصناً أقدم منها، كما زعم أصحاب نظرية الحصن الروماني، بل كانت هناك أسباب أخرى أهمها:

- عدم وجود مرتفع داخل المدينة يصلح لأن تبنى عليه القلعة، كما هو الحال بالنسبة للمدن السورية الأخرى كحلب وحمص وحماة.

- الرغبة في الاستناد علي طرفي سور المدينة والاعتماد عليه، وجعل القلعة بذلك معزولة عن السكان إلى حد ما، لاتتصل بالمدينة سوى في جهتين من جهاتها، بينما تتصل بالعالم الخارجي مباشرة من جهتيها الآخرين الشمالية والغربية.

- وجود باب في هذه المنطقة من سور المدينة يمكن تخصيصه بالقلعة وحدها، وهو باب الحديد.

- قرب المنطقة من نهر بردى وفروعه مما يمكن من استخدام الماء كعنصر دفاعي وتمويني.

- من المرجح جداً أن تكون المنطقة التي اختيرت لبناء القلعة عليها قد تحولت وقتئذ إلى منطقة خرائب نتيجة للحروب والحرائق العديدة التي حدثت في العهد الفاطمي كما رأينا.

٣- إن العناصر المعمارية القديمة التي تشاهد داخل القلعة الأيوبية لايستوجب نسبتها إلى حصن روماني، بل هي حتماً بقايا القلعة السلجوقية وما أحدث عليها من ترميمات لاحقة.

وإن الحجارة القديمة التي تشاهد في القلعة والتي ترجع إلى

العهد الروماني والبيزنطي هي مواد معاد استعمالها، منقولة من مبان قديمة كما جرت العادة.

٤- لابد إذن من أن يكون المخطط الذي أبرز بعض جوانبه علماء الآثار المتقدم ذكرهم هو مخطط القلعة السلجوقية التي هدمها الملك العادل.

ولانرى أخيراً ما يمنع من القول بأن هذا المخطط الذي نسبناه للقلعة السلجوقية قد استوحي من الحصون الرومانية (الكاستروم) أو القلاع البيزنطية التي يوجد منها في سورية آثار عديدة.

الفصل الثاني

القلعة الأيوبية

آ- الاطار التاريخي (تاريخ القلعة منذ بنائها وحتى نهاية العهد الأيوبي):

سنستعرض هنا تاريخ دمشق وماله صلة بقلعتها في الأحداث الهامة التي حدثت في المنطقة العربية منذ بناء القلعة من قبل الملك العادل وحتى نهاية العهد الأيوبي في دمشق في عام ٦٥٨/ ١٢٥٩ (١). وهو العام الذي سقطت فيه دمشق وقلعتها بيد التتار.

رأينا في الفصل السابق كيف حدث النزاع بين أولاد صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة أبيهم، وكيف انفرط عقد الدولة، وحدثت التجزئة، ولم يعد يحكم البلاد سلطان واحد، بل سلاطين وملوك

(١) اعتمدنا في هذه اللمحة التاريخية على كتاب ذيل الروضتين، الصفحات (١-٢٠٩).

كل منهم مستقل عن الآخر. وكانوا يتحدون أحياناً أمام الخطر الخارجي، كما كانوا يتحالفون أحياناً بعضهم ضد البعض الآخر.

وكان عمهم الملك العادل محمد أبو بكر الذي كان حاكماً على الجزيرة والولايات الشرقية حين موت أخيه، يتدخل في هذا النزاع فينصر فئة على أخرى، ويفرض الصلح بين الأخوة، وفق ماتمليه المصلحة والظروف.

وكان الملك الأفضل ابن صلاح الدين هو الذي خلف أباه في السلطنة باعتباره أكبر أولاده سناً. وكان يتخذ دمشق مقاماً. ولم يمض عام على توليه حتى فوجئ بأخيه العزيز عثمان حاكم مصر، وقد قدم لأخذ الشام منه. ويحاصر العزيز دمشق سنة ٥٩٠/ ١١٩٣، فيخف الملك العادل من الجزيرة، ويصلح بين الأخوين على أن يكون للعزيز نصف الدولة الغربي، ما بين أسوان وبيسان. ولكن العزيز يكرر محاولته لأخذ دمشق فيحاصرها ثانية في عام ٥٩١/ ١١٩٤. ويقف الملك العادل إلى جانب الأفضل، ويهزم العزيز ويعيده إلى مصر ويقيم معه فيها.

ثم ما لبث الملك العادل نفسه أن غضب من سياسة الأفضل ووزيره «الجزري»(١) فقدم مع العزيز من مصر لأخذ دمشق، فدخلها في عام ٥٩٢/ ١١٩٥. وهرب منها الوزير الجزري، كما خرج

(١) هو ابن الأثير، أخو المؤرخ المشهور صاحب كتاب «الكامل في التاريخ». ودعي بالجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر التي نشأ فيها.

الأفضل إلى صلخد، ثم عاد العزيز إلى مصر تاركاً عمه العادل فيها، يحكمها نيابة عنه. وبذلك أصبح العزيز بن صلاح الدين سلطاناً على مصر والشام.

وتوفي العزيز في عام ٥٩٦/ ١١٩٩، فتولى السلطنة على مصر والشام، الملك العادل، وعاونه أولاده في حكم الولايات، باستثناء حلب وتوابعها التي ظلت في بيت صلاح الدين حتى نهاية العهد الأيوبي. وكان يحكمها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين منذ أيام أبيه. كما بقيت حماة في بيت شاهنشاه أخي صلاح الدين، وحمص في بيت أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين. وحاصر أولاد صلاح الدين في العام نفسه عمهم العادل أبا بكر في دمشق. الأفضل ،معه جيش مصر، والظاهر غازي ومعه جيش حلب، ولكن العادل استطاع أن يتغلب على الموقف، واستتب له الأمر، وانصرف لتنظيم شؤون الدولة وتقويتها لمجابهة العدو الخارجي -الفرنج- قبل أن ينتهي أمد الهدنة التي عقدت معهم في عام ٥٩٤/ ١١٩٧ لمدة خمس سنين.

واعترف خليفة بغداد العباسي سنة ٥٩٩/ ١٢٠٢ بالملك العادل وأرسل إليه وإلى أولاده الخلع (الهدايا الملكية من ألبسة وغيرها).

وفي هذا العام بادر العادل إلى هدم القلعة السلجوقية في دمشق وبناء قلعة جديدة مكانها، استعداداً للحرب مع الفرنج الذين

بدأوا تحركاتهم. فحاصروا حماة سنة ٦٠١/ ١٢٠٤ ثم حاصروا حمص في عامي ٦٠٣/ ١٢٠٦ و٦٠٥/ ١٢٠٨.

ونشط الفرنج في عام ٦١٤/ ١٢١٧ في فلسطين وتأهبوا للغزو، فاضطر العادل لأن يتراجع أمامهم في بيسان، وأرسل إلى دمشق يأمر بالاستعداد للحصار ونقل غلات داريا إلى قلعة دمشق. وزحف الفرنج نحو دمشق، فوصلوا إلى فيق [١]، ولكنهم عادوا منها إلى عكا، مكتفين بما غنموه من أسلاب.

وفي مصر اشتد خطر الصليبيين أيضاً وحاصروا دمياط سنة ٦١٥/ ١٢١٨، وأمد العادل ابنه الكامل محمد حاكم مصر، بما كان لديه من جيوش، ورأى من المصلحة هدم حصن الطور [٢] حتى لايقع بيد الفرنج، ولكي يستفيد مما فيه من زخائر ومعدات في الدفاع عن القدس ودمياط. وجاء خبر استيلاء الفرنج على برج السلسلة الشهير في دمياط، فانزعج العادل لهذا الخبر، وسقط مريضاً ومات وهو بعالقين [٣]، في السابع من جمادى الآخرة سنة ٦١٥/ ١٢١٨ فنقل إلى دمشق في محفة، ودفن بقلعتها، وخلفه ابنه

---

(١)- قرية جنوبي غربي دمشق، من قرى الجولان تبعد عن دمشق ١١١ كيلو متر.

(٢)- وهي جبل الطور (حالياً كفر طابور) تقع بين بيسان والناصرة (انظر المصور من:

Grousset: op.cit.III,P.121

(٣)- قرية جنوبي دمشق بالقرب من غباغب، تبعد عن دمشق حوالي أربعين كيلو متراً، ماتزال عامرة.

المعظم عيسى، الذي انهمك في محاربة الفرنج في فلسطين، وخاف من سقوط القدس بأيديهم فأمر بهدم أسوارها واضطر أهلها للهجرة إلى مدن الشام ومصر. وبذل المعظم جهده في امداد أخيه الكامل، وذهب بنفسه على رأس جيش للدفاع عن دمياط، ولكن دون جدوى. وسقطت دمياط بيد الفرنج في شعبان من عام ٦١٦/ ١٢١٩ وعاد المعظم إلى الشام ليجمع الامدادات واستنجد بأخيه الاشرف موسى حاكم الجزيرة، وقدم هذا بجيشه إلى دمشق، وانضم إلى قوات أخيه المعظم في الشام، وخرج الاخوان إلى مصر معاً لمحاربة الفرنج، في عام ٦١٨/ ١٢٢١. وكان الكامل قد نجح حينئذ في استرداد دمياط. فعاد المعظم إلى دمشق، وتوفي فيها سنة ٦٢٤/ ١٢٢٦، وخلفه ابنه الناصر داوود في ولاية دمشق. وتآمر على داوود أعمامه: الكامل، والعزيز عثمان، والاشرف موسى والصالح اسماعيل ... ثم عمد الكامل إلى مصالحة الفرنج وسلمهم بيت المقدس في عام ٦٢٦/ ١٢٢٨، ثم قدم إلى دمشق وحاصرها، وأخذها من ابن أخيه الناصر داوود، وسلمها إلى أخيه الأشرف موسى. ولقد لقيت دمشق مآسي كثيرة من جراء هذا الحصار الذي وصفه المؤرخون [1] بأنه كان أقسى مما سبقه من الحصارات التي عرفتها دمشق في أيام أولاد صلاح الدين. فقد قطعت عنها المياه ونهبت البساتين، وهدمت كثير من الرباض والخانات والطواحين المحيطة بالمدينة.

---

(١) انظر أبو شامة، ذيل الروضتين ص١٥٤.

وجرت معارك عديدة في الميدان الأخضر وعند باب الحديد شمالي القلعة. ثم وقع الصلح على أن يسلم الناصر دمشق ويأخذ الكرك ونابلس وبعض قرى الغور بدلاً منها. ودخل المحاصرون دمشق، ونزل الكامل والأشرف في قلعتها. وفي العام التالي رحل الأشرف إلى مقر ولايته في الجزيرة، وأناب عنه في حكم دمشق أخاه الصالح اسماعيل.

وفي مطلع عام ٦٣٥/ ١٢٣٧ مات الأشرف موسى وكان في دمشق مقيماً في قلعتها، وخلفه أخوه الصالح اسماعيل، ولكن الكامل قدم من مصر لأخذ دمشق، وحاصرها حصاراً شديداً، وانتهى الأمر بالصلح، وتخلى الصالح اسماعيل بموجبه عن دمشق، وأخذ بدلاً منها بصرى وبعلبك، وأصبحت مصر ودمشق تحت حكم الكامل، ولكنه مالبث أن توفي بعد شهرين في قلعة دمشق في ٢٢ رجب سنة ٦٣٥، وخلفه ابنه الصغير العادل «الثاني».

ولكن الامراء الأيوبيين عينوا على دمشق بدلاً منه الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل ابن أبي بكر. وفي سنة ٦٣٦/ ١٢٣٨ تخلى هذا عن دمشق للصالح أيوب بن الكامل حاكم الجزيرة. فدخل دمشق ثم توجه لأخذ مصر من أخيه الصغير الملك العادل. وبينما كان في نابلس ينتظر وصول عمه الصالح اسماعيل ملك بعلبك ليسير معه إلى مصر، قام هذا بالهجوم على دمشق والاستيلاء عليها، ثم حاصر

قلعتها واستولى عليها وذلك في عام ٦٣٧/ ١٢٣٩ . وانفض الامراء والقواد من حول الصالح أيوب فأخذ وأسر في الكرك عند الناصر داوود . ثم إن امراء الجيش المصريين عزلوا الملك العادل ابن الكامل، واستدعوا أخاه الصالح أيوب فنصبوه سلطاناً على مصر . فما لبث أيوب أن أرسل جيشاً سنة ٦٤٣/ ١٢٤٥ ليسترد دمشق من الصالح اسماعيل الذي كان قد استولى عليها في غياب الصالح أيوب وسجن ابنه «المغيث عمر» في أحد أبراج القلعة إلى أن توفي سنة ٦٤٢/ ١٢٤٤ . استعان أيوب بجيش من المرتزقة (الخوارزمية) الذين كانوا يعيشون فساداً بين الجزيرة والأناضول هاربين من التتار، فقطعت الأنهار عن دمشق، وغلت فيها الأسعار، وأحرقت أرباضها (ضواحيها) . واستمر الحصار أشهراً ثم وقع الصلح على أن يترك اسماعيل دمشق ويخرج إلى بعلبك . وغضب المرتزقة (الخوارزمية) من هذا الصلح فانقلبوا على أيوب واتفقوا مع اسماعيل . وفرض الحصار ثانية على دمشق وغدت في ضيق شديد، وانتشرت المجاعة . ثم طلب أيوب العون من حاكم حمص (المنصور ابراهيم ابن شيركوه) وجرت معركة عند بحيرة حمص سنة ٦٤٤/ ١٢٤٦، قتل فيها عامة الخوارزمية، وانتصر الصالح أيوب وضم إلى دمشق بعلبك وبصرى وصرخد . واستولى على الصلت التي كانت بيد الناصر داوود،

وضم قلعة الصبيبة [1] أيضاً إلى دمشق وكانت بيد الملك السعيد بن العزيز عثمان بن العادل. وفتح طبريا وعسقلان وأخذهما من الفرنج. وزار القدس، وأمر باعادة بناء أسوارها وخصص لها الأموال اللازمة ثم عاد إلى مصر، بعد أن وضع على دمشق نائباً هو جمال الدين ابن يغمور. وهكذا أصبح الصالح أيوب أكبر حكام الأيوبيين، بيده مصر وأكثر الشام. وقد حاول سنة ٦٤٦/ ١٢٤٨ أخذ حمص، لكن المرض عاجله فعاد إلى مصر حيث توفي في مطلع العام التالي. وخلفه ابنه المعظم توران شـاه، وفي عـهـده أي في عـام ٦٤٨/ ١٢٥٠ وصل الصليبيون [2] وأخذوا دمياط، ثم انتصر المصريون عند المنصورة، وأسروا ملك الفرنسيين. وقتل تورانشاه في العام نفسه، قتله مماليك أبيه. وانتهت بذلك دولة الأيوبيين في مصر، وتسلطن أحد أمراء المماليك، وهو الأمير عز الدين أيبك التركماني الذي لقب بالملك المعز. وانفصلت دمشق عن مصر، حيث ضمها الناصر يوسف ملك حلب وهو وحفيد صلاح الدين إلي ملكه، مع ما كان يتبعها من البلدان كبعلبك والكرك وبصرى وصرخد. وسار إلي غزة لأخذ مصر، فحاربه المماليك وكسروه.

---

(١) أو قلعة بانياس. وتدعى اليوم قلعة النمرود، تقع جنوبي غربي دمشق بالقرب من بانياس الجنوبية، وتشرف على سهل الحولة. يحتلها العدو الصهيوني منذ حرب حزيران ٩٦٧.

(٢) وهم صليبيو الحملة السابعة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا.

واستمر حكم الشام بيد الناصر يوسف مدة عشرة أعوام، فكان آخر ملوك الأيوبيين في الشام. وكانت نهايته على يد التتار الذين احتلوا بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ بقيادة هولاكو وتقدموا نحو الشام وأخذوا حلب سنة ٦٥٧، وهرب الناصر يوسف أمامهم إلي وادي موسى في الأردن، ثم وقع أسيراً بيد التتار فأرسلوه إلى هولاكو فقتله.

أما دمشق فاستسلمت لنواب هولاكو الذين حملوا إليها منه فرمانا بالأمان، وأصبح «أيل سيان» التتري حاكماً عليها وذلك في ١٧ ربيع الأول من سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩. ولم يطل احتلال التتار لدمشق، فهربوا منها حين وصلهم نبأ انتصار جيش مصر بقيادة السلطان المملوكي المظفر سيف الدين قطز، في معركة عين جالوت [١] المشهورة التي حدثت في يوم الجمعة ٢٧ رمضان من هذا العام. وقتل في هذه المعركة قائد التتار (كتبغا). ثم قدم المظفر قطز إلى دمشق كأول سلطان مملوكي واستقبلته دمشق استقبال الأبطال والمنقذين.

---

(١)- بلدة صغيرة بين بيسان والعفولة، شمال غرب بيسان وكانت تدعى قديماً عين جالود (Harod) وعندها نبع نهر جالود (انظر المصور رقم ٩) ذكر ياقوت خطأ إن موقعها بين بانياس وبيسان، وأخذ عنه «لوسترانج» (انظر اسم المصدر في لائحة المصادر الأجنبية). ذكر أبو شامة خلال حديثه عن معركة عين جالوت إن مكانها بأرض كنعان أذيل الروضتين ص٢٠٩).

ب- بناء القلعة

اعتمدنا في دراسة القلعة الأيوبية والتعرف على مخططها وأوضاعها في العهد الأيوبي على النصوص التاريخية والكتابات المنقوشة التي تمكنا من جمعها ودراستها.

كما أن آثار القلعة نفسها، وما بقي من منشآتها الأصلية ساعدتنا على دراسة مخططها ومعرفة فنون البناء والتحصين التي تميزت بها.

ذكرنا بأن القلعة الأيوبية (قلعة دمشق الحالية) بناها الملك العادل أبو بكر. لقد رأى هذا السلطان حين آلت إليه أمور الدولة في دمشق في أواخر القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) أن القلعة القديمة لم تعد تلبي الحاجات المطلوبة منها ولم تعد تتفق مع التطور الذي حدث في فن العمارة والتحصين العسكري. هذا إضافة إلى ما أصابها من تهديم خلال زلازل عامي ٥٩٧/ ١٢٠٠- ٥٩٨/ ١٢٠١ (١).

وفعلاً فقد قرر الملك العادل هدم القلعة القديمة، واشادة قلعة حديثة مكانها، تبنى وفق مخطط جديد، وفن معماري متطور، فجاءت مختلفة عن الأولى كل الاختلاف، من حيث القوة وضخامة الأبراج والمساحة وطراز البناء. ويبدو أن خطة الملك العادل كانت

---

(١) ذيل الروضتين: ص ٢٠، ٢٩.

منصرفة إلى استبدال سور القلعة القديمة بسور حديث متين، مزود بأبراج أكثر قوة وحصانة. واتضح كذلك أن الملك العادل لم يهدم كل شيء في القلعة القديمة، بل احتفظ ببعض المباني ودور السكن والدواوين التي كانت داخلها وشرع بتشييد أسوار وأبراج القلعة الجديدة. ثم أخذ في حفر الخنادق واكمال المخطط المرسوم شيئاً فشيئاً، وشاركه في مهمة البناء والاعمار أولاده وكبار الامراء الأيوبيين، واختص كل منهم ببناء جانب من سور القلعة، أو برج من أبراجها. وأسهم في أعمال البناء أيضاً أهل دمشق على اختلاف طبقاتهم وأحيائهم، وعمل فيها الفقهاء والصوفية[١]. وفي النص التالي يحدثنا ابن شداد عن موضوع بناء القلعة في عهد الملك العادل فيقول: «ولما ملك العادل دمشق هدم قلعتها ووزع بناءها على امرائه وجعلها اثنى عشر برجاً، كل برج منها في قدر القلعة، وحفر لها خندقاً وأجرى إليه الماء، فعمرت أحسن عمارة من أموال من وزعت عليهم من الامراء[٢]».

بناء برج الزاوية الجنوبية الغربية (البرج رقم٨):

ويحدد أبو شامة في النص التالي التاريخ الذي بدئ فيه ببناء القلعة فيقول:

«ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة (١٢٠٢م). وفيها شرع بعمارة سور قلعة دمشق، وابتدئ ببرج الزاوية الغربي القبلي

(١) ذيل الروضتين، ص٩٢.

(٢) الأعلاق الخطيرة، ص٣٩.

المجاور لباب النصر [1]». وباب النصر هنا هو باب المدينة الغربي المجاور للقلعة، ومكانها عند مدخل سوق الحميدية، وقد هدم سنة ١٢٨٠/ ١٨٦٣[2]. ومن المؤسف إننا لانجد أية كتابة على هذا البرج تؤرخ بناءه، بسبب تهدمه.

بناء برج الزاوية الجنوبية االشرقية (البرج رقم٤):

وفي سنة ٦٠٤/ ١٦٠٧ شرع ببناء برج الزاوية الجنوبية الشرقية. ذكر ذلك أبو شامة وقال بأنه يقع قبالة المدرسة القيمازية[3]. وهذه المدرسة بناها الأمير صارم الدين قايماز النجمي[4] المتوفي سنة ٥٩٦/ ١١٩٩. وكانت إلى جوار القلعة، بينهما الخندق والطريق. ويجاورها من جهة الشرق دار الأمير المذكور التي حولها الملك الأشرف إلى مدرسة عرفت بدار الحديث الأشرفية. وهذه المدرسة ماتزال باقية في محلة العصرونية إلي الشرق من البرج المذكور (انظر المصور رقم ١).

هذا ولانجد اليوم علي هذا البرج أية كتابة تؤرخ بناءه في عهد الملك العادل لأنه تهدم في عهد لاحق.

بناء برج في السور الجنوبي (البرج رقم ٥):

وفي عام ٦٠٥/١٢٠٨ بني البرج الذي يلي برج الزاوية

---

(١) ذيل الروضتين، ص٣٢

(٢) نعمان قساطلي، الروضة الغناء، ص١١٢.

(٣) ذيل الروضتين، ص٦٤.

(٤) انظر سيرته في الروضتين، الطبعة القديمة، ٢/ ٢٣٩.

الجنوبية الشرقية المتقدم ذكره في السور الجنوبي (البرج رقم ٥ المخطط رقم ٢)، وذلك استناداً إلى الكتابة التي تؤرخه، المنقوشة على واجهة البرج الجنوبية، ضمن لوحة ذات إطار، قياسها ٩٠×٣٠سم. وترتفع عن سطح الأرض بحوالي سبعة أمتار. وتتألف الكتابة من خمس أسطر بخط ثلث[١].

بناء برج الزاوية الشمالية الشرقية:

وفي سنة ٦٠٦/ ١٢٠٩ بني برج الزاوية الشمالية الشرقية (البرج رقم ١) وذلك استناداً إلى الكتابة المنقوشة عليه[٢]. إنها ضمن اطار حجري جميل في الواجهة الشرقية للبرج، تتألف من ستة أسطر بخط نسخي أيوبي (انظر الصورة رقم٧).

تضم الأسطر الثلاثة الأولى آية قرآنية، أما الثلاثة أسطر الباقية فهي تؤرخ بناء البرج. وقد أشرف على بنائه نائب دمشق ابراهيم بن موسى[٣].

بناء البرج الأوسط في السور الجنوبي (البرج رقم٦):

وفي العام نفسه، أي في سنة ٦٠٦ بني البرج الأوسط في

(١) انظر الكتابة رقم ٢ في لائحة الكتابات، الملحق رقم١.

(٢) انظر النص في الكتابة رقم ٤ في الملحق رقم ١.

(٣) والي دمشق في أيام العادل، ويلقب بالمعتمد ومبارز الدين، عزله المعظم عيسى سنة ٦١٧/ ١٢٢٠ وتوفي سنة ٦٢٣/ ١٢٢٧ وسيأتي اسمه في كتابات تالية (انظر ترجمته عند أبي شامة، ذيل الروضتين، ص١٠٥).

الواجهة الجنوبية بدليل الكتابة المنقوشة عليه وهي لوحة مستطيلة [١] طولها ٢٢٠سم وعرضها ٤٠سم تحتوي على ثلاثة أسطر، خط ثُلث أيوبي. وتقع في الجدار الجنوبي للبرج، وترتفع عن مستوى الأرض قرابة سبعة أمتار. ويشير النص إلى بناء البرج من قبل الملك المنصور محمد بن عمر ملك حماة (المتوفي سنة ٦١٧/ ١٢٢٢٠).

بناء برج الباب الشرقي:

وفي سنة ٦١٠/ ١٢١٣ تم بناء برج الباب الشرقي (البرج رقم٢) وذلك استناداً إلى الكتابة [٢] المنقوشة على الجدار الشرقي للبرج، وهي ضمن اطار أطواله (٨٠×٩٠سم). وتحتوي على سبعة أسطر، بخط نسخي جميل (انظر الصورة رقم٨).

بناء الواجهة الشمالية:

وفي سنة ٦١٤ تم بناء الواجهة الشمالية، كما توحي الكتابة المفقودة حالياً التي كان قد نقل نصها المستشرق «فان برشيم» في عام ١٨٩٤، وجدها على الجدار الشمالي للقلعة (البدنة ١١-١٢)[٣]. وتتألف من ثلاثة أسطر [٤] وهناك كتابة غير مؤرخة عل باب القلعة

(١) انظر الكتابة رقم ٣ في الملحق رقم١.

(٢) انظر الكتابة رقم ٥ في لائحة الكتابات.

(٣) كلمة البدنة اصطلاح استخدمه القدماء للدلالة على قطعة السور الواقعة بين برجين ويقابلها بالفرنسية Courtine-أما الرقمان هنا فيرمزان للبرجين اللذين يحدان البدنة.

(٤) انظر الكتابة رقم ٦.

الشمالي المواجه لباحة القلعة، تشير إلى بنائه في عهد العادل أيضاً. وهي منقوشة على اطار نافذة مستديرة في أعلى الباب[1].

ويلاحظ وجود زخارف وكتابة بخط عادي في زوايا النافذة ورد فيها عبارة «لاإله إلا الله محمد رسول الله».

توسعة الخندق:

يبدو أن الخندق القديم بقي في أول الأمر خندقاً للقلعة الجديدة أيضاً، ثم احتاج الأمر إلى توسيعه بما يتناسب مع ضخامة البنيان الجديد. وتم ذلك علي مراحل. ففي عام ٦١١/ ١٢١٤ جرى توسيع الخندق من الشرق، كما روى أبو شامة، قال: «وفيها هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق، ومن جملة ماهدم حمام فايماز وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة[2]». ثم جرى توسيع الخندق الغربي سنة ٦١٣/ ١٢١٦ قال أبو شامة أيضاً: «شرع في تحرير خندق باب السر وهو المقابل لدار الطعم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم وعسكره ينقلون التراب نحو الميدان الأخضر، وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يوماً والمعظم يوماً. وعمل فيه الفقهاء والصوفية ولم يبق أحد من أهل البلد، كل يوم تعمل فيه طائفة[3]».

---

(١) انظر الكتابة رقم ٧.

(٢) ذيل الروضتين، ص٨٧.

(٣) ذيل الروضتين، ص٩٢.

إن خندق باب السر يقصد به الخندق الغربي، لأن باب السر كان يتوسط الجبهة الغربية للقلعة، وسنتحدث عنه فيما بعد. أما دار الطعم العتيقة، فهي دار على نهر بانياس تحولت فيما بعد إلى اسطبل، وعرفت باصطبل السلطان[1]. والمعظم المذكور في النص هو المعظم عيسى بن الملك العادل.

المباني والمنشآت الأخرى:

رأينا فيما تقدم بأن أسوار القلعة وأبراجها بنيت في حياة الملك العادل وخلال الفترة الواقعة بين عامي ٥٩٩/ ١٢٠٢ و٦١٤/ ١٢١٧ واستغرق بناؤها خمسة عشر عاماً.

وقد استمرت أعمال الانشاء والتعمير بعد وفاة الملك العادل، وسيكون أكثرها ذات صفة مدنية كما سنرى. وأشهر هذه المنشآت هي: الطارمة، الدور والقصور، مسجد أبي الدراء، البحرة، تجديد دار المسرة ودار رضوان.

أما الطارمة، البناء المشهور الذي يتردد ذكره كثيراً في العهد المملوكي كما سنرى في الفصل الرابع فقد شيدت في أيام الملك المعظم عيسى. يقول النعيمي: «إن المعظم بنى الطارمة التي علي باب الحديد[2].

(١) انظر القلائد الجوهرية، ابن طولون، ص٨٩.

(٢) الدارس، ١/ ٥٨٤.

ويلاحظ بأن النص لايوضح كنه هذه الطارمة ولامكانها على وجه الدقة إلا أن أبا شامة ذكرها في حوادث سنة ٦١٨/ ١٢٢١ بمناسبة اجتماع الأشرف موسى ابن العادل حاكم الجزيرة بأخيه المعظم عيسى حاكم دمشق حين قدم الأول مع جيشه لمؤازرة أخيهما الملك الكامل صاحب مصر في صد الصليبيين المحاصرين لدمياط، كما رأينا. قال: «وعرض الأشرف العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطارمة[1]، بقلعة دمشق، والعساكر تمر أميراً بعد أمير...»[2].

ويبدو من هذا النص أن الطارمة كانت عبارة عن قاعة في أعلى البرج، مشرفة علي المدينة. وهذا البرج هو على الأرجح، برج باب الحديد الذي يتوسط الواجهة الشمالية (البرج رقم١١)، وسوف يحل محل هذه الطارمة بعد تدميرها من قبل المغول سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩ طارمة أخرى، يقيمها الظاهر بيبرس فوق برج الزاوية الشمالية الغربية كما سنرى في الفصل الثاني.

وينسب ابن شداد[3] للاشرف موسى بن العادل الذي حكم دمشق منذ عام ٦٢٦/ ١٢٢٨ عدة أعمال عمرانية. منها هدمه لدار

---

(١) وردت في النص «الطيارة» ونرجح أن يكون ذلك نتيجة خطأ من المحقق، أو في الطباعة.

(٢) ذيل الروضتين، ص١٢٩.

(٣) الأعلاق، ص٣٩.

المسرة وتجديدها، وهي الدار التي بناها شمس الملوك اسماعيل ورممها نور الدين، كما رأينا في الفصل السابق الخاص بالقلعة السلجوقية، وبنى الأشرف كذلك في القلعة البحرة. ونرجح أن تكون هذه البحرة في باحة القلعة.

وجدد الأشرف مسجد أبي الدرداء وزخرفة كما يقول ابن كثير [1]. ونفهم من عبارة جدد أن المسجد كان موجوداً من قبل. لكننا لم نسمع بوجود مسجد ينسب إلى أبي الدرداء.

ولما أخذ الملك الكامل محمد ابن العادل دمشق سنة ٦٣٥ / ١٢٣٧ بنى دارا في القلعة عرفت بالدار الكاملية[2].

وجرت في أيام الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل الذي أخذ دمشق ٦٣٦ / ١٢٣٨ عدة أعمال عمرانية ذكرها ابن شداد. يقول: «بنى بها برجاً من شرقيها كان قد تهدم وبنى دركاة لباب المدينة[3]».

ولا يفصح النص المتقدم عن أي من الأبراج جرى تجديده، ولا تمدنا الكتابات المنقوشة على أبراج القلعة بأية معلومات في هذا الصدد، ذلك لأن هذه الأبراج رممت في عهود لاحقة.

---

(١) البداية والنهاية، ١٣ / ١٤٨.

(٢) الأعلاق، ص٣٩.

(٣) الأعلاق، ص٣٩.

أما الدركاة أو الدركاه فهي كلمة فارسية ويقصد بها قاعة وراء الباب أو دهليز. والمقصود بباب المدينة، على الأرجح، باب القلعة الشرقي لأنه الباب الذي يفتح إلى داخل المدينة دون غيره.

وأخيراً فإن ابن شداد ينسب إلى الناصر صلاح الدين آخر ملوك الأيوبيين تجديد دار رضوان. يقول: «وكان قد وقع روشنها، وحسنها وعمل بها قبة مرتفعة [1]» ودار رضوان من الدور التي بقيت من القلعة السلجوقية، بناها تتش مؤسس دولة السلاجقة في دمشق لابنه رضوان كما رأينا في الفقرة (و) من الفصل الأول.

حـ- كيف حلت القلعة الأيوبية محل القلعة السلجوقية

سؤال يرد إلى الأذهان عن الكيفية التي تم بها إزالة القلعة القديمة وإقامة قلعة جديدة في مكانها. هل أقدم العادل على هدم القلعة القديمة كلياً ثم بدأ ببناء القلعة الجديدة؟ وهل بقيت دمشق دون قلعة إلى أن تم يناء القلعة الجديدة؟ يرى «كينك»[2] في ذلك رأياً هاماً إذ يقول: «يبدو أن التحصينات في القلعة الجديدة قد أقيمت متقدمة قليلاً عن الخط الدفاعي في القلعة القديمة. وذلك أن السلطان العادل كان يحرص على احاطة القلعة القديمة بخط دفاعي جديد يحل محل القلعة القديمة قبل أن تهدم. وبذلك يتجنب حالة البقاء بأبراج نصف

---

(١) الأعلاق، ص٣٩.

(٢) The Defences of the Citadel,op.cit,p.63

مبنية فيما لو أقدم على هدم القلعة. وإن فكرة احاطة التحصينات السابقة بتحصينات جديدة عرفت أيضاً في مشاريع العادل الأخرى، في القاهرة مثلاً، حيث جرى توسيع خمسة أبراج مستديرة من عهد صلاح الدين، وكذلك في عجلون والصبيبة الخ ...». ويقول أيضاً: «ولكن لهذه الطريقة عيوبها، فالتحصينات الجديدة في هذه الحالة يجب أن تقام أساساتها على الخندق القديم، كما أن المباني السكنية يجب إما أن تلتحم بعناصر القلعة القديمة كما هو الحال في الزاوية الشمالية الشرقية من السور، وإما أن تقام بعد هدم الجدران القديمة كما يشاهد ذلك في الجهة الجنوبية، حيث تتصل في مكان واحد على الأقل التحصينات بالمباني الداخلية دون نظام غالباً».

«ومن ناحية أخرى فإن بناة القلعة الجديدة بشروعهم في اقامة خط دفاعي كامل كان موجوداً من قبل، مكنهم من بناء التحصينات الجديدة على مراحل، أي قطعة قطعة. وهذا يدعو للقول: أنهم بدلاً من أن يبدأوا العمل في كامل القلعة من الأساس وحتى الارتفاع المطلوب، عمدوا على اتمام قطاع من التحصينات قبل أن يبدأوا ببناء مايليه. الواقع أن هذا هو الذي حدث. فالكتابات التي تنسب إلى العادل تمتد على فترة طويلة هي تسع سنوات (١٢٠٨-١٢١٧) وكذلك أسهم أولاد أخيه في بناء أقسام مختلفة من القلعة.

ومع أن الأبراج فيها نسبة كبيرة من الوحدة تفرض بناءها وفق مواصفات ثابتة، فإن هناك بعض الفروق الظاهرة في التفاصيل».

ويضيف كينك أيضاً قائلاً: «ليس لنا أن نعجب من طريقة البناء المجزأة هذه لأن كثيراً من الحصون المماثلة يكشف تاريخها المعقد سلسلة من الأساليب المتباينة، بينما استطاع العادل أن يحقق في قلعته الكبيرة تنفيذ مخطط واحد مترابط».

إننا نؤيد ماذهب إليه «كينك» من حيث عدم هدم القلعة القديمة والاحتفاظ بها لحين اكمال خط الدفاع الأمامي الجديد أي السور والأبراج. ونستخلص من ذلك عدة أمور:

أولها- أدى إقامة الخط الدفاعي الجديد أمام الخط الدفاعي القديم إلى توسيع محيط القلعة على حساب خندق القلعة السلجوقية، لأن هذه كانت محاطة بخندق، كما بينا في الفصل السابق. ولعل ذلك كان السبب في قيام العادل بعد ذلك بتوسيع خندق القلعة.

وثانيها- بقاء عناصر من السور القديم دون هدم، ماتزال تشاهد في الزاوية الشمالية الشرقية، وعند باب القلعة الشمالي، وخلف الباب الشرقي، هذه العناصر حسبها البعض من بقايا حصن روماني أو بيزنطي. لكننا أثبتنا في الفصل السابق تبعيتها إلى القلعة السلجوقية.

ولقد أوضحت في البدء أن العادل لم يهدم كل شيء في القلعة، بل احتفظ ببعض المباني من دور وحمامات ومساجد، استمر

ذكرها بعد بناء القلعة الأيوبية، كدار المسرة التي بناها نور الدين، ودار رضوان التي بناها تتش، وجامع أبي الدراء، وغير ذلك من المباني.

ثالثها- إن خطة البناء المرحلية هذه أبدتها التواريخ المختلفة المنقوشة على الأبراج وكذلك النصوص التاريخية التي تشير إلى أن مسؤولية البناء توزعها العادل وأولاده، والأمراء الأيوبيون. واختص كل منهم ببناء برج. وهذا يفسر مالاحظته، خلال تفحصي لأسوار القلعة الخارجية، من عدم اتصال البناء بين برج الزاوية الجنوبية الشرقية وبين البدنة الملاصقة له في الجدار الشرقي (البدنة ٣-٤) فهما منفصلان كلياً من الأعلى إلى الأسفل، مما يدل على أن كلاً من الجزأين، البرج والبدنة، بني مستقلاً عن الآخر.

د- حدود القلعة ومحيطها الخارجي

حلت القلعة الأيوبية محل القلعة السلجوقية، واتخذت مكانها في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، ممتدة بين بابين من أبوابها هما: باب الفرج في الشمال وباب النصر في الغرب (المخطط رقم ١) لم تتغير حدودها الشمالية كثيراً عن حدود القلعة السابقة، حيث تجري بالقرب من السور قناة تتفرع عن نهر بردى، كانت تسمى النهر المجدول، وتعرف حديثاً بالنهر العقرباني. ويليها شمالاً نهر بردى، وعليه أمام القلعة جسران مازالا موجودين إلى اليوم. الجسر الشرقي يقابل باب القلعة الشمالي وكان يسمى جسر باب الحديد، سبق أن تحدثنا عن الباب والجسر في الفصل السابق، وقد تغير اسم الجسر اليوم، وكان آخر من ذكره من المؤرخين ابن عبد الهادي المتوفي

سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م في صدد حديثه عن الأسواق قال: «سوق الرحال على جسر الحديد تحت القلعة [١]» ومازال تباع على هذا الجسر بضائع الرحلات كالخيام وغيرها، كجزء من سوق السروجية.

أما الجسر الغربي فيطلق عليه اليوم اسم «جسر الزرابلية» وقد اسمته مصادر العهد المملوكي جسر الزلابية.

وتوجد بين النهر والقناة قطعة أرض من المرجح أنها كانت خلاء ويحتلها منذ العهد المملوكي سوق عرف بسوق السروجية [٢] ومازال إلى اليوم يدعى كذلك [٣] ويلي نهر بردى من الشمال المنطقة التي اشتهرت في القديم بتحت القلعة.

أما حدود القلعة الغربية، فهناك بمحاذاة جدار القلعة سوق مسقوف أقيم في أواخر العهد العثماني، بعد ردم خندق القلعة، يعرف بسوق الخجا، ويليه من جهة الغرب محلة السنجقدار، وقبيها سوق مكشوف يمتد من الشمال إلى الجنوب وفيه جامع السنجقدار، وكان اسمه في الأصل جامع أرغون شاه [٤] وقبل ردم الخندق كان هناك طريق يوازيه، وصفه الرحالة «بورتر» [٥] حين مر به عام ١٨٥٠، ولم يكن الخندق قد ردم وقتئذ.

وفي الجهة الشرقية للقلعة يوجد سوق العصرونية، أقيم بعد

---

(١)-(٢) نزهة الرفاق، الخزانة الشرقية، ٣/ ١٢٥, ١٢٦.

(٣) هدم القسم الغربي من هذا السوق مع حمام الرأس في عام ١٩٧٠ عند فتح شارع الثورة.

(٤) نائب السلطنة في دمشق. وفي الجامع تربته، دفن فيها بعد مقتله سنة ٧٥٠/ ١٢٤٩.

(٥)- Five years in DAMASCUS,P.501

ردم الخندق في أواخر العهد العثماني والتصقت المحلات التجارية على سور القلعة باستثناء باب القلعة الذي أصبح خاصاً بسجن القلعة. وكان يوازي خندق القلعة من الشرق شارع يمتد من الجنوب إلى الشمال حتى باب الفرج. ويتفرع عنه طريق باتجاه الشرق، تقع على يمينه دار الحديث الأشرفية التي حولها الأشرف موسى إلى مدرسة بعد أن كانت داراً للأمير صارم الدين قايماز [1] الذي أخذت حمامه المجاورة لداره وضمت إلى الخندق عند توسعته.

أما الجهة الجنوبية فيحتلها اليوم سوق الحميدية الذي تلتصق مخازن جانبه الشمالي على سور القلعة، وكان يوجد قبل ردم الخندق سوق يوازيه يعرف بسوق الأروام بقيت منه بعض آثاره خلف سوق الحميدية، ويبدأ غرباً من باب النصر[2]. ويتجه نحو الشرق إلى باب البريد والجامع الأموي. وكانت تقع في أول سوق الاروام في العهد المملوكي «دار السعادة» مقر نواب السلطنة[3]. وقد عثرنا على صورة أخذت في أواخر القرن التاسع عشر تظهر الجانب الغربي من الخندق قبل ردمه وإلى جواره سوق الاروام [4].

(١) وهو من أمراء صلاح الدين توفي سنة ٥٩٦/ ١١٩٩ (انظر ابن كثير، ١٣/ ١٣٥، والروضتين، ٢/ ٢٣٩).

(٢) اقامة صلاح الدين في مكان باب قديم وقد هدم باب النصر سنة ١٨٦٣ (قساطلي ص١١١). لاحظ بورتر سنة ١٨٥٠ وجود سورين عند هذا الباب وبابين متتابعين يؤديان إلى سوق الاروام (انظر المصور رقم ٨).

(٣) انظر: قصور الحكام في دمشق، المصدر المتقدم، القسم الأول، ص٤٨.

(٤) الصورة رقم ٣.

هـ- مخطط القلعة

تستطيع أن ندرس مخطط القلعة من آثارها الباقية، وأغلب هذه الآثار ترجع إلى عهد القلعة الأولى عهد الملك العادل الأيوبي، وهذا يساعد على رسم مخططها بصورة شبه تامة، وقد نشر هذا المخطط في كل من دراسات «سوفاجه، وسوبرنهايم وكيتك». ونلاحظ بأن هذه المخططات الثلاثة متشابهة تقريباً ليس فيها اختلاف إلا في التفاصيل والجزئيات. والنقص في هذه المخططات يرجع إلى تهدم بعض الأبراج لاسيما في الجهة الغربية وارتدام بعض أجزاء القلعة وقيام المنشآت الحديثة عليها داخلاً وخارجاً.

وقبلَ أن نبحث في هذا المخطط يحسن أن نلقي نظرة على النصوص التاريخية لنرى بماذا تمدنا به من معلومات عن مخطط القلعة الأصيل.

المعلومات في هذا المضمار قليلة جداً، والشيء الهام فيها هو مايتعلق بعدد الأبراج والأبواب. فبينما اعتقد سوفاجه وكينك بأن عدد أبراجها ثلاثة عشر نرى ابن شداد يحددها باثنى عشر برجاً[1].

أما أبواب القلعة فقد اجمعت المصادر على وجود أربعة أبواب بينها اثنان رئيسيان وثابتان أحدهما في الشمال يصل القلعة بخارج المدينة مباشرة والثاني في الشرق يفتح على المدينة وهو المدخل

(١) الأعلاق، ص٣٩.

الرسمي. وثمة بابان آخران أطلق عليهما ابن شداد وأبو البقاء اسم باب السر - POTERN- وأبواب السر هي أبواب تؤدي إلى الخندق، وتجتازه بجسور معلقة - PONTLEVIS-.

قال ابن شداد: ولهذه القلعة في زماننا (عهد الظاهر بيبرس) أربعة أبواب: باب الحديد، وباب جهة المدينة، وباب يخرج منه إلى باب النصر وإلى دارالسعادة [١] (يقصد به الباب الجنوبي)، وباب من جهة الغرب يخرج منه إلى حكر السماق، ومنه يركب السلطان، ولها ثلاثة أبواب سر في الخنادق [٢].

ويطلق أبو البقاء على الباب الغربي اسم باب السر، ويقول: سمي يذلك لأن الأتراك (يقصد المماليك) ينزلون منه سراً ويطلعون منه على جسر من خشب تحته الخندق الخ ... [٣].

وكذلك ذكر باباً آخر سماه باب السر في سياق حديثه عن دار السلطان أو دار السعادة الواقعة جنوبي القلعة فقال: وهي تلي باب السر. ولاشك أنه قصد بذلك باب القلعة الجنوبي. ويؤيد ذلك خبر أورده ابن كثير في حوادث سنة ٧٤٢/ ١٣٤٢ قال: ... وحملوا إلى القلعة من باب السر مقابل دار السعادة[٤].

---

(١) انظر موقعها على المصور المنشور في قصور الحكام، المصدر السابق، القسم الأول من المقال.
(٢) الأعلاق، ص٤٠.
(٣) نزهة الأنام، ص٢٦.
(٤) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٠٧.

اذن، لقد كان للقلعة في أيام ابن كثير وأبي البقاء، أي في العهد المملوكي، بابان للسر أحدهما في جدارها الجنوبي والآخر في جدارها الغربي. ولعل الحال كان كذلك في العهد الأيوبي أيضاً.

وإذا تأملنا مخطط القلعة اليوم نلاحظ بأن لها شكلاً مستطيلاً، ولكنه غير منتظم. فيه جبهتان طويلتان أحداهما في الشمال، والاخرى في الجنوب، وجبهتان قصيرتان، أحداهما في الشرق والأخرى في الغرب. وهذه الأخيرة أقصر من مقابلتها الشرقية.

ونلاحظ كذلك بأن الأضلاع ليست مستقيمة، فالجبهة الشرقية محدبة قليلاً نحو الخارج والجنوبية نصفها الغربي يبرز عن النصف الشرقي باتجاه الجنوب. أما الجبهة الشمالية فهي مستقيمة في قسمها الشرقي حتى باب الحديد ثم تنحرف إلى الداخل مشكلة قوساً يمتد من باب الحديد إلى برج الزاوية الشمالية الغربية الذي يتقدم كثيراً نحو الجنوب على البرج المقابل في الزاوية الشمالية الشرقية.

ولانجد مايفسر هذا الوضع غير الخبر الذي تقدم معنا حول بناء القلعة على قطاعات استقل كل أمير من أمراء الملك العادل ببناء واحد منها[١]. ويرى «كينك» بأن بناء القلعة لم يحدث دفعة واحدة بل كانت تهدم قطعة من القلعة القديمة فيجري تجديدها، ثم تهدم قطعة أخرى وتجدد وهكذا[٢].

---

(١) الأعلاق، ص٣٩.

(٢) op.cit,p.62

وبناء على ما تقدم فليس للقلعة طول وعرض ثابتان لكننا وجدنا بأن طولها يترواح بين ٢٤٠ و٢٢٥ متراً وعرضها يتراوح بين ١٦٥ و١٢٠م وهكذا تكون مساحتها التقريبية حوالي (٣٣١٧٦) متراً مربعاً.

ويتوزع على السور حالياً اثنا عشر برجاً (انظر المخطط رقم ٣). وكانت في الأصل كما يرى سوفاجه و«كينك» ثلاثة عشر. أما الثالث عشر المفقود معالمه فهو برج الباب الغربي في زعمهما. ولكن كيف نوفق بين هذا الرأي وبين رأي ابن شداد وهو المؤرخ الوحيد الذي أخبرنا عن عدد أبراج القلعة حيث قال بأنها اثني عشر برجاً. وبما أن الجبهتين الشرقية والجنوبية لم تتغير معالمهما، فإن أنظارنا في حل هذه المعضلة يجب أن تتجه إلى الجبهتين الشمالية والغربية. وهنا تبدو لنا فرضيتان:

الفرضية الأولى: تقوم على أن الجبهة الغربية كانت كما هي الآن، ليس فيها من الأبراج سوى برجي الزاويتين الشمالية والجنوبية، أي أن الباب الغربي كان مفتوحاً في البدنة. ويؤيد ذلك أن هذا الباب لم يكن بحاجة لبرج يحميه. لأنه من أبواب السر، فهو لايستعمل دائماً وغير متصل بالخارج بجسر ثابت بل بجسر خشبي معلق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن المسافة بين برجي الزاوية قصيرة بالنسبة للجبهة الشرقية المقابلة فهي لاتستوجب قيام برج ثالث عليها.

الفرضية الثانية: في حال وجود برج عند الباب الغربي يجب أن نحذف برجاً من أبراج الجهة الشمالية لكي يصبح عدد أبراج القلعة اثني عشر برجاً. وهذا يستدعي أن يكون واحد من الأبراج قد أحدث بعد ابن شداد. وفعلاً فأنا نلاحظ بأن البرج رقم ١٠ صغير جداً بالنسبة لأبراج القلعة، كما أن هندسته ومواد بنائه ليس فيها من الأصل الأيوبي أي أثر (انظر الصورة رقم٩). إلا أن الكتابة المنقوشة على واجهته الشمالية تشير إلى تجديده في عهد الغوري، وهذا لايتعارض مع القول بأحداثه بعد ابن شداد ثم تعرض للهدم وجدد في عهد الغوري، آخر سلاطين المماليك فهو إذن غير أصيل.

ويجدر بنا هنا أن نذكر بأن تعداداً متأخراً للأبراج زودنا به الرحالة الفرنسي دارفيو الذي زار دمشق في عام ١٦٦٠ قال: أن للقلعة أربعة عشر برجاً مربعاً، خمسة في كل من الضلعين الكبيرين، واثنان في كل من الضلعين الصغيرين(١).

ونلاحظ من وضع القلعة الحاضر أن قوله يعتبر صحيحاً بالنسبة للواجهتين الشمالية والجنوبية، فيما لو اعتبرنا أبراج الزوايا في عدادها. كذلك هو صحيح بالنسبة للواجهة الشرقية. أما البرجان اللذان زعم وجودهما في الواجهة الغربية فانا نشك في صحة وجودهما، بالاستناد إلى ماقدمه ابن شداد من وصف. ولابد أن دارفيو أخطأ في العد حيث توهم بأن الواجهة الغربية مناظرة تماماً للواجهة الشرقية.

---

(١) Memoire,op.cit,p.449

وخلاصة القول أننا سنأخذ برواية ابن شداد، ونعتبر عدد أبراج القلعة في الأصل اثني عشر برجاً، وذلك حتى تكشف أعمال التنقيب عن حقائق مغايرة.

أما بالنسبة لهندسة الأبراج، فأنا نميز بينهما ثلاثة أنواع هي: الأبراج المربعة ونجدها في برجي الزاويتين الشماليتين. بينما نجد برجي الزاويتين الجنوبيتين يرسمان زاوية قائمة ويشبهان الحرف الفرنسي (L). أما بقية الأبراج فهي مستطيلة طولها ضعف عرضها تقريباً. وكلها تبرز عن السور وتكاد تقع كلياً خارج خط البدنات (انظر المخطط رقم٣).

أن أبراج القلعة كلها باقية بحالة جيدة وأصيلة تقريباً باستثناء أبراج الجبهتين الغربية والشمالية، فإنها إما مهدومة وأما مجددة في العهد العثماني. فبرج الزاوية الجنوبية الغربية تهدم أغلبه، ولم يبق منه سوى جزء من الطابق الأرضي.

هذا وسنعود إلى التفصيل في وصف الأبراج في الفصل الخاص بهندسة القلعة. ويكمل نطاق سور القلعة بدنات تصل بين الأبراج، وهي ذات جدران سميكة، مؤلفة من طابقين من المرامي، وتنتهي في أعلاها بستائر مزودة بشرافات ذات مرامي صغيرة.

ولاكمال مخطط القلعة يحسن أن نلقي نظرة علي المباني الباقية معالمها داخل القلعة. فهناك الآن ممر مسقوف يحاذي الأبراج

والبدنات من الداخل ويطوف بجهات القلعة الأربعة. وقد تهدم أكثره. وأهم أقسامه الباقية نجدها في الجبهة الجنوبية. وكذلك في الجبهة الشرقية يوجد قسم يحاذي نصفها الشمالي.

أما **أبواب القلعة**، فالباب الشرقي موجود بحالة جيدة وكاملة، وهو أصيل مايزال كما شيد في العهد الأيوبي. ولكن البا الشمالي تهدم مع قسم كبير من البرج الذي يحويه وتغيرت معالمه، وادخلت عليه ترميمات مملوكية، وزالت آثار الباب الأيوبي. وأما البابان الغربي والجنوبي فقد ضاعت معالمهما.

ومن المباني الباقية في القلعة، بناء مقسم إلي عدد من القاعات الصغيرة، يمتد خلف الجانب الغربي للسور الجنوبي، أطلق عليه سوفاجه اسم القصر الأيوبي وهومؤلف من طابقين (انظر رقم ١٧ في المخطط رقم ٣، والصورة رقم ١٠).

و- مواد البناء وفن النحت

بنيت القلعة بالحجارة الكلسية المتوفرة مقالعها في ضواحي دمشق واستخدمت معها حجارة سوداء من البازلت بشكل محدود جداً. ويلاحظ بأن الانشاءات الأصلية التي تمت في العهد الأيوبي كانت حجارتها من النوع «السوري»، ويتصف بالحجارة ذات الرؤوس الماسية. ABOSSAGE وهي ذات وجه بارز مقطوع قطعاً غير منتظم يحيط به اطار صقيل، ويتراوح البروز مابين ١٥و٢٠

سنتيمترا. ونجد نسبة ضئيلة من حجارة البناء نحتت وجوهها بشكل منتظم بحيث يشكل القسم البارز سطحاً مستوياً، يبرز قليلاً عن الاطار المحيط به. وقد استخدم هذا النوع من الحجارة بشكل خاص في الرواشن BRETECHES التي تتوج أبراج القلعة جميعها. أما الحجارة المستوية النحت الخالية من البروز فنادرة الاستعمال، ونجدها في سواكف الأبواب وما يحيط بها، وحيث توجد الكتابات التذكارية. وقد تزود هذه الأماكن بأحجار ذات زخارف منحوتة سيأتي الحديث عنها فيما بعد.

وأخيراً فإنا نلحظ استعمال حجارة من المباني القديمة الرومانية العهد، ولكن في أماكن محدودة وغير ظاهرة تقريباً، اذ لانجدها في الواجهات الخارجية. ويمكن التعرف عليها من طريقة نحتها وزخرفتها، حيث تشاهد أعمدة وقطع تحتوي على مسننات أو بيوض ولآلىء. وقد أيدت الروايات التاريخية موضوع استخدام هذه الحجارة لدى بناء القلعة في أيام الملك العادل. قال العمري: «وحكى لي المعلم [1] علي بن محمد بن التقي المهندس قال: كان لهذه الكنيسة (يقصد معبد جوبيتر) رواق يحيط بها من الجهات الأربعة[2] ... فكان

(١)- تعني كلمة المعلم في ذلك العهد البناء أو المعمار وكان يقال له معلم السلطان حتى عهد قريب.

(٢) انظر المخطط رقم ٧.

الباب الغربي تلقاءه وراء المسرورية ما بين العصرونية[1] وبينها وبقي إلى زمن العادل أبي بكر ففكه لما عمر القلعة ونقل حجارته وعمده إليها[2].

في العهود التي تلت العهد الأيوبي، تغيرت طريقة النحت. وبذلك تميزت الأقسام المجددة والمرممة عن الأقسام الأصلية، فلم تستعمل الحجارة البارزة النحت من كلي النوعين اللذين مر ذكرهما، وقد أعيد استعمال حجارة القلعة المتساقطة ونحتت الحجارة الجديدة بشكل مختلف فهي مستوية الوجوه، ليس لها اطار منحوت. ولكن بينما ظلت مقاييس الحجارة كبيرة وشبيهة بمقاييس الحجارة الايوبية، صغر حجم الحجارة في أعمال التجديد التي جرت في أواخر العهد المملوكي وفي العهد العثماني. وقلت العناية بنحتها، واستخدم العثمانيون أحياناً حجارة غشيمة في أعمال الترميم.

ز- الخندق والمياه:

تأكد لنا في الفصل السابق بأن القلعة السلجوقية كانت مزودة بخندق، وإن هذا الخندق كان يملأ على الأرجح بالمياه، من نهر بانياس الذي يدخل إلي القلعة من غربيها، ومن مياه النهر المجدول الجارية بحذاء سورها الشمالي.

---

(١) المسرورية والعصرونية مدرستان قديمتان تقعان غربي الجامع الأموي. زالتا.

(٢) مسالك الابصار ١/ ١٨٩.

وكان متوقعاً، بعد بناء القلعة الأيوبية واتساع رقعتها أكثر من القلعة السلجوقية، توسعة الخندق أيضاً، أو حفر خندق جديد. وقد رأينا في الفقرة الثانية من هذا الفصل عملية توسيع الخندق أيام العادل من الشرق والغرب.

ويصف لنا أبو البقاء حالة الخندق في عهده (القرن التاسع الهجري) فقال في سياق حديثه عن الباب الغربي الذي سماه باب السر مايلي: وتحته الخندق الدائر بالقلعة ينيف عمقه علي مائة ذراع بالعملة، به يتخزن الماء وينبت البوص (القصب) وغير ذلك، وهو غير خندق المدينة [1].

وقال العمري: يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة وإذا دعت الحاجة أطلق إلى جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها[2].

تعطينا هذه النصوص فكرة عن أهمية خندق القلعة الذي جرى حفره في أعقاب تشييد القلعة الأيوبية، ويبدو أنه زاد اتساعاً عن حدوده السابقة، لاسيما في الجهتين الشرقية والغربية وأدى الأمر إلى هدم أبنية كانت تحيط بخندق القلعة القديم فغدا أكثر عمقاً وأكثر عرضاً.

---

(١) نزهة الأنام، ص٢٦.

(٢) مسالك الأبصار، قطعة من مخطوط نشرها صلاح المنجد في مجلة معهد المخطوطات عدد مايس ١٩٥٧ ص١١٨، انظر أيضاً صبح الأعشى ٤/ ٩٣.

ولاندري مدى صحة القياس الذي أعطاه لنا أبو البقاء لعمق الخندق، لأن مئة ذراع تعادل نحو ٦٥ متراً (١) وتعتبر في غير حدود المعقول. والفرق كبير بين هذا الرقم وبين الرقم الذي يعطيه لعمق الخندق الرحالة الفرنسي «دارفيو»، (٢) الذي قدر عمق الخندق بحوالي ستة أمتار (3TOISE)(٣) وهناك احتمال أن يكون الخندق قد ردم بعض الشيء وأصبح في أيام «دارفيو» في القرن السابع عشر (عام ١٦٦٠) أقل عمقاً مما كان عليه في أيام أبي البقاء (القرن الخامس عشر).

أما عرض الخندق فليس من المؤرخين العرب من يشير إلى قياسه، والقياس الوحيد الذي عرفناه هو قياس «دارفيو» الرحالة الفرنسي ذاته إذ قال بأنه حوالي عشرين متراً (10 TOISES).

ولاتوجد اليوم أية قطعة ظاهرة من الخندق كي نحاول الاعتماد عليها في قياسه. إلا أننا تمكنا من مشاهدة جانب من الخندق الجنوبي من جهة الغرب قبل ردمه، في الصورة القديمة للقلعة (الصورة رقم ٣) والتي ترجع حتماً إلى أواخر القرن التاسع عشر، لأن «أوبنهايم (٤)» نشرها في كتابه سنة ١٨٩٩ ويبدو الخندق فيها

(١)- جاء في الموسوعة الاسلامية أن ذراع العملة كذراع الهندسة يعادل ٦٫٦٥ سنتيمترا: (W.Hinz:Ency.de L,Islasm,N.E.,T.,II,P.238)

(٢)- op.cit.p.449

(٣)- وحدة قياس فرنسية قديمة تعادل ١٫٩٤٩ من المتر، كما ورد في قاموس لاروس.

(٤)- انظر كتابه في قائمة المصادر.

خالياً من المياه، وقد نبتت فيه الشجيرات والأعشاب. ويبدو في الصورة أيضاً الجزء الشرقي من الخندق قد احتله سوق الحميدية، أما القسم الغربي الحالي من السوق، فلم يكن قد بني بعد عند أخذ الصورة، فقد أورد الحسن البوريني في كتابه خبراً عن بناء المدرسة الأحمدية التي ماتزال قائمة إلى اليوم، قال: إن الوالي شمسي باشا (حكم بين سنتي ٩٦٠/ ١٥٥٢ و٩٦٢/ ١٥٥٤) بنى خانقاها قبالة قلعة دمشق، من جانبها القبلي، ملاصقة للخندق [١]. ونعتقد أن كلمة ملاصقة لاتعني معناها الحرفي، إذ كان هناك طريق يفصل بين الخانقاه والخندق، وكان إلى جوار المدرسة من ناحية الغرب سوق الاروام. وقد أيد وجود الخندق بين القلعة وسوق الاروام خبر رواه المحبي في القرن السابع عشر قال فيه: «خندق بين سوق الاروام والعمارة الأحمدية» [٢] اشارة إلي حادثة وقعت عند الخندق.

أما الخندق المحاذي للقلعة من جهة الشمال فقد تغير وضعه، بالرغم من عدم قيام أسواق أو منشآت في مكانه، ونشاهد اليوم في مكان الخندق ممراً ضيقاً يحاذي أسوار القلعة وأبراجها ويؤدي حتى باب القلعة الشمالي. ويظهر بعد ذلك بمحاذاة الأسوار والأبراج الأخرى إلى أن ينتهي عند طاحونة باب الفرج (انظر المصور رقم ٥). ويلي هذا الممر قناة فيها ماء جار، اعتبرها «سوفاجه» وكذلك «كينك»

---

(١) تراجم الأعيان، ١/ ١٨٨.

(٢) خلاصة الأثر، ١/ ٢٠٩.

استمزاراً لنهر بانياس. ولكن تبين لنا بأنها ليست كذلك وإنما تتفرع من نهر بردى الأصلي عند ساحة المرجة. وتلاقي هذه القناة طاحونة المناخلية المجاورة للقلعة من جهة الشرق، وتدخل من منافذها، ويصب ماتبقى من مياهها في نهر بردى المار من أمام الطاحونة وباب الفرج. ويلاحظ بأن جدار القناة الشمالي قديم، يظهر ذلك من شكل حجارته، ونعتقد بأن هذا الجدار كان يؤلف الحد الشمالي للخندق. وكان حدها الجنوبي يصل إلى أسوار القلعة وأبراجها، دون أن يفصله عنها شيء. ثم جرى تضييق القناة وردم الجانب الملاصق للقلعة منها، وأحدثت التصوينة اليمنى للقناة حينئذ، وجعلت باستقامة واجهة برج الباب الشمالي وذلك لاحداث الممر الذي يسمح بالدخول إلى القلعة، دونما حاجة لاجتياز جسر فوق القناة (انظر المصور رقم ١). نعتقد بأن هذا التعديل حدث في وقت متأخر وبعد عام ١٨٥٥، السنة التي زار فيها «بورتر» القلعة وطاف حولها، ولم يتمكن من الاقتراب من جبهتها الشمالية إلا بالابتعاد شمالي نهر بردى. وقد أشار بأن القلعة كانت محاطة بخندق عميق (١).

كذلك حين ثار أهالي دمشق على الوالي سليم باشا سنة ١٨٣١، هرب من السرايا الكائنة وقتئذ خارج باب النصر، ماشياً إلى السروجية، فعبر من الجامع الذي في السروجية إلى الخندق ثم دخل القلعة(٢). وهذا يعني أن الخندق كان مايزال موجوداً، ولابد من

Five Years,op-cit.p.50 (١)

(٢) مذكرات تاريخية، المصدر السابق، ص١٠.

اجتيازه للوصول إلى القلعة، وأن اجتياز حدث عن طريق الجامع القائم على ضفة الخندق (انظر المحضر رقم ٦٢ من المصور رقم ١).

مما تقدم وباعتبار أن الضفة اليسرى للقناة الحالية تؤلف الحد القديم للخندق، فقد أصبح بالامكان حساب عرض الخندق في أماكن متعددة من واجهة القلعة الشمالية، وذلك كما يلي: ٢٠ متراً أما البرج رقم ٩، ١٣ متراً أما البرج رقم ١٠، ٥أمتار أمام البرج رقم ١١، ١٧,٥ متراً أمام البرج رقم ١٢ ,١٨ متراً عند البرج رقم ١.

وهكذا نجد أن عرض الخندق الوسطي يتراوح بين عشرين وخمسة أمتار، ولاتزال قطعة من تصوينة الخندق موجودة في الزاوية الشمالية الغربية، شاهدناها بوضعها الأصيل، وحجارتها الجيدة النحت، وتحتها قنطرة تمر منها المياه، قادمة من نهر بردى كما ذكرنا.

لاحظ كينك قلة عرض القناة التي سماها قناة بانياس، وشك في أصالة التنظيم الدفاعي الحالي، لأنه لايضايق العدو البتة، لاسيما مع وجود الممر المحاذي للقلعة. كما لاحظ بأن هذا الممر يسد بعض مرامي السور والأبراج في القسم الغربي منه، وقال بأنه توجد سطوح مشابهة في الحصون الانجليزية التي ترجع إلي عهد متأخر غير مؤرخ، تضعف قوتها الدفاعية. وأضاف: حتى لو أننا أزلنا الممر (المحدث) فإن الخندق يبقى ضعيفاً، وبشكل ظاهر عند برج الباب الشمالي. ويرى بأنه ربما جرى تضييق القناة من ضفتها اليسرى أيضاً، حيث تشاهد أجزاء من تصوينتها مبنية بحجارة جيدة النحت وبعضها مبني

بحجارة أقل جودة. بينما تصوينة الضفة اليمنى (القريبة من القلعة) مبنية بحجارة غير جيدة، ومن الطبيعي أن الحجارة الجيدة النحت تدل على الحدود الأصلية للقناة (١).

والخلاصة أن ردم الخندق حدث تدريجياً وفي عهد متأخر. فالصورة التي أشرنا إليها قبل قليل تظهر جانباً من الخندق الجنوبي غير مردوم، وربما كان الخندق الشرقي وقتئذ غير مردوم أيضاً، لأن الواجهة الشرقية للقلعة تبدو في الصورة مكشوفة لاتحجبها الدكاكين، كما هو حالها اليوم.

أما الخندق الغربي فنعتقد بأن ردمه قد تأخر إلى حين بناء سوق الخجا سنة ١٨٩٥.

وتلاحظ عند برج الزاوية الشمالية الشرقية وجود جدار بني في مكان الخندق، يصل بين البرج وبين طاحونة باب الفرج التي تكمل الخط الدفاعي للمدينة في هذه المنطقة.

وهذا الجدار مبني في عهد متأخر يرجع كما توحي حجارته إلى العهد العثماني. ولاشك أنه أقيم بعد ردم الخندق، لاحكام الاتصال بين القلعة وبقية سور المدينة. ولعل الاتصال بين القلعة والسور قبل ردم الخندق كان يتم بواسطة قناطر، حيث تشاهد قطعة من قنطرة لاصقة بالزاوية الجنوبية تنطلق باتجاه الشرق.

ونذكر هنا بأننا لاحظنا في المصور الذي نشره «بورتر» لمدينة

---

(١) King,op.cit.,p.59

دمشق خلال زيارته لها في عام ١٨٥٠ قطعة من السور متصلة ببرج الزاوية الجنوبية الغربية، ويليها الخندق الجنوبي للقلعة، ثم باب النصر وسور المدينة المتجه إلي باب الجابية (المخطط رقم ٨) وهو وضع مشابه للوضع الذي وصفناه عند الزاوية الشمالية الشرقية (انظر المصور رقم ٥ الحرف H).

من المؤكد أن خندق قلعة دمشق لم يكن خندقاً جافاً كما ظن سوفاجه [١]، بل كان معداً لملئه بالمياه ليزيد في حصانة القلعة. ولكن هل كان الخندق يملأ عند الحاجة وأيام الحصار فقط. لقد أشارت المصادر إلى امتلاء الخندق بالمياه، كما رأينا في نص للعمري وآخر لأبي البقاء. ولكننا لم نفهم من هذين النصين ماإذا كانت المياه تملأ الخندق باستمرار أم في حالات خاصة.

ولكن في الخبر الذي يرويه ابن كثير حول هرب بعض المعتقلين من القلعة سنة ٧٦١/ ١٣٥٩ مايدل على وجود المياه في خندق القلعة وقتئذ، وفي كل الأوقات، قال: «نزل جماعة من أمراء الاعراب من أعالي محبسهم في عمائم وحبال إلى الخندق وخاضوه وخرجوا من عند جسر الزلابية [٢]».

---

(١) La Citadelle,op. cit.,p.64

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٥٣.

والجسر المذكور هو جسر الزرابلية الذي سبق أن تحدثنا عنه، ويقع علي نهر بردى شمالي القلعة (انظر المصور رقم ١).

ونرجح بأن الخندق كان يملأ بشكل دائم بالمياه في العهود القديمة، ثم أصبح لايملأ إلا عند الضرورة. ويبدو أن الرحالة الفرنسي «دارفيو» شاهده سنة ١٦٦٠ جافاً وذلك بدليل قوله: «يمكن ملؤه بماء النهر المار بالمدينة أو من الأقنية المجاورة [١]». كذلك قال «بورتر» " «يمكن أن يملأ من النهر [٢]»

وقد جرت العادة أن يعمد المحاصرون إلى قطع المياه عن القلعة وخندقها، فتعمل حامية القلعة على سد منافذ الخندق حينئذ لئلا تتسرب منه المياه. أما في داخل القلعة فكان الاعتماد على مياه نهر بانياس النظيفة التي تدخل القلعة من جهتها الغربية في قناة تحت الأرض، فتتوزع في حماماتها ودورها ومساجدها وبركها. فإذا قطع المحاصرون مياه بانياس لجأ أهل القلعة إلى الاستعانة بالآبار التي أكدت المصادر التاريخية وجودها داخل القلعة.

روى القلقشندي مايلي: «يدخل نهر بانياس القلعة ثم ينقسم قسمين، قسم للجامع وقسم للقلعة [٣]».

---

(١)- Memoire,op .cit.,p.449

(٢)- Five Years,op. cit.,p.50

(٣)- صبح الأعشى، ٤/ ٩٣.

وقال أبو البقاء: «وبالقلعة آبار ومجار للماء ومصارف بحيث إذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء، تقوم الآبار مقامه[1]».

ومن الوسائل التي كان يلجأ إليها المحاصرون للاستيلاء على القلعة عملية طم الخندق وردمه. فقد ورد مايشير إلى ذلك في حادثة هجوم التتار على دمشق في عهد ملكهم «قازان» سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩. ولزم الناس منازلهم لئلا يسخروا في طم الخندق [2].

ح- الخصائص العامة للقلعة الأيوبية:

أكثر الذين تحدثوا عن القلعة كانوا من مؤرخي العصر المملوكي، وأقربهم إلى فترة بناء القلعة هو ابن شداد مؤرخ السلطان بيبرس، وأبو شامة مؤرخ القرنين الثاني والثالث عشر، ثم جاء ابن كثير وأبو البقاء وغيرهما.

ولتكوين صورة واضحة عن القلعة الأيوبية في حالتها الأولى، فإنا سنفيد مما قدمه هؤلاء من وصف لها وعلى المشاهدة الشخصية كذلك لما بقي من مباني القلعة الأولى وعناصرها الأصلية، مستفيدين من اختلاف الريازة في التمييز بين الأجزاء الأيوبية والأجزاء التي أقيمت في العهود اللاحقة.

فأول مايميز قلعة دمشق كونها مبنية في مستوى أرض المدينة،

---

(١) نزهة الانام، ص٦٠.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ٦.

وموقعها هذا لايعطيها ميزة استراتيجية. ولقد لاحظ القدماء هذه الناحية فوصفوها بالمرجلة [1].

وهو تعبير يطلق عادة على الراكب إذا نزل عن فرسه ووقف على رجليه أي ترجل، ذلك أنهم اعتادوا أن يروا القلاع والحصون تبنى فوق المرتفعات والتلال، سواء كانت داخل المدن كقلاع حلب وحمص وحماة والقاهرة، أم كانت خارج المدن، كقلعة شيزر، والمضيق، والحصن، والمرقب، وصهيون (صلاح الدين)وغيرها [2].

ومن الطبيعي أن لايكون لبناء القلعة الأيوبية خيار في موقعها، فهم قد أقاموها في مكان القلعة السلجوقية ولتحل محلها. ولقد بينا في الفصل الأول أسباب اختيار السلاجقة لهذا الموقع الذي لم يفرضه وجود مرتفع طبيعي ولاوجود حصن قديم.

ولقد عوض مهندسو القلعة الأيوبية حرمانها من المرتفع الطبيعي باعطائها ميزات بديلة لانجدها في القلاع الأخرى المحصنة بالمرتفعات. وتتجلى هذه الميزات في ضخامة البناء وقوته بشكل عام، وفي ارتفاع الأبراج، وسماكة الجدران، وضخامة الحجارة، وطريقة نحتها، ووفرة المرامي والرواشن.

وقد لاحظ القدماء هذه الميزات الخاصة، فقال ابن شداد يصف

---

(١) ابن فضل الله العمري، قطعة من مخطوط مسالك الأبصار، مجلة معهد المخطوطات ٣/ ، صـ١١٨. وصبح الأعشى، ٤/ ٩٣.

(٢) انظر المصور رقم ٩ الخاص بالمواقع والقلاع المذكورة في هذا البحث.

أبراج القلعة: «كل برج قدر قلعة [1]» وقال أبو البقاء يصف القلعة: «ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فإنها قدر مدينة [2]».

كما لاحظ الرحالون وعلماء الآثار الأجانب ما في قلعة دمشق من صفات مميزة. فوصفها «بوكوك» الذي زار دمشق سنة ١٧٣٨ بأنها مدينة صغيرة [3] أما «كينك» فقال: «وهي تمتاز بقوتها وصلابتها الفائقة [4]». ولاحظ سوفاجه بأنها من دون القلاع الأخرى، ظلت محتفظة بوضعها الأصلي الذي يرجع إلى زمن بنائها في القرن الثالث عشر [5]».

ط- وظيفة القلعة ونشاطها السياسي والاجتماعي:

تحدثت في الفصل السابق عن وظيفة القلعة السلجوقية، ولخصت ذلك في ناحيتين الأولى دورها كدار أمارة أو قصر حصين لحكام دمشق، والثانية كونها حصناً لمدينة دمشق يقف في وجه الغزاة.

لقد لعبت القلعة نفس الدور في العهد الأيوبي، بل كانت وظيفتها العسكرية والحربية كقلعة حصينة أكثر بروزاً ووضوحاً من

---

(١) الأعلاق، المصدر السابق، ص٣٩.

(٢) نزهة الانام، ص٦٠.

(٣) Pocoke: Description of the East, V.II, P.120

(٤) The Defences...op.cit., p.58

(٥) Citadelle, op.cit., p.38

سابقتها القلعة السلجوقية بسبب ماتصف به البنيان الأيوبي الجديد من القوة والمنعة، وبسبب ماتعرضت له القلعة الأيوبية من الحصارات العديدة، وهذا ماجعل لها دوراً خاصاً في المقاومة يختلف عن دور المدينة، ومثل هذا الدور لم تلعبه القلعة السلجوقية من قبل.

أولاً: من حيث دورها الأول، نرى قلعة دمشق الأيوبية تغدو مقراً لسلاطين بني أيوب وملوكهم. فيها كانوا يقيمون مع أسرهم، ومنها كانوا يسيرون دفة الحكم في دولة كانت تتسع تارة لتشمل سائر أنحاء الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة وأرمينيا، لاسيما في أيام الملك العادل، كما رأينا في المقدمة التاريخية، وتارة تتقلص لتقتصر على ولاية دمشق. وبسبب اقامة السلاطين والملوك في القلعة فقد كانت تتوفر فيها كل حاجات الملوك اليومية وتمارس فيها النشاطات الاجتماعية والادارية والسياسية. أقام فيها الملك العادل وأولاده: المعظم عيسى، والأشرف موسى، والكامل محمد ونعموا بقصورها وحماماتها ومساجدها وفيها وأتتهم المنية جميعاً، وفيها كانوا يدفنون لبضع سنين، ثم ينقل جثمانهم منها إلى مدافن خاصة تشاد لهم في المدينة. وهذا تقليد ساد في القلعة السلجوقية كما رأينا من قبل. توفي العادل خارج دمشق في قرية «عالقين» فنقل في محفة

إلى القلعة فدفن فيها وعمل له العزاء ثلاثة أيام داخل القلعة في الإيوان الشمالي [١].

هكذا قال أبو شامة، ولعله يقصد الايوان الشمالي لدار المسرة. ثم نقل تابوته بعد أربع سنوات إلى تربته في المدرسة العادلية الكبرى.

ومن الغريب أن ابنه المعظم أوصى بأن لايدفن في القلعة وأراد أن يشذ عن التقليد المتبع، فلم تنفذ وصيته فدفن فيها ثم أخرج جثمانه منها أخاه الملك الأشرف إلى تربة بنيت له في سفح قاسيون [٢].

وفي خبر وفاة الملك الكامل محمد يأتي المؤرخون على ذكر الدار التي توفي فيها صلاح الدين وعرفت «بدار القصبة» يروي ابن كثير أن الكامل توفي في بيت صغير من دار القصبة، وهو البيت الذي توفي فيه عمه الناصر صلاح الدين ودفن بالقلعة حتى كملت تربته بالحائط الشمالي من الجامع [٣].

وكان لملوك بني أيوب أطباء موظفون في القلعة، حدثنا عن بعضهم المؤرخ الطبيب «ابن أبي أصيبعة» وقد كانوا من مشاهير

(١) ذيل الروضتين ص١١٢، النجوم ٦/ ١٧١.

(٢) الدارس، ١/ ٥٨٤.

(٣) البداية والنهاية، ١٣/ ١٤٩.

الأطباء في ذلك العصر [1] ومن عرفناه من أرباب الوظائف، وظيفة والي القلعة ونقيبها، ولانعلم عن مهام هاتين الوظيفتين شيئاً، ويبدو أن دور والي القلعة كان محدوداً، كما كان الحال بالنسبة للقلعة السلجوقية، وذلك بسبب اقامة السلاطين في القلعة وتوليهم شؤونها بأنفسهم. وقد اختلف الوضع في العهد المملوكي كما سنرى. ولذا فإن المصادر لم تذكر أسماء من تولوا نيابة القلعة في العهد الأيوبي، سوى بطريق الصدفة. وممن عرفناه منهم:

«البدر الجعبري» ذكره -أبو شامة فيمن توفي سنة ٦٢٣ (١٢٢٦م قال:

البدر الجعبري والي قلعة دمشق، أقام واليها مدة في أيام المعظم [2]. وذكر أيضاً اسم واليها ونقيبها عند دخول التتار دمشق وسقوط القلعة بأيديهم خلال غزوة هولاكو سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩ قال: «وفي شعبان (من السنة المذكورة) ضربت رقبة والي قلعة دمشق بدر الدين قراجا ورقبة النقيب جمال الدين الصيرفي الحلبي [3]».

(١) ذكر ابن أبي أصبعه (طبقات الأطباء، ٢/ ٢٤٨، ٢٦٠، ٢٦٨) عدداً من هؤلاء الأطباء، ومن بينهم ابن عمه الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة الذي خدم السلطان العادل أبا بكر منذ سنة ٦٠٩/ ١٢١٢، قال ابن أبي أصيبعه: «وكان له قبل ذلك تردد على الدور السلطانية بالقلعة بدمشق، وداوى بها جماعة كانت في أعينهن أمراض صعبة فصلحوا». واستمر في الخدمة أيام المعظم عيسى وابنه الناصر داوود وظل يتردد إلي القلعة لخدمة الدور السلطانية، لكل من ملك دمشق من أولاد الملك العادل وغيرهم. ومن هؤلاء الأطباء أيضاً بدر الدين بن قاضي بعلبك وعماد الدين الدنيسري.

(٣) ذيل الروضتين، ص١٥١.

ونعتقد أن مهام والي القلعة وقتئذ كانت تقتصر على الاشراف على شؤونها الادارية ومافيها من موظفين ومؤن. أما النقيب فمسؤول عن النواحي العسكرية، فهو قائد الحامية والمسؤل عن السلاح.

نذكر أخيراً بعض ألوان النشاطات التي عرفتها القلعة مما له صلة بحياة دمشق السياسية والاجتماعية. من ذلك، موكب وصول رسل دار الخلافة العباسية سنة ٦٠٤/١٢٠٧ ومعهم الخلع للملك العادل وأولاده وكبار رجال دولته، ودخول الموكب من القصير (١) إلى القلعة من باب الحديد، ثم قرئ التقليد بايوان القلعة بمحضر من القضاة وسراة البلد (٢).

وكانت تجري في (تحت القلعة) استعراضات الجيوش، يستعرضها الملوك وهم في أعالي القلعة في سرادقاتهم. كما رأينا عند الحديث عن الطارمة في مكان سابق من هذا الفصل (الفقرة ب).

ومن احتفالات القلعة الهامة مايرويه ابن كثير عن أيام الاشرف موسى بن العادل. «وكانت القلعة لاتغلق في ليالي رمضان كلها، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط

---

(١) وردت عند أبي شامة خطأ القصر. وهي قرية شمالي شرقي دمشق، على الطريق الذاهب إلى حمص. تبعد عن دمشق مسافة سبعة عشر كيلو متراً. فيها آثار خان من عهد صلاح الدين، ادخل ضمن مبنى مستشفى الأمراض العقلية.

(٢) ذيل الروضتين، ص٦٣.

والصالحية، وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء. وكان أكثر جلوس الاشرف بمسجد أبي الدراء[1]».

وكان الأيوبيون ينزلون ضيوفهم في قلعة دمشق. فحينما زار الاشرف موسى أخوه الكامل محمد صاحب مصر أنزله القلعة، وتحول هو إلى دارالسعادة.

وأنزل الجواد يونس حفيد الملك العادل الذي حكم دمشق بين سنتي ٦٣٥/ ١٢٣٧ و٦٣٦/ ١٢٣٨ الشيخ جمال الدين الحصيري عنده بالقلعة بدار المسرة [2].

ولاشك أن القلعة استخدمت أيضاً معتقلاً وسجناً للشخصيات السياسية والأسرى، وكان فيها سجن يطلق عليه اسم سجن الحيات، ذكره ابن كثير [3].

ي- دور القلعة الحربي وحالات الحصار:

لم تواجه دمشق في العهد الأيوبي كله ثورة أهلية ولكنها تعرضت خمس مرات للحصار والهجوم عليها من الخارج. أربع منها كانت بسبب الصراع على دمشق بين أمراء البيت الأيوبي، وكان فتح القلعة يتم خلالها دون عنف أو انتقام، ولم تضرب بالمنجنيق أو يهدم منها شيء.

---

(١) البداية والنهاية، ١٣/ ١٤٨
(٢) البداية والنهاية، ١٣/ ١٥٣.
(٣) البداية والنهاية، ١٣/ ١٤٨.

أما الحصار الخامس فكان من قبل التتار الذين ضربوا القلعة وهدموا منها الشيء الكثير. ولم يصل الصليبيون في هذه الفترة إلى دمشق، ولكنهم حاولوا مرة في سنة ٦١٤/ ١٢١٧ وهي السنة التي انتهت فيها فترة الهدنة. وأمر الملك العادل بتحصين البلد، ونقل غلة داريا إلى القلعة، وأغرق أراضيها بالمياه. ثم تراجع الصليبيون من الجولان إلى عكا[1].

كيف كان يجري حصار دمشق في هذه المرات الخمس، وما هو دور القلعة خلالها؟

١- حصار سنة ٦٢٦/ ١٢٢٨ لأخذ دمشق من السلطان داود بن المعظم عيسى:

يقول أبو شامة: «تقدمت جيوش الكامل مع أخوته الأشرف، والمظفر والعزيز والصالح، وابني أخيه الجواد بن محمد وداود بن المغيث ومعهم صاحب حمص وعسكر حلب وحماة. فنزلوا عند الجسور وراء مسجد القدم، وقطعوا عن دمشق أنهارها بانياس والقنوات، ثم يزيد وتورا ونهبت البساتين وأحرقت الجواسق، وخربت رباع، وبادت الأشجار، بانقطاع الماء. وجرت وقعات فقتل قوم وجرح آخرون، وهدم كثير من الرباع والخانات حول البلد. ونهب قصر حجاج والشاغور ...

(١) ذيل الروضتين، ص١٠١.

ودخلوا الميدان الأخضر... وجرت بينهم وقعة قبالة باب الحديد، وفي الميدان. وغلت الأسعار، وحكى جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين أنهم ماراأوا أشد من هذا الحصار... ثم جرى الصلح بعد حصار دام قرابة ثلاثة أشهر وخرج الناصر داود من دمشق إلى نواحي فلسطين ودخل الكامل القلعة مع أخيه الأشرف [1].

٢- حصار سنة ٦٣٥/ ١٢٣٧ لأخذ دمشق من الصالح اسماعيل بن العادل:

يقول أبو شامة[2]: «حوصرت دمشق من قبل الكامل والناصر داود فجرى على نحو الحصار المتقدم سنة ٦٢٦/ ١٣٢٨، إلا أن هذا الحصار كان أكثر خراباً في ظاهر البلد ولم تطل مدته وجرى الصلح.

٣- حصار سنة ٦٣٧/ ١٢٣٩ لأخذ دمشق من الصالح أيوب بن الكامل:

«قدم إلى دمشق صاحب بعلبك وحمص الصالح اسماعيل بن العادل، والمجاهد شيركوه بن محمد. فدخلوها بعسكر وجند عنوة من غير حصار وفي الغد ملكا القلعة، وكان بها المغيث (عمر) بن الصالح أيوب»[3].

---

(١) ذيل الروضتين، ص١٥٥

(٢) ذيل الروضتين، ص١٦٥.

(٣) ذيل الروضتين. ص١٦٩.

٤- حصار سنة ٦٤٣/ ١٢٤٥ لأخذ دمشق من الصالح اسماعيل بن العادل:

يقول أبو شامة «تهيأ صاحب دمشق للحصار خوفاً من الصالح أيوب صاحب مصر ... وضويقت دمشق مضايقة شديدة وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية.

أحرق قصر حجاج والشاغور، ثم نصبت على دمشق المجانيق ورميت بين بابي الجابية والصغير، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد، وترامى الفريقان وأمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس وباب السلامة وباب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر... ثم تحقق الصلح ورحل عن دمشق سلطانها الصالح اسماعيل وصاحبه المنصور ابراهيم بن أسد الدين شيركوه. ودخل البلد نائب صاحب مصر (١).

٥- حصار سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩ من قبل التتار:

استولى التتار على دمشق في ١٧ ربيع الأول سنة ٦٥٨ دون قتال بناء على فرمان صادر من ملكهم هولاكو بالامان لأهل دمشق وما حولها.

ولكن نائب قلعة دمشق رفض التسليم واعتصم بها، فحاصرها التتار وضربوها بالمنجنيقات فخربوها ثم استولوا عليها. ولنستمع إلى

---

(١) ذيل الروضتين، ص١٧٦.

وصف الحصار يحدثنا عنه المؤرخ أبو شامة الذي عاش تلك الأحداث وكان يقطن وقتئذ في قرية حرستا. قال: «وقد كانت قلعة دمشق امتنع بها الوالي والنقيب في جمع كثير بها فاحتيج إلى حصارها فجاءها من التتار خلق كثير، وصلوا يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى، فباتوا تلك الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ماحتاجوا إليه، وكانوا استصحبوا معهم المجانيق، تجرها الخيل وهم ركاب عليها، وقدموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل، وأصبحوا يوم الاثنين يجمعون الحجارة لرمي المجانيق فأخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخربوا طرقاً من القنوات بسبب الحجارة وهيؤوها للرمي، ونصبت المجانيق في ليلة الثلاثاء وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً وأصبحوا يرمون بها رمياً متتابعاً كالمطر فأخرب كثير من القلعة من غربها فما أمسوا (يقصد حاميه القلعة) حتى طلبوا الأمان فأومنوا، وخرجوا من الغد ونهب ما في القلعة وأحرق فيها مواضع كثيرة وهدم من أبراجها أعاليها (١).

نستنتج من هذا النص المعلومات التالية:

١- اكتفى التتار بضرب واجهة القلعة الغربية ونصب المجانيق العشرين في مواجهتها دون غيرها من أسوار القلعة، والسبب في ذلك هو أن موقعها المكشوف للعدو هو الذي جعلها أسهل تناولاً.

---

(١) ذيل الروضتين، ص٢٠٤.

فمن المعلوم أن الواجهتين الجنوبية والشرقية تحتجبان بأزقة المدينة ومبانيها، أما الواجهة الشمالية، فيبدو أن مجاري المياه بوجود بردى وفرعه (النهر المجدول)، حالت دون اقتراب المجانيق من أسوار القلعة.

٢- لم تقاوم القلعة الحصار طويلاً، وكان استسلامها نتيجة تهدم الجبهة الغربية من جراء قذائف المجانيق العشرين. وأدى ذلك إلى يأس حامية القلعة واضطرارها للتسليم، إذ لم يعد ينفع الاستمرار في الدفاع.

٣- بعد سقوط القلعة أقدم التتار على حرق أماكن فيها، ونرجح بأن تكون هذه الأماكن، هي القصور والمستودعات التي كانت في الداخل. أما الأسوار والأبراج فقد اكتفوا بهدم أعاليها، أي الستائر والشرافات وبعض الرواشن. وكان ذلك كافياً لاضعاف مقاومة القلعة وطاقتها الضاربة إلى حدود النصف. ولعل هذه الضربة هي السبب في أننا لانجد من أسوار الجبهة الغربية وأبراجها شيئاً من الأصل القديم الأيوبي. بينما الجبهات الأخرى، ولاسيما الجنوبية والشرقية، مازالتا بحالة جيدة وكما كانتا في أيام الملك العادل الأيوبي تقريباً لأن ترميمات طفيفة أجريت عليها في العهد المملوكي.

الفصل الثالث

القلعة في العهد المملوكي

آ- الإطار التاريخي (لمحة عن تاريخ دمشق في العهد المملوكي):

انتهى العهد الأيوبي في مصر بانقلاب لاغتصاب السلطة قام به أمراء الجيش من المماليك، فقتلوا في عام ٦٤٨/ ١٢٤٨ آخر ملوك الأيوبيين، وهو المعظم توران شاه، بينما استمرت دولة الأيوبيين في الشام حتى عدوان المغول الذي قاده هولاكو وسقوط دمشق بأيديهم سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩، الحدث الذي أشرنا إليه في الفصل السابق، وانتهى بزوال حكم الأيوبيين من الشام نهائياً[١].

(١) بقيت حماة في أيدي الأيوبيين، وحكمها في ظل دولة المماليك ملوك من أسرة شاهنشاه بن أيوب، اشتهر منهم المنصور محمد الذي استمر حكمه حتى عام ٦٨٣/ ١٢٨٤ وابنه المظفر محمود (توفي سنة ٦٩٨/ ١٢٩٨)، ثم أخذت حماة من الأيوبيين في بداية القرن الثامن ثم عادت إليهم في عهد أبي الفداء اسماعيل سنة ٧١٠/ ١٣١٠ وقضى على الأيوبيين نهائياً عند عزل ابنه الأفضل محمد سنة ٧٤٢/ ١٣٤١.

وكان من حسن حظ دمشق أن لاتطول اقامة التتار فيها سوى أشهر معدودات (من ٢٣ جمادى إلى ٢٧ رمضان من عام ٦٥٨) حيث طردوا منها أثر معركة عين جالوت المشهورة التي خاضها المماليك بقيادة السلطان سيف الدين قطز. ودخل المماليك في إثرها دمشق. وأصبحت الشام بكاملها ولايات تحت سيادة المماليك، منذ ذلك التاريخ من عام ٦٥٨/ ١٢٥٩ وحتى عام ٩٢٢هـ (١٥١٦/٩/٢٢).

حظيت دمشق في عهد المماليك بمكان مرموق، وغدت بمثابة العاصمة الثانية للدولة، يقيم فيها السلاطين من حين لآخر، ويتخذونها مركزاً لعملياتهم العسكرية ضد الصليبيين والمغول [١]. الأمر الذي حفظ لدمشق مركزها السياسي والحربي، الذي كان لها في أيام نور الدين وصلاح الدين.

وكان في دمشق من الوظائف والدواوين والمؤسسات مايهيؤها لأن تقوم مقام عاصمة السلطان عند اللزوم. عبر عن ذلك ابن فضل الله العمري [٢] بقوله: «وبدمشق كل ما في مصر من الوظائف وليس هذا في بقية بلاد الشام. مثل قضاء القضاة من المذاهب الأربعة،

(١) ذلك ما فعله الظاهر بيبرس خلال حروبه ضد الفرنج والتتار والأرمن (بلاد سيس) وأرمينيا الصغرى. وكذلك فعل قلاوون والأشرف خليل كما سيأتي تفصيله.

(٢) مسالك الأبصار القسم المخطوط (انظر مجلة معهد المخطوطات، المجلد ٣ عدد مايس ١٩٥٧، ص ١٢٠.

وقاضي العسكر، وخزانة تخرج منها الانفاقات والخلع، وخزائن السلاح [1] وزردخانات [2]، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو حضر السلطان جريدة [3] وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته».

وكانت نيابة دمشق في العصر المملوكي من أكبر نيابات الدولة وأهمها، يطلق عليها غالباً اسم «نيابة الشام» بدلاً من نيابة دمشق. وقد اتسعت في هذا العهد بحيث وصلت حدودها إلى الفرات عند الرحبة [4] وجعبر شرقاً، وإلى الرستن شمالاً، وإلى حدود غزة جنوباً.

وتضم نيابة دمشق هذه من المدن: دمشق، والقدس، وبيسان، وغزة، واللد، والرملة، ونابلس، وعجلون، وحوران، وجبل عامر [5]، وبيروت، وصيدا، وحمص، والسلمية، وتدمر،

---

(١) انظر المرسوم الخاص بخزائن السلاح في لائحة الكتابات (الملحق رقم ١) الكتابة رقم ٢٠ وهو منقوش على باب القلعة الشرقي بأمر من السلطان علاء الدين سنة ٧٨١.

(٢) مستودعات الدروع التي تسمى أيضاً الزرديات لأنها مصنوعة من الزرد.

(٣) الحملة المسرعة المتخففة من أثقالها ومعداتها.

(٤) كانت عند بلدة الميادين الحالية الواقعة على الفرات، وإلى جوارها توجد اليوم قلعة الرحبة (انظر مقالنا: حضارة الجزيرة والفرات في العهد العربي الاسلامي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد ١٩ لعام ١٩٦٩. وانظر من أجل المواقع والمدن والأماكن المصور رقم (٩).

(٥) ويقصد به جبل الدروز الواقع جنوبي دمشق إلى الشرق من طريق الحج المار من دمشق إلى درعا، ويدعى اليوم جبل العرب، وقد سمي في القرن السادس الهجري بجبل عوف (ابن القلانسي، ص١٥١، ١٧٤) وسماه بعض المؤرخين جبل حوران.

والرحبة، وجعبر. وقد تخرج عنها أحياناً غزة والقدس فيكون لكل منهما نائب خاص.

وكان والي دمشق من أكبر الولاة، يجري اختياره من بين رجال الدولة المرموقين. وكانت توكل إليه مهمة الاشراف على سائر ولات الشام الأخرى كحلب، وحماة، وطرابلس، وصفد، كما كان يكلف بأعمال عسكرية واسعة النطاق للقضاء على العصيان أو للوقوف في وجه عدو خارجي، وذلك بما خصت به دمشق وقلعتها من القوات والمعدات ومصانع السلاح والذخيرة [١].

وكان يطلق على والي دمشق الألقاب التالية: «نائب السلطنة»، «نائب الشام» «كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس [٢]».

عاشت دمشق في ظل السلطنة المملوكية فترة زمنية طويلة بلغت مئتين وأربعة وستين عاماً، اعتاد المؤرخون أن يميزوا في هذه الفترة دورين:

الأول: دور المماليك البحرية (الأتراك) ويمتد بين عامي ٦٥٨/ ١٢٥٩ و٧٨٤/ ١٣٨٢.

الثاني: دور المماليك الشراكسة أو الجراكسة ويمتد بين عامي ٧٨٤/ ١٣٨٢، ٩٢٢/ ١٥١٦.

---

(١) انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، القسم المخطوط المتقدم ذكره.
(٢) صبح الأعشى، ٤/ ١٨٤.

ولقد تولى على دمشق في العصر المملوكي اثنان وستون نائباً كانت لاتطول مدة الواحد منهم أكثر من عام أو بعض عام، باستثناء نفر قليل منهم، كالأمير سيف الدين تنكر الذي حكم بين عامي ٧١٢ و ٧٤٠ (١٣١٢ و١٣٣٩) وكان من كبار أمراء المماليك وأفضلهم وقد خول سلطات كبيرة من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان له مقام في الدولة فوق مقام سائر نواب السلطنة[١].

والحقيقة، أن ماينعت به نظام الحكم في العهد المملوكي من السوء والفساد والفوضى لاينطبق على سائر العصر، فلقد عرف القرن الأول سلاطين عظاماً أمثال الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، جاهدوا في سبيل طرد الغزاة، وتوسيع رقعة الدولة وأعطائها القوة والمنعة، وحظيت البلاد في عهدهم بالامن والاستقرار وازدهرت المشاريع العمرانية والصناعات، ونشطت التجارة والحركة الثقافية[٢].

ولقد كثرت منذ أواخر القرن الثامن حركات العصيان

(١) انظر ترجمته وأعماله وسيرته في بدائع الزهور لابن اياس ١/ ١٧١، والدرر الكامنة، ١/ ٥٢٠ والسلوك للمقريزي ٢/ ٢/ ٥٠٩.

(٢) انظر عهد السلطان بيبرس في النجوم الزاهرة، الجزء السابع، لاسيما الصفحات ١٨٦، ١٩٠. وعصر الناصر محمد بن قلاوون عند ابن اياس ٢/ ١٧٣. وانظر أيضاً وصف مدينة دمشق في هذه الفترة عند أبي البقاء المصري (نزهة الأنام)، وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، القسم المخطوط المتقدم ذكره).

والمؤامرات بين أمراء المماليك وارتفع إلى سدة السلطنة صعاليك المماليك ممن ليس له مكانة أو هيبة، أو تدبير وسياسة وولى منهم من هو دون البلوغ أمثال أولاد الناصر محمد بن قلاوون الذين كانوا يساقون إلى السلطنة ثم يخلعون أو يقتلون [١]. واستمر الحال على هذا المنوال في القرن التاسع.

وشذ عن ذلك عدد ضئيل من السلاطين ممن أتيح لهم أن يحكموا مدة كافية خولتهم القيام باصلاحات وأعمال عمرانية ونذكر من هؤلاء السلاطين، ثلاثة حكموا قرابة خمسة عشر عاماً وهم الاشرف برسباي [٢] (٨٢٥-٨٤١)، والظاهر جقمق [٣] (٨٤٢-٨٥٧) والاشرف قايتباى [٤] (٨٧٢-٩٠١) للهجرة.

وانعكست آثار الفوضى والعصيان والتنافس بين الامراء على المناصب، على أوضاع البلاد، واتخذت دمشق في أكثر الأحيان معتصماً للعصاة والمتآمرين والطامعين في السلطنة. وألحقت هذه الأحداث بها الأذى والتأخر [٥]، وعرضتها للسقوط فريسة الغزو والعدوان من قبل التتار، ولاسيما حين تخلى عنها المماليك

(١) انظر ابن اياس ١/ ١٧٦ إلى ٢٠١.

(٢) ابن اياس ٢/ ٢٣.

(٣) ابن اياس ٢/ ٣٤.

(٤) ابن اياس ٢/ ٢٩٧.

(٥) انظر أحداث سنة ٧٥٣ (في البداية والنهاية، ١٤/ ٢٤٣)، وثورة تنمم نائب دمشق وغيره من الامراء سنة ٨٠٢ على السلطان الناصر فرج في (ابن اياس ١/ ٣٢٢)، وثورة آقبردي علي السلطان الناصر أبي السعادات سنة ٩٠٣ (ابن اياس ٢/ ٣٣٥).

وسلطانهم، وتركوها تقف لوحدها أمام همجية تيمورلنك وتذوق الكارثة الأليمة التي لم تشهد مثلها دمشق في كل تاريخها. دخل تيمور المدينة في عام ٨٠٣/ ١٤٠١ فنهب كل خيراتها وأموالها وسبى نساءها وقتل أكثر رجالها بعد أن أذاقهم ألوان العذاب، واستبقى منهم كل صاحب مهنة أو فن ليأخذه إلى سمرقند عاصمته. ثم أشعل النار في المدينة، فظلت تأكلها ثلاثة أيام. ثم خيم الظلام على خرائب وأطلال خاوية ليس فيها سوى الجثث والكلاب، وأطفال دون الخامسة، هائمين على وجوههم (١).

وعاد المماليك بعد رحيل تيمورلنك إلى دمشق وعملوا على ازالة آثار الكارثة، ورفع الأنقاض، وراح السلاطين يحثون النواب على الاعمار، ودبت الحياة في المدينة شيئاً فشيئاً ولاحت تباشير الازدهار، ولكن العصر كان قد تغير، ودب الفساد والوهن في أوصال الدولة المملوكية، وكثرت المجاعات والأوبئة، وتفشت الفوضى، وكثرت تعديات البدو وشلت حياة المدن والقرى، وشغلت الدولة بالحروب مع جيرانها ملوك العجم (٢) والأتراك

---

(١) استخلصنا هذه المعلومات من كارثة تيمورلنك من ابن تغرى بردى، النجوم ١٢/ ٢٤٠-٢٤٦.

(٢) هاجم المماليك سنة ٨٨٥/ ١٤٨٠ بلدة الرها وكانت تابعة لملك العجم يعقوب بن حسن الطويل وانكسروا في المعارك التي جرت على أسوار المدينة شر كسرة. (ابن اياس ٢/ ١٩٥-١٩٨).

العثمانيين [1] فكلفتها هذه الحروب الكثير من الأموال والأنفس، ثم كانت نهاية المماليك أخيراً على يد العثمانيين سنة ١٥١٦/٩٢٢ في معركة مرج دابق التي تشتت فيها جيش المماليك وفتح الطريق أمام السلطان سليم العثماني ليضم الشام ومصر إلى سلطانه، بكل سهولة ويسر، دون مقاومة تذكر [2].

ب- دور القلعة السياسي :

عاشت القلعة أهم أدوار حياتها في العهد المملوكي بسبب طول الحقبة التي حكم فيها المماليك، والتي أتت بين عامي ١٢٥٩/٦٥٨ و ١٥١٦/٩٢٢.

عمد المماليك منذ البدء إلى العناية بالقلعة وباشروا ترميمها واصلاح ماالحقته غزوة هولاكو بها من هدم وتدمير. واستمرت أعمال البناء والترميم واشادة المباني العامة والدواوين فيها طوال العهد المملوكي، مما سنتحدث عنه تفصيلاً في الفصل التالي.

رأينا كيف كانت القلعة في العهد الأيوبي لسلاطين الأيوبيين، ذلك أن دمشق كانت عاصمة الدولة التي شملت مصر والشام، في

---

(١) وقع أول صدام بين المماليك والعثمانيين سنة ٨٨٨/ ١٤٨٣ واستمرت الحرب بين الطرفين في الأناضول شمالي حلب طوال تسع سنوات. ثم وقع الصلح سنة ٨٩٧/ ١٤٩١، (ابن اياس ٢/ ٢٢١-٢٧٠).

(٢) ابن اياس ٣/ ٥٨-٩٨.

حالات القوة والوحدة، أو عاصمة اقليم الشام، في فترات الانفصال والصراع على السلطة.

أما في العهد المملوكي، فإن دمشق لم تعد هي العاصمة، بل أصبحت القاهرة هي مقر السلاطين. ولكن ظلت لدمشق مكانتها الخاصة، وتميزت كنيابة من نيابات الدولة على سائر النيابات كما أوضحنا في بداية هذا الفصل. وكان طبيعياً أن يكون لقلعتها أيضاً شأن خاص، فهي قلعة السلطان، ورمز سلطته في حضوره وفي غيابه. فإن حضر إلى دمشق لأمر من الأمور، اتخذ من القلعة دار ملك وسلطان، وكأنه في مقر ملكه في قلعة القاهرة.

فكان يجد فيها سرير الملك جاهزاً في قاعة خاصة، ويجد كل ما يهيئ له أسباب الحكم، وتنتقل بوصوله إلى قلعة دمشق كل ألوان النشاطات، والاحتفالات السلطانية. أما في غيبته، فكان للسلطان نائب خاص في القلعة، مستقل عن نائب السلطنة في دمشق، وكان هذا الأخير يقيم خارج القلعة، في دار السعادة، وتقف سلطته عند أسوارها.

وقد لاحظ القلقشندي[1] هذا الوضع الخاص فوصفه فيما يلي، يقول: «ولهذه القلعة نائب بمفردها غير نائب دمشق يحفظها للسلطان، ولايمكن أحداً من طلوعها، من النائب وغيره. وإذا دخل

---

(١) صبح الأعشى، ٤/ ٩٣، ١٠٨.

السلطان دمشق، نزل بها. وبها تخت ملك كغيرها من ديار الملك».

ويقول أيضاً: «ليس لنائب السلطنة عليها (أي القلعة) الحديث، وولايتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف، يكتب من ديوان الانشاء الشريف. قال في «التثقيف» وكانت عادة نائبها في الأيام المتقدمة مقدم ألف، ثم استقرت بعد ذلك طلبخاناة (١). ومن شأنه حفظ القلعة وصونها. ولا يسلم مفاتيحها لأحد، إلا لمن يتولاها مكانه، أو لمن يأمره السلطان بتسليمها له ولنائبها أجناد بحرية (٢) مقيمون في القلعة لخدمته، ولا يحضر هو ولا أحد منهم دار النيابة بالمدينة ولا يركبون (٣) في الغالب».

نلاحظ فيما أورده القلقشندي ومن الأحداث التي سنأتي على ذكرها في هذا المجال أن قلعة دمشق كانت مستقلة في الأحوال العادية، ولها كيانها الخاص، وكان نواب دمشق في الأحوال الطبيعية يحترمون هذا الاستقلال. ولا نفهم من عبارة الاستقلال أن القلعة كانت تعيش في عزلة عن أحداث المدينة، وإنما نراها تسهم في أفراحها وأتراحها، وللقائمين عليها صلات مع نواب السلطنة، ودية أحياناً، وعدائية أحياناً أخرى، كما سنرى.

---

(١) رتبة من رتب الجيش، تأتي في المرتبة الثانية بين طبقات الأمراء. وصاحبها أمير على أربعين فارساً في غالب الأحوال، وقد يكون أكثر من ذلك.

(٢) يقصد بذلك المماليك البحرية وهم المماليك الأتراك الذين تقدم ذكرهم.

(٣) ويقصد بالركوب هنا الخروج في موكب نائب السلطنة.

ولتوضيح دور القلعة السياسي نرى أن نعالجه من ثلاث وجوه. الأول يتعلق بعلاقة القلعة بالسلطان، والثاني علاقتها بنائب السلطنة في دمشق، والثالث علاقتها بنائب القلعة.

أولاً - القلعة والسلطان:

تتجلي لنا الصفات السلطانية للقلعة في الأحداث التالية: رأينا في بداية عصر المماليك أن الظاهر بيبرس كان يكثر التردد علي الشام ويتخذ من دمشق عاصمة ثانية، يقيم فيها أشهراً، يجهز الجيوش ويقود الحملات، إما لحرب الفرنج في الساحل. وإما لاخضاع الاسماعيلية والاستيلاء على قلاعهم الحصينة في منطقة جبال العلويين في الشام [1]. أو لمحاربة الأرمن في بلاد سيس (أرمينيا الصغرى) الكائنة على الحدود الشمالية في الأناضول، وكانت تعرف بالثغور والعواصم. وإما لطرد التتار من الأطراف الشرقية من البلاد.

كان الظاهر ينزل في قلعة دمشق، وهذا ما جعله يُعنى بترميمها وتشييد القاعات الملكية فيها. وبعد أن تم بناء قصره[2] الأبلق (٦٦٨ هـ)، ظل يتردد بينه وبين القلعة، عند اقامته في دمشق. ويكاد لايمضي عام من أعوام حكمه (٦٥٨-٦٧٦) دون أن يأتي إلي دمشق

---

(١) انظر عن هذه القلاع صبح الأعشى ٤/ ١٧٩.

(٢) زال وشيدت في مكانه تكية السلطان سليمان المشهورة ومكانها خارج سور دمشق من جهة الغرب، انظر مقالنا عن قصور دمشق: مجلة الحوليات الأثرية المجلد ٢٢ لعام ١٩٧٢).

مرة أو أكثر. فقد كان كثير التنقل والأسفار في أغراض الجهاد والفتح والتحرير وكشف أحوال أقاليم الدولة، لايجاريه في ذلك أي سلطان مملوكي آخر. وفيما يلي نذكر بعضاً من زياراته لدمشق:

قدم في عام ٦٥٩/ ١٢٦٠ وبصحبته الخليفة العباسي [١]. فنزل الظاهر بالقلعة وأنزل الخليفة في المدرسة الناصرية [٢].

وقدم في عام ٦٦٠/ ١٢٦١ فنزل في القلعة أيضاً، وكان ذلك بسبب وصول أخبار عن تحرك التتار في أطراف الشام.

وفي عام ٦٦٦/ ١٢٦٧ يعود الظاهر في أواخر رمضان من فتوحاته المظفرة في الشمال حيث فتح انطاكية وخلصها من الفرنج، فاحتفل بعيد الفطر في قلعة دمشق.

وعندما كان الظاهر في دمشق سنة ٦٦٥/ ١٢٦٦ وصلت رسل هولاكو ملك التتار فاستضافهم الظاهر في قلعة دمشق [٣].

وفي سنة ٦٧٤ كان الظاهر مقيماً في دمشق، فاستدعى ابنه الملك السعيد بركة خان من القاهرة وأنزله في القلعة بغية تزويجه بغازية خاتون بنت سيف لدين قلاوون [٤].

---

(١) هو أول خليفة عباسي في القاهرة، انتقلت بتنصيبه الخلافة من بغداد إلى القاهرة، وبايعه الظاهر بيبرس، واسم هذا الخليفة أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر محمد وأخو الخليفة العباسي الذي قتله التتار عند اجتياح بغداد.

(٢) انظر ذيل الروضتين لأبي شامة ص٢١٣. أما المدرسة الناصرية فهي واحدة من المدارس الأيوبية وتنسب لمنشئها الناصر صلاح الدين يوسف (الثاني) آخر سلاطين بني أيوب.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٤، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٥٢.

(٤) النجوم ٧/ ١٤٤.

وتشاء الأقدار أن تكون وفاة السلطان بيبرس في دمشق أيضاً، ولكنه لم يكن وقتئذ يقيم في القلعة، بل في قصره «الأبلق». واتفق الأمراء على كتم الخبر وحملوه سراً في تابوت ورفعوه إلى قلعة دمشق من السور وجعلوه في بيت من بيوتها إلى أن تمكنوا من استقدام ابنه السعيد إلى دمشق وتجديد البيعة له. ثم أعلنوا خبر الوفاة(1) ونقلوا جثمان الظاهر إلى تربته في المدرسة الظاهرية المعروفة (2).

وتبقى القلعة مقراً لسلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، ينزلون فيها كلما قدموا إلى دمشق. وقلما ينزل أحدهم في قصر السلطنة «الأبلق». قدم بعد الظاهر إلى دمشق ابنه الملك السعيد في عام ٦٧٧/ ١٢٧٨ فنزل في القلعة وعمل عيد النحر فيها (3).

وفي عام ٦٨٠/ ١٢٨١ دخل السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، فنزل في القلعة (4).

وأما الأشرف خليل ابن قلاوون فقد نزل في القصر الأبلق حينما قدم إلى دمشق سنة ٦٩٢/ ١٣٩٢. (5)

---

(1) السلوك ٦١٩/٢٢١.

(2) انظر قصة وفاته ودفنه في كنز الدرر للدواداري ٨/ ٢٠٨.

ماتزال تربة الظاهر قائمة بحالة جيدة وهي من أجمل المباني عمارة وزخرفة. انظر مقالنا عبر قبور العظماء في دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٣٤، الجزء الرابع لعام ١٩٥٩، وكتابنا مدينة دمشق ص ١٩٠.

(3) النجوم الزاهرة ٧/ ٢٦٤.

(4) ابن كثير ١٣/ ١٨٠.

(5) ابن كثير ٦/١٤.

ونعتقد أن السبب في عدم نزوله في القلعة هو قيام أعمال البناء الواسعة التي سنأتي على ذكرها في الفصل التالي.

أما السلطان كتبغا فقد نزل مع نائبه ووزيره في قلعة دمشق حينما قدم إليها سنة ٦٩٥/ ١٢٩٥. واعتصم بها كذلك عندما ثار عليه امراء المماليك [١].

ونزل الناصر محمد بن قلاوون في قلعة دمشق حينما قدم لصد التتار سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩ [٢]. ثم أتى ثانية إلى دمشق سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢ لنفس الغرض، فنزل في القصر الأبلق، إلى أن تم اخراج الجفال [٣] من القلعة فتحول حينئذ إليها وصلى بها الجمعة [٤].

ويروى ابن كثير خبر اعتزال الناصر المذكور السلطنة سنة ٧٠٨/ ١٣٠٨ وتولى المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير مكانه فيقول: «ووصل إلى دمشق أمير لأخذ البيعة، واستحلف الأمراء بالقصر الأبلق، وكتبت العلامة على القلعة وألقابه على محال المملكة [٥]. لعل المقصود بالعلامة شعار السلطان الجديد، ومع ذلك فإنا لم نجد أي إشارة أو كتابة من عهد هذا السلطان.

---

(١)- ابن كثير ١٣/ ٣٤٨.

(٢)- ابن كثير ١٤/ ٦.

(٣)- كلمة الجفال تعبير تاريخي أطلق على الاجئين من القرى والضواحي الهاربين من وجه الغزاة.

(٤)- ابن كثير ١٤/ ٢٤.

(٥)- ابن كثير ٢٤/ ٤٨.

لما أعيد الناصر إلى السلطنة في عام ٧٠٩/ ١٣٠٩ قدم إلى دمشق من الكرك حيث كان يقيم بعد اعتزاله، فلما وصل إلى القلعة، نصب له جسر، ونزل إليه نائبها الأمير سيف الدين السنجري، فقبل الأرض بين يديه، فأشار إليه أني الآن لاأنزل هاهنا، وسار بفرسه إلى جهة القصر الأبلق [(١)]».

وبلفت انتباهنا في هذا الخبر عدم نزول السلطان في القلعة، والسبب فيما نعتقد أنه لم يبايع بعد بالسلطنة. فلنزول السلطان في القلعة اذن مغزاه وأثره في تثبيت سلطته الشرعية. ونلاحظ بأن الناصر نفسه حينما قدم إلى دمشق في المرة التالية سنة ٧١٢/ ١٣١٢ نزل في القلعة أولاً. ثم انتقل بعد أيام إلى القصر الأبلق[(٢)].

وفي سنة ٧٥٣/ ١٣٥٢ قدم ابنه الملك الصالح صلاح الدين إلى دمشق لقمع ثورة الأمراء المشهورة بحركة «بيبغاروس» نائب حلب وأقام فيها سبعة وثلاثين يوماً. وكان دخوله يوماً مشهوداً، وزينت المدينة بسبب ماأصابها من السلب والنهب والقتل من المماليك الثائرين.

يقول ابن كثير في وصف موكب السلطان ودخوله إلى

---

(١) ابن كثير ١٤/ ٥٢.

(٢) ابن كثير ١٤/ ٦٧.

القلعة: «وقد ترجل الامراء بين يديه وبسط له عند مسجد الدبان [1] إلى أن دخل القلعة المنصورة. وقدم معه الخليفة المعتضد العباسي فنزل بالمدرسة الدماغية داخل باب الفرج. وفي يوم الخميس نزل السلطان من الطارمة [2] إلى القصر الأبلق... وفي يوم الاثنين ثالث شوال ركب السلطان من القصر إلى الطارمة فجلس فيها ووقف الجيش بين يديه تحت القلعة [3]».

نلاحظ في هذا الخبر بأن الخليفة لم ينزل في القلعة لما لها من صفة عسكرية ولاتصالها بالسلطان دون غيره، وتكون اقامته في إحدى مدارس مدينة دمشق. كما نلاحظ تردد السلطان خلال اقامته بين القصر الأبلق والقلعة، ويبدو أن القصر كان خاصاً بنوم السلطان وراحته، بينما كان حضوره في القلعة للعمل وتدبير أمور السياسة.

وفي عام ٧٦٢/ ١٣٦٢ قدم إلى دمشق السلطان المنصور صلاح الدين محمد لإخماد ثورة نائب السلطنة في دمشق «بيدمر» الذي كان قد استولى على القلعة وتحصن بها ويروي ابن كثير أن السلطان أرسل قبل وصوله إلى دمشق، يستعلم طاعته أو مخالفته

---

(١) من مساجد دمشق المندثرة، كان يقع على الطريق الآخذ من باب الجابية إلى الميدان، قريباً من مقبرة الباب الصغير (انظر ابن كثير ١٤/ ١٤٤، وابن عبد الهادي ثمار المقاصد ص١٤٤، ٢٥٣).

(٢) بناء تعلوه قبة، مشهورة في قلعة دمشق، كان يحتل أعلا برجها الكائن في الزاوية الشمالية الغربية. سنتحدث عنه في الفصل التالي.

(٣) انظر ابن كثير ١٤/ ٢٤٤- ٢٤٦.

«ويسأله فيما اعتمده بارسال من استولى على القلعة والخطبة فيها وادخال الآلات والاطعمات فيها ووضع المجانيق والستائر عليها، وكيف تصرف في الأموال السلطانية تصرف الملوك. فتنصل ملك الامراء من ذلك وذكر أنه إنما أرصد في القلعة أجنادها وأنه لم يدخلها، وإن أبوابها مفتوحة، وهي قلعة السلطان، وإنما له غريم بينه وبين الشرع والقضاة (ويعني بذلك بلبغا الخاصكي أتابك الديار المصرية)، وكتب الجواب وأرسله صحبة البريدي [1]».

ونفهم من هذا الحوار الهام مفهوم تبعية القلعة للسلطان والحرمة التي تتمتع بها كرمز للسلطنة في نظر العصر. ولما استسلم بيدمر ودخل السلطان دمشق، دخل القلعة ونزل الطارمة وجلس على سرير المملكة. ورجع الحق إلى نصابه. كما عبر ابن كثير [2]. وتبرز خصائص القلعة السلطانية أيضاً خلال مراسم واحتفالات التسلطن. فقد تقلد السلطنة في قلعة دمشق عدد من السلاطين. نذكر فيما يلي عدداً منهم:

١ - السلطان الظاهر ططر (سنة ٨٢٤/ ١٤٢١): وكان قد قدم مع السلطان الطفل «المظفر أحمد» بن المؤيد شيخ للقضاة على عصيان نائب دمشق، الأمير جقمق، فلما انتصر على جقمق خلع السلطان

---

(١) النص عند ابن كثير مشوش، وقد تصرفنا قليلاً في النقل بغية الوضوح (انظر الأصل في البداية ١٤/ ٢٨٤).

(٢) البادية والنهاية ١٤/ ٢٨٧.

الصغير وأعلن نفسه سلطاناً، يقول ابن تغرى بردى [1] في وصف احتفال التولية، ولبس ططر خلعه السلطنة من قصر قلعة دمشق وركب بشعار السلطنة وأبهة الملك وحضر الخليفة ولقضارة بقلعة دمشق وبايعوه بالسلطنة يحضره الملأ من الأمراء والخاصكية ... واستمر بقلعة دمشق وعمل الخدمة السلطانية بها وخلع على الخليفة والقضاة وعلى أعيان الامراء.

٢- سلطنة الملك العادل طومان بأي في دمشق سنة ٩٠٦/ ١٥٠٠:

وكان طومان باي دوادارا كبيراً في مصر، قدم إلى دمشق بجيش كبير للقضاء على عصيان نائبها «قصروه» فاستقبله قصروه بموكب حافل واتفق معه على توليه السلطنة. ويصف لنا ابن طولون[2] الاحتفال فيمايلي: «وركب الجميع من القصر (القصر الأبلق)، وبيد طومان باي طبر كبير [3] والنائب (أي قصروه) بيده عصا، ودخل الكل من باب السر إلى القلعة وصعد المؤيد طومان باي في الحال إلى طارمة القلعة وأظهر الترس السلطاني فاشتهر أنه السلطان الملك المؤيد... وحضر القضاة الأربعة وأظهروا له البيعة. وفي صبيحة يوم السبت (اليوم التالي)، حضر القضاة والأمراء

---

(١) النجوم، ١٤/ ١٩٨, ٢٠١.

(٢) أعلام الورى ص١٢٢.

(٣) الطبر لفظة فارسية الفأس، وهو من العلائم السلطانية، ويحمله عادة رجل من خواص السلطان عند ركوبه في المواكب (انظر صبح الأعشى ٥/ ٤٥٨).

والبس السلطان الأسود الخليفتي وجلس على كرسي الملك بقلعة دمشق وجلس عليه معه القضاة فقط والأتابكي قصروه فمن دونه وقوف إلى جانب الكرسي وقدامه، فبايعه القضاة... ونقل السلطان لقبه من «المؤيد» إلى «العادل» ونقش له بذلك على أركان داخل القلعة وفي دار الضرب وغيرذلك.

ونلاحظ من الخبر المتقدم أن من بين علامات السلطنة الترس السلطاني. وكانت هناك أيضاً أعلام سلطانية موجودة في القلعة، لمثل هذه المناسبات ورد ذكرها في حدث وقع سنة ٧٤٧/ ١٣٤٦ بمناسبة عزل السلطان المظفر حاجي في القاهرة ورفض نائب السلطنة في دمشق «يلبغا» أن يزعن لهذا الاجراء. وعندئذ اجتمع أمراء الجيش تحت القلعة وأحضروا منها سنجقين سلطانيين أصفرين. وضربوا الطبول حربياً، واجتمعوا كلهم تحت السنجق السلطاني وساروا إلى النائب في الطيلخانات والبوقات ملبسين لامة الحرب [١] ...

ومن مظاهر تبعية القلعة للسلطان أيضاً، مافرض على نائب السلطنة في دمشق من أداء واجب الخضوع للسلطان قبل استلامه منصبه، أمام القلعة وأصبح ذلك تقليداً متبعاً. يصف لنا أبو البقاء الاحتفال الخاص بهذا التقليد الدال على صفة القلعة ومكانتها السلطانية يقول: واصطلح في آخر دولة ابن قلاوون [٢] إن من يولي

(١) ابن كثير ١٤/ ٢٢٢.

(٢) السلطان المقصود هنا هو الناصر محمد بن المنصور قلاوون وحكم حتى عام ٧٤٤/ ١٣٤٣.

نيابة دمشق أن يصلي عند الباب ركعتين مستقبل القبلة بحيث يبقى الباب على يساره ويقف أجناد القلعة وأرباب الوظائف والأتراك في منازلهم حسب العادة متحملين السلاح، إلى أن يفرغ من صلاته ودعائه، فإن أريد به شر قبض عليه، ودخلوا به من ذلك الباب، ويقفلون الجسر بينهم وبين أعوانه، فإن الجسر بلوالب يحيل بينهم، وأن أريد به خير ركب في عزه ووجوه الدولة في خدمته إلي أن ينزل دار العدل التي أنشأها المرحوم نور الدين الشهيد، وهي التي تسمى اليوم دار السعادة [1].

إن الباب المشار إليه في النص يجب أن يكون باب القلعة الغربي ويعرف بباب السر، لأنه الباب الوحيد الذي يكون على يسار مستقبل القبلة. ومن الأخبار التالية تأكيد لهذا التقليد مع مافيها من تفاصيل مفيدة:

وروى ابن كثير خبر ولاية الأمير سيف الدين يلبغا نيابة السلطنة سنة ٧٤٦/ ١٣٤٥.

قال: «فنزل عند باب السر، وقبل العتبة على العادة، ثم مشى إلى دار السعادة [2]». ونلاحظ بأن العبارة التي استخدمها ابن كثير تعتبر دليلاً قوياً على الخضوع، وتأكيداً لمكانة القلعة في كونها ترمز للسلطان.

(١) نزهة الأنام ص٢٦.
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢١٧.

وخبر آخر نجده عند المؤرخ ابن طولون عن ولاية قايتباى الحمزاوي سنة ٨٥٩/ ١٤٥٤، قال: «فلما وصل تحت القلعة سير على العادة ثم قصد دار السعادة، فلما وصل إلى باب السر فتح له ووضعت أوائل دهليز الخشب المعلق على الخندق، فنزل ودخله وصلى خلفه علي الخشب التي هي أوائل الجسر الآخذ إلى داخل القلعة ركعتين بحضرة الدولة وأهل القلعة ثم عاد وخرج منه وركب ودخل دار السعادة ونزل بها على العادة (١)».

ونرى ابن طولون في مناسبة أخرى يقدم تفاصيل أكثر عن هذه العادة كما ينعت نائب السلطنة بالطيش لأنه شذَّ وصعد الطارمة، وهي خاصة بالسلطان كما رأينا. يقول «إن كرتباي الأحمر» حين تولى النيابة سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ دخل دمشق مدخلاً حافلاً، وكان معه نائب حلب ونائب غزة فسيروا على العادة تحت القلعة سبع مرات على العادة، ثم أتى النائب المذكور إلى باب السر فصلى على العادة، ثم دخل القلعة، ثم صعد إلى الطارمة، وأظهر نفسه للناس فتبين لهم أنه طائش خفيف، ثم نزل وركب من باب السر المذكور إلى دار العدل فقرئ تقليده على العادة (٢).

---

(١) أعلام الورى ص٥٤.

(٢) أعلام الورى، ص٨٥.

ومن الطبيعي أن تختلف تقاليد الاحتفال عندما يكون السلطان موجوداً في القلعة، فعندها، لالزوم لأن يبدي النائب خضوعه للسطان بتقبيل عتبة قلعته، أو صلاة ركعتين على بابها، بل يقدم آيات الخضوع داخل القلعة أمام حضرة السلطان، كما في الخبر التالي:

حينما تولى طومان باي السلطنة في دمشق سنة ٩٠٦/ ١٥٠٠ وأقام بقلعتها، استدعى نائب حلب ليوليه نيابة دمشق. فدخل هذا النائب على السلطان من باب النصر (باب المدينة الغربي) إلى أن أتى باب القلعة الشرقي، فلما وصل إلي الحضرة قبل له الأرض وسلم عليه على العادة ثم رجع من حيث أتى[١].

ثانياً القلعة ونائب السلطنة:

أوضحنا في الفقرة السابقة الخصائص السلطانية للقلعة وتبعيتها للسلطان وقد ترتب على ذلك أن يكون لها نائب خاص وأن تكون مستقلة في كل شؤونها عن نائب دمشق. ولقد توطد هذا الاستقلال مع الزمن، ومنذ أن تنبه السلاطين إلى شأن القلعة ودورها الهام في مراقبة نائب السلطنة في دمشق والحيلولة دون نزوعه إلي الثورة والعصيان، ولاسيما بعد أن استخدمها عدد من النواب في تحقيق أطماعهم في الاستقلال عن القاهرة أو ادعاء السلطنة.

نلحظ بعض الغموض والتناقضَ أحياناً بين المصادر في بداية

---

(١) أعلام الورى، ص١٢٣.

العهد المملوكي حول هذا الموضوع، حتى ليبدو لنا أن وجود نائب خاص للقلعة لم يكن ملزماً في البدء.

أورد «ابن الصقاعي» صاحب تراجم «تالي كتاب وفيات الأعيان» بأن السلطان قطز حين دخل دمشق، إثر معركة عين جالوت سنة ١٢٥٩/٦٥٨ استتاب فيها الأمير عز الدين سنجر الحلبي وأمر بعمارة القلعة وولى الأمير عز الدين ايبك الزراد لعمارة القعة [(١)] دونما اشارة إلى أن هذا الأخير كان نائباً للسلطنة على قلعة دمشق، مما نفهم معه بأن الحلبي كان ممثلاً للسلطان في كل السلطات.

وحينما تولى السلطان الظاهر بيبرس وقضى على استقلال سنجر الحلبي في دمشق سنة ١٢٦٠/٦٥٩ وعين الأمير علم الدين ايدكين البند قداري على دمشق، تضاربت المعلومات حول نيابة القلعة. فابن كثير يروي الخبر فنفهم منه أن ايدكين كان نائباً على دمشق وقلعتها. يقول: «فأخذها (دمشق) وسكن قلعتها نيابة عن الظاهر [(٢)]».

بينما يقول ابن الصقاعي في ترجمة ايدكين المذكور: «عين نائباً في دمشق حين تولى الظاهر السلطنة وأقام بدار السعادة، وأقام طيبرس الوزيري بقلعة دمشق». ويضيف في ترجمة طيبرس: «لما

(١) انظر ترجمة قطز، ص١٢٩.

(٢) البداية والنهاية، ١٣/ ٢٣٠.

تملكَ الظاهر أرسله إلى الشام صحبة الأمير ايدكين، النائب بدمشق، يقيم بقلعة دمشق نائباً، فأقام مدة يسيرة ونقل إلى النيابة (يعني نيابة دمشق) ولم يخرج من القلعة [1]».

وإذا دققنا في كتابات القلعة [2] التي تؤرخ أعمال الظاهر فيها خلال عام ٥٦٩ نجدها تشير إلى أن أعمال الترميم تمت بتولي الأمير عز الدين ايبك الزراد. ولايمكننا أن نعتبر ذلك اشارة صريحة إلى نيابته للقلعة. وعبثاً حاولنا العثور على اسم لنائب قلعة دمشق في المصادر التاريخية أو في كتابات القلعة قبل عام ٦٧٣/ ١٢٧٥، لكنا وجدناه على شاهدة قبر الأمير شجاع الدين بن عمر الطوري التي نشر نصها «فييت»[3] وفيه لقب بوالي قلعة دمشق، بينما لم يأت لهذا الأمير ذكر في المصادر التاريخية. والكتابة الوحيدة التي ورد فيها اسمه والمؤرخة في عام ٦٧٣، مقرونة بعبارة «بتولي العبد الفقير ...» ومعنى ذلك أنه كان متولياً لأعمال العمارة.

وفعلاً فإن وظيفة نائب القلعة لاتظهر بوضوح إلا في عام ٦٧٨/ ١٢٧٩، وذلك في خبر عزل الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس والقيض على نائب دمشق عز الدين ايدمر. حيث ذكر ابن كثير في

(١) تالي وفيات الأعيان ص١٧، ٩٣.

(٢) انظر الكتابتين ٨و٩ في الملحق رقم (١).

(٣) انظر: Notes d,Epigraphie,Syria,VII,1936,p,58 الكتابة رقم ١٠ في مجموعة كتابات القلعة.

هذا الخبر عبارة: وسجن في قلعة دمشق عند نائبها علم الدين سنجر الدواداري [١].

ومنذ هذا التاريخ يصبح استقلال القلعة واضحاً، وتقف سلطات نائب دمشق عند أسوارها، فهي رمز للسلطان ولها حرمة لايجوز لنواب دمشق انتهاكها.

وفعلاً فإن نائب السلطنة لم يكن يمد سلطانه إلي القلعة إلا حين تحدثه نفسه بالعصيان أو بادعاء السلطنة، كما نرى في الأحداث التالية:

١- عصيان سنقر الأشقر:

كان نائباً على دمشق في أيام السلطان سلامش ابن الظاهر بيبرس الذي ولي السلطنة بعد عزل أخيه الملك السعيد سنة ٦٧٨/ ١٣٧٩. فلما عزل سلامش خشي سنقر الأشقر أن يحل به ما حل بسلفه «ايدمر» الذي سجن في القلعة، كما تقدم. فهاجم سنقر القلعة من بابها الشرقي، كما يقول ابن كثير، واحتلها وسجن نائبها وهو يومئذ حسام الدين لاجين.

وأخذ بيعة الامراء والجند وأعلن نفسه سلطاناً ولقب بالملك الكامل. وطلب القضاة والعلماء ورؤوس البلد إلى مسجد أبي الدراء

---

(١) البداية والنهاية، ١٣/ ٢٨٨.

في القلعة ليحلفوا على طاعته، وتبعهم عامة الناس، وخطب له على منابر دمشق إلي أواخر سنة ٦٧٩. ثم انتهى أمر سنقر بالهزيمة في معركة مع جيش السلطان قلاوون(١).

٢- عصيان سيف الدين بيدمر:

ويصف ابن كثير (٢) حادثة استيلاء نائب السلطنة بيدمر على القلعة ومابدر منه من أجل ذلك، وصفاً فيه كثير من الفوائد نلخصه فيمايلي:

- حدث في عام ٧٦٢/ ١٣٦٠ أن نائب السلطنة في دمشق سيف الدين بيدمر تخوف أن يعزله أتابك الديار المصرية الأمير سيف الدين «يلبغا» الخاصكي مدبر دولة السلطان المنصور محمد. وأعلن بيدمر أنه مع استمرار طاعته للسلطان، إن اتفق عزله من قبل يلبغا، فإنه لايسمع ولايطيع. وحدث في هذا الأثناء موت نائب القلعة بدمشق «فأرسل نائب السلطنة من أصحابه وحاشيته إليها من يتسلم القلعة برمتها، ودخل هو بنفسه إليها وطلب من نائبها، وهو من أخبر الناس بها وبخططها وحواصلها، فدار معه فيها وأراه حصونها وبروجها، ومفاتحها، وأغلاقها، ودورها وقصورها، وعددها وبركتها، وما هو معد فيها، وتعجب الناس من هذا الاتفاق في هذا

(١) انظر البداية والنهاية، ١٣/ ٢٨٩، ٢٩١. وابن طولون، أعلام الورى، ص٨.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٨٠ فيما بعد.

الحال، حيث لم يتفق ذلك لأحد من النواب قبله قط. وفتح الباب الذي هو تجاه دار السعادة وجعل نائب السلطنة يدخل إلى القلعة ويخرج».

«وشرع نائب السلطنة بعد ذلك في نصب المجانيق من جهاتها الأربع، وبلغني، كما يقول ابن كثير، أنه نصب آخر في أرضها عند البحرة ثم نصب آخر وآخر حتى شاهد الناس ستة مجانيق على ظهور الأبرجة».

ويضيف ابن كثير: «اجتمع على الأمير نائب السلطنة أمراء الشام حتى قيل أن فيهم من نواب السلطنة سبعة عشر أميراً، وكلهم يحضر معه المواكب الهائلة.

وقد انتهى الأمر بخروج الامراء والجيش من دمشق بقيادة النائب بيدمر إلى غزة والتقاؤهم بالجيش المصري. ثم فشلت الحركة وعاد بيدمر إلى قلعة دمشق يتحصن بها ثم استسلم بعد وصول جيش السلطان إلى دمشق واعتقل.

نلاحظ في هذه الحادثة كيف أن القلعة كانت سراً مغلقاً على نائب السلطنة، وقد دخلها بيدمر للمرة الأولى وتعجب مما رآه، وكيف أن دخوله إليها في نظر ذلك العصر كان مدعاة للاستغراب، وجرم عظيم، وأن مثل ذلك لم يتفق لغيره، كما عبر ابن كثير.

ثم لاحظنا ما حصل عليه بيدمر نتيجة ذلك من النفوذ، وكيف

أدى ذلك إلى افساد غالب امراء الشام وعصيانهم، وانضمامهم إلى نائب دمشق.

٣- عصيان تنم الحسني:

ثورة أخرى قام بها النائب المدعو «تنم» وكان لها أثرها على بقية نيابات الشام. فلقد حدث أن توفي الظاهر برقوق سنة ٨٠١/ ١٣٩٨ وعين الامراء في القاهرة ابنه الصغير الناصر فرج، فامتنع نائب السلطنة في دمشق عن البيعة وأعلن العصيان. واستخدم الحيلة في استيلائه علي القلعة وشجع عمله هذا نائبي حمص وحماة فاحتل كل منهما قلعة المدينة أيضاً. ثم انتهى أمر الثورة إلى الفشل [١].

٤- عصيان نوروز الحافظي:

أما نوروز الحافظي فقد عين بعد انتهاء ثورته على السلطان الناصر فرج ومقتل السلطان المذكور سنة ٨١٥/ ١٤١٢ نائباً للسلطنة واسع الصلاحية في بلاد الشام من غزة إلى الفرات وتسلم قلعة دمشق أيضاً [٢]. وعصى في عام ٨١٦ على السلطان الجديد المؤيد شيخ، فقدم السلطان لمحاربته، واعتصم نوروز بقلعة دمشق، فنزل السلطان بالميدان الأخضر يحاصر القلعة كما يقول ابن تغري بردي [٣]: «واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً مع استمرار القتال

(١) انظر النجوم الزاهرة، ١٢/ ١٧٦.

(٢) انظر ابن اياس، ١/ ٣٥١ والنجوم الزاهرة ١٣/ ٢٠٠

(٣) النجوم الزاهرة، ١٤/ ١٩-٢١.

ليلاً ونهاراً والرمي مستدام من القلعة بالمناجيق ومكاحل النفط.» ثم عقد الصلح ونزل نوروز من القلعة فقبض عليه وسجن وقطع رأسه.

٥- عصيان جقمق:

وفي سنة ٨٢٤/ ١٤٢١ عصى سيف الدين جقمق نائب دمشق وسبب ذلك وفاة السلطان المؤيد شيخ وتنصيب ابنه الصغير الذي لم يبلغ السنتين، واستبد بالأمر أحد كبار الامراء واسمه ططر، فغضب من ذلك جقمق ورفض طاعة ططر. يقول ابن تغري بردي[١]: «إن جقمق أخذ قلعة دمشق واستولى عليها وعلي ما فيها من الأموال والسلاح وغير ذلك، وكان بها نحو المائة ألف دينار. وتحقق الأمير ططر عند ذلك خروج جقمق عن طاعته، فقدم إلى دمشق، وانقسم أنصار جقمق، وجرت بينه وبين أمراء المماليك معركة، هرب في أثرها إلى قلعة صلخد، ثم استسلم فسجن في قلعة دمشق ثم قتل.

٦- عصيان اينال الجكمي:

وفي عام ٨٤٢/ ١٤٣٨ خلع السلطان الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي وتولى السلطنة أحد كبار الأمراء واسمه جقمق العلائي ولقب الملك الظاهر. ولم يرض الأمير اينال الجكمي نائب السلطنة في دمشق على هذه التطورات غير المشروعة، وظل على ولائه للسلطان المعزول، وأمر بالخطبة له على منبر جامع دمشق.

---

(١) النجوم، ١٤/ ١٧٥، ١٨١، ١٩٣.

ولكن نائب القلعة أيد السلطان الجديد وخطب باسمه في قلعة دمشق، وانضم إلى نائب القلعة عدد من أمراء المماليك في دمشق ودخلوا القلعة. وأرسل السلطان جيشاً بقيادة النائب الجديد الذي عينه عوضاً عن اينال العاصي. وضعف أمر اينال هذا وانكسر أمام جيش السلطان. ثم أسر واعتقل بقلعة دمشق، ثم قطع رأسه وأرسل إلى القاهرة.

٧- عصيان قرتباي الأحمر:

وطمع «فرتباي الأحمر» سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ بقلعة دمشق، واستولى عليها. وأرسلت القاهرة أميراً ليكون نائباً لقلعة دمشق، فرده النائب ولم يمكنه من الدخول. . «ثم دخل من مصر إلى دمشق خاصكي أرسلوه ليطلب النائب ويتسلم منه قلعة دمشق، ليولوا فيها نائباً على العادة. وتلقاه النائب والقضاة على العادة بخلعة بطراز خاص، ثم لم يسلم إليه القلعة المذكورة [1]»

٨- عصيان قصروة:

وانتهز النائب «قصروة» سنة ٩٠٥/ ١٤٩٩ فرصة عزل نائب القلعة من قبل السلطان وكان يعرف بمملوك جانم مصبغة، فاتفق معه النائب سراً على التلكؤ في الخروج منها، ولما ظهر للناس ذلك،

---

(١) النجوم، ١٥/ ٢٨٩، وإعلام الورى، ص٥٠.

(٢) إعلام الورى، ص٨٨، ٨٩، وابن اياس ٢/ ٣٤٢.

خاف النائب، وأمر بالمناداة بأن القلعة قلعة السلطان والمماليك مماليك السلطان وأن أحداً لايتكلم فيما لايعنيه.

ثم عين نائباً ونقيباً على القلعة من جماعته، وطرد النائب والنقيب السابقين. ولما وصل من مصر النقيب الذي عينه السلطان ومتسلم القلعة لنائبها الجديد المعين من قبل السلطان، ورفض قصروة أن يسلمهما القلعة وأعادهما إلى مصر، ولكنه أرسل وراءهما دواداره الثاني [١] رسولاً إلى السلطان يطلب أن تكون القلعة بيده، فلم يجبه السلطان إلي مطلبه. ثم أعلن العصيان واستولى على قلعة صفد وانضم إليه نائبا صفد وحلب [٢].

نلاحظ من الأحداث التي تقدم ذكرها أن الاستيلاء على قلعة دمشق كان يعتبر مطلباً هاماً بالنسبة لنواب السلطنة الطامعين، الراغبين في الاستقلال والعصيان. أما في الأحوال العادية، وعندما تكون شخصية السلطان، وهيمنته على أقاليم الدولة تامة، فإن نائب السلطنة لم يكن يتجاوز حدوده، وكان يؤدي، كما رأينا، فروض الطاعة أمام باب القلعة في مشهد من الناس والجند، دون أن يجرؤ على دخول القلعة. وكانت علاقاته مع نائبها تقوم على الاحترام المتبادل، كما يراقب أحدهما الآخر.

---

(١) معناه الأصلي حامل الدواة، ثم أصبحت وظيفة من الوظائف الهامة بحسب مايقتضيه الحال. والدوادار هنا أحد أعوان نائب السلطنة (انظر صبح الأعشى ٥/ ٤٦٢).

(٢) تلخيصاً عن إعلام الورى، من الصفحة ١٠٣ إلى الصفحة ١٠٩.

نلاحظ بأن السلطان قد يعهد لنائب السلطنة، في بعض الأحيان، بصلاحيات محددة بالنسبة للقلعة، يمارسها كموظف مسؤول. نذكر من هذه المهام، تولى أمر السجناء والمعتقلين في القلعة، ومنها اعتراضه علي تصرفات نائب القلعة إن هو أساء ويرفع أمره للسلطان. فقد حدث سنة ٧٦١/ ١٣٥٩ أن هرب من سجن القلعة جماعة من المعتقلين، فاشتد نكير نائب السلطنة على نائب القلعة، وضرب ابنه النقيب وأخاه وسجنهما. وكتب إلى السلطان، فورد مرسوم بعزله وإخراجه من القلعة(١).

وقد يعهد السلطان لنائب السلطنة بمهمة ترميم القلعة، كما حدث في عهد السلطان الأشرف خليل الذي أمر في عام ٦٩٠/ ١٢٩١ بترميم القلعة واشادة الأبنية فيها، وكلف نائب السلطنة بهذه الأعمال. يعبر عن ذلك ابن كثير بقوله: «حسبما رسم به السلطان لنائبه الشجاعي» (٢). والشجاعي هذا هو علم الدين سنجر، وقد تولى هذه المهمة فعلاً، وكان كما أوضح ابن طولون نقلاً عن الذهبي، يقف بنفسه على العمارة ويستحث الصناع. فعمر دار السلطنة والطارمة وبالغ في تحسين ذلك وزخرفته (٣). وحدث ذلك بوجود نائب للقلعة يدعى الأمير «أرجواش» الذي نجد اسمه على القلعة في الكتابات التي تؤرخ الترميمات التي تمت باشرافه في عهد السلطان قلاوون، كما سنرى تفصيلاً في الفصل التالي.

---

(١) ابن كثير ١٤/ ٢٧١

(٢) ابن كثير، ١٣/ ٣٢٣، أعلام الورى، ص٩، والسلوك، ١/ ٣/ ٧٧٤

(٣) الشمعة المضيئة، ص٥.

ثالثاً- نائب القلعة:

رأينا في الفصول السابقة أن منصب نائب القلعة كان موجوداً، منذ العهد السلجوقي، ومر معنا اسم الطواشي ريحان نائب القلعة في عام ٥٧١/ ١١٧٥، السنة التي احتل فيها نور الدين دمشق. ومر معنا في خبر سقوط القلعة بيد التتار سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩ اسما متولي القلعة ونقيبها اللذين أعدمهما التتار وقتئذ.

أما في العهد المملوكي، فقد ناقشنا في الفقرة السابقة من هذا الفصل ما اكتنف هذه الوظيفة من غموض وتناقض في بداية العهد المملوكي، وكيف ترسخت بيد الظاهر بيبرس وغدا وجود نائب للسلطنة يتولى قلعة دمشق، معين من قبل السلطان، أمر تقليدي.

وقد لفت نظرنا في الأخبار بأن السلطان كان يعمد في بعض الأحيان إلى تعيين نائبين للقلعة في آن واحد. عثرنا على مثل هذا الحدث في خبرين: الأول يرجع لعام ٧٠٠/ ١٣٠٠ أيام ولاية «آقوش الافرم» على دمشق، حيث جاء مرسوم من السلطان يقضي بالمشاركة بين ارجواش والأمير سيف الدين اقبغا في نيابة القلعة، وأن يركب كل واحد منهما يوماً ويكون الآخر بالقلعة يوماً[(١)]».

والخبر الثاني يرويه المقريزي كمايلي: وفيها (أي سنة ٧١٢/ ١٣١٢) استقر في نيابة قلعة دمشق «عز الدين ايبك الجمالي»

---

(١) ابن كثير، ١٤/ ١٦.

عوضاً عن «بلبان البدري» ثم كتب بأن يكون بلبان شريكاً له، فباشرا جميعاً [١].

كما لفت نظرنا أيضاً في أواخر العهد المملوكي، ظهور وظيفة «نقيب القلعة» إلى جانب نائب القلعة، وقد رأينا أنه كان يعين من قبل السلطان. ولاندري متى كان البدء باحداث هذا المنصب، على أن أو ذكر له عثرنا عليه كان في حوادث سنة ٧٦٠/ ١٣٥٨، في الخبر الذي أورده ابن كثير عن عزل نائب القلعة، وسماه كما رأينا نقيباً. ثم ورد عند ابن طولون في أخبار سنة ٩٠٥/ ١٤٩٩. وذلك في حوادث عصيان نائب السلطنة قصروة ومحاولاته الاستيلاء على القلعة، كما تقدم ذكره في الفقرة السابقة الخاصة بالقلعة ونائب السلطنة[٢]. وقد تكرر ذكر النقيب إضافة إلى النائب، مما جعلنا لانشك بأنهما وظيفتان منفصلتان. ولاشك أن النقيب يعتبر نائباً لنائب القلعة ينوب عنه إذا حدث له حادث ما.

وقد أورد ابن طولون أخباراً عن وصول نقيب القلعة إلى دمشق في سنتي ٩٠٦و٩١١ كمايلي:

في سنة ٩٠٦/ ١٥٠٠ دخل من مصر الأمير «يلباى» العادلي نقيباً لقلعة دمشق في أبهة حافلة [٣]» وفي سنة ٩١١/ ١٥٠٥ دخل

(١) السلوك، ٢/ ١٢٠.

(٢) أعلام الورى، ص١٠٣-١٠٩

(٣) أعلام الورى، ص١٣٢.

إلى دمشق من مصر نقيب قلعتها في أبهة زائدة [١].

وأخيـــراً، وفي عـــام ٩١٣/ ١٥٠٧ نلمح تعـــيين ناظر للقلعة: «دخل من مصر المحب الاسلمي (موظف من غير المماليك) وتولى كتابة السر بدمشق ونظر جيشها وقلعتها[٢]. ومن مهام نائب القلعة الرئيسية حماية القلعة وتحصينها وحفظها للسلطان، وعدم السماح لأحد بدخولها إلا بإذن من السلطان. ومنها أيضاً تولي أمر المعتقلين والسجناء. يتضح ذلك من الخبرين التاليين [٣]:

«فـر في عـام ٨٩٢ أحـد المعـتقلين من قلعـة دمـشق، فـتنكد السلطان ورسم بشنق نائب قلعة دمشق».

- أجاب نائب القلعـة سنة ٧٥٣ على طلب الامـراء الثـائرين على السلطان باطلاق أمير مسجون في قلعة دمشق بقوله: «هذا في سجن السلطان ولا أقدر على اطلاقه إلا بمرسوم السلطان [٤]».

هناك مـهـام أخـرى لـنائب القلعـة يمارسـهـا بحـسب الظروف والأحوال، منها توليه نيابة دمشق عند اللزوم، ومعاقبة نائبها العاصي أو المعـزول، وغيـرها من المهام التي نذكـر أمـثلة عليـها في الحـوادث التالية:

---

(١) أعلام الورى، ص١٧٨

(٢) أعلام الورى، ص١٨٩.

(٣) ابن اياس، ٢/ ٢٤٦.

(٤) ابن اياس، ١/ ١٩٦.

- هرب في عـام ١٢٩٨/٦٩٨ نائب السلطنة في دمـشق «قبـجق» والتحق بالتتار، فقام بأعباء البلد نائب القلعة علم الدين أرجواش [١].

- وفي عام ١٣١١/٧١١ جاء مرسوم إلى نائب القلعة الأمير سيف الدين بهادر السنجري أن يتكلم في أمور دمشق إلى أن يأتيه نائب، فحضر عنده الوزير والموقعون وباشر النيابة وقويت شوكته[٢]».

- حدث في عام ١٣٤٦/٧٤٧ أن عزل السلطان (الكامل شعبان) وعين سلطان جديد (أمير حاجي)، وكان نائب السلطنة من مؤيدي هذا الأخير وتعجل بإعلان الخبر وأمر بتزيين البلد، بينما ظل نائب القلعة على ولائه للسلطان المعزول وحصن القلعة وأغلق بابها، وشك الناس بصحة الخبر وعلقوا عليه بقولهم «لو كان تم شيء له صحة لكان نائب القلعة يطلع عليه قبل نائب السلطنة[٣]».

- وفي عام ١٤٦٠/٨٦٥ أرسل السلطان «خشقدم» مرسوماً إلى نائب القلعة «سودون اليشبكي» مع الخاصكي الأمير «تنم» بالرمي على نائب الشام (جالم الشركسي) واخراجه من دمشق[٤]».

---

(١) ابن كثير، ١٤/٣.

(٢) ابن كثير، ١٤/٦١.

(٣) ابن كثير، ١٤/٢٢٠.

(٤) أعلام الورى، ص٦٢ وابن اياس ٢/ ٧٢.

- وفي أيام الحصار الذي ضربه تيمورلنك على دمشق سنة ٨٠٣/ ١٤٠١، خرج أعيان البلد ليفاوضوا تيمورلنك في الصلح ويقدموا إليه ماطلبه من الأموال والغرامات. فمروا بجوار القلعة ليخرجوا من باب النصر المجاور لها، فمنعهم نائب القلعة وهددهم، فلم يلتفتوا إليه، وقالوا له: «أنت احكم على قلعتك ونحن تحكم على بلدنا [١]». ويجب أن نشير هنا إلى أنه لم يكن في المدينة نائب بعد أن هرب نائبها مع الجيش والسلطان أثر معركة قطنا، وتولى أهل البلد حماية المدينة [٢]. ويبرز هذا النص مفهوم استقلال القلعة عن المدينة، وحدود سلطة نائبها.

- وحدث في عام ٩٠٣/ ١٤٩٧ أن عزل نائب دمشق بسبب عصيانه، وكلف نائب القلعة ليكون قائداً للعسكر الطائع (رأس باش العسكر) المكلف بمحاربة العصاة من الامراء المماليك [٣]».

- وفي عام ٩١٣/ ١٥٠٧ كان نائب السلطنة «سيباى» غائباً عن المدينة فقام جماعة من الامراء بفرض ثمن شعير على الحارات فتدخل نائب القلعة وأبطل هذه الضريبة، يقول ابن طولون هنا: «فألهم الله نائب القلعة في المشي في إبطال ذلك [٤]».

---

(١) النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢٤٠

(٢) النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢٣٨.

(٣) أعلام الورى، ص٨٤.

(٤) أعلام الورى، ١٨٧.

- وكلف نواب القلعة أمر النظر في الوقف الذي أوقفه السلطان على تربة «ابن تيمية» «ووصل بذلك مرسوم من السلطان سنة ٨٢٥/ ١٤٢١. وشرط النظر فيه لنائب القلعة كائنا من كان[١]».

ونلاحظ في مرسوم آخر منقوش على باب السلام في دمشق، مؤرخ في سنة ٨٤٠/ ١٤٣٦ أن السلطان كلف نائب القلعة بمهام لها صفة تجارية. جاء في المرسوم مايلي: «برز الأمر الشريف السلطان الملك الأشرف إلى حضرة الأمير الكبير نائب القلعة المحروسة بدمشق أن تكون الدلالة كل عشرة بدرهم وذلك بحضرة المعلمين والسماسرة وأشهدوا على أنفسهم أن لايؤخذ أكثر من ذلك». والمقصود من هذا المرسوم تحديد أجور الدلالين بنسبة العشر.

- ونعثر على خبر في عام ٩٠٨/ ١٥٠٢ مفاده أن السلطان أرسل خلعة[٢] لنائب القلعة مع خاصكي، تماماً كما يفعل مع نائب السلطنة[٣].

ولقد رأيت من المفيد أن أضع لائحة بأسماء نواب قلعة دمشق في العهد المملوكي، وتمكنت من احصاء النواب الذين ذكرتهم الكتابات المنقوشة على القلعة أو ورد ذكرهم في المصادر التاريخية

(١) مرسوم منقوش على باب القلعة الشرقي (الكتابة رقم ٢٥).

(٢) الخلعة: الهدية من اللباس أو مايشبه العباءة المصنوعة في مصانع الدولة، ولها طراز خاص جرت عادة المماليك تقديمها للامراء والأعيان.

(٣) أعلام الورى، ص١٥١.

المعروفة. ولاشك أن الاحصاء غير كامل، وفيه بعض الثغرات، سببها أن المؤرخين لم يكونوا ليحرصوا على ذكر نواب القلعة دائماً، كما فعلوا بالنسبة لنواب السلطنة. وكثيراً مايكون للقلعة ونائبها دور هام في الأحداث، ومع ذلك فلاتسمي المصادر اسم النائب. وأحياناً يأتي اسم النائب عرضاً في أحداث سنة من السنوات، ويبقى مجهولاً لدينا تاريخ ولايته أو عزله. وقد جعلت ذلك في الملحق رقم (٢).

جـ- دور القلعة الحربي:

واجهت قلعة دمشق عدداً من حالات الحصار خلال غزوات المغول، وحركات العصيان العديدة. وأحداث الصراع القائم بين السلطان ونواب السلطنة، أو بين هؤلاء ونواب القلعة. فكيف واجهت القلعة هذه المواقف، وقامت بدورها كحصن دفاعي:

١- رأينا بأن أول تجربة مرت بها القلعة كانت سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩، حين حاصرها التتار واستولوا عليها وهدموا مواضع منها. ولقد حوصرت القلعة للمرة الثانية من قبل التتار أيضاً، كان ذلك في عام ٦٩٩/ ١٢٩٩، الغزوة المشهورة بموقعه «قازان» انكسر فيها المماليك بقيادة السلطان الناصر، في معركة قرب السلمية (شرقي حماة). ورجع السلطان والمماليك في أثرها إلى مصر وتركوا دمشق لأهلها يدافعون عنها، ثم حصل علماء دمشق على الأمان من جيش قازان ولكن نائب قلعة دمشق، وكان يدعى وقتئذ «أرجواش» رفض

الاستسلام. وعمد إلى تحصين القلعة، وأحرق ماحولها من المباني[1]، لئلا يستخدمها التتار في ضرب القلعة. وعمد التتار إلى محاصرة القلعة ووضعوا المجانيق في صحن الجامع الأموي وأقام التتار في مشاهد الجامع يحرسون المجانيق، فأرسل نائب القلعة «القلعية» إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات وعادوا مستصحبين أسرى من جماعة التتار[2]. وحاول نائب التتار على دمشق الأمير سيف الدين قبجق[3]، عقد صلح مع نائب القلعة، فلم يستجب هذا لدعوته وظل على ثباته. ثم أرسل من ينادي بقدوم العساكر المصرية، وأدى ذلك إلى انسحاب التتار من المدينة، وعندها وضع نائب القلعة يده على المدينة وأغلق أبوابها، وأمر الناس بأن يحملوا السلاح ويبيتوا على الأسوار[4]، وأنذر من يبيت في داره بالشنق، وهكذا سلمت

---

(١) تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٩١.

ومما أحرق من المباني دار السعادة جنوبي القلعة، ودار الحديث الأشرفية شرقي القلعة (ابن كثير ١٤٠/٩) بينما يروي ابن حجر العسقلاني هذا الخبر بشكل مغاير فيقول: «فإن التتار صعدوا فوق سطح السعادة ورموا القلعة بالنشاب فرمى عليهم ارجواش قوارير النفط (الدرر ٢/ ١٧٠)».

(٢) انظر عن هذه الحادثة عند ابن كثير، ١٤/ ٦ فما بعد.

(٣) كان نائب السلطنة على دمشق، فهرب منها خوفاً على نفسه من نقمة أمراء المماليك في مصر، وانضم إلى التتار، وشجعهم على محاربة المماليك وأخذ البلاد منهم، وقدم معهم في هذه الغزوة.

(٤) قام ابن تيمية (تقي الدين) بدور هام في هذه الواقعة وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال وأرسل إلى نائب القلعة يقول له: لو لم يبق فيها (القلعة) إلا حجر واحد فلاتسلمها، ذلك أن استطعت (ابن كثير ١٤/ ٧، ١١).

القلعة بفضل المقاومة التي أبداها نائبها. ويعبر ابن كثير عن هذا الموقف بقوله: «كان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام[1]».

٢- والموقف الحربي الآخر الذي وقفته القلعة في العهد المملوكي كان في عام ١٤٠١/٨٠٣ عندما هاجمها التتار بقيادة «تيمورلنك»، الغزوة التي تقدم الحديث عنها. ونصف هنا حالة الحصار والدور الذي لعبته القلعة وأسلحتها في هذه المعركة، نلخصه عن ابن تغري بردي[2] المؤرخ الذي كان لوالده كأمير من امراء المماليك وكنائب للسلطنة في دمشق دور في هذه الأحداث.

كانت القلعة قبل وصول التتار قد استعدت للحصار ونصبت المجانيق في أعاليها، بينما نصبت المكاحل[3] على أسوار المدينة. وبعد هرب جيش المماليك ولجوء تيمورلنك إلى الحيلة في الاستيلاء على مدينة دمشق كما رأينا، ظلت القلعة صامدة «فحاصرها تيمورلنك أشد حصار مدة تسعة وعشرين يوماً، ورمى عليها بمدافع لاتدخل تحت حصر، وبنى تجاهها قلعة من خشب، وحين صعد إليها التتار ليقاتلوا أهل القلعة من أعلاها، ورموا عليها من القلعة نفطاً فأحرقوها عن آخرها، فأقام التتار قلعة ثانية أعظم من الأولى وصعدوا إليها وقاتلوا حامية القلعة».

---

(١) ابن كثير، ٧/١٤.

(٢) النجوم الزاهرة، ٢٢٧/١٢- ٢٤٦.

(٣) سيأتي الحديث عنها في فقرة الأسلحة والذخائر من هذا الفصل.

ثم يئست الحامية من وصول النجدة إليها فطلبت الأمان، واستسلمت. ويعلق ابن تغري بردى على حادثة استسلام القلعة بقوله: «هذا وليس بالقلعة من المقاتلة إلا نفر قليل دون الأربعين نفراً، لاشلت يداهم، هؤلاء هم الرجال الشجعان رحمهم الله [1]».

ولما فتح العثمانيون دمشق في عام ٩٢٢/١٥١٦ لم يكن للقلعة دور يذكر، فقد استسلمت المدينة، أثر مقتل السلطان الغوري وهزيمة المماليك في معركة مرج دابق، شمالي حلب. وكذلك فعلت القلعة، وخرج نائبها إلي القائد العثماني «يونس باشا» الذي وصل قبيل وصول السلطان سليم، «فتلقى النائب الخلعة وعاد إلى القلعة بعد أن اتفق معه على مسك القلعة لحين حضور ملك الروم (سلطان العثمانيين [2]. وحينما وصل السلطان سليم إلى القابون خرج نائب القلعة المملوكي ومعه مفاتيحها، «قبض عليه وعلى جماعته، ووجههم إلى استانبول [3] مرسم عليهم [4]».

أما دور القلعة في حركات العصيان والثورات ضد السلطان، فقد كان محدوداً. مر معنا عدد من هذه الثورات التي قام بها بعض من نواب السلطنة أمثال سنجر الحلبي، وسنقر الأشقر، وبيدمر،

---

(١) النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢٤٣.

(٢) أعلام الورى، ص٢١٩.

(٣) يقصد اعتقالهم بأمر السلطان أو بمرسوم منه.

(٤) انظر أعلام الورى، ص٢٨٢، ٢٨٧.

وتنم، وقصروه، وغيرهم من الامراء العصاة الخارجين على السلطان. وكان يجري خلال هذه الفتن تحصين القلعة، وقفل أبوابها وأعدادها للمقاومة، واستخدام ما هو معروف من الأسلحة. ومن أهم حالات الحصار التي واجهتها دمشق وقلعتها من جراء الفتن الداخلية هو ما حدث في عام ٨١٥/ ١٤١٢ حينما خرج الناصر فرج إلى الشام ليضرب العصاة من أمراء المماليك بزعامة لوروزو وشيخ المحمودي، وقد انهزم أمامهم ولجأ إلى دمشق وتحصن بها، وحصن أسوارها وقلعتها، وجرت حروب ومعارك ضارية حول أسوار المدينة وقلعتها. وصفها ابن تغرى بردى تفصيلاً، حيث كان يعيش مع والده، نائب السلطنة، في دار السعادة المجاورة لقلعة دمشق. ومما قال ابن تغرى بردى: أن السلطان حصن القلعة بالمناجيق والمدافع الكبار وأتقن تحصين القلعة بحيث أنه لم يبق سبيل للوصول إليها بوجه من الوجوه.

وبعد سقوط المدينة: طلع السلطان إلى القلعة والتجأ بها وقد أشحنها، وأحاط أعداؤه بالقلعة، فرمى عليهم من أعلاها بالمدافع والسهام [1].

العمليات الحربية والأسلحة وفنون القتال

١ - إغلاق أبواب القلعة: كانت أول بادرة من بوادر الحصار أغلاق أبواب القلعة وخاصة بابها الشرقي المفتوح إلى المدينة. وكان

(١) انظر النجوم الزاهرة، الجزء ١٣، الصفحات ١٤٤, ١٤٥, ١٩٦.

لهذا الباب «خوخة» أي باب صغير مفتوح في الباب الأصلي الكبير. ذكر ابن كثير في حوادث ٦٩٦/ ١٢٩١ ثورة الجيش على الملك العادل كتبغا: «فأغلق باب القلعة الذي يلي المدينة، ودخل الصاحب شهاب الدين «المحتسب» إليها من ناحية الخوخة [١]». وذكر في حوادث سنة ٧٦٢ خبر استيلاء نائب السلطنة بيدمر على القلعة: «فأغلقت القلعة بابها المسلوك الذي عند دار الحديث (أي الباب الشرقي [٢])».

وكانت الأبواب الخارجية (الشمالي والغربي) المؤدية إلى خارج المدينة مزودة بجسور معلقة ترفع عند الحصار وقد تقدم وصف هذه الجسور. أما أبواب القلعة المؤدية لداخل المدينة فكانت مزودة بسلاسل حديدية توضع في مقدمة الجسر الثابت لتمنع الدخول إلى القلعة عند اغلاق أبوابها. ذكر ابن كثير خبراً في حوادث سنة ٧٦٣/ ١٣٦١ قال فيه: «بعد العشاء وقبل دقة القلعة [٣]، دخل فارس من ناحية باب الفرج إلي ناحية باب القلعة الجواني. ومن ناحية الباب المذكور سلسلة، ومن ناحية باب النصر أخرى جددتا لئلا يمر راكب على باب القلعة. فساق على السلسلة الواحدة فقطعها ثم ساق على الأخرى فقطعها، وخرج من باب النصر [٤]» ونلاحظ من عبارة

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٣٤٨.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٨٠.

(٣) سيأتي الحديث عن دقة القلعة مفصلاً في الفقرة التالية.

(٤) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٩٥.

(جددتا) بأن السلسلتين المذكورتين كانتا أداتين قديمتين لتحصين أبواب القلعة.

وبالاضافة إلى اغلاق أبواب القلعة فقد كانت تغلق أيضاً أبواب المدينة المجاورة لها كباب الفرج وباب النصر.

٢- نقل المؤن إلى القلعة: كان الأمير الثائر المستولي على القلعة يجلب إليها المؤن والأطعمة والغلات والأمتعة. وقد أشار ابن طولون [١] إلى واحد من أصناف هذه المؤن المدخرة في القلعة من أجل الحصار وسماه (القاورما)، المصنوعة من لحم البقر [٢].

٣- استخدام الأسلحة والذخائر: مر معنا في حوادث الحصار ذكر المنجنيق والمكحلة والسهام الخطائية وقوارير النفط والنشاب والمدافع. ويحسن هنا أن نقول كلمة في أحوال هذه الأسلحة وأهمها المنجنيق: الذي يجمع على منجنيقات ومجانيق، والأخير هو الشائع. ويستعمل في الهجوم والدفاع. فكان المحاصرون يضربون القلعة من الخارج بالمجانيق، والمدافعون عن القلعة كذلك يستخدمون المجانيق المنصوبة على الأبراج. ويبدو أنها لم تكن لتوضع على الأبراج إلا في حالات الحصار والحروب. ومما يؤيد ذلك، أن المؤرخين الذين يصفون أحداث الحصار كانوا يعبرون عن الذعر الذي يدب في

(١) أعلام الورى، ص١١٨.

(٢) الكلمة تركية، وتطلق علي اللحم المفروم المقلي الذي يدخر مدة طويلة، ولايزال بعض الناس في بلاد الشام يستخدمونه للتموين، ويطلقون عليه الاسم نفسه.

النفوس حين يشاهد الناس المجانيق وقد نصبت على الأبراج، كما رأينا.

ولقد ظل استعمال المجانيق إلى حدود منتصف القرن التاسع الهجري، بالرغم من استعمال المكاحل (المدافع). ولقد مر معنا في حصار دمشق أيام تيمولنك، استخدام المجانيق والمكاحل بآن واحد كما رأينا. وآخر خبر عثرنا عليه حول استمرار استخدام المجانيق من قبل المماليك يرجع إلى عام ٨٣٦هـ في خبر حصار آمد(١).

وكانت ذخيرة المجانيق هي الأحجار، وقد قدم لنا ابن كثير وصفاً لأحد مجانيق القلعة وحجارته من المفيد أن نثبته هنا. يقول ابن كثير في خبر ارسال هذا المنجنيق من قلعة دمشق سنة ٧٤٣/ ١٣٤٢ لحصار قلعة الكرك التي تحصن بها السلطان أحمد بن المنصور قلاوون: وبرز المنجنيق من القلعة (أي قلعة دمشق) إلى قبلي جامع القبيبات(٢) فنصب هناك وخرج الناس للتفرج عليه، ورمي به... وفي هذا الشهر نصب المنجنيق الكبير على باب الميدان الأخضر(٣)، وطول سهمه سبعة وعشرون ذراعاً، وخرج الناس

---

(١)- ابن اياس ٢/ ٢٠.

(٢)- القبيبات محلة جنربي دمشق في الميدان الفوقاني، أما مسجد القبيبات فنعتقد بأنه قصد به المسجد الكريمي الذي يدعى اليوم مسجد الدقاق.

(٣)- الميدان الأخضر، المرج الممتد على ضفاف بردى من غربي القلعة إلى موقع التكية السليمانية.

للفرجة عليه، ورمي به يوم السبت حجراً زنته ستين رطلاً، فبلغ إلى مقابلة القصر[1] من الميدان الكبير. وذكر معلم المجانيق أنه ليس في حصون الاسلام مثله[2]. ولكن ابن تغري بردي يحدثنا عن منجنيق آخر كان في دمشق زنة حجره تسعون رطلاً بالدمشقي، وذلك في حوادث سنة ٨١٢/ ١٤٠٩[3].

ثم ظهر سلاح جديد سمي المكحلة والمدفع مر معنا استخدامه في حصار تيمورلنك لدمشق وهو سلاح ناري، ولعل اسمه جاء من تشبيهه باناء الكحل. ثم أصبح يعرف بالمدفع. يقول القلقشندي[4]:

«مكاحل البارود وهي المدافع التي يرمي عنها بالنفط وحالها مختلف، فبعضها يرمي عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر، وبعضها يرمي عنه ببندق[5] من حديد من وزنة عشرة أرطال بالمصري أي مايزيد على مائة رطل وقد رأيت بالاسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان[6] بها مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف

---

(١) يقصد به القصر الأبلق.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٠٣, ٢٠٧.

(٣) انظر النجوم، ١٣/ ٨٥.

(٤) صبح الأعشى، ٢/ ١٣٧.

(٥) البندق كلمة فارسية تطلق في الأصل على ثمرة البندق المعروفة، وأطلق اسمها على البندق الذي يطلق من أسلحة مختلفة، وقد استعملت بهذا المعنى منذ القديم. استخدمت في العصر العباسي. كان ابن منقذ يصطاد عصفوراً ببندقة (كتاب الاعتبار ص ٢٢٢).

ووصف هذا البندق القلقشندي (انظر ٢/ ١٣٨ و٥/ ٤٥٨).

(٦) حكم بين عامي ٧٦٤ و٧٧٨ (١٣٦٢- ١٣٧٦).

الحديد رمي عنه بالميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة . . الخ» .

وبينما نلاحظ أن المكحلة هي المدفع عند القلقشندي ، وقنابلها تسمى البندق ، فإن المؤرخين الآخرين يسمون قنبلة المكحلة المدفع كما يتضح من الأخبار الآتية :

يقول ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٧٩٢/ ١٣٨٩ : «ورموا بمدافع حجارة قتلت بعض الناس على السور ، ورموا أيضاً بمدافع حديد سقط منها . مدفع وزنه رطلان[١]» . وأطلق ابن تغري بردى في حوادث سنة ٨١٢ على هذا السلاح اسم مكاحل النفط ، ومدافع النفط[٢] .

وروى ابن اياس[٣] خبر صنع مكحلة سنة ٩٠٨هـ : «وأحضروا عدة قناطير نحاس وشرع في سبك مكحلتين كبار ، وفرغ من المكحلة وركبها ورمى بها أول حجر ... ورموا بالمكحلة على مدرسة السلطان حسن فخرق المدفع شباك المدرسة» .

ويقول في خبر تشييد برج الاسكندرية سنة ٨٨٤» ١٤٧٩ : «وجعل هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع[٤]» . ومرة واحدة سمي ابن اياس السلاح مدفعاً وذلك في خبر تحصين قلعة دمشق من

(١) المخطوط ، حوادث سنة ٧٩٢ .

(٢) النجوم للزاهرة ، ١٣/ ٨٣ ، ٨٥ , ١٣٤ .

(٣) بدائع الزهور ، ٢/ ٣٢٤ ، ٣٢٩ , ٣٢٦ .

(٤) ابن اياس ، المصدر السابق ٢/ ٤ .

قبل نوروز الحافظي سنة ٨١٧ : «وركب على سورها المدافع من كل جانب[١]» .

فالسلاح الجديد عند ابن اياس يدعى غالباً المكحلة وظل يطلق عليه هذا الاسم حتى آخر العهد المملوكي . جاء في وصف الاستعداد لحرب العثمانيين في عام ٩٢٣ مايلي : « ... مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل[٢]» .

أما ذخيرته فهي المدفع وهو مصنوع من الحجر تارة أو من الحديد تارة أخرى ، وشاركه في ذلك ابن قاضي شهبه كما رأينا . ثم نرى ابن اياس يستعمل إلى جانب المدفع اصطلاح البندق الرصاص وذلك في آخر العهد المملوكي .

ونعتقد بأن السلاح حينما ظهر في بداية الأمر أطلق على ذخيرته اسم المدفع والمدافع وكانت على شكل كرات من الحجر أو الحديد مختلفة الأحجام ، نشاهد نماذج لها من الحجر والحديد في بعض القلاع القديمة ، كقلعة حلب مثلاً . ثم أخذت لفظة المدفع تطلق على السلاح بدلاً من المكحلة ، وسميت الذخيرة بالندق وكانت على شكل كرات من الحديد أو الرصاص ، مختلفة الحجوم واستخدمت أيضاً أسهم النفط كذخيرة للمكاحل . إن البندقية المعروفة في

---

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ٢/ ٤ .

(٢) بدائع الزهور ، ٣/ ٨٠ .

عصرنا، كسلاح صغير عرفت بعد المدفع، وكانت تسمى أيضاً المكحلة.

فقد روى الحسن البوريني بأن والي دمشق أحمد باشا الحافظ أمر سنة ١٠١٨ جميع عساكر دمشق بالخروج إلى الميدان الأخضر بالجانب الغربي منها. وأن يحمل كل واحد منهم البندقية المسماة بالمكحلة قديماً، لأنها سلاح مماليك آل عثمان (١)».

بقي أن نشير إلى نوع من المكاحل ذكره ابن اياس في حوادث سنة ٧٦٨/ ١٣٦٦ خلال القتال بين السلطان الأشرف شعبان والأتابكي يلبغا. قال: «وكانا يتراميان بالنشاب والمكاحل النظ (٢)». ولم نفهم المقصود من هذا السلاح (٣). ولكن لفت نظرنا في تعريف القلشندي للمكاحل كما تقدم قوله: «ويرمي عنها بالنفط». وكذلك وصفها «ابن تغرى بردى» وسماها مكاحل النفط ومدافع النفط. ولعل السلاحين واحد في رأيه.

ويرى من تعمق في دراسة الأسلحة أن النفط يقصد به

---

(١) تراجم الأعيان، ١/ ٢٠٢.

(٢) بدائع الزهور، ١/ ٢١٨.

(٣) من المعروف أن النفط استخدم منذ القديم لأحدث الحرائق، واستخدمه المسلمون في الحروب الصليبية لاحراق الدبابات والأبراج المتحركة، وكانوا يطلقون على العاملين بالنفط اسم النفاطين والزراقين. (انظر كتاب الروضتين، ٢/ ١٥٢. وكتاب الحيل الحربية للهروى، ص١٠٥، ١١٠، ١١٤).

البـارود[١] . وتكون مكاحل النفط على هذا الأسـاس هي مـدافع البارود. وأخيراً متى ظهر استخدام المكاحل في أسلحة الحصار لدى المماليك؟ . لقد رأينا أن المكاحل استخدمت في القرن الثامن (الرابع عشر) وفي آخره على وجه التحديد، ولكنا لاحظنا أن ابن اياس يعود باستخدامها إلى وقت مبكر من هذا القرن. فأول اشارة إليها لديه كانت في عام ٧٥٣/ ١٣٥٢ في خبر تحصين قلعة دمشق، ضد ثورة «يلبغا أروس» كما مر معنا، يقول في ذلك: «أن نائب قلعة دمشق حصن القلعة تحصيناً عظيماً، وركبت عليها المكاحل بالمدافع[٢]. وقد شككنا في دقة ابن اياس لدى ذكره للمكاحل هنا، مما جعلنا نطالع هذا الخبر لدى غيره من المؤرخين، فوجدنا ابن كثير الذي كان في دمشق وقت الحادث يرويه كما يلي: «وقد حصن القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والرماة والعدد، وهيأ فيها بعض المجانيق فوق الأبرجة[٣]».

واختلاف مشابه نجده بين المؤرخين في حادث الرمي من قلعة دمشق على نائب السلطنة (جانم مصبغة) سنة ٨٦٥/ ١٤٦٠: فقد

(١) انظر حول هذا الموضوع كتاب:

D.AYALON: Gunpowder and Firearms in the Mamluk King dom,p.

(٢) بدائع الزهور، ١/ ١٩٦.

(٣) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٤٤.

رواه ابن اياس كما يلي: «أرسل السلطان إلى نائب قلعة الشام مراسيم بأن يقبض على جانم، فرمى عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة فهرب»[1]. بينما رواه ابن طولون (الدمشقي) بشكل مغاير، فيما يتعلق بالسلاح المستخدم يقول: «فلم يشعر (نائب السلطنة) إلا وقد أمر نائب القلعة بالرمي عليه... وقد تعلقت النار من السهام الخطائية في دار السعادة والاصطبل»[2]. فما هي هذه السهام الخطائية التي يذكرها ابن طولون، لاشك أنها نوع من القذائف المحرقة. ولقد سماها القلقشندي بسهام النفط كما تقدم. ولعل هذا السلاح يشبه الصواريخ فقد وصفها ابن فضل الله العمري في كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» بان لها رعد وبرق، وإن الخطا جيل من الترك القريبين من بلاد الصين[3].

ولقد سبق ابن تغري بردى أن أشار إلى السهام الخطائية في حوادث حصار صلخد سنة ٨١٢/١٤٠٩ وحصار دمشق سنة ٨١٥/١٤١٢، دون أن يعطينا أي تفسير عن هذا السلاح[4]. ونرجح أن يكون السلاح الذي أطلق عليه ابن طولون وابن تغرى بردى اسم السهام الخطائية، بسبب نسبة اختراع البارود إلى شعوب

(١) بدائع الزهور، ٢/ ٧٢.

(٢) أعلام الورى، ص٥٩، ٦٠، والخطائية نسبة أو بلاد الخطا.

(٣) أعلام الورى، الحاشية ٢ ص٦٠، انظر أيضاً في تعريف بلاد الخطا (بكسر الخاء) صبح الأعشى، ٤/ ٤٨٣.

(٤) انظر النجوم الزاهرة، ١٣, ٨٢, ١٤٤.

الصين، هو نفسه السلاح الذي أطلق عليه ابن اياس اسم الصواريخ التي مهمتها احداث الحرائق أيضاً، كما يفهم من روايته التي أوردها في حوادث سنة ٨٨٠/ ١٤٧٥، قال: «أطلق النفطية صواريخ نفط فجاء منها صاروخ في مركب الأمير يشبك الدوادار فعملت النار في قلع المركب فاحترق (١)». على أنا نلاحظ بأن النفط استخدم وقتئذ كتعبير عن البارود نظراً لدخول النفط في تركيبه (٢). وتختلف السهام الخطائية وصواريخ النفط عن قوارير النفط التي قامت مقام القنابل المحرقة التي مر معنا استخدامها في حصار القلعة من قبل التتار في حملة قازان. فهذه قد تكون شبيهة بالنار الاغريقية المعروفة منذ القديم.

يحدثنا ابن طولون أيضاً عن سلاح آخر استخدمه نائب السلطنة «قصروة» عند عصيانه واستيلائه على قلعة دمشق سنة ٩٠٥/ ١٤٩٩. وسماه -الكفيات- يقول: «أكثر (قصروة) العبيد السودان الذين وكلهم النائب بالقلعة من اطلاق النار بالكفيات علي جوانبها ليظهر أبهة أخذه للقلعة». وهذا أقدم استعمال لهذا السلاح الجديد عثرنا عليه.

ويبدو لنا أنه عبارة عن مكحلة أو مدفع صغير يحمل باليد ويقبض عليها بالكف ولذلك سميت الكفيات (٣)، ثم أطلق على هذا

(١) بدائع الزهور، ٢/ ١٦١.
(٢) انظر الحاشية ٣٨٩.
(٣) انظر أعلام الورى، الهامش ص١١٨.

النوع من السلاح في العهد العثماني اسم قربينا وطبنجة [1]. وكلاهما بندقيات قصيرة.

٤- الستائر الاضافية:

يكثر ذكر الستائر الاضافية واستعمالها في حالات الحصار كوسيلة من وسائل الدفاع. ولايقصد بها طبعاً تلك الستائر الحجرية التي تتوج أبراج القلعة وأسوارها فهذه جزء ثابت من تحصينات القلعة، وإنما هي كما يبدو ستائر خشبية اضافية تركب في أعالي الأبراج والأسوار وترفع بعد انتهاء حالة الحصار، فهي تزيد من قوة القلعة وقدرتها الدفاعية، لأنها تستوعب عدداً اضافياً من المقاتلين، رماة النبال. ويرجع أقدم استعمال للستائر الاضافية اعتماداً إلي ما عثرنا عليه في المصادر، إلى عام ٦٩٩هـ وذلك بمناسبة الاستعداد ضد هجمات التتار أيام حملة قازان على دمشق. يقول ابن كثير: «ووضعت الستائر على القلعة [2]». وبعد خروج التتار من دمشق يقول: «ورفعت الستائر عن القلعة [3]». وفي المناسبة نفسها نجد عند ابن تغري بردى تعبيراً عن هذا الاستعداد: «وقلعة دمشق مغلقة وعليها الستائر والطوارق فكلم الامراء نائب القلعة في ترك

---

(١) قربينا أصلها فرنسي (Carabine)، وأما طبنجة فتسمية تركية.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/٦.

(٣) البداية والنهاية، ١٣/١٢.

ذلك. فلما كان يوم السبت أزال «أراجوش» (نائب القلعة) الطوارق والستائر من على القلعة[1].

وفي عام ٧٥٣/ ١٣٥٢ استعملت الستائر الاضافية خلال الحصار الذي ضربه على دمشق نائبا طرابلس وحلب العاصيان. فعبر ابن كثير عن ذلك بقوله: «وحصن نائب القلعة القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والرماة[2]».

وقال أيضاً عن ذلك خلال ثورة نائب السلطنة «بيدمر» سنة ٧٦٢ واستيلائه علي القلعة: «واهتم في عمل ستائر القلعة، الستائر تعمل فوق الأبراج [3]».

من النصوص المتقدمة يتأكد لنا بأن الستائر الوارد ذكرها هنا هي ستائر اضافية حتماً وتستخدم مؤقتاً في أحوال الحصار، وأنها كانت في أعالي الأبراج والأسوار.

لاحظ سوفاجه[4] مجموعة من الثقوب المنتظمة شكلها مربع ضلعه (١٠سم) في الستائر الحجرية القائمة فوق أبراج الواجهة الجنوبية، ولاسيما البرج (رقم٦)، التي ماتزال تحتفظ بستائرها الحجرية. ويقول بأن مقاييسها الصغيرة لاتسمح بأن نعتبرها من آثار

---

(١) النجوم الزاهرة، ٨/ ١٣٠.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٤٤.

(٣) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٨٠.

(٤) انظر: Citadelle de Damas,oP.cit.,P.70

الصقائل التي استخدمت أثناء بناء القلعة، والفرضية الوحيدة لتفسير وظيفتها هي أنها تتعلق بستائر خشبية -HOURDAGE- تحملها جسور مركبة في الثقوب المشار إليها، ويدخل إليها الرماة من بين الفجوات الكائنة بين الشرافات.

ويحسب سوفاجه، خلافاً للنصوص العديدة التي أوردناها قبل قليل، أن استعمال مثل هذه الستائر الخشبية لم تتطرق إليه المصادر العربية. ولذا كان من الصعب معرفة تاريخ استعمالها، فقد تكون من عهد العادل، لأن البرج (رقم ٦)) الذي تقدم ذكره لم يتلق أي ترميم في عهد لاحق (نظراً لخلوه من النصوص التي تؤرخ ترميمه)، وأن أقسامه العليا تختلف نوعاً ما عنها في البرج (رقم ٥) الذي رمم سنة ٦٨٠/ ١٢٨١. ويرجح أخيراً أن يعود استعمالها إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر أي إلى عهد ترميمات الظاهر وقلاوون.

د- النشاط الاجتماعي في القلعة:

كانت للقلعة في العهد المملوكي حياتها الخاصة، كما كان لها أيضاً دورها في النشاط العام، وفي أحداث المدينة، تتأثر بها، وتؤثر فيها، وتشارك الناس حياتهم في الأفراح والأتراح، فهي لهم ملجأ وسكناً تارة، ومصدر شر ومتاعب تارة أخرى. سنعرض الآن نبذاً متفرقة عن حياة القلعة الخاصة وعن نشاطها العام.

فللقلعة سكانها الذين منهم نائب القلعة ونقيبها، وفيها الجند الذين يسمون «بالقلعية» أو القلعيون، وفيها من الموظفين، كتاب وفقهاء ومدرسون، وخطيب الجمعة. وكانت لها مؤسساتها الخاصة، كالديوان، والجامع، والمدرسة، ودار الضرب.

وكان فيها طاحون وحوانيت لبيع البضائع وحواصل ومستودعات، ودور سكن، وقصر وحمام، وربما كان فيها أيضاً مستشفى أوبيماستان صغير لمعالجة المرضى من أهل القلعة بدليل وجود أطباء كانوا يعملون فيها (١) وفيها صندوق خزانة السلطان وهي خزانة خاصة لها مواردها ونفقاتها. وكان للقلعة أملاك خاصة بها وأراض زراعية من أجل المؤن من قمح وغيره، تخزن في حواصلها من أجل الحصار. روى ابن طولون خبراً عن سرقة قصدير السلطان المخزون في أحد أبراج القلعة وذلك في عام ٩١٦هـ. (٢)

وجاء في الأخبار أن قرية حرستا (٣) كانت وقفاً لمصالح حواصل القلعة، فأصبحت في عام ٦٩٠/ ١٢٩١ من اقطاع نائب الشام علم الدين سنجر (٤).

---

(١) ذكر ابن أبي أصبيعة (عيون الأبناء، ٢/ ٢٧٣) بأن الطبيب المشهور أبو الفرج ابن القف المتوفي سنة ٦٨٥/ ١٢٨٦ خدم في قلعة دمشق.

(٢) مفاكهة الخلاف، ابن طولون، ١/ ٣٤٦.

(٣) ضاحية من ضواحي دمشق في الشمال الشرقي منها.

(٤) ابن كثير، ١٣/ ٣٢١.

وقد حدث في عام ٦٦٠/ ١٢٦١ عندما خيف من عودة التتار إلى دمشق، أن بيعت حواصل القلعة تهيؤاً للهرب[١]. وعندما حدث الغلاء سنة ٩١٨/ ١٥٢١، باعوا قمح القلعة العتيق للناس[٢].

ومن الضرائب والرسوم التي تجبى لمصالح القلعة، نذكر ضريبة كانت تؤخذ من أوقاف الجامع الأموي ومن سكان الوقف كما يتضح من المرسوم السلطاني الصادر سنة ٨٤٢/ ١٤٣٨، المنقوش على جامع التوبة بدمشق[٣]. ويتضمن: «إبطال ما أحدث من الجباية على وقف الجامع وسكان الوقف من المكس الذي يتناوله القلعيون وغيرهم».

ومرسوم آخر[٤] صدر عام ٩٢٠/ ١٥١٤ يشير إلى نوع من الضرائب كانت تجبى لصندوق القلعة جاء فيه: «أن يُرمى على الحارات وغيرها عدة أربعة آلاف ماش، كل ماش بخمسة وعشرين أشرفيا ويوضع المال بالصندوق بالقلعة[٥].

---

(١) ابن كثير، ١٣, ٢٣٥، ذيل الروضتين، ص٢١٩.

(٢) أعلام الورى، ص٢٠١.

(٣) أحد جوامع دمشق الهامة (بناه الملك الأشرف موسى سنة ٦٣١هـ)، ويقع خارج السور من جهة الشمال في محلة العقيبة.

(٤) أعلام الورى، ص٢٠٦.

(٥) يلاحظ في هذا المرسوم أن خدمة العلم في لغة عصرنا كانت وقتئذ تفرض بشكل جماعي كالضريبة، ويوزع عدد المجندين المقرر على المدينة، على أحياء المدينة. وكان هناك بدل خدمة حدد في النص بخمسة وعشرين ديناراً.

وطبيعي أن يكون صندوق مال القلعة تحت تصرف السلطان، ينفق منه وفق السبل التي يحددها. فحينما خطب السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٠/ ١٥١٤ ابنة نائب السلطنة في دمشق «سيباى» لابنه، قدم المهر من خزانة القلعة. يقول ابن طولون [١]: «انزل من القلعة عدة عشرين ألف دينار في عدة عشرة أكياس، في عدة عشرة صدورة على رؤوس عشر حمالين وزفت من باب القلعة والقضاة الأربعة ونائب القلعة والحجاب وبقية المباشرين مشاة إلى باب الفرج ثم باب الحديد ثم إلى باب النصر إلى ديوان دار العدل، وملك الامراء جالس بصدره فوضعت العشر صدورة قدامه ثم كشفت حتى رأى الأكياس، ثم وصلوا إلى داخل البيت فرفعت ثم وضع السكر في عدة زبادي ثم سقي ملك الامراء سيباى الناكح ثم بقية الحاضرين [٢]».

عثرنا كذلك على نص يطلق على صندوق القلعة اسم صندوق

---

(١) أعلام الورى، ص٢٠٦.

(٢) فضلاً عن أهمية النص قيماً نحن بصدده من وظائف القلعة، فإنه يكشف لنا عن كثير من التقاليد السائدة وقتئذ، ولاسيما عادة وضع المهر أو بدر المال في صوان كبيرة سماها ابن طولون (صدورة). وهذا التعبير مايزال يطلقه أهل دمشق اليوم على الصواني الكبيرة. وكذلك موكب نقل المهر وحمله على رؤوس الحمالين الذي يشبه موكب نقل جهاز العروس في المدن السورية حتى قبل نصف قرن، وكذلك عادة توزيع كاسات الشراب على المدعوين في حفل العقد.

السلطان، مما يوضح صراحة تبعية هذا الصندوق. ورد في خبر رواه ابن طوق سنة ٨٩٩ مايلي:

«ظهر في صندوق السلطان بالقلعة أشرفيات ذهب جدد زغل[١] نحو ثمانين أشرفية[٢]».

ومن وظائف القلعة أيضاً اتخاذها سجناً ومعتقلاً للمجرمين السياسيين وأسرى الحرب. وكانت تخصص بعض الأبراج لهذه الغاية. نذكر من أسماء هذه المعتقلات والسجون برج الخيالة، أو سجن الخيالة[٣] وبرج الحمام الذي اعتقل فيه بعض الامراء المماليك الثائرين، اعتقلهم السلطان الناصر فرج سنة ١٣٩٩/٨٠٢ ثم ذبحوا فيه[٤]. وسجن القرماني، ذكره ابن كثير في حوادث سنة ١٣٢٥/٧٢٦[٥].

وممن سجن في قلعة دمشق العالم الشهير تقي الدين ابن تيمية. صدر مرسوم باعتقاله سنة ١٣٢٥/٧٢٦، فأخليت له قاعة في قلعة دمشق، وأجرى إليها الماء، وأقام معه أخوه يخدمه بإذن من

(١) زغل تعني: مزيفة.

(٢) مخطوطة في المكتبة الظاهرية، يجري تحقيقها من قبل زميلنا الاستاذ عبد الودود يوسف وعنه أخذنا ماله صلة ببحثنا.

(٣) مخطوطة ابن قاضي شهبه، حوادث سنة ٧٩٤ وأعلام الورى، ص٥٠ والنجوم الزاهرة، ١٤/ ١٦١.

(٤) ابن اياس، ـ/ ١٢٣.

(٥) البداية والنهاية، ١٤/ ١٢٣.

السلطان، وبقي في معتقله هذا إلى أن توفي سنة ٧٢٨/ ١٣٢٧ يقول ابن كثير في ذلك: «وحضر جمع غفير إلى القلعة، فغسل وصلي عليه فيها، واتفق موته في الليل، فذكر ذلك مؤذن القلعة علي المنارة بها وتكلم به الحراس علي الأبرجة[١]. ومع ابن تيمية سجن العالم شمس الدين ابن قيم الجوزية أحد تلاميذه[٢].

وفي سنة ٧٨٩/ ١٣٨٧ اعتقل العالم ابن مفلح (صدر الدين سليمان بن يوسف)، فسجن بالقلعة ثم قتل فيها[٣]. وهو غير القاضي ابن مفلح (تقي الدين ابراهيم الحنبلي) الذي ورد ذكره في حوادث حصار تيمورلنك لدمشق، حيث تدلى من السور ليذهب لمفاوضة تيمورلنك[٤].

وكان آخر من اعتقل من العلماء في قلعة دمشق من قبل المماليك، قاضي قضاة الشافعية تقي الدين ابن قاضي عجلون، فسجن في جامع القلعة سنة ٩١٥ هـ[٥].

وحدث في سنة ٧٦٧/ ١٣٦٥ أن اعتدى الفرنج على ميناءي الاسكندرية وطرابلس فأدى ذلك إلى الاحتياط على من كان بدمشق من الفرنج وسجنوا بالقلعة وأخذت حواصلهم[٦].

---

(١) البداية والنهاية، ١٤/ ١٢٣، ١٢٧، ١٣١.

(٢) البداية والنهاية، ١٤/ ١٢٣.

(٣) النجوم الزاهرة، ١١/ ٣١٢.

(٤) النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢٣٩.

(٥) الكواكب السائرة للغزى، ٢/ ٢١.

(٦) ابن كثير، ١٤/ ٣٢٣.

ومن التقاليد الشائعة في القلعة، احتفالها وتزيينها في المناسبات الهامة. فمن مظاهر القوة والنصر على الأعداء احتفال القلعة بوضع رؤوس القتلى في أعاليها ليراها الناس. يروي ابن كثير خبر الموقعة التي حدثت في صيدا سنة ٧٥٧/ ١٣٥٦ مع الفرنج، قال: «قدمت رؤوس من قتلى الفرنج على صيدا، وهي بضع وثلاثون رأساً فنصبت على شرافات القلعة»[١]. أما اعلانها عن الاحتفالات وتزيينها فانا نجد المؤرخين يكررون عبارة «دقت البشائر في القلعة وأصبحت في الزينة[٢]» في كل مناسبة من المناسبات السعيدة كانتصار السلطان على أعدائه، أو تولى سلطان جديد، وعند حلول الأعياد. ودق البشائر تعني على الغالب، قرع الطبول والأبواق، فقد كان في القلعة حتماً طبول ورد ذكرها في أماكن مختلفة[٣].

وهناك دقة للطبول في القلعة مشهورة في كل ليلة للتوقيت، تعرف بطلوع الثلثين. وصف لنا أبو البقاء هذه العادة في أيامه (القرن التاسع الهجري) فقال: «وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرقة بأعلى القلعة يضربون الثلث الأول، كل واحد منهم ضربة وفي الثلث الثاني من الليل يضرب كل واحد ضربتين، وفي الثلث الأخير من الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الأموي، ويعلق لهم قنديل الاشارة، فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات»[٤].

---

(١) البداية والنهاية، ١٤/ ٢٢٢، والنجوم ٧/ ١٠٤.

(٢) ابن كثير، ١٤/ ٢٢٠، ٢٢٣.

(٣) انظر ابن كثير، ١٤/ ٢٢٢، والنجوم ٧/ ١٠٤

(٤) نزهة الأنام، ص٦٠.

ويصف القلقشندي [1] هذه العادة بشكل مختلف (والقلقشندي متقدم من حيث الزمن عن أبي البقاء) فيقول: «وقد أخبرني بعض أهالي المملكة أن بالقلعة طبلاً مرتباً لاستعلام أوقات الليل، إذا أذن العشاء الآخرة ضرب عليه عند مضي كل أربع درج ضربتين، إلى انقضاء الثلث الثاني، فإذا دخل الثلث الثالث ضرب عليه عند مضي كل أربع درج ثلاث ضربات إلى أن يؤذن للصبح. قال وهكذا شأن سائر القلاع بالممالك الشامية[2]».

ويطلق ابن كثير على هذه العادة اسم «دقة القلعة». ذكر في حوادث سنة ٧٦٣/ ١٣٦١: «بعد العشاء وقبل دقة القلعة دخل فارس من ناحية باب الفرج إلى ناحية باب القلعة الجوانية[3]...».

ومن نشاطات القلعة الأخرى انزال ضيوف السلطان بها. ومن الطبيعي أن يكون نزلاء القلعة من نوع خاص، فقد كان بعض ضيوف الدولة الرسميين من أمراء ونواب سلطنة ينزلون في القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس، بينما كان بعضهم ينزل في القلعة. نأتي فيما يلي على أمثلة من الضيوف الذين كانوا ينزلون في القلعة:

---

(١) صبح الأعشى، ٤/ ١٠٨.

(٢) أشار إلى مثل ذلك في قلعة القدس مجير الدين الحنبلي في كتابه: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل الذي وضعه عام ٩٠٠ للهجرة، لكنه يقول بأن هذه العادة تلاشت في عصرنا (الانس الجليل، ٢/ ٤٠٥).

(٣) البداية والنهاية، ١٤/ ٢١٥.

استقبل الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥/ ١٢٦٦ رسل التتار، فأنزلهم بقلعة دمشق[١].

كذلك وصل رسل التتار وكانوا يسمون في لغة العصر (القصاد)، إلى دمشق سنة ٧٠٠/ ١٣٠٠ فأنزلوا في القلعة ثم تابعوا سيرهم إلى مصر[٢].

ومن العادات التي ألفها الناس في أيام السلم وقوف الحراس على أبرجة القلعة وخاصة خلال الليل.

وتلحظ تردد علية القوم من العلماء وكبار رجال الدولة والموظفين إلى القلعة بدلاً من ترددهم إلى دار السعادة في الأحوال العادية، وذلك عندما يكون السلطان مقيماً في القلعة، أو عندما يؤول أمر القلعة لنائب السلطنة، أو عندما يصبح أمر المدينة بيد نائب القلعة. وكانت صلة القلعة بالمدينة أيام السلم عن طريق بابها الشرقي، فهو الباب الرئيسي المسلوك في العهد المملوكي. بينما لا يأتي ذكر الباب الشمالي «باب الحديد» في هذا العهد. أما باب السر الغربي فقد رأينا كيف كان يستخدم عند وصول السلطان، وحين وصول نائب السلطنة الجديد إلى دمشق حيث كان يصلي عنده ركعتين رمزاً لخضوعه للسلطان.

---

(١) النجوم الزاهرة، ٧/ ١٤٤.

(٢) ابن كثير، ١٤/ ١٦.

أما باب السر الجنوبي المقابل لدار السعادة، فكان يفتح بشكل خاص حين يضع نائب السلطنة يده على القلعة، فيدخل منه ويخرج، لقربه من دار السعادة المقر الرسمي لنواب دمشق.

وكان أهل دمشق يجدون في أي حركة أو تغيير في أوضاع القلعة مدعاة للقلق. وسرعان ما يدب الفزع في النفوس لدى اغلاق أبواب القلعة. ويقرؤون في هذه الظاهرة وجود اضطرابات في المملكة.

وكانت القلعة تفتح أبوابها عادة في أيام الحروب والحصار للاجئين من سكان القرى المحيطة بدمشق أو الهاربين من وجه الغزاة وكان يطلق المؤرخون على هؤلاء اللاجئين عبارة «الجفال».

فعندما وصل السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) إلى دمشق عائداً من معركة شقحب [1] التي انتصر فيها على التتار سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢، لم يتمكن من النزول في القلعة بسبب امتلائها باللاجئين، يقول ابن كثير: «ونزل السلطان في القصر الأبلق، ثم تحول إلى القلعة بعد اخراج الجفال منها[2].

---

(١) موقع معروف جنوبي دمشق بالقرب من غباغب التي تبعد حوالي أربعين كيلومتراً عن دمشق.

(٢)البداية والنهاية، ١٤/ ٧.

الفصل الرابع

أعمال الهدم والترميم والبناء في العهد المملوكي

رأينا ما أصاب القلعة في آخر العهد الأيوبي على يد التتار، فقد هدموا بالمجانيق جانباً من القلعة ولاسيما جبهتها الغربية والشمالية. ثم عمدوا بعد سقوطها بأيديهم إلى احراق أقسام منها وهدم أعالي أبراجها، كما تحدثت المصادر التاريخية.

ثم بدأت أعمال الترميم منذ بداية العهد المملوكي [1]، واستمرت طوال هذا العهد. وكانت تشاد من حين لآخر منشآت لأغراض الاقامة، كالدواوين والقاعات والقصور مما سيأتي الحديث عنه تفصيلاً.

---

(١)- ورد في ترجمة السلطان قطز بأنه دخل دمشق سنة ٦٥٨هـ إثر معركة عين جالوت وأمر بعمارة قلعة دمشق، وولى عليها الأمير عز الدين ايبك الزراد. وزمر أن يصرف على عمارتها جميع ما يحتاج إليه (تالي كتاب وفيات الأعيان، ص١٢٩).

وتعرضت القلعة خلال العهد المملوكي إلي العديد من أعمال الهدم، إما على يد التتار خلال حملتي قازان سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩ وتيمورلنك ٨٠٣/ ١٤٠١، كما تقدم، وإما بسبب الثورات والفتن الداخلية أو الزلازل.

وكان سلاطين المماليك يعيرونها اهتمامهم البالغ فيرممون مايتهدم منها، ويزودونها بما تحتاج إليه من منشآت عسكرية ومدنية. أرختها الكتابات التذكارية المنقوشة على القلعة، وتحدثت عنها كذلك المصادر التاريخية. وستتحدث عن كل هذه الأعمال في هذا الفصل بعد أن نقسمها إلى مراحلها التاريخية التالية:

١- أعمال الأمير سنجر الحلبي (٦٥٨/ ١٢٥٩).

٢- أعمال الظاهر بيبرس (بين عامي ٦٥٨/ ١٢٥٩ و٦٧٦/ ١٢٧٧).

٣- أعمال المنصور قلاوون (٦٧٨/ ١٢٧٩- ٦٨٩/ ١٢٩٠).

٤- أعمال الملك الأشرف خليل (٦٨٩/ ١٢٩٠- ٦٩٣/ ١٢٩٣).

٥- أعمال الناصر محمد قلاوون (٦٩٣/ ١٢٩٣- ٧٤٤/ ١٣٤٣).

٦- أعمال المنصور محمد بن المظفر حاجي (٧٦٢/ ١٣٦٠- ٧٧٨/ ١٣٧٦).

٧- أعمال الأمير نوروز الحافظي (٨٠٨/ ١٤٠٥-٨١٧/ ١٤١٤).

٨- أعمال الملك الظاهر خشقدم (٨٦٥/ ١٤٦٠-٨٧٢/ ١٤٦٧).

٩- أعمال الناصر محمد بن قايتباي (٩٠١/ ١٤٩٥-٩٠٤/ ١٤٩٨).

١٠- أعمال السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦/ ١٥٠٠-٩٢٢/ ١٥١٦).

١١- أعمال غير مؤرخة.

١- أعمال سنجر الحلبي:

كان سنجر الحلبي أول نائب مملوكي على دمشق، عينه السلطان قطز بعد طرد التتار. ولما قتل قطز رفض الاعتراف بسلطنة الظاهر بيبرس، وأعلن نفسه سلطاناً على الشام ولقب بالملك المجاهد، وبادر إلى ترميم القلعة وتحصينها.

الواقع أننا لانرى أي نص منقوش على مباني القلعة يؤرخ أعمال سنجر ولعل السبب في ذلك قصر المدة التي تولاها، ولأن مابداه من أعمال قد تم في عهد الظاهر. وتعطينا المصادر التاريخية

صورة جذابة عن الاحتفال بالبدء في أعمال الترميم، يقول ابن تغري بردي: «أمر سنجر الحلبي بتجديد عمارة قلعة دمشق، وزفت بالمغاني والطبول والبوقات، وفرح أهل دمشق بذلك. وعمل الناس بالبناء حتى النساء. وكان يوم الشروع في تجديدها يوماً مشهوداً[1]».

٢- أعمال الظاهر بيبرس:

تمت أهم أعمال الترميم في عهد الظاهر بيبرس وخلدت مجموعة من النصوص المنقوشة في أماكن القلعة هذه الأعمال. وكانت هناك أعمال أخرى ومنشآت وصفتها المصادر التاريخية أيضاً.

يقول ابن شداد، وهو مؤرخ السلطان بيبرس وواحد من موظفيه الملازمين له: فلما ملك السلطان الظاهر قلعة دمشق جددها وشيدها، ورمم ماكان التتار المخذلولون هدموه منها وبنى على برج الزاوية المطل على الميدان مستشرفاً عالياً متقن البناء.

وبنى قاعة إلى جوار البحرة لولده الملك السعيد. وبنى على باب القلعة من جهة المدينة حماماً. ولم يزل البناء بها إلى وضعنا هذا التاريخ وهو سنة ٦٧٥[2].

ويتحدث ابن تغري بردى عن أعمال الظاهر فيقول: «وكانت

---

(١) النجوم الزاهرة، ٧/ ١٠٤.

(٢) الاعلاق الخطيرة ص٣٩.

التتار قد هدموا شراريف [1] قلعة دمشق ورؤوس أبراجها، فجدد ذلك كله، (أي الظاهر) وبنى فوق برج الزاوية المطل على الميادين وسوق الخيل طارمة كبيرة وجدد منظرة قائمة علي البرج والمجاور لباب النصر وبيض البحرة، وجدد دهان سقوفها [2]. نرى من الضروري أن نقدم بعض التحليل لمضمون هذين النصين الهامين، أما مايتعلق بترميم الأسوار والأبراج فقد أرختهما الكتابات المنقوشة التي سنتحدث عنها عما قليل. ولكن الذي يهمنا هنا، تلك الأعمال الانشائية العديدة التي شيدت داخل القلعة ولم يبق منها أي أثر، وهي: الطارمة والقاعة، والبحرة والمنظرة.

أما الطارمة، فواضح من النصين المتقدمين أن مكانها على برج الزاوية الشمالية الغربية، المربع الشكل (رقم ٩)، فهو البرج الوحيد المطل على الميدان الأخضر، وسوق الخيل. وقد رأينا في الفصل الثاني بأن المعظم عيسى بن العادل شيد طارمة على برج باب الحديد.

ولاندري أوصاف هذه الطارمة التي يتصورها سوفاجه [3] بناء مستديراً، فوق برج الباب الشمالي المسمى باب الحديد. وعلى ضوء

---

(١) شراريف وشرافات مفردها شرافة، وهي حجارة كبيرة في أعالي الأبراج والأسوار في وسطها مرمى صغير، مرصوفة بحيث يحدث بين الشرافة والأخرى فرجة (انظر جدول المصطلحات الفنية في الملحق رقم ٣).

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٩٥.

(٣) Citadelle, op cit.,p.08

الاستعمالات التي مرت معنا للطارمة في الفصل السابق يمكن أن نعتبرها بمثابة قاعة العرش، فقد كان السلطان حينما يدخل القلعة يصعد إليها رأساً، وكان يشرف منها على الميادين ويستعرض الجيوش.

ويبدو أن الطارمة الأيوبية تهدمت خلال ضرب التتار للقلعة سنة ٦٥٨ فيشيد الظاهر بيبرس بدلاً منها. وسوف نعود إلى الحديث عن هذا البناء الهام وماطرأ عليه على مر الزمن في الفصل السادس الخاص بهندسة القلعة ووصف مبانيها ومنشآتها.

أما القاعة المشار إليها في نص ابن شداد والمشيدة إلى جوار البحرة، فلانجد أثراً لها اليوم، وكذلك البحرة. وقد مر معنا في الفصل الثاني أن الملك الأشرف الأيوبي هو الذي أنشأ هذه البحرة سنة ٦٢٦/ ١٢٢٨، ونرجح أن يكون مكانها في وسط باحة القلعة.

وأما المنظرة التي شيدت على البرج المجاور لباب النصر التي انفرد ابن تغرى بردى بخبر بنائها، فهي بناء، كما يبدو من الكلمة، شبيهة بالطارمة. ويطل على خارج الأسوار.

ومازال أهل دمشق يطلقون اسم المنظرة على البرج المرتفع الذي يقام وسط الكروم لجلوس الناطور.

ولاشك أن البرج الذي شيدت عليه هو برج الزاوية الجنوبية

الغربية (البرج رقم ٨) فهو البرج الوحيد المجاور لباب النصر[١]. ويؤيد ماذهبنا إليه خبر ترميم هذا البرج الذي يرويه ابن كثير اذ يقول. جدد الملك الظاهر البرج القبلي[٢]. ونستخلص من ذلك أن الظاهر رمم هذا البرج وأقام فوقه بناء يشبه المنظرة أو الطارمة. وهو الآن مهدوم وسنتحدث عنه في الفصل السادس.

أما الحمام التي انفرد بذكرها ابن شداد والتي بناها الظاهر على باب القلعة الشرقي فلاوجود لها اليوم. وأن عبارة «على باب القلعة» غامضة نوعاً ما وقد تعني داخل الباب أو خارجه، والمرجح أنها في الداخل لأن ابن شداد يذكرها في عداد المنشآت الخاصة بالقلعة.

لنرى الآن ما أثبتته الكتابات المنقوشة في أنحاء من القلعة من أعمال الملك الظاهر.

الكتابة الأولى:

منقوشة على البرج (رقم ٥) في مكان يتوسط واجهته الجنوبية[٣] وقد نشرنا نصها كاملاً تحت رقم ٨ في لائحة الكتابات (الملحق رقم ١ من هذه الدراسة). والبرج المشار إليه هو من أحسن

---

(١) أحد أبواب المدينة من جهة الغرب، تقدم الحديث عنه في مكان آخر من هذا البحث.

(٢) البداية والنهاية ١٢/ ١١٤.

(٣) انظر الصورة رقم٤.

أبراج القلعة حالاً وأكملها [١]. ومن الصعب التمييز بين الأجزاء المرممة والأجزاء الأصلية (الأيوبية من عهد العادل أبي بكر). ونفسر ذلك بأحد شيئين: الأول أن التجديد كان محدوداً ويتناول الستائر العليا [٢] التي أشارت الروايات التاريخية إلى هدمها كما تقدم في الفصل السابق. والثاني هو أن عملية الترميم كانت متقنة بحيث حرص المرممون على مشابهة الأصل القديم واستخدام الحجارة المهدمة أو ما يماثلها في طريقة النحت.

والشيء الجديد المميز في هذا البرج هو الكتابة المتقدم ذكرها التي نقشت في عهد الظاهر وكتابة أخرى لاحقة من عهد السلطان قلاوون، سوف يأتي الحديث عنها في حينه. على أننا نلحظ بين حجارة البرج بضعة أحجار غير أصلية وتعديلات علي مرامي الطابق الأوسط، ولكن ذلك لايرجع إلى عهد الظاهر وقلاوون وإنما إلى عهد أحدث.

الكتابة الثانية:

تشير إلى ترميم القلعة بشكل عام، وتذكر تسليمها للتتار واسترجاعها منهم وهي مؤرخة في عام ٦٥٩/ ١٢٦٠، نشرنا نصها في لائحة الكتابات [٣]. وهذه الكتابة نراها منقوشة في الواجهة

---

(١) الصورة رقم ٥.

(٢) انظر الصورة رقم ٦.

(٣) الكتابة رقم ٩، (انظر الملحق رقم ١).

الشرقية للقلعة على البدنة (١-٢). وهي تتألف من لوحة عليا تحتوي على سطرين، وتحتها شريط طويل مؤلف من سطرين أيضاً، بخط نسخي [١].

الكتابة الثالثة:

وتشير إلى تجديد البرج (رقم٢) بتاريخ سنة ٦٧٣/ ١٢٧٤. نقشت على واجهته الشرقية أسفل الرواشن، وهي عبارة عن سطر واحد بطول الواجهة (٢٠ متراً)[٢].

وهناك أعمال أخرى من عهد الظاهر زالت آثارها بسبب ما أصاب القلعة من تهديم فيما بعد. تدل عليها قطع من كتابات مبعثرة منقوشة على حجارة أعيد استعمالها في الترميمات اللاحقة دون نظام. نذكر منها كتابين. بقي من الأولى[٣] حجران فقط. الأول موجود في الواجهة الغربية للبرج (رقم ١)، والثاني في الواجهة الشمالية للبرج (رقم ١٢). أما الكتابة الثانية[٤] فمبعثرة في حجارة البرج)رقم ١٠).

ذكر سوفاجة أيضاً كتابة أخرى من عهد الظاهر قال أنها موجودة على البدنة (٦-٧)[٥] وأنها مشوهة بسبب حريق أصابها،

---

(١) انظر الصورة رقم ١١.

(٢) انظر النص الكامل من الكتابة رقم ١٠.

(٣) انظر النص في الكتابة رقم ١٢.

(٤) انظر النص في الكتابة رقم (١٣).

(٥) نذكر هنا بأننا أعطينا للابراج أرقاماً أثبتناها على مصور القلعة رقم ٢، ورمزنا إلى البدنة، وهي قطعة السور المحصورة بين برجين، برقمي البرجين اللذين يحدانها.

وهي منقوشة ضمن دائرة ذات ستة أسطر، وفي أعلاها دائرة صغيرة الشكل [1]. لكننا لم نعثر لهذه الكتابة على أثر.

ولايمكن القول بأنها فقدت. لأن المكان لم يغير، قد يكون سوفاجة قد قصد البدنة (٥-٦)، حيث وضع في مخططه هنا اشارة إلى وجود كتابة من عهد الظاهر، ولما تفحصنا هذا المكان الأخير، وجدنا آثاراً للوحة مربعة- مشوهة كلياً.

نلاحظ من دراسة الكتابات التي تخلد أعمال الظاهر بيبرس المنقوشة على جدران القلعة مايلي:

آ- كتبت كلها بخط الثلث وبأحرف كبيرة بارزة فوق حجر صقيل. قد يكون من مداميك القلعة القديمة البارزة النحت، جرى نحتها وتسويتها.

ب- اضافة إلى ألقاب السلطان التي تغطي القسم الأكبر من النص، تحوي الكتابة خبر عمارة القلعة وتجديدها بشكل عام، أو تجديد البرج الحامل للكتابة.

جـ- تمت الأعمال بإشراف نائب القلعة، وكان النائب في عام ٦٥٩/ ١٢٦٠ هو الأمير عز الدين ايبك الظاهري المعروف بالزراد. ذكرت اسمه الكتابتان (٨و٩).

---

(١) انظر Citadelle de Damas,op.cit.,p.228fig.24

وكان يدعى النائب في عام ٦٧٣/ ١٢٧٤ الأمير شجاع الدين اسماعيل ابن عمر الطوري. أما أعمال عام ٦٧٦/ ١٢٧٧ فلم تذكر الكتابة (رقم ١١) اسم متولي القلعة ونائبها ولكننا نرجح أن يكون علم الدين سنجر الدوادار الذي أثبتنا اسمه في لائحة نواب القلعة[١].

٣- أعمال السلطان قلاوون: (٦٧٨-٦٨٩ (١٢٧٩- ١٢٩٠):

استمرت أعمال الترميم في القلعة بعد الظاهر بيبرس، فأنجزت في عهد قلاوون أعمال أخرى أرختها كتابات منقوشة في أماكن متعددة من القلعة. ومن الغريب أن هذه الأعمال لم تذكرها المصادر التاريخية، خلافاً لأعمال غيره من السلاطين. ولذا فسوف يكون اعتمادنا في دراسة أعماله على هذه الكتابات، التي نشر بعضها سوبر نهايم وبعضها الآخر سوفاجة. وعثرنا على كتابة لم تنشر. وسنتحدث فيما يلي عن أعمال قلاوون على ضوء هذه النصوص المختلفة.

١- وأول هذه الأعمال تمت سنة ٦٨٠/ ١٢٨١ أرختها كتابة نقشت على الروشن الأوسط [٢] في الواجهة الجنوبية للبرج (رقم ٥)، وتتألف من ثلاثة أسطر تشير إلى تجديد البرج المذكور [٣].

---

(١) انظر الملحق رقم ٢.

(٢) انظر الملحق رقم ٦.

(٣) انظر الكتابة رقم ١٤ من لائحة الكتابات.

وإذا تفحصنا هذا البرج فإنا لانجد آثار التجديد بادية عليه . حتى أن الروشن حامل الكتابة لايختلف في شكله وهندسته عن الرواشن الأخرى الأيوبية ، إلا في حجارته الملساء التي نعتقد بأنها نحتت عند نقش الكتابة عليها . فلعل ترميماً طفيفاً أجري على الأقسام العليا ، الستائر أو الشرافات فقط .

٢- عملية إعمار ثانية تمت في عهد السلطان قلاوون وتناولت انشاء الممر الدفاعي المسقوف الذي يحيط بالاسوار من الداخل وقد اصطلح على تسميته وقتئذ «الاقباء المستديرة» كما ورد في الكتابة رقم (١٥) التي وجدناها منقوشة على عضادة مربعة تقع خلف السور الغربي قريباً من البرج رقم ٩ في داخل القاعة رقم (١٨) [١] . والكتابة المذكورة لم تنشر من قبل وهي مؤرخة في عام ٦٨٤/ ١٢٨٥ ، وتتألف من ثمانية أسطر موزعة علي وجوه العضادة الأربعة كل سطرين على وجه منها [٢] .

٣- هناك كتابة أخرى (الكتابة رقم ١٦) تشير إلى ترميم الممر الدفاعي أيضاً (الاقباء المستديرة) الممتد بين باب النصر وباب الفرج بتاريخ سنة ٦٨٩/ ١٢٩٠ . وهذه الكتابة مفقودة وكانت مؤلفة من سبعة أسطر [٣] منقوشة كما يقول سوبر نهايم على ساكف باب البرج

---

(١) انظر المصور رقم ٣ ، والمخطط التفصيلي للقاعة المذكورة في الشكل رقم ١٢ .

(٢) انظر الكتابة رقم ١٥ .

(٣) انظر الكتابة رقم ١٦ .

(رقم ١٢) وقد شاهدها ونقل نصها سنة ١٩٠٠، ولما عاد سنة ١٩١٤ لم يجدها. وقد زوده بصورة فوتوغرافية لها «ماكس فان برشيم». ويعني ذلك أن الاقباء المستديرة تمتد بين بابين من أبواب المدينة. الأول عند الزاوية الجنوبية الغربية للقلعة، والآخر عند الزاوية الشمالية الشرقية. ولقد ظن سوبرنهايم أن المقصود بباب النصر باب القلعة الشرقي، وهذا خطأ لأن باب القلعة هذا لم يكن يسمى وقتئذ بهذا الاسم [1]. بقي أن نعلم ما هي الأقسام المقصودة في النص، هناك قطاعان من القلعة يمتدان بين باب النصر وباب الفرج ولكن يختلفان بحسب اتجاه السير، الأول يشمل الجبهتين الجنوبية والشرقية والثاني يشمل الجبهتين الغربية والشمالية.

ولكن موقع هذه الكتابة على أحد أبراج الجبهة الشمالية (البرج رقم ١٢) وفي مكان قريب من اقباء الممر الدفاعي الممتد خلف الأبراج، خلافاً لما جرت عليه العادة في نقش الكتابات علي الواجهات الرئيسية الخارجية، يجعلنا نرجح بأن تكون المنطقة المقصودة في النص هي الممتدة على طول الجبهتين الشمالية والغربية، ويؤيد ذلك الكتابة رقم (١٥) المتقدم ذكرها والتي تنص أيضاً بناء الاقباء. ومكانها في الجبهة الغربية، ويدعم ذلك أيضاً أن الاقباء

---

(١) ظهرت هذه التسمية أول ما ظهرت سنة ٧٩٤/ ١٣٩١ أي بعد عصر قلاوون، وذلك استناداً إلى نص منقوش على هذا الباب (الكتابة رقم ١٢) ولم يستمر الاسم الجديد طويلاً.

الغربية شيدت سنة ٦٨٤ (كما نصت الكتابة رقم ١٥) بينما نقشت الكتابة (رقم ١٦) سنة ٦٨٩، وهذا يعني اكتمال بناء الممرين الدفاعيين الغربي والشمالي.

لقد ناقش «سوفاجة»[١] التفسير المزدوج لعبارة (من باب النصر إلى باب الفرج) واقترح اتجاهاً معاكساً، أي أن الاقباء المقصودة في زعمه هي الممتدة علي الجبهتين الجنوبية والشرقية، ودعم رأيه هذا بناحيتين أولها أنه عثر في مكان من الاقباء الشرقية على كتابة (الكتابة رقم ١٨) اعتقد بأنها تؤرخ بناء الاقباء لأنها من عهد قلاوون، بالرغم من أنها لاتذكر كلمة الأقباء.

والناحية الثانية التشابه الذي لمسه بين اقباء الممر الدفاعي الجنوبي والممر الشرقي. ولكن يبقى زعمه ضعيفاً أمام وجود نصين أحدهما في الجهة الغربية والآخر في الجهة الشمالية. وكلاهما ينص صراحة على بناء الاقباء.

٤- هناك كتابة رابعة تؤرخ أعمال السلطان قلاوون منقوشة على سقف الممر الدفاعي الشرقي المجاور للقاعة (رقم ٣). نشر سوفاجه بعض جملها[٢] ولكنه لم يتبين التاريخ، وإنما قدر بالنظر لظهور اسم الأشرف خليل بن قلاوون في النص، أن يكون التاريخ

---

(١) Citadelle,op.cit.,p.230

(٢) الكتابة رقم ١٨.

بين ١١ شعبان ٦٨٧ (١٠ أيلول ١٢٨٨) وهو التاريخ الذي أعلن فيه الأشرف وليا للعهد، وبين نهاية حكم قلاوون وهو السادس من ذي القعدة من عام ٦٨٩ (١٠ تشرين الثاني ١٢٩٠)[١]. واعتقد سوفاجه بأن هذه الكتابة تؤرخ ترميم الاقباء بسبب المكان الذي نحتله، دون أن يكون في نصها مايشير إلى ذلك.

٥- الكتابة الخامسة التي تؤرخ أعمال السلطان قلاوون موجودة في الطابق العلوي للممر الدفاعي الجنوبي بالقرب من البرج (رقم ٨). وهي منقوشة فوق قنطرة سقف هذا الممر، وتتألف من سطرين [٢] فقدت أجزاء منها، وتتعذر بذلك معرفة الأعمال وتاريخها.

وينسب سوفاجه خطأ إلى السلطان قلاوون أعمالاً أجريت في القصر (البناء رقم ١٧ من المخطط العام رقم ٣)، بتاريخ شوال ٦٩٠ (أيلول ١٢٩١) استناداً إلى نص تاريخي يشير إلى بناء القبة الزرقاء والطارمة والدور السلطانية [٣].

والصحيح أن قلاوون توفي قبل هذا التاريخ، وأن الأعمال المشار إليها جرت في عهد ابنه الأشرف خليل، كما سيأتي معنا. وينسب أيضاً بناء قناطر واجهة القصر (المبنى رقم ١٧) إلى قلاوون

---

(١) CITADELLE DE DAMAS,OP.cit,P.231

(٢) انظر الكتابة رقم ١٧، والصورة رقم ٣٦.

(٣) CITADELLE,OP-CTT,P.232

على سبيل الترجيح، وكذلك بقايا الكتابة [1] الموجودة في القاعة (آ) من هذا القصر. ويقول بأن حروف هذه الكتابة (وقد زالت اليوم) كانت بارتفاع قدره (٦٠) سنتيمتراً، وهي ذات لون أزرق على كلسه مزخرفة برسوم نباتية سوداء وحمراء وذهبية.

٤- أعمال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون: (٦٨٩/ ١٢٩٠- ٦٩٣/١٢٩٣):

إن أعمال الأشرف على عكس ما رأينا في أعمال السلطان قلاوون، خلدتها المصادر التاريخية دون الكتابات التذكارية، حيث لم يعثر على أي نص من النصوص المنقوشة في القلعة تؤرخ أعمال الأشرف خليل. ولعل ذلك يرجع إلى زوال المنشآت التي شيدت في عهده. وهي منشآت هامة كما وصفتها المصادر التاريخية.

روى ابن كثير في أخبار سنة ٦٩٠/ ١٢٩١ مايلي: «وفي هذا العام، في شوال شرع في عمارة قلعة دمشق وبناء الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، حسب مارسم به السلطان الأشرف خليل لنائبه الشجاعي».

وأضاف بعد ذلك في أخبار سنة ٦٩١ مايلي: «كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء، وجاءت في غاية الحسن

---

(١) انظر الكتابة رقم ٣٢.

والكمال والارتفاع [1] وقد أضاف المقريزي على ذلك المعلومات التالية: «وبالغ في تحسينها فكانت جملة ما عمل في سقوفها أربعة آلاف مثقال ذهب [2]». كما يروي الذهبي الخبر بشيء من التفصيل. فيقول: «ولي نيابة دمشق علم الدين سنجر الشجاعي فعمر دار السلطنة بقلعة دمشق والطارمة وبالغ في تحسين ذلك وزخرفته وأكمل الجميع في سبعة أشهر، فكان هو بنفسه يقف على العمارة ويستحث الصناع، فكان ناس يحفرون في الأساس والنجارون قد قدموا السقوف المزخرفة وشرعوا فيها». ويقول أيضاً في كتابه «العبر» في سنة ٦٩١، وفي جمادى الأولى قدم السلطان الملك الأشرف وقد فرغ الشجاعي من بناء الطارمة والرواق وقاعة الذهب والقبة الزرقاء بقلعة دمشق وفرغ جميع ذلك في سبعة أشهر [3]».

هذه الأخبار على أهميتها البالغة في تاريخ العمارة والإنشاء في قلعة دمشق لاتقدم لنا وصفاً كافياً عنها كما لاتعين مكانها من القلعة على الضبط. إلا أننا سنحاول البحث عن مزيد من الحقائق عن هذه المنشآت بتتبع أخبارها في العهود اللاحقة.

---

(١) البداية والنهاية، ١٢/ ٣٢٣, ٣٢٧.

(٢) السلوك، ١/ ٣/ ٧٧٤.

(٣) نقلنا روايتي الذهبي عن ابن طولون في «الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية» ص٥و٦. الرواية الأولى يرجعها إلى كتابه مختصر تاريخ الاسلام والثانية لكتاب العبر.

فمن حيث المكان الذي أقيمت عليه هذه المنشآت، فإن لدينا من الأدلة مايجعلنا نعتقد بأنها كانت تحتل الجانب الغربي من القلعة. وذلك للاسباب التالية:

١- قرب هذه المنطقة من باب السر المخصص لدخول السلطان.

٢- وجود الطارمة في هذا الجانب، فقد رأينا أن الطارمة التي شيدها الظاهر بيبرس كانت على برج الزاوية الشمالية الغربية. وأن بقية المنشآت يجب أن تكون إلى جانبها أو قريبة منها، استناداً إلى قول ابن كثير في النص المتقدم ذكره: «الطارمة وما عندها من الدور السلطانية والقبة الزرقاء».

٤- إن القاعة (آ) من القصر (المبنى رقم ١٧ في المخطط) والتي تحدثنا قبل قليل عن وجود آثار زخارف ملونة وكتابة فيها، نسبها سوفاجة إلى قلاوون، واقترحنا نسبتها إلى الأشرف خليل، تقع أيضاً في الجهة الجنوبية من هذا القطاع الغربي.

٥- تحدث سوفاجه [1] عن آثار قصر وحمام من العهد المملوكي، عثر عليها عام ١٩٢٤ في الجهة الغربية أيضاً. نرجح أن تكون لها علاقة بمنشآت الأشرف خليل التي نحن بصددها. وتتألف

---

(١) CITADELLE,OP.CIT.P.220

هذه المنشآت من عضائد مربعة ضلعها (٤٥ر٢ مترا). وتبعد عن بعضها مسافة (١٥ متراً)، ومن قطعة بلاط ملون من نوع الفسيفساء الرخامية (المشقف)[١]، ومن بركة وبقايا حمام.

٦- تحدث الرحالة الفرنسي «دارفيو»[٢] خلال زيارته لقلعة دمشق سنة ١٦٦٠ عن بعض المباني داخل القلعة، من بينها قاعة المجلس الكبرى التي قال بأنها تقع في صدر باحة القلعة، فإذا علمنا بأنه دخل إلى القلعة من الباب الشرقي فإن هذه القاعة يجب أن تقع في الجهة الغربية، المكان الذي افترضناه لمباني الأشرف. ولقد وصف هذه القاعة فقال أنها مدهونة بالذهب والأزرق مع بعض الآيات القرآنية تسمى القاعة بالديوان. وقد تكون بهذا الوصف قاعة الذهب التي شيدها الأشرف خليل، وقد تكون ما عرف بديوان الظاهر، ذات القبة التي هدمها زلزال عام ١٧٥٩. جاء في خبر هذا الزلزال مايلي[٣]: «وتهدمت قبة في أعلى قلعة دمشق تسمى بديوان الظاهر».

هذه الأخبار تؤلف لدينا قرائن للاعتقاد بأن القبة الزرقاء هي قبة الطارمة، وقد دعيت فيما بعد ديوان الظاهر ذلك لأنها تقع في

---

(١) انظر مكان هذه الآثار في مخطط سوفاجه، المصور رقم ٣ والشكل رقم ٢٥ من مقاله (المصدر السابق ص٢٣٣).

(٢) MEMOIRE.OP.CIT.P.449

(٣) نص لمؤلف مجهول في وصف الزلزال، نشره محمد أحمد دهمان في مجلة المشرق لعام ١٩٤٨.

أعلى القلعة والطارمة كذلك، ونسبت إلى الظاهر لأنه هو الذي سبق إلى تشييدها، ولايعقل أن تكون قد زالت من الوجود في عهد الأشرف خليل الذي جاء إلى الحكم بعد الظاهر بثلاثة عشر عاماً. والمرجح أن أعمال الأشرف كانت أعمالاً تكميلية في الطارمة استهدفت ادخال تحسينات عليها، إضافة للمباني السلطانية الأخرى المتممة لها.

وقد عثرنا مؤخراً في مخطوطة ابن قاضي شبهه[1] على تفسير للقبة الزرقاء وعرفنا منه سبب تسميتها بالزرقاء، يخالف ما ذهب إليه سوفاجه. لقد جاء في خبر عن ترميم هذه القبة في عهد السلطان سيف الدين برقوق أنها كانت مكسوة بألواح القاشاني ذات اللون الأزرق. والكسوة هنا يجب أن تكون خارجية لأن القاشاني استبدل بالرصاص عند تجديد القبة. ذلك لأن صفائح الرصاص لاتستخدم إلا للتصفيح الخارجي، كما كان الحال بالنسبة لسقوف وقباب الجامع الأموي قديماً.

٥- أعمال السلطان الناصر محمد بن قلاوون: (٦٩٣/ ١٢٩٣- ٦٩٤/ ١٢٩٤)(٦٩٨/ ١٢٩٨- ٧٤١/ ١٣٤١)

حكم الناصر ثلاث مرات كان مجموعها حوالي ٥٤ عاماً، وهي أطول مدة تولاها سلطان مملوكي [2]. لم يتحدث أحد من

---

(١) المخطوطة، حوادث سنة ٧٨٧/ ١٣٨٥.

(٢) انظر سيرته في الجزء التاسع من كنز الدرر للدواداري الذي خصصه المؤلف للسلطان الناصر، وفي النجوم الزاهرة ٨/ ٤١- ٧٠، ٨/ ١٨٢- ٢٨٢، ٩/ ١- ٣٢٨.

المؤرخين عن أعمال الناصر في القلعة. إلا أن هناك كتابة عند باب القلعة الشرقي تؤرخ الأعمال التي قام بها، منقوشة على الواجهة الخارجية للبدنة الواقعة بين البرجين (٢و٣) وتتألف من أربعة أسطر موزعة كما يلي: سطران بين الروشنين السفليين [١]. وسطر ثالث على الروشن الأيمن، ورابع على الروشن الأيسر [٢].

وأن آثار الترميم بادية بوضوح على هذه البدنة، فالأجزاء الأيوبية الأصيلة تشاهد حتى مستوى الروشنين السفليين حاملي الكتابة المذكورة. وأما ماتبقى من البدنة وحتى أعلاها فإنه يختلف عن القسم السفلي الأيوبي من حيث نحت الحجارة ونوع الرواشن وهندستها [٣]. ونلاحظ بأن تجديد هذا القسم من البدنة قد أدى إلى زيادة ارتفاعها فغدت أكثر ارتفاعاً من سائر بدنات القلعة، فهي تكاد تساوي ارتفاع الأبراج المجاورة لها.

والمرجح أن عملية التجديد هذه كانت نتيجة أضرار أصابت القلعة من قبل التتار في غزوة قازان التي حدثت سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩. وقد رأينا أن التتار في هذه المرة لم يتمكنوا من احتلال القلعة، وإنما حاولوا ضربها من الجنوب والشرق، ونصبوا المجانيق في صحن الجامع الأموي لضرب القلعة منه.

---

(١) تحتوي هذه البدنة دون غيرها من البدنان على ثلاثة رواشن (شرفات الزيوت على الأعداء). أحدهما أعلا البدنة واثنان تحته، وذلك لحماية مدخل القلعة.

(٢) انظر الكتابة رقم ١٩ في الملحق رقم ١.

(٣) سنأتي على وصف تفصيلي لهذه البدنة في الفصل التالي.

ونلاحظ أخيراً بأن النص يشير إلى تجديد البدنات، لابدنة واحدة، فما هي البدنات الأخرى التي تم تجديدها؟ .

قد تكون صيغة الجمع مقصود بها المبالغة، وقد يكون المقصود منها البدنة التي تحدثنا عنها والبدنة الاضافية المقامة أمامها، وهي محدثة، يبدو من طراز عمارتها وطريقة نحت حجارتها وشكل روشنها بأنها من أواخر العهد المملوكي، إلا أن سوفاجه [1] وكينك [2] رأياً بأن هذه الأخيرة هي أيضاً من عهد الناصر .

وهذه البدنة الاضافية أقيمت أمام البدنة الأصيلة، عند نهاية بروز البرجين (١و٢) . وهي عبارة عن جدار أقل ارتفاعاً من البدنة الأولى، تحتوي على باب مستطيل يعلوه روشن . وفي أعلا الجدار توجد ثلاثة مرام للنبال .

وقد تكون الكتابة [3] المشوهة التي عثرنا عليها منقوشة علي البدنة (٧-٨) هي من عصر الناصر أيضاً لانا قرأنا عليها كلمة عز الدين، أي الأمير عز الدين ايبك الوارد اسمه في الكتابة السابقة .

٦- أعمال السلطان الظاهر سيف الدين برقوق: (٧٨٤/ ١٣٨٢- ٨٠١/١٣٩٨):

تحدث ابن قاضي شهبة في كتابه ذيل تاريخ دمشق [4] في

(١) CITADELLE,OP.CIT,P.235

(٢) THE DEFENCES,OP.CIT,P.78

(٣) انظر الكتابة رقم ٣٣ .

(٤) المخطوطة، حوادث سنة ٧٨٧ .

حوادث عام ٧٨٧/ ١٣٨٥ عن أعمال ترميم واسعة قام بها نائب القلعة الأمير شهاب الدين بن الحمصي. «وكان قد أصلح الطارمة وأبراج القلعة وبيضها ظاهراً وباطناً. فإنه منذ ولي نيابتها في سنة خمس وثمانين والي هذا التاريخ مجتهد في الاصلاح والتجديد والترميم، وفرغت القبة في الشهر الآتي وكانت زرقاء قيشاني فلما نقضها كبرها وجعل مكانه رصاصاً».

لقد مر معنا قبل قليل خبر بناء القبة الزرقاء المذكورة في عداد الانشاءات التي تمت سنة ٦٩١/ ١٢٩١ بأمر من السلطان الأشرف خليل. وقد أشرنا إلى أهمية النص المتقدم لأنه ساعدنا على تفسير سبب تسمية هذه القبة بالزرقاء. ونشير الآن إلى أهميته من الناحية المعمارية لأنه يرشدنا إلى استخدام الواح القاشاني في كسوة المباني منذ عهد مبكر. فمن المعروف أن القاشاني الشائع الاستعمال في المباني العثمانية، كان نادر الاستعمال في العهد المملوكي (١).

٧- أعمال السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي ٧٤٢/ ١٣٦٠- ٧٦٤/ ١٣٦٢)

روى ابن طولون نقلاً عن الأسدي (ابن قاضي شهبة؟ في حوادث سنة ٨٢٤/ ١٤٢١ خبر الانتهاء من بناء مئذنة في جامع القلعة

(١)- يوجد في دمشق بناء واحد من العهد المملوكي كسيت جدرانه بألواح القاشاني وهو الجامع التيروزي الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٢٥/ ١٤٢١.

كانت قد أحدثت بسنة ٧٦٢ في عهد السلطان المنصور صلاح الدين.

يقول ابن طولون: «قال الأسدي في تاريخه سنة أربع وعشرين وثمانمائة في جمادى الآخرة فرغت المئذنة بجامع القلعة، وكان قد ألزم بها القاضي شمس الدين الأزرعي بسبب أنه مدرس القلعة، فذكر أن هذه المئذنة محدثة، أحدثها الأمير زبالة يعني زين الدين الفارقاني نائب القلعة[١] أيام الملك المنصور بن الملك المحفوظ[٢] في سنة اثنين وستين وسبعمائة. فلم يسمع منه وأوذى واهين فلما كان في هذا الوقت كان قد بقي في رأسها شيء يسير وبياضها، فطلبه نائب القلعة وأهانه وربما قيل أنه ضربه فلاقوة إلا بالله[٣]».

ونفهم من هذا الخبر بأن المئذنة، وهي زائلة لا أثر لها اليوم، قد شيدت في عام ٧٦٢/ ١٣٦٠ وبقي منها شيء بسيط وهو رأسها وبياضها فأكملت في عام ٨٢٤، والزم نائب القلعة مدرسها القاضي شمس الدين الأزرعي بأكمالها.

٨- أعمال نوروز الحافظي: (٨٠٨/ ١٤٠٥- ٨١٧/ ١٤١٤):

يلاحظ بأن ولاية الأمير نورور على دمشق كانت بعد كارثة تيمورلنك بسنوات قليلة، وهذا يستدعي قيامه بأعمال ترميم هامة في القلعة. وسنرى أن نصوص الكتابات التاريخية المنقوشة في عهده

---

(١) انظر لائحة نواب القلعة (الملحق رقم ١)

(٢) وردت هكذا: والمقصود بها المظفر حاجي.

(٣) الشمعة المضيئة المتقدم ذكره ص٧.

على القلعة لاتذكر اسم السلطان وهذا يفسر عصيانه على السلطنة أكثر أيام حكمه كما رأينا في الفصل السابق، ولهذا فقد نسبنا أعمال الترميم هنا إلى نائب السلطنة وليس إلى السلطان المعاصر، انسجاماً مع النصوص التي تؤرخ أعمال الترميم.

تحدث ابن حجر العسقلاني عن أعمال نوروز فقال في أخبار سنة ٨١٠/ ١٤٠٧: «كملت عمارة قلعة دمشق وكان ابتداؤها في العام الماضي، وصرف على عمارتها مال كثير جداً[١]».

وأشار إلى أعمال نوروز أيضاً ابن طولون[٢] فقال: «إن قلعة دمشق لما كملت عمارتها على يد نوروز حضر عنده شخص عجمي فقطع له آلة بطريق الهندسة بحيث يطلع الماء من النهر في دلوين يديرهما شخصان من نحاس فيجري الماء إلى الطارمة بالقلعة بغير علاج بهيمة ولا حامل الخ ...[٣]». وقد تهدمت الطارمة في زواخر أيام نوروز عند محاصرته في القلعة من قبل السلطان المؤيد شيخ[٤].

ونلاحظ بأن الكتابات التي تؤرخ أعمال الترميم تنحصر كلها

(١) نقلاً عن كرد علي في خطط الشام ٢/ ١٩٠، ولم نجد الخبر في الدرر الكامنة.

(٢) الشمعة المضيئة، ص٢٢.

(٣) النهر المقصود بالنص هو النهر المجدول، أحد فروع بردى الذي يمر تحت السور الشمالي. أما الطارمة فقد تقدم الحديث عنها وهي فوق برج الزاوية الشمالية الغربية للقلعة (البرج رقم٩).

(٤) انظر النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٠.

في الجبهة الشمالية من القلعة، مما يدل على أن هذه الجبهة هي التي تضررت من قصف التتار أكثر من غيرها. فالكتابة المنقوشة على باب القلعة الشمالي تتألف من سطر طوله أربعة أمتار (١). ويتوسط السطر (رنك) (٢) الأمير نوروز ويتألف من ثلاثة حقول ضمن دائرة. الحقل الأعلى يحتوي على معينين وفي الأوسط كأس كبير وفي الحقل السفلي كأس صغير (انظر الصورة رقم ١٤). ويتضمن النص عبارة «عمر هذه القلعة المنصورة» وهذا مخالف للحقيقة لأن نوروز رم القلعة ولم يعمرها».

ونشر «سوفاجه» جزءاً من كتابة ثانية (٣) تحمل اسم نوروز ورنكه. وتتألف من سطر واحد طوله (٥, ٣ متراً) وارتفاعه ٥٠, ٠ متراً، منقوشة على جدار البدنة (٩-١٠) وقد تم اكتشافها في عام ١٩٢٤، وهي مشوهة وناقصة لم نتمكن من قراءتها بسبب وجود منشآت حديثة أمامها.

---

(١) الكتابة رقم ٢٢.

(٢) الرنك كلمة فارسية يقصد بها الشعار ومعناها في الأصل اللون (انظر عن الرنوك المصادر التالية: M.Meinecke: Zur mamlukischen Heraldik

Artin Pacha: Contridution a l,etude de blason

Mayer: Saracenic Heraldy.

(٣) الكتابة رقم ٢٣.

٩- أعمال السلطان الظاهر خشقدم: (٨٦٥/ ١٤٦٠- ٨٧٢/ ١٤٨٧):

هناك كتابة تنسب إلى هذا السلطان اعادة بناء البرج رقم (٧) الواقع في الجهة الجنوبية من القلعة. وذلك في عام ٨٦٦/ ١٤٦١.

والنص سطر واحد [١] منقوش على لوحة مستطيلة (٨٠٠×٦٠سم) يتوسطها عنصر زخرفي يتألف من مشربية في الأعلى وأخرى في الأسفل ذات نقوش تتألف من أوراق نباتية، وتقع اللوحة بين اثنين من مرامي الطابق الأوسط على الواجهة الجنوبية للبرج.

وهذا البرج لايزال بحالة جيدة، تهدمت ستائره فحسب. وتبدو آثار التجديد الذي أشارت إليه الكتابة في أقسامه العليا حيث تبدو حجارتها مختلفة عن حجارة العهد الأيوبي البارزة النحت...

ونرجح أن يكون هذا البرج قد تضرر أيام عدوان تيمورلنك سنة ٨٠٣/ ١٤٠٠ لأننا لم نعثر على خبر تهدم البرج في زمن لاحق لهذا العام. وتوجد في أسفل اللوحة المتقدم ذكرها كتابة أخرى [٢] منقوشة على لوحة مستديرة تتألف من ستة أسطر، بقي منها نصفها، وقد أعيد بناؤها مقلوبة أثناء عملية ترميم لاحقة وهي في الجانب الشرقي من هذه الواجهة. مما لاشك فيه أن هذه الكتابة لها علاقة

(١) انظر الكتابة رقم ٢٦.

(٢) انظر الكتابة رقم ٢٧.

بعمارة البرج لكن فقدان نصفها جعلنا نجهل اسم السلطان وتاريخ البناء. ونلاحظ بأن سوبرنهايم أعطاها في دراسته لكتابات القلعة رقماً يلي رقم الكتابة السابقة المنسوبة للسلطان خشقدم، وهذا يعني أنه اعتبر تاريخها لاحقاً لعام ٨٦٦. ولاندري على أي أساس فعل هذا.

إننا نرجح أن تكون هذه الكتابة أقدم من ذلك بدليل اسلوب الخط، وبدليل استعمالها مقلوبة في عملية ترميم لاحقة قد تكون حدثت في أيام خشقدم أي سنة ٨٦٦. لاسيما وأن النص يشير إلى عمارة البرج لاترميمه أو تجديده.

وأخيراً فإن ابن طولون [١] يشير إلى ترميم البرج (رقم ٨)، وبرج الزاوية الجنوبية الغربية في عهد السلطان خشقدم أيضاً، وكان يعرف وقئذ ببرج القصب فلقد سقط سنة ٨٦٥ عند الرمي على نائب السلطنة «جانم» أخي الأشرف، ثم عمر جديداً. وحادثة الرمي هذه مرت معنا في الفصل السابق لدى الحديث عن دور القلعة الحربي، وضربت خلالها دار السعادة من القلعة[٢].

ولكننا لانجد لعملية الترميم هذه كتابة تؤرخها على البرج المذكور بسبب حالته السيئة وتهدم أكثره.

---

(١) الشمعة المضيئة ص٦.

(٢) أعلام الورى، ابن طولون ص٥٩.

١٠- أعمال السلطان الناصر أبي السعادات محمد بن قايتباي: (٩٠١- ٩٠٤/ ١٤٩٥- ١٤٩٨):

قام هذا السلطان بتجديد عمارة برج الزاوية الجنوبية الشرقية (البرج رقم ٤) بعد سقوطه وذلك بدليل الكتابة المنقوشة عليه (١). وهي مؤلفة من سطر واحد طوله خمسة أمتار تقريباً، منقوشة على مدماك من الحجر الصقيل يتوسط الواجهة الجنوبية. ويتوسطه (رنك) على شكل دائرة يتجاوز قطرها عرض السطر، بحيث يؤلف الحقل الأوسط للرنك جزءاً من السطر نفسه. وفي الحقل الأسفل عبارة (عز نصره). أما في الحقل الأعلى فتوجد عبارة غير مقروءة (٢).

هذا ولم نعثر في الأحداث التاريخية على خبر سقوط البرج. ولكن أعمال التجديد تبدو واضحة في واجهة البرج التي تحمل الكتابة حيث استخدمت في أعمال التجديد حجارة متنوعة النحت، بعضها قديم بارز النحت وبعضها صقيل.

كما أن أعمال الترميم والتجديد ظاهرة في واجهة البرج الأخرى (الشرقية) وفي واجهاته الداخلية، وتؤرخها كتابة من عهد لاحق كما سنرى.

---

(١) انظر الكتابة رقم ٢٨.

(٤) انظر الكتابة في الصورة رقم ١٦.

١١- أعمال السلطان قانصوه الغوري: (٩٠٦- ٩٢٢/ ١٥٠٠- ١٥١٦):

عثر في القلعة على ثلاث كتابات تؤرخ أعمال الغوري وتتناول ثلاثة أبراج. نقشت الأولى على الواجهة الشمالية للبرج (رقم ١٠) الواقع غربي باب القلعة الشمالي. وتشير إلى تجديد هذا البرج في عام ٩١٤/ ١٥٠٨ ويتوزع النص على ثلاث لوحات [١]. وهي من الأعلى إلى الأسفل:

اللوحة الأولى: مستطيلة محاطة باطار زخرفي على شكل ضفيرة تتضمن البسملة وآية قرآنية.

اللوحة الثانية: شريط من سطر واحد ضمن اطار مزخرف بالمشربيات المطعمة بالمونة الملونة، يتوسطها رنك الغوري كجزء من الكتابة وهو مؤلف من ثلاثة أسطر صغيرة ضمن دائرة مرتبة من الأعلى إلى الأسفل كما يلي:

١- قانصوه، ٢-الملك الأشرف، ٣- عز نصره [٢].

اللوحة الثالثة: سطر مكتوب ضمن اطار من الزخارف على شكل ضفيرة مثبت فيها اسم المعمار أحمد بن العطار الذي سيأتي اسمه في كل أعمال الغوري وهذا البرج كما يبدو من هندسته

(١) الكتابة رقم ٢٩.

(٢) انظر الكتابة والزخارف المحيطة بها في الصورة ١٧.

وحجمه الصغير، ونوع حجارته، مبني كلياً في العهد المملوكي، فهو لايشبه في شيء أحداً من الأبراج الأيوبية، ولكن عبارة «تجديده بعد انهدامه» الواردة في النص المنقوش عليه تعني أنه كان موجوداً قبل ذلك. فضلاً عن أن علائم التجديد بادية على الحجارة المعاد استعمالها فيه، وبعضها من النوع البارز النحت. كذلك فإن الرنك الموجود في أسفل الكتابة، هو تماماً كالرنك الموجود في الكتابة الموجودة فوق الباب الشمالي للقلعة والتي تقدم ذكرها في أعمال نوروز الحافظي.

وتناولت أعمال الغوري أيضاً تجديد البرج (رقم ١) على ماتذكر الكتابة المنقوشة على واجهته الشرقية. ونص هذه الكتابة موجود بين الروشنين الأوسطين، مؤلف من أربعة أسطر[١]. وإذا تفحصنا هذا البرج لانلحظ بأنه مجدد كلياً، بل أن الأقسام المجددة يمكن تمييزها بسهولة. وهي تنحصر في الزاوية الشمالية العليا لهذه الواجهة التي تحمل الكتابة، وتشتمل على الروشن وثلاثة مداميك تحته. وإن الروشن المجدد الذي سنعود إلى وصفه مفصلاً في الفصل السادس يختلف اختلافاً ظاهراً عن الرواشن الأصيلة. ونلاحظ التجديد أيضاً في الواجهة الشمالية، ولاسيما في الجانب الشرقي منها. روى ابن طولون خبراً عن حال هذا البرج قبل ترميمه قال: «جمع طومان باي نائب القلعة المعمارية وحضر القضاة الأربعة فرأوه قد قرب سقوطه[٢].

---

(١) انظر الكتابة رقم ٣٠ والصورة رقم ١٩.

(٢) مفاكهة الخلان، ١/ ٣١٨.

وجرى في عهد الغورى أيضاً تجديد البرج (رقم ٤) بتاريخ سنة ٩١٩/ ١٥١٣ وخلدت عمله هذا الكتابة المنقوشة علي الواجهة الشرقية للبرج، وتتألف من سطر واحد منقوش على مدماك في أعلا البرج [١]. إن الترميم في هذا البرج ظاهر بشكل واضح.

وينسب سوفاجه للغورى أيضاً بعض الأعمال الزخرفية عند باب القلعة الشرقي، منها آثار كتابة بلون أحمر على أرضية صفراء مكتوبة بخط نسخي ذي أحرف كبيرة، على جدار القاعة التي تلي الباب، واعتمد في نسبتها للغورى على وجود رنك نسبه للغوري (قرص أحمر محاط بدائرة سوداء مقطعة إلى فصوص). ومنها الزخارف النباتية الملونة المرسومة على مقرنصات الباب نفسه [٢].

١٢- أعمال غير مؤرخة:

وأخيراً فقد عثرنا على نصين يؤرخ كل منهما عملية من عمليات الترميم والتجديد التي تمت في العهد المملوكي، لم نستطع تحديد تاريخها بسبب ما أصابهما من التشويه والنقص.

النص الأول [٣] وجدناه منقوشاً على البدنة (٧-٨)، ويبدو مما بقي من حروفه وكلماته أنه كان ومؤلفاً من خمسة أسطر تبدأ بالبسملة، مكتوب بخط نسخي جميل، والذي قدرنا على قراءته من

---

(١) انظر الكتابة رقم ٣١، والصورة رقم ١٩.

(٢) Citadelle,op.cit.,P.239

(٣) الكتابة رقم (٣٣) انظر الملحق رقم ١).

كلماته اسم عز الدين، فإن كان عز الدين ايبك الزراد [1] فمعنى ذلك أن تاريخ النص يرجع إلى عهد الظاهر بيبرس. وأن كان عز الدين ايبك الجمالي فالنص من عهد الناصر محمد بن قلاوون لأن الجمالي هذا كان نائباً للقلعة بين عامين ٧١٢ و٧١٨ وذكر اسمه الكتابة رقم -١٩- المار ذكرها.

وأنا نرجح أن يكون النص من عهد هذا الأخير لأنا نقرأ مع شيء من عدم الوضوح كلمة المنصور (انظر الصورة ٢١). لأن اسم الناصر يأتي في الكتابة رقم -١٩- التي تؤرخ قيامه بترميم بدنات القلعة سنة ٧١٣ هكذا: «الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون».

أما النص الثاني [2] فقد وجدنا ثلاث قطع من حجارته معاد استعمالها كحجارة بناء مبعثرة ومقلوبة في الجدار الغربي من البرج رقم (٧) وقد تمكنا بعد تسويتها من قراءة عبارة «مولانا المقر الأشرف».

ونعتقد بأن هذا النص كان يؤرخ عملية ترميم سابقة لعام ٨٦٦، وهي السنة التي رمم فيها هذا البرج في عهد السلطان خشقدم، كما رأينا في الكتابة رقم -٣٦-. ولاشك أن هذه الأحجار كانت وقتئذ متساقطة من البرج وأعيد استعمالها في عهده، كما أن عبارة «المقر الأشرف» تجعل تاريخ النص يرجع إلى ما بعد عام ٧٨١ وهو التاريخ الذي عثرنا فيه على أول استعمال لهذه العبارة وذلك في المرسوم المنقوش على باب القلعة الشرقي (الكتابة رقم ٢٠).

---

(١) كان نائباً لقلعة دمشق بدءاً من عام ٦٥٩ وذكر اسمه في الكتابتين (٨و٩).
(٢) الكتابة رقم (٣٤) (انظر الصورة رقم ١٩)

الفصل الخامس

القلعة في العهد العثماني

آ- الإطار التاريخي (لمحة عن أحوال دمشق في العهد العثماني بين سنتي (٩٢٢ و١٣٣٧هـ/١٥١٦-١٩١٨م):

بدخول السلطان سليم الأول العثماني دمشق سنة ١٥١٦/٩٢٢ بدأ عهد جديد في تاريخ دمشق. وكان ذلك نتيجة المعركة الحاسمة التي دارت رحاها بين المماليك والعثمانيين عند مرج دابق شمالي حلب، وقتل فيها سلطان المماليك قانصوه الغوري. وكان «جان بردى الغزالي» أول حاكم عثماني يتولى دمشق، لكنه انتهز فرصة موت السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩/٩٢٦ فأعلن نفسه سلطاناً على الشام ولقب نفسه بالاشرف، وخطب له على المنابر، ولكنه سرعان ما انهزم أمام جيوش الدولة في معركة على أبواب دمشق وقطع رأسه. ثم تتالى الولاة على دمشق

قادمين من القسطنطينية، فلا تطول ولاية أكثرهم أكثر من أشهر معدودات.

وكان من مهام والي دمشق الأساسية أمران: الأول- حفظ الأمن وفرض طاعة السلطان على سائر المنطقة، وخاصة بالنسبة للأمراء المحليين في لبنان، والإقطاعيين المتنفذين في الجهات الأخرى. ومن أجل ذلك كانت دمشق مقراً لأكبر حامية عثمانية في سورية والمركز العسكري الأول. وكانت في بادئ الأمر مركز ولاية تشتمل على القدس وبيروت وغزة ونابلس وتدمر وصيدا، كسناجق تابعة لدمشق، ثم أصبحت مركز «ولاية سورية» في عام ١٨٦٤ أثر ظهور قانون الولايات العثمانية الجديد. والأمر الثاني- هو حماية الحجاج المسلمين الذين كانوا يتجمعون في دمشق من أقطار الدولة العثمانية وبلدان العالم الإسلامي، ليخرجوا في قافلة يحرسها جنود الدولة. وكان والي دمشق غالباً ما يخرج بنفسه على رأس الركب ليحميه من غزوات البدو في الطريق.

وإذا استعرضنا الأحداث السياسية التي مرت على دمشق خلال أربعة قرون من الحكم العثماني نراها تتلخص في تعيين وال وعزل آخر أو في نزاع بين طوائف الجند، أو في الحروب الداخلية الدائمة بين جيش الدولة والعصبيات المسلحة المحيطة بدمشق، أو في تأديب أحد المتنفذين الخارجين على طاعة السلطان.

وكان صدى هذه الأحداث ينعكس على دمشق، وكثيراً ما كانت تتعرض بسببها للحصار والنهب لا سيما عندما ينهزم جيش الوالي أمام هؤلاء الخارجين.

تميز القرن السابع عشر بسيطرة فخر الدين المعني الثاني على لبنان. عجزت الدولة عن مقاومته فاضطرت إلى توليته على سورية كلها (عربستان) من حلب إلى حدود مصر وذلك عام ١٦٢٤، ثم غضبت عليه فعزلته، وأنفقت بضع سنوات للقضاء عليه. وكان لدمشق دور هام في هذا الصراع.

وتميز القرن الثامن عشر بظهور الأمير بشير الشهابي الثاني واشتغال ولاة دمشق في الحروب معه. وكان هؤلاء الولاة طوال نصف قرن من «آل العظم». وفي أواخر هذا القرن ظهر متنفذ في مصر يدعى «علي بك» استقل عن الدولة العثمانية وأرسل جيشاً بقيادة «محمد أبو الذهب». فدخل هذا دمشق في عام ١١٨٥ / ١٧٧١م بعد انتصاره على جيش الدولة العثمانية في معركة داريا. ثم رحل عنها بعد فترة وجيزة لعجزه عن أخذ قلعتها.

وظهر على مسرح الأحداث في المنطقة متنفذ آخر اشتهر «بالجزار» (أحمد باشا) كان مقره في مدينة عكا. ثم جاء وقت اتسع فيه نفوذه فشمل المنطقة بكاملها طوال ربع قرن من الزمان (بين ١٧٨٠ - ١٨٠٤). وآلت إليه ولاية دمشق مدة خمس سنوات لم يترك فيها

سوى آثار الظلم والقسوة. ولكنه اشتهر في أواخر أيامه بوقفته الشهيرة أمام نابليون بونابرت في عكا عام (١٧٩٩).

وتميز القرن التاسع عشر بظهور «محمد علي باشا» في مصر وانتصار ابنه «إبراهيم باشا» على الدولة العثمانية، واستيلائه على الشام. وغدت دمشق خلال الحكم المصري الذي دام بين عامي ١٨٣١ و١٨٤٠م، عاصمة لسورية. وبدأ توافد الأجانب إليها، قناصل وتجاراً وسياحاً، بعد أن كانت شبه محرمة عليهم. وكانت القنصلية الإنجليزية هي أول قنصلية احدثت في دمشق.

وانتهى الحكم المصري بسبب تدخل الدول الأجنبية، كما هو معروف، وكان الذي دفعها إلى هذا التدخل هو خوفها من قيام حكم قوي في الشرق العربي يقف في وجه مصالحها وأطماعها. ثم عادت السيادة العثمانية على دمشق كما كانت من قبل.

ومن احداث هذا القرن أيضاً الفتنة الطائفية المعروفة بحادثة ١٨٦٠ التي وقعت في بادئ الأمر بين الدروز والموارنة في لبنان، ثم امتدت إلى دمشق، ونتج عنها ازدياد نفوذ الدول الأجنبية وتدخلها في شؤون سورية ولبنان.

ويبدو أن هذه الأحداث المتعاقبة هزت الدولة العثمانية وجعلتها تفكر جدياً بشؤون المنطقة، وبدأ ذلك في التحسن الذي طرأ على مستوى الولاة الذين قدموا إلى دمشق، أمثال «راشد باشا».

و«مدحت باشا» . لأنا نجد في سيرتهم شيئاً من أعمال التنظيم والإصلاح .

وأيقظت احداث هذا القرن الناس من سباتهم وأخذت تخرجهم من عزلتهم شيئاً فشيئاً . فتأسست المدارس الحديثة وصدرت الصحف وتألفت الجمعيات ولاحت تباشير اليقظة العربية التي أسهمت دمشق في تحقيقها إلى جانب بلدان العالم العربي الأخرى .

وكانت اليقظة تتجلى في بادئ الأمر بالرغبات والأماني لتحقيق الإصلاح ورفع الظلم ، والمطالبة بحقوق العرب والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية ثم تطورت خلال الحرب العالمية الأولى إلى نزعة للتخلص من السيادة العثمانية كلياً واقامة كيان عربي مستقل . فكانت مذابح جمال باشا القائد العثماني في دمشق في أيار ١٩١٦ ، وتبعها قيام الثورة العربية في الحجاز وتحالف العرب مع الحلفاء ، وانتهت الحرب العالمية بزوال الحكم العثماني نهائياً سنة ١٩١٨ . وسقط العالم العربي فريسة المطامع الأجنبية ، وكانت سورية من حصة الانتداب الفرنسي .

ب- دور القلعة السياسي :

تغيرت وظيفة القلعة وقلت أهميتها بالنسبة لما كانت عليه في عهد المماليك وضعفت كذلك تبعيتها المباشرة للسلطان ، فلم تعد عبارة «قلعة السلطان» مألوفة بالنسبة للعهد العثماني ، كما لم يعد

نائبها نائباً للسلطان وممثلاً له، يتولى القلعة باسمه. عثرنا في حوادث سنة ١٢٠٢ / ١٧٨٧ على خبر يقول فيه أحد قواد الجند المتولين للقلعة عند تبلغه قرار العزل: «أنا قاعد في قلعة السلطان ...[١]».

لقد غدت قلعة دمشق في العهد العثماني ثكنة للجند ومصدر شر على السكان، فلم تعد تلعب دوراً مهماً في الدفاع عن المدينة وأهلها ولم تعد الحصن الذي يلجأ إليه سكان الأحياء والضواحي في أيام الغزو الخارجي. فلقد أمنت دمشق بانضوائها تحت لواء الإمبراطورية العثمانية القوية من أي عدوان خارجي ولكنها تعرضت للحصار والعدوان من قبل الثائرين والأمراء المحليين في المنطقة في فترات الفوضى والاضطراب، مرة واحدة لجأ إليها سكان الضواحي، وذلك حين تعرضت لغزو الدروز المتنفذين في البقاع سنة ١١٦١ / ١٧٤٨ «حتى انتقل غالب السكان إلى داخل المدينة وإلى القلعة[٢]».

وبينما كان المؤرخون والناس في العهد المملوكي، يطلقون على قلعة دمشق لقب «القلعة المنصورة» وينظرون إليها نظرة الاجلال، ويعتبرونها سندهم وملجأهم، إذا بنا نسمع تعبيراً يختلف عن ذلك

---

(١) ولاة دمشق ص ٨٦.

(٢) حوادث دمشق اليومية ص ١٤١.

كل الاختلاف: «والقلاع آية البلاء على الرعية ولا ينتفع بها إلا الوالي أو المتغلب[1]».

أما لقب نائب القلعة، فنراه يقل استعماله شيئاً فشيئاً إلى أن يختفي نهائياً. ولا نجد بعد القرن السادس عشر أي ذكر له ويحل محله لقب آغا القلعة، وهو ينتمي إلى طائفة الجند التي تتولى القلعة. فهم تارة من الانكشارية، وأخرى من القبوقول، أو الدالاتية[2]. وكان بين جند القلعة في القرن التاسع عشر طائفة تسمى «السكمان[3]». وكان «السكمان باشي» آغة القلعة.

وهكذا تحول وضع نائب القلعة، من نائب للسلطان مستقل كل الاستقلال عن الوالي في العهد المملوكي، إلى موظف صغير يخرج في موكب الباشا، يستقبل الوالي الجديد أو يودع الوالي القديم. ومرة واحدة يصبح نائب القلعة واحداً من أهالي الشام، وذلك حينما ثار أهل دمشق على الوالي سليم باشا سنة ١٢٤٧/ ١٨٣١ واستولوا على القلعة واخرجوه منها. «وتقلد الحكم أولاد البلد ووضعوا (آغاتين) في القلعة، واحداً اسمه «علي آغا عرمان» (من الجند)، والثاني «أبو

(١) خطط دمشق ٣/ ٢٧.

(٢) انظر عن هذه الفرق العسكرية (عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر الصفحات ٧٣، ٧٥، ٨٠).

(٣) اصطلاح أطلق على فئة من الجند المرتزقة وأصل الكلمة سكبان وهي فارسية انظر المصدر السابق ص ٧٦.

خليل الدقاق» من أهالي الميدان، ووضعوا عندهم نحو مايتين نفر[١]».

وحينما دخل إبراهيم باشا إلى دمشق جعل معسكره في القابون، ولكنه عندما غادر دمشق لمحاربة العثمانيين في الشمال «ترك جيشاً عدده أربعة آلاف وجعل اقامته في القلعة[٢]».

وأطلق مؤرخ معاصر على نائب القلعة في عهد إبراهيم باشا لقب «ماسك القلعة» وكان يدعى وقتئذ المير لواء عمر بك[٣]. وحينما رحل إبراهيم باشا عن دمشق سنة ١٨٤٠ عين عليها متسلماً من أهالي البلد انتخبه أعيان دمشق. وتسلم القلعة رجل يدعى «عبد القادر آغا خطاب» من أهالي البلد[٤].

ونلمح في بداية العهد العثماني نوعاً من الاستقلال في السلطة للقلعة ونائبها عن الوالي العثماني، ثم يبدأ نفوذ الوالي على القلعة يزداد ونراه تارة يتصرف بها ويستخدمها كما يشاء، وتارة نراها حرباً عليه، إذا ما خرج عليه أمراء الجند المقيمون في القلعة. وسنوضح هذه الحال بايراد بعض الأحداث التالية:

---

(١) مذكرات تاريخية ص ٣٣.

(٢) مذكرات تاريخية ص ٥٦.

(٣) مذكرات تاريخية ص ٨٥.

(٤) مذكرات تاريخية ص ٢٣٤.

١- حينما ثار «جانبردي الغزالي» على الدولة، إثر وفاة السلطان سليم الأول، وأعلن نفسه سلطاناً على الشام، وضع يده على القلعة «وقبض على نائبها وحاميتها، من الأتراك العثمانيين، وشرع في تحصينها، وصار ينتقل بينها وبين دار السعادة (مقر نائب السلطنة) وعين عليها نائباً من عنده يدعى العماد ابن الأكرم[١]».

وبعد عودة العثمانيين إلى دمشق دخل قائد الجيش العثماني إلى القلعة ووضع فيها صوباشياً[٢].

٢- وفي سنة ١٠٦٧/ ١٦٥٦ أرسل والي دمشق الوزير محمد باشا الكوبرلي إلى قلعة دمشق حامية من جند السلطان نحو الثلاثمائة المعروفين بالقبوقولية فاستقروا بقلعتها[٣].

ويبدو أن هذه الحامية أصبحت تشكل خطراً على حكام دمشق فنراها تطلق المدافع من القلعة على الوالي حسين باشا سنة ١١٥٣/ ١٧٤٠. وتهدمت من جراء ذلك أجزاء من السرايا[٤]. ويأتي بعده عثمان باشا المحصل فينجح سنة ١١٥٣/ ١٧٤٠ في اخراج

---

(١) شذرات الذهب ٨/ ١٥١.

(٢) أعلام الورى ص ٢٣٥، والصوباشي كلمة تركية وتعني الوكيل أو الشحنة.

(٣) خلاصة الأثر للمحبي ٤/ ٣١١.

(٤) ولاة دمشق ص ٧٨.

القبوقول من القلعة. «وأخرج الأورطة (أي الفرقة) التي للقبيقول من قلعة الشام، فمنهم من نفاه ومنهم من قتله[1]».

٣- وفي عهد الوالي أسعد باشا العظم كانت القلعة بيد الانكشارية، وحدث خلاف بينه وبينهم سنة ١١٥٩/ ١٧٤٦ فأخرجهم منها وسلمها إلى أعوانه من «الدالاتية»، واستخدمها في ضرب مساكن الأشقياء والانكشارية: «فأمر الوالي الدالاتية أن يوجهوا المدافع من القلعة على سوق ساروجا فجعلها قاعاً صفصفاً. ثم أمر حضرة الباشا أن تدار المدافع على جهة الميدان: «وملك الباشا البلد بنحو أربعمائة من العسكر الدالاتية[2]».

ويبدو من أخبار سنة ١١٧٠/ ١٧٥٦ بأن القلعة كانت بيد «القبوقول» وأن فتنة وقعت بين أوجاق الانكشارية وأوجاق القبوقول، وساعد القبوقول الدالاتية والأكراد والمواصلة وحاصرت كل حارة جماعة، وكانت النصرة للانكشارية بعد ما ضربوا عليهم المدافع من القلعة...[3]».

٤- وفي سنة ١٢٠٢/ ١٧٨٧ كانت القلعة بيد الانكشارية والقبوقول معاً، فاتفق (الوجاقان) على الباشا (أظن إبراهيم باشا)

---

(١) حوادث دمشق ص ٥.

(٢) حوادث دمشق ص ٦٦-٦٩.

(٣) حوادث دمشق ص ٢٠٠.

وضربوا عليه مدافع من القلعة إلى السرايا، مما اضطره للهرب إلى حماة[١].

٥- حينما انهزم الوالي درويش باشا في معركة المزة سنة ١٢٣٥/ ١٨٢١ أمام الجزار والأمير بشير، التجأ إلى القلعة وتحصن بها[٢].

٦- حينما وصل الوالي سليم باشا إلى دمشق سنة ١٢٤٧ / ١٨٣١ «دخل إلى القلعة وطلع إلى الأبراج وصار يتمايز حارات البلد، ولما نظرها واقعة تحت مدافع القلعة أمر بأن تتذخر (أي تملأ بالذخيرة)[٣]».

جـ- دور القلعة الحربي وحالات الحصار:

سيتضح لنا دور القلعة الحربي من خلال حالات الحصار التي واجهتها القلعة. كنا ذكرنا بأن دمشق لم تتعرض في العهد العثماني لغزو خارجي، أي أن القلعة كذلك لم تحاصر من قبل غزاة محتلين، ولكنها مع ذلك شهدت أحداث حصار من نوع آخر، كان يحدث في الحالات التالية:

---

(١) ولاة دمشق ص ٨٦.

(٢) الروضة الغناء ٨٩.

(٣) مذكرات تاريخية ص ٢.

آ- في حالات الانفصال أو عند وقوع الخلاف بين السلطنة في استانبول وبين حكام دمشق.

ب- في حالات العدوان من قبل العصبيات المحلية الثائرة على الدولة أو الناقمة على حكام دمشق.

جـ- حالات النزاع الداخلي بين الجند ونائب القلعة وبين الوالي، أو بين هذا الأخير وبين أهالي دمشق. سنأتي بأمثلة على احداث الحصار العديدة التي واجهتها القلعة في الحالات الثلاث المتقدمة:

الحالة الأولى:

خلافاً لما كان يقع في العهد المملوكي، فإن ثورات الولاة على السلطنة العثمانية تكاد تكون معدومة. والثورة الوحيدة التي حدثت كانت محاولة الاستقلال التي قام بها «جانبر دي الغزالي» كما رأينا، وهو أول وال عثماني، اختير من بقايا الأمراء المماليك.

كان لقلعة دمشق دور ضئيل في هذه الحركة، حيث عمد الغزالي إلى محاصرتها وأخذها بالحيلة، وقتل اثنين من الجند العثمانيين بها، ومسك أعيان الباقين ومعهم نائبها الرومي (العثماني) ونفاه. وبعد هزيمة الغزالي ومقتله في المعركة عند عيون فاسريا (قرب

دوما) ودخل قائد الجيش العثماني «فرحات باشا» إلى دمشق، فصعد إلى قلعتها وتسلمها من نائبها دون حصار[1].

الحالة الثانية:

حوصرت القلعة مرة واحدة كذلك من قبل قوات من داخل المنطقة-منطقة النفوذ العثماني- حدث ذلك في ٤ صفر سنة ١١٨٥/ ١٧٧١ (٢٨ حزيران) أي في أيام واليها «عثمان باشا»، حينما أرسل حاكم مصر المستقل «علي بك» جيشاً إلى دمشق يقوده مملوكه «أبو الذهب» ويؤازره ضاهر العمر نائب صيدا. استسلمت دمشق وطلبت الأمان. بينما امتنعت القلعة ورفضت التسليم، فأمر أبو الذهب باطلاق المدافع عليها. ثم وقع الخلاف بين ضاهر العمر وأبي الذهب، وانسحبا، دون أن يستوليا على القلعة[2].

وقد وصف كاتب معاصر[3] هذا الحصار فقال: «ودخل القول (جند القبوقول) إلى القلعة وحموها وحاصروها، فلله در مصطفى آغا آغة القول، حمى القلعة بالمدافع والبارود، وقهر أبو الذهب والعساكر وقد ضرب عليه [أي أبو الذهب) خمسين قنبرة (قنبلة)، ولكن لطف الله دارك، فما نزل بالقلعة ثلاث مدافع وثلاث أربع

(١) أعلام الورى ص ٢٢-٢٣٥، شذرات الذهب ٨/ ١٥١.

(٢) خطط الشام ٢/ ٢٠٤.

(٣) ولاة دمشق ص ٨٤.

قنابر، وما آذوا شيئاً والباقي راحوا براً وشيء منهم وقع في الجامع الأموي، وشيء منهم وقع بالأزقة، ولما عجز عن القلعة أخذ العسكر وسافر».

وينقل «كينك» عن «سافاري»[1] SAVARY مايلي: «حاصر أبو الذهب دمشق سنة ١٧٧١ فدافع الباشا عن المدينة ثم انسحب ليحتمي بالقلعة. وحصل أبو الذهب على قوات اضافية للاستيلاء على القلعة، وفي العام التالي انسحب، ودخل الأتراك دون مقاومة[2]».

لم يجر أي حصار عند احتلال إبراهيم باشا لدمشق سنة ١٨٣١م. فقد حضر لعنده آغا القلعة وأحضر مفاتيحها صحبته فأنعم عليه وصرفه إلى بيته[3].

الحالة الثالثة:

حالات الحصار خلال النزاعات الداخلية بين الجند والولاة أو خلال الثورات ونذكر منها الأحداث التالية:

آ- حدثت فتنة سنة ١٢٠١/ ١٧٨٦ بين والي دمشق «اظن إبراهيم باشا» وبين آغة الانكشارية أحمد آغا، فاتفق جند القبوقول

---

(١) مذاكرات تاريخية ص ٥٦.

(٢) King, op cit, p.83.

(٣) ولاة دمشق ص ٨٤ وخطط الشام ٣/ ٥.

والانكشارية على الباشا وضربوا عليه المدافع من القلعة على السرايا. وقتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل، فحاصر الوالي القلعة وطلب الامداد. «ولما رأى أحمد آغا أن البلد سلمت، سكر (أغلق) باب القلعة وهد الجسر، وحاصر ومعه مائتا رجل. وأما الباشا فقد قطع نهر بانياس، وارسل معمارية البلد وقال لهم احفروا لغماً فداروا حول القلعة فما قدروا أن يأخذوا منها لاحق ولا باطل. وقتل منهم ثلاثة رجال، وضربوا على باب القلعة أكثر من عشرة مدافع فما أثر فيه شيئاً. وطلعوا على المواذن وعملوا متاريس وصاروا يضربون على القلعة من كل جانب، وعجزوا عن أخذها[١]».

ب- وحدث سنة ١٢١٤/ ١٧٩٩ نزاع بين الوالي عبد الله باشا العظم وآغة القبوقول، وكانت القلعة بيده، فأغلق القلعة، وحاصره الوالي، فاضطر إلى التسليم بعد مدة وقتل[٢].

جـ- وفي عام ١٢٢٥/ ١٨١٠ عزلت الدولة والي دمشق كنج يوسف باشا وكلفت الوالي الجديد سليمان باشا بالقبض عليه: «واستعد يوسف باشا وصار يرسل ذخائر وآلات الحرب للقلعة، وكان آغا القلعة وقتئذ يدعى سقا أحمد. وبعد هرب يوسف باشا من دمشق دخل سليمان باشا وطلب من سقا أحمد تسليم القلعة فما

---

(١) ولاة دمشق ص ٨٤ وخطط الشام ٣/ ٥.

(٢) خطط الشام ٣/ ٥.

رضي فقال لا أسلم القلعة إلا للذي سلمني إياها. وبعد أيام خرج سقا أحمد وتوجه للخارج واستلم القلعة الباشا وجعل فيها آغا عبد العزيز من الصالحية، ولكن لا يجعل إقامته داخل القلعة بل خارجها، على التخت يتعاطى شغله[1].

د- وفي أيام ولاية سليمان باشا السلحدار سنة ١٢٢٧/ ١٨١٢ وقع خلاف بين الوالي وآغا القلعة وتطورت الأحداث مما أدى لمحاصرة القلعة والاستيلاء عليها والقبض على آغا القلعة. ويصف لنا ميخائيل الدمشقي[2]، كشاهد عيان لهذه الأحداث عملية الاستيلاء بالتفصيل وما استخدم فيها من أسلحة الهجوم والدفاع، يقول:

«وقع خلاف بين الوالي وبين المتصرف على آغا، فاعتزل بالقلعة، وخاف الناس. وأرسل الباشا من يكلمه لإزالة الخلاف فلم يسمع، وجوابه: أنني أنا أغا القول بموجب أمر سلطاني وملتزم وظيفتي لا أرغب خدمة الوزراء ولا أريد اقارش شيئاً ولا يمكن اطلع من القلعة كلياً... وقال إن كان الملائكة تجي من السما تطلب القلعة فلا يمكن أن اسلمها. فما احتمل الباشا هذا الحال واعتمد بمحاصرة القلعة وعين عساكر نيف عن ثلاثة آلاف، وشرعوا بالحصار، وركبوا

(١) تاريخ حوادث الشام لميخائيل الدمشقي ص ٢٦.

(٢) تاريخ حوادث الشام لميخائيل الدمشقي ص ٣٠.

المدافع داير القلعة، واشتغل الضرب ناحية البرج. وعلي آغا سكر (أغلق) باب القلعة حالاً وعنده ماية وثمانون نفر، جميعهم بغادة (من أهالي بغداد)، وكان أدخل ذخيرة للقلعة تكفيه سنتين. ثم ابتدأ بضرب مدافع. والعساكر ملازمة القلعة على الداير وضرب الرصاص من كل ناحية ومن المودان القريبة للقلعة حتى يمنعوا طلوع العسكر الجواني لظهر القلعة...

وقر الرأي بحفر لغم في أساس القلعة حيث أن المدافع ما صار منها نتيجة وإنما تهشم حيط البرج، ووقع كم حجر من شرفات القلعة، فابتدوا بحفر اللغم وردم الخندق وأمر الباشا باحضار سلالم ينصبونها على حيط القلعة... فأعطى إشارة للعسكر، فصاروا يتسابقوا بالطلوع على السلالم إلي أن صار كمية وافرة... وعروا عسكر القلعة، ومنهم من الخوف هربوا إلى سياقات المالح... ثم قبض على علي آغا ونزلوه على السلالم بطاق القميص بحال يرثى لها وأخذوه لعند الباشا... واشتغل العسكر بنهب القلعة يوم وليلة حتى ما بقي شيء، حتى نهبوا المغرفة والدست المختص بالوجاق... ثاني يوم أمر الباشا بفتح باب القلعة، وجعل بها بعض عسكر محافظين».

ونلاحظ من وصف هذه الحادثة أن الوسائل المستخدمة في الاستيلاء على القلعة هي التالية:

- تطويق القلعة بالجند وكانوا بحدود ثلاثة آلاف.

- ضرب القلعة بالمدافع.

- استخدم رصاص البنادق بين عساكر الطرفين، وكذلك استخدمت المآذن بسبب ارتفاعها لضرب عسكر القلعة.

- نظراً لعدم تأثير قنابل المدافع بمباني القلعة، استخدمت الألغام في أساس القلعة وردم الخندق، كي يتمكن المحاصرون من الاقتراب من الأسوار.

- استخدمت السلالم لتسور جدران القلعة. وكانت وسيلة ناجحة للاستيلاء على القلعة.

هـ- في سنة ١٢٤٧/ ١٨٣١ قامت ثورة في دمشق على الوالي سليمان باشا، فأحرق الثائرون السرايا، مقر الوالي وكانت تقع قريباً من القلعة حيث يوجد اليوم القصر العدلي. فاضطر الوالي للهرب واللجوء إلى القلعة وحاصره الثائرون أربعين يوماً إلى أن استسلم لهم.

وسنورد فيمايلي وصفاً مفصلاً لحالة الحصار وما جرى خلاله من أعمال حربية، استناداً إلى مذكرات كتبها شخص عاصر الأحداث:

«... هجم الأهالي على السرايا وأحرقوها، فهرب الوزير سليم باشا والعسكر إلى القلعة من باب السرايا على السروجية إلى الخندق ودخل إلى القلعة هو وخاصته..

ولما دخل القلعة شغل ضرب المدافع والرصاص في الليل والنهار على جميع الحارات، ولكن لم يستفد شيء لأن الكلة (القنبلة) التي كانت تحكم في بيت كانت تخرق في طبلة (الستارة من اللبن) وتقع لا يصير شيء غير هذا.. واجتمع عند الوزير في القلعة عسكر نحو الف ومايتين نفر، ومن أولاد البلد السكمان الذين كانوا بالقلعة ثلثماية نفر، وصارت الجملة الف وخمسماية نفر، وثاني يوم طلع الوزير ودار على البيوت في القلعة وأخذ المونة التي عندهم جميعها ووضع جميع الذخيرة التي كانت في القلعة والتي أخذها من عند «السكمان» في محل واحد. ووكل بها اثنين ووضع المفتاح عنده، وصار يعطي الناس بالقانون كل يوم بيومه... وبعد زن قضى الثوار على العسكر الملتجئين في جامع المعلق انداروا على القلعة وعملوا متاريس على كل داير القلعة وصار الضرب من أولاد ومن القلعة نهاراً وليلاً أربعين يوماً وأربعين ليلة. وأولاد البلد من خلف المتاريس يضربون بالدور، كل حارة من حارات البلد. ووضعوا مدفعين واحد في الدرويشية وواحد في سوق الاروام، والضرب على القلعة ليل مع نهار. ومن القلعة الضرب والطوب (أي المدفع) على

البلد ... وشرعوا في عمل لغم على القلعة، حفروا في أسفل البرج الذي مواجه الدرويشية وبقيوا كم يوم المعمارية يعاقبوا مع النحاتين في حفره . ولما وضعوا فيه البارود نبه الأغوات (أي زعماء الأحياء) على الأهالي أن تجتمع عند باب الجابية، وحين تقويص اللغم يهجموا على القلعة ... لكن قوصوا اللغم ما طلع، بل شرط من البرج وأخذ دكانتين قدامه، فحينئذ صار ضرب المدافع من الدرويشية ومن سوق الاروام على الشرط الذي صار من اللغم في البرج حتى هدوا البرج . وأما الذين في القلعة فلما نظروا الضرب صار على البرج عملوا حفيرة من نصف البرج وبنوا قدامها حايطا من حجارة قوية وزغاليل ووضعوا على الحفيرة قضبان قش سترة، في زعمهم أنهم إذا حطوا سلالم بالموضع الذي انهدم وصعد أولاد البلد للقلعة فيقعوا في الحفيرة فحينئذ ينزلوا عليهم بالرصاص من الزغليل، فلما لاحظ أولاد البلد توقفوا عن الهجوم. وشرعوا في حفر لغم آخر وسط طاحونة «الزرامرية» ...

خلصت الذخيرة من القلعة فأمر الوزير أن يطالعوا أولاد البلد «السكمان» الذين في القلعة وبعد يومين صارت المراسلة للحصول على الأمان للعسكر والوزير[1]» .

من أحداث الحصار الجديدة التي أتينا عليها رأينا كيف كانت

(١) مذكرات تاريخية من صفحة ١١ إلى ٣٤ .

تحاصر القلعة في العهد العثماني، وكيف كانت تدافع عن نفسها، ومدى مقدرتها على الصمود. ولاحظنا كذلك الوسائل الحربية وأنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في الدفاع والهجوم. ويمكننا أن نعدد فيمايلي الأسلحة التي مر ذكرها.

د- الأسلحة والذخائر:

لاحظنا بأن المنجنيق استمر استعماله في بداية العهد العثماني كسلاح دفاعي وهجومي ولكننا لم نعد نعثر له في الأحداث المتأخرة على ذكر، حيث حل محله المدفع نهائياً. وكنا قد رأينا استخدام المدفع في أواخر العهد المملوكي، وكان يطلق على المدافع وقتئذ اسم «المكاحل». ولقد استخدم الغزالي، كما رأينا، المنجنيق في تحصين القلعة كما أخرج منها المكاحل (المدافع) وركبها على عجلات ليستخدمها في الاستيلاء على حلب(١).

ثم غدت المدافع السلاح الشائع في كل أحداث الحصار التي رأيناها يستخدمها المحاصرون لضرب القلعة، كما تستخدمها حامية القلعة لضرب أعدائها.

وقد جرت العادة أن يوضع عند باب القلعة مدفعان. ذكر البديري في يومياته التي عاصرت أيام الوالي أسعد باشا مايلي: «أمر

(١) شذرات الذهب، ٨/ ١٥١. وأعلام الورى ص ٢٣١.

الباشا سنة ١١٧١/١٧٥٧ باخراج المدفعين اللذين في باب القلعة (أي الباب الشرقي)، وكان لهم سنين وأعوام لم يخرجوا، فعمل لهم عربات ...[1]». وشاهد الرحالة الفرنسي «دارفيو» سنة ١٦٦٠ أمام باب القلعة ثلاثة مدافع وصفها بأنها مدافع جميلة من الفونت، وطولها (١٢) قدماً[2]».

بينما حدثنا «بوكوك» الذي زار القلعة سنة ١٧٣٨ بأنه شاهد في المدخل أسلحة قديمة بينها منجنيق كبير وهو من العهد السابق لاستعمال المدافع[3]. وشاهد لورته- مدافع على أسطحة القلعة[4].

أما ذخيرة المدافع أو القنابل، فقد كان يطلق عليها وقتئذ أسماء متعددة مثل: الكلل (جمع كلة)، الطوب، القنابر، المدافع.

ونجد بين هذه المصطلحات كلمة (قنبرة) عربية، أطلقها العرب على قنابل تصنع من الفخار وتملأ بالنفط أو البارود. كذلك المدفع فقد وجدنا أنها كانت تطلق في البدء على قنابل المكاحل في العهد المملوكي قبل أن تطلق على السلاح نفسه. أما الأسماء الأخرى (الكلة والطوب) فهي أسماء تركية.

---

(١) حوادث دمشق اليومية ص ٢١٨.

(٢) D' ARVIEUX, OP CIT, P. 450

(٣) POCOKE' S TRAVEL, TOM II, P.120

(٤) LA SYRIE D' AUJURD' HUI, PARIS, 1885, P.595

وورد في النصوص المتقدم ذكرها حول حصار القلعة ذكر البارود والرصاص كذخيرة للأسلحة.

أما أول ذكر للبندقية كسلاح فردي فقد عثرنا عليه عند الحسن البوريني الذي يقول في حوادث عام ١٠١٨/ ١٦٠٩، مايلي: «أمر الوالي أحمد باشا الحافظ جميع عسكر دمشق بالخروج إلى الميدان الأخضر، وأن يحمل كل واحد منهم البندقية المسماة بالمكحلة[١] قديماً لأنها سلاح مماليك آل عثمان قديماً[٢]».

ومن بين أسلحة الحصار أيضاً الألغام التي استعملت لهدم أبراج القلعة، وكانت تنفذ كما رأينا في الأخبار المتقدمة باحداث حفر في أسفل البرج وتملأ بالبارود، ويبدو بأن الرصاص كان يطلق البارود عن بعد لتفجيره، بدليل العبارات التي مرت معنا: «تقويص اللغم، وقوصوا اللغم[٣]».

لقد عثر في نهاية الحرب العالمية الأولى داخل القلعة على نبال قياسها بين ٥ , ٧٠ و٦ , ٧٣ سنتمتراً[٤]. ولكن هذا لا يعني بأن النبال

---

(١) أطلق اسم المكحلة في البدء على ما يعرف بالمدفع ويبدو أن العثمانيين أطلقوه أيضاً على البندقية المتطورة عنها (انظر الفقرة الخاصة بالأسلحة في الفصل الثالث من هذا الكتاب).

(٢) تراجم الأعيان ١/ ٢٠٢.

(٣) مذكرات تاريخية، المصدر المتقدم، ص ٢٥.

(٤) انظر:
CRESWELL: THE MUSLIM ARCHTTECTURE, TOM 11,P.16

ظلت مستعملة في العهد العثماني، بل من مخلفات العهود السابقة. فلقد شاهد الرحالة «لورته» لدى زيارته لدمشق كمية من أسلحة القرون الوسطى في القلعة، قال أنها أخذت من جيوش الصليبيين[١].

هـ- أحوال القلعة ونشاطاتها المختلفة في العهد العثماني:

من المفيد أن نورد هنا شيئاً من مذكرات الرحالة الفرنسي «دارفيو» الذي زار دمشق عام ١٦٦٠، ودخل القلعة متخفياً، وسجل مشاهداته عنها قال: «يصعب على الأجانب الدخول إليها، يجب الحصول على اذن خاص، وبصحبة أصدقاء، ويجب التخفي ومعرفة لغة البلاد. لقد لبست لباس الترك ودخلت دون صعوبة. رأيت، وأنا داخل مقر الحرس وهو مكان معقود باتقان، وجد نظيف، وكانت الأسلحة القديمة والحديثة تغطي الجدران. وأمام الباب ثلاثة مدافع جميلة، وشاهدت بعد ذلك المساكن في المكان المسمى «قصبة». وشاهدت مكان سك النقود الذي لم يكن قيد العمل. وكان الديوان في صدر الباحة. وعلى طرف الباحة أبنية نظيفة يفصلها عن بعضها ممرات صغيرة، وهي تستعمل لسكن الضباط والانكشارية الذين تتألف منهم الحاشية[٢] ...».

وكانت المباني العامة في القلعة كالجامع والمدرسة والحمام التي

LA SYRIE D'AUIOURD' HUI, OP. CIT. P.595 (١)

D'ARVIEUX, OP. CIT. P.450 (٢)

مر ذكرها في العهود السابقة ما تزال قائمة. واشتهر من بينها مسجد أبي الدرداء وكان له مؤذنون وإمام وخطيب، ذكرت بعضهم كتب التراجم[1].

قال ابن طولون: «وبهذه القلعة جامع تقام فيه إلى زمننا الجمعة ومدرسة حنفية تسمى النورية الصغرى[2]». ويبدو أن أئمة جامع القلعة كانوا يقطنون أحياناً داخل القلعة. جاء في خلاصة الأثر: بأن الشيخ أحمد القلعي المتوفي سنة ١٠٦٧/ ١٦٥٦ صار أماماً بالقلعة وسكن داخلها[3]».

ومن الحوادث الطريفة أن أحد القضاة جرى اعتداء عليه من قبل العامة سنة ١١٥٩/ ١٧٤٦ بسبب الغلاء، فحلف لا يسكن إلا بالقلعة[4].

وكان في القلعة ديوان خاص بها. جاء في ترجمة أحدهم في القرن العاشر الهجري أن أباه كان ديوانياً في قلعة دمشق[5].

وكانت القلعة تستخدم كسجن ومعتقل سياسي. سجن فيها القنصل الفرنسي المسمى «لامبيرورLEMPEREUR» قبض عليه

---

(١) انظر الكواكب السائرة ٣/ ٨٣، ٣/ ١٧٤.

(٢) الشمعة المضيئة ص ٧.

(٣)المحبي ١/ ٣٧٧.

(٤) البديري ص ٦٣.

(٥) الغزي ٢/ ١٨٦

الوالي وسجنه في قلعة دمشق ولم يطلقه إلا بعد أن دفع ثلاثة آلاف قرش(١). كما اعتقل فيها سنة ٩٩٩/ ١٥٩٠ أمير بعلبك علي ابن الحرفوش ثم ضربت عنقه فيها(٢). وعمد الوالي أسعد باشا العظم إلى وضع عدد من أولاد الدروز في قلعة دمشق كرهائن، وذلك خلال الصراع بين زعمائهم في لبنان سنة ١١٦١/ ١٧٤٨(٣).

ونذكر من نشاطات القلعة أيضاً اسهامها في الاحتفالات العامة، لا سيما مناسبات النصر، فكانت تضاء مشاعل النفط في جوانب القلعة وفوق أبراجها لتبقى عدة أيام(٤) ثم تغيرت مظاهر الاحتفال بعض الشيء في أيام الاحتلال المصري (١٨٣١-١٨٤٠) فصارت تستخدم الأسهم النارية وكانوا يسمونها (الشينك)، والمدافع(٥).

و- أعمال الهدم والبناء:

لا نجد في أبنية القلعة أي نص يؤرخ الأعمال التي جرت في

(١) الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مخطوطة رسالة دكتوراه -ليلى الصباغ، ص ٢١٠. نقلاً عن المراسلات السياسية الخاصة باستامبول المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس:
LETTRES DE LEMPEREUR, FOL. 112, 220,223

(٢) الغزي ٣/ ١٧٤.

(٣) البديري ص ١٢١.

(٤) انظر أعلام الورى ص ٢٢، ٢٤٠، ٢٤١.

(٥) انظر مذكرات تاريخية ص ٦٨، ١٥٧.

العهد العثماني، ولذا فأنا سنعمد إلى المصادر التاريخية نستخلص منها أخبار الهدم والبناء. علماً بأنا لن نجد أعمالاً ذات شأن تدل على اهتمام العثمانيين بقلعة دمشق.

وكل ما عثرنا عليه من أخبار إنما يتصل بترميم أماكن تهدمت، إما من جراء زلزال أو نتيجة أعمال حربية. وإذا تفقدنا القلعة وطفنا في أنحائها، وجدنا آثاراً ضئيلة لهذه الأعمال، يكشف لنا عنها الأسلوب غير المتقن للبناء والأحجار الصغيرة الحجم. وفيمايلي أهم الأعمال:

١- نقل لنا ابن طولون خبراً غامضاً مفاده أن السلطان سليم الأول عزم بعد دخول دمشق أن يهدم ما حول القلعة، وضمن ما حول القلعة بماية وخمسين ألف شريفي، قال الخنكار (السلطان) أنا جيت أعمر لا أخرب[1].

ونفهم من هذا الخبر أن المحاولة لم تتم. ولا شك أن غرض المشروع هو عزل القلعة عن المدينة وزيادة حصانتها، فقد رأينا خلال غزوات التتار كيف كان المحاصرون يستخدمون المباني القريبة من أجل ضربها، وكذلك عمد بعض نواب القلعة إلى هدم بعض المباني المحيطة بها.

٢- روى البديري الحلاق في حوادث سنة ١١٦٦/ ١٧٥٤ نصاً حول انهدام برج باب القلعة.

(١) أعلام الورى ص ٢٨٨.

قال: وقع برج القلعة وأخذ البدن كله من بابها، وهكذا إلى أخر البرج من جهة القبلة، ولم يقتل سوى رجل من القلعة[1].

ونلاحظ غموضاً في النص لأنه لا يوضح أي أبواب القلعة هو المقصود وأنا أرجح أن يكون بابها الشرقي المتصل بالمدينة، ذلك لأن هذا الباب هو أشهر أبوابها، وأكثرها استعمالاً، وقد اعتاد المؤرخون في ذلك العهد أن يطلقوا عليه اسم باب القلعة دون تمييز له عن بقية الأبواب. ومع ذلك فلا يمكننا أن نحدد على وجه التأكيد الأقسام المهدومة، فبرج الباب الشرقي هو البرج رقم (٢). أما البدن المتصل به من جهة القبلة فيمكن أن يكون الجدار الخارجي الواصل بين البرجين (٢و٣). وفعلاً فإنا نلاحظ آثار الترميم على هذا الجدار واضحة، فقد جدد القسم العلوي بشكل يغاير كل المغايرة الفن المعماري للقسم السفلي الذي سبق أن قلنا بأنه يرجع إلى العهد المملوكي المتأخر. أما البرج رقم (٢) فلا تبدو عليه آثار الترميم ولكن الستائر والرواشن فيه زائلة لم يبق منها سوى الحوامل البارزة فقط.

٣- وخلال الزلزال الذي حدث في دمشق سنة ١١٧٣/ ١٧٥٩ وتهدم بسببه كثير من المآذن والقباب والمباني العامة، تآثرت منه مباني القلعة وتهدم بعضها. ورد في وصف الزلزال مايلي «خربت قبة أعلا قلعة دمشق تسمى بديوان الظاهر، ووقع منها البرج القبلي والسور

(١) حوادث دمشق اليومية ص ١٧٢.

إلى الخندق، ثم عمرت القلعة بأموال صرفت من كيس الدولة العثمانية[1]» .

وقبة ديوان الظاهر الوارد ذكرها في النص قد تكون هي الطارمة التي بناها الظاهر فوق برج الزاوية الشمالية الغربية (البرج رقم ٩). سبق أن ناقشنا ذلك في الفصل الرابع لدى حديثنا عن أعمال الظاهر بيبرس . والطابق العلوي منه متهدم حالياً، وتبدو آثار الترميم، التي يمكن أن نعتبرها من العهد العثماني، في جداريه الشمالي والشرقي . ولكن عبارة «البرج القبلي والسور اللذين وقعا إلى الخندق» غامضة في النص ولا يمكن فهم ما قصده الكاتب منها . إلا أننا نرجح أن يكون البرج المقصود هو برج الزاوية الجنوبية الغربية (رقم ٨). فأبراج الجبهة الجنوبية للقلعة ما تزال إلى اليوم بحالة جيده باستثناء هذا البرج .

أما السور المقصود فهو على الأرجح السور الغربي نظراً لحالته الحاضرة، ولقربه أيضاً من الطارمة (ديوان الظاهر) من جهة، ومن البرج رقم (٨) من جهة أخرى .

٤- جرت في عام ١١٣٦/ ١٧٣١ إصلاحات وأعمال تجديد في جامع أبي الدرداء الكائن في داخل البدنة الشمالية في البرج (رقم ١١) . الذي صار يعرف في العهد العثماني بمقام أبي الدرداء . وفعلاً

---

(١) نص لمجهول نشره دهمان في مجلة المشرق لعام ١٩٤٨ .

فإنا نجد ضريحاً لأبي الدرداء أحدث في الجناح الشمالي للبرج على شكل مصطبة من الحجر والرخام. زينت جوانبها بألواح رخامية نقشت عليها أبيات من الشعر مؤرخة في عام ١٣٦/ ١٧٤٩ أي هي من عهد الوالي «عثمان باشا الارابيلي». ويوجد في مدخل الجامع من الجهة الجنوبية لوحتان عثمانيتان من الرخام أثبتا في الجدارين المتقابلين، نقشت عليهما أبيات من الشعر. وهما مؤرختان في عام ١٢٣٣/ ١٧٢٠، فهما إذن من عهد الوالي «رجب باشا»، وتشير إحداهما إلى إقامة سبيل، بدليل وجود الآية القرآنية المنقوشة عليها وهي:

بسملة. وسقاهم ربهم شراباً طهوراً.

٥- حينما حوصرت القلعة من قبل الجيش المصري بقيادة «أبي الذهب» وضاهر العمر سنة ١٧٧١، كما رأينا قبل قليل، ضربت بالمدافع، إلا أنها لم تصب باضرار كما رأينا في المصادر العربية. لكن «كينك»[١] يرى بأنها تضررت من جراء القصف ورممت سريعاً. ويعتقد أن عملية الترميم التي تمت في العام التالي (١٧٧٢) تبدو واضحة من الحجارة المستعملة بدون عناية (وأشار في مخططه (المصور رقم ٤) إلى الأماكن المرممة وهي تتناول البرجين (٩و١٢) والبدنة (١٢-١) والجدار الشمالي للبرج رقم (١) أيضاً.

---

(١) KING, op. CTT, P. 83, 57, REF.3.

٦- لقد رأينا أثناء ثورة دمشق على الوالي سليمان باشا التي حدثت عام ١٢٤٧/ ١٨٣١، كيف أن القلعة ضربت بالمدافع ونسف برج الزاوية الجنوبية الغربية بالألغام، وهدم جانب عظيم من هذا البرج كما يقول الشطي[١]. ثم رمم البرج المشار إليه كما يقول صاحب المذكرات التاريخية[٢] في روايته التالية: «فابتدوا يعمروا فيه أربعين يوماً حتى رجع أحسن مما كان».

ويروي نعمان قساطلي هذا الحادث فيقول: «وتقدم الأهالي فأخربوا جانباً من سور القلعة الجنوبي مما يلي الغرب..»[٣]. ويفهم من قوله هذا بأن أعمال الهدم لم تكن قاصره على برج الزاوية الجنوبية الغربية، بل شملت أجزاء من السور المجاور، أي البدنة (٧=٨)، وفعلاً آثار الهدم والترميم المتأخر بادية عليه. أما البرج فلم يبق منه اليوم سوى جزء من طابقه الأرضي.

وبعد هذا الحادث تنقطع أخبار القلعة، ويبدو أنه لم يطرأ عليها أي تغيير حتى أواخر القرن التاسع عشر. ذلك لأن واجهتيها الجنوبية والشرقية كما بدت في الصورة القديمة[٤] المأخوذة في أواخر القرن

---

(١) روض البشر في أعيان القرن الثالث عشر، ص ١٢٠.

(٢) مذكرات تاريخية، ص ٣٤.

(٣) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ٨٨.

(٤) انظر الصورة رقم ٣.

التاسع عشر، أكمل مما هي عليه في عهدنا. فالبرج رقم (٤) برج الزاوية الجنوبية الشرقية كان موجوداً بحالة كاملة، بستائره ورواشنه. وكذلك البرجان (٢و٣)، وكلاهما في الواجهة الشرقية. ومن المؤكد أن الأقسام العليا من هذه الأبراج قد تهدمت في وقت لاحق. ولكننا لم نتوصل إلى أية معلومات عن وقت حدوثه. هل وقع ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى أم خلال الثورة على الاحتلال الفرنسي في عام ١٩٢٥ . . ؟ ويلاحظ في الصورة المشار إليها أن البرج رقم (٨)، برج الزاوية الجنوبية الغربية كان موجوداً وقتئذ، أما الخندق الجنوبي فيظهر منه قسمه الغربي قبل ردمه بشكل واضح وله تصوينه تفصله عن السوق المجاور[١]، وتظهر الأشجار نامية فيه. ومعنى ذلك أن سوق الحميدية لم يكن وقتئذ يتجاوز في حدوده الغربية البرج رقم(٦)، ولابد أن قسمه الغربي شيد بعد هذا التاريخ وأدى ذلك إلى ردم الخندق كلياً[٢].

وتضمحل في أواخر العهد العثماني أهمية القلعة كحصن

---

(١) هذا السوق هو سوق الاروام القديم. وما يزال جزء منه موجوداً، خلف سوق الحميدية من جهة الجنوب. وهو كما يبدو في الصورة رقم ٣ سوق ضيق مسقوف بجملون من الخشب والطين.

(٢) شيد القسم الأوسط من سوق الحميدية في عام ١٧٨٠ وعرف بالسوق الجديد، ثم أكمل من حدود العصرونية إلى باب البريد في عام ١٨٨٣ في عهد السلطان عبد الحميد فعرف السوق بعد ذلك بسوق الحميدية.

منيع، وتصبح مجرد ثكنة عسكرية. ويبدو أنها لم تعد أيضاً المقر الوحيد للحامية العسكرية، بل أنشأت السلطات العثمانية ثكنات حديثة، في أماكن مختلفة من المدينة. عين «بورتر» في مخططه[١] الموضوع سنة ١٩٥١ مكان ثكنة تقع إلي الغرب من السرايا القديمة (موقع القصر العدلي حالياً).

ويعدد نعمان قساطلي[٢] الحصون والثكنات التي شيدت في أواخر العهد العثماني فيقول: «وفي سنة ١٨٦٣ أنشأت الحكومة قلعتين صغيرتين واحدة في حارة النصارى في محلة طالع القبة[٣] والثانية في الميدان[٤] الفوقاني قرب الجزماتية. وفي سنة ١٨٧٣ أنشأت محلاً آخر في المرجة عن شمال طريق المركبات المؤدي إلى بيروت ووضعت فيه الذخائر القابلة للاحتراق، وهذه المحلات وإن تكن صغيرة إلا أنها يمكن أن تحسب من الحصون. وفي دمشق أكثر من عشرة منازل للعساكر الشاهانية يسمونها (قشلا) وكلها بالقرب من سراي العسكرية وتسع نحو عشرين ألف جندي بمهماتهم، ولم يبق بالقلعة إلا مخازن المهمات العسكرية الشاهانية».

---

(١) انظر المصور رقم ٨.

(٢) الروضة الغناء، ص ١١٣.

(٣) هدمت هذه الثكنة وتحول مكانها الآن إلى ملجأ.

(٤) جددت في عام ١٩٣١ مدرسة، تسمى اليوم مدرسة خالد بن الوليد.

إن المنشأة المقامة في المرجة فهي الثكنة الحميدية التي تحولت في عصرنا إلى جامعة دمشق. وأما القشل الكائنة بالقرب من سراي العسكرية أي السرايا القديمة[1] فهي أقدم عهداً وهي التي أشار إليها «بورتر» في كتابه المتقدم ذكره قبل. قليل، ولم يعد لها أيضاً وجود.

* * *

(١) انظر حول هذه السرايا وموقعها مقالنا: قصور الحكام في دمشق، القسم الثاني في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد ٢٣ لعام ١٩٧٣.

الفَصْل السَّادِسْ

الدراسة المعمارية

تحدثنا في الفصل الثاني عن القلعة الأيوبية وعن مخططها الأصلي وهندستها وقدمنا وصفاً عاماً للقلعة كما كانت عليه في العهد الأيوبي. وسنحاول في هذا الفصل أن ندرس بالتفصيل أبراج القلعة وأسوارها وأبوابها وممراتها الدفاعية، ونقدم وصفا معماريا لها ونشرح خصائصها، ونوضح ما طرأ عليها من تغيير وتبديل نتيجة لأعمال الهدم والبناء والترميم.

وقد أشرنا إلى الأبراج والمباني الهامة بأرقام مسلسلة على المصور (رقم٢) المرفق مع هذه الدراسة. وسنبدأ بوصف السور والأبراج ثم ننتقل إلى المباني الداخلية.

١ - المنشآت الدفاعية : السور والأبراج والأبواب والممرات الدفاعية برج الزاوية الشمالية الشرقية (البرج رقم ١):

يتميز هذا البرج بكتلته الضخمة، ومخططه الذي يجعله على غير أشكال الأبراج الأخرى، . فهو ذو شكل مربع تقريباً . أطواله (٢٠×٢٤م) . ويتقدم عن السور أكثر من الأبراج الأخرى أيضاً، حيث تبرز جبهته الشرقية عن السور مقدار (١٥ متراً) وتبرز جبهته الشمالية مقدار (٨ أمتار) .

وهذا البرج مولف من ثلاثة طوابق وسطح مسلح بالستائر . يتوسطه من الداخل عضادة ضخمة، مربعة الشكل طول ضلعها (٥أمتار) تحمل السقوف (الشكل رقم ١٣) . ويتألف السقف من ثمانية أقباء كل منها عقد متقاطع، تحيط بالعضادة، مستندة عليها من جهة، وعلى الجدران الخارجية للبرج من جهة أخرى . والعضادة كتلة صماء من الحجر المنحوت، ولكنها في الطابق الثاني تحتوي على غرفة صغيرة. وفي كل طابق من طوابق البرج يوجد تسعة مرامي، ثلاثة في كل من الواجهتين الشرقية والشمالية، وواحد في القسم البارز من الواجهة الغربية، واثنان في القسم البارز من الواجهة الجنوبية (السعة الوسطية لاواوين المرامي ٣٠, ٣×٣٠, ٣متراً) . وهناك نافذة كبيرة مقنطرة (ذات قوس في أعلاها)حلت محل المرمى المتوقع وجوده وسط الواجهة الشرقية في الطابق الأوسط (الثاني) . وباب الطابق الأول (الأرضي) مفتوح في الجدار الغربي، يدخل إليه من (الممر الدفاعي)، وهو مسدود حالياً، وإلى جانبه الدرج المؤدي إلى الطوابق العليا والسطح [١] .

---

(١) - انظر الشكل رقم ١٣ - المخطط١ .

ويتصل الطابق الأوسط أيضاً بالممر الدفاعي العلوي بواسطة باب مفتوح في الجدار الجنوبي للبرج، يتم الوصول إليه من الدرج الذي تقدم ذكره، المجاور لباب الطابق الأرضي والذي يستمر حتى السطح. والدرج المذكور مسقوف بعقد طولي متدرج، بعضه أفقي، وبعضه مائل، بالتناوب.

يحيط بالسطح ستائر ذات طابقين، كسائر أبراج القلعة (الشكل ١٣ المخطط د) في الطابق السفلي منها توجد فتحات إلى المرامي والرواشن [(١)] يتقدمها رواق مسقوف لحمايتها. إن قسماً من هذا الممر مرمم في العهد المملوكي، وقسماً آخر زائل (الشكل ١٣- المخطط جـ).

أما الستائر العليا فيصعد إليها من درج في الجهة الجنوبية، ما تزال أقسام هامة منها بحالتها الأصلية (أي من عهد العادل الأيوبي)، وهي عبارة عن سلسلة من الشرافات المزودة بالمرامي يفصل بين شرافة وأخرى فجوة.

والستائر ذات شأن كبير في الدفاع عن القلعة حيث تحتوي على القوة الضاربة الرئيسية. ففي الطابق السفلي للستائر نجد مجموعة من المرامي والرواشن وزعت بالتناوب كما يلي: ثلاثة مرامي في كل من

(١) اصطلحنا على تسمية الشرفة الدفاعية البارزة الكائنة في أعالي الأبراج والبدنات روشنا ويطلق عليها بالفرنسية Breteche كما سبف أن أشرنا.

الجهات الأربع، باستثناء الجهة الجنوبية التي تحوي على اثنين من المرامي فقط، بسبب احتلال الدرج لمكان المرمى الثالث، أما الرواشن، فإن هناك روشن كبير مؤلف من ست مساقط (وهي فتحات متجهة إلى الأسفل لصب الزيوت المغلية والمقذوفات) عند كل زاوية من زوايا البرج، باستثناء الزاوية الجنوبية الغربية لأنها تقع داخل القلعة. وقد بقي من هذه الرواشن الثلاثة اثنان فقط أحدهما في الزاوية الجنوبية الشرقية وهو أصيل. والثاني في الزاوية الشمالية الشرقية، وهو مجدد في عهد الغوري، كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق، ومع الرواشن الكبيرة يوجد روشنان أصغران يتوسطان كلا من الواجهتين الشرقية والجنوبية ويحوي كل منهما على ثلاثة مساقط (انظر الصورة رقم ٢٢). أما رواشن الواجهة الشمالية فقد زالت، بينما لا تحوي الواجهة الغربية في الأصل على أية رواشن بسبب وقوعها داخل القلعة.

شيد هذا البرج كما رأينا في الفصل الثاني، في أيام العادل سنة ٦٠٦/ ١٢٠٩ كما تنص الكتابة (رقم ٤)[1] المنقوشة في أسفل واجهته الشرقية. وبنيت واجهات البرج بأحجار بارزة النحت، باستثناء الرواشن فإن البروز في حجارتها يختلف عن بقية حجارة البرج. إنها ذات سطح مستو قليل البروز (الصورة رقم ٢٢). وواجهات البرج خالية من الزخارف، باستثناء القسم الحاوي على الكتابة التذكارية

(١) -انظر النص الكامل في لائحة الكتابات (الملحق رقم ١).

المار ذكرها (الصورة رقم٧). والواجهة الجنوبية هي أكمل الواجهات وما تزال بحالتها الأصلية دون أن يدخل عليها أي ترميم. أما الواجهة الشرقية فقد طرأ عليها ترميم يبدو بشكل واضح في نوعية الأحجار. فهي ملساء في الأقسام المرممة. وتنحصر هذه الأقسام في أعالي الجانب الشمالي من الواجهة وتشمل روشن الزاوية والروشن المجاور له وبضعة مداميك إلى الأسفل منها وحتى نهاية الستائر، كما يتخلل الأقسام السفلى من هذه الواجهة في جانبها الشمالي أيضاً أحجار ملساء تختلف عن الحجارة الأصلية مشيرة إلى عملية ترميم أخرى أرختها الكتابة رقم (٣٠) في عام ٩١٥/ ١٥٠٩ ونسبتها إلى السلطان قانصوه الغوري، كما رأينا في الفصل الرابع لدى حديثنا عن أعمال الترميم في العهد المملوكي.

ولا تتميز أعمال الترميم هذه باختلاف الحجارة فحسب، بل نلاحظ تغييراً في الهندسة أيضاً. يتجلى ذلك في **روشن الزاوية الشمالية الشرقية** المجدد، حيث نلاحظ الحاملة الوسطى المرتكزة على زاوية البرج أطول من الحوامل المألوفة، فهي تتألف من أربعة أحجار بدلاً من حجرين في حوامل الرواشن الأيوبية، وهذه الحجارة منحوتة بشكل مختلف ولها ثلاثة وجوه مؤلفة هرماً رأسه إلى الأسفل. وفتحات الروشن خمس بدلا من ست. ثلاثة منها في الواجهة الشرقية، صممت اثنتان منها على شكل قنطرة، حيث تحول الساكف المألوف إلى قوس مؤلف من فقرات من الحجارة بيضاء وسوداء بالتناوب. وواجهة هذالروشن مزينة بإطار من الزخارف المنقوشة.

ونميز في الواجهة الشمالية مرحلتين من الترميم. القسم الشرقي العلوي بناؤه أكثر اتقاناً، ويشبه الترميم الموجود في الجانب الشمالي للواجهة الشرقية، كما يدل على أنه رمم في عهد الغوري أيضاً. أما بقية أقسام الواجهة، فهي أقل عناية وحجارتها أصغر حجماً، ولا بد أن يكون ترميمها قد حدث في وقت متأخر من العهد العثماني. وإن سبب عدم تجديد الرواشن يدل على ضعف أهميةالقلعة من الناحية الستراتيجية وعدم جدوى دفاعاتها أمام مدفعية المحاصرين.

أما الجدار الغربي فيرجع تاريخ تجديد القسم البارز منه عن السور إلى نفس التاريخ الذي جددت فيه الواجهة الشمالية. يعتقد «كينك» [١] أن ترميم هذه المنطقة من البرج حدث في عام ١٧٧٢، عقب الحصار الذي ضربه الجيش المصري بقيادة محمد أبي الذهب واستخدمت فيه المدافع [٢].

قد تكون هذه الترميمات في رأينا تمت عقب زلزال عام ١١٧٣/ ١٧٥٩ [٣]. حيث أشارت أخبار الزلزال إلى تهدم أقسام من القلعة وأبراجها وإلى قيام الدولة العثمانية بترميم ما تهدم [٤].

(١) The defences..,op. cit.,p.83-

(٢) إن قوات أبي الذهب دخلت دمشق في ٢٤ صفر ١١٨٥ (٢٨ حزيران ١٧٧١.)، ورفضت حامية القلعة التسليم، فأمر أبو الذهب باطلاق المدافع عليها، ثم تم الانسحاب دون استيلائه عليها (انظر ولاة دمشق، المنجد ص ٨٤).

(٣) انظر وصف الزلزال لكاتب مجهول، نشره دهمان في مجلة المشرق، السنة الثانية والأربعون الجزء الثاني، نيسان - حزيران ١٩٤٨.

(٤) سلك الدرر: المرادي ٣/ ٨٢.

يعتبر هذا البرج من أهم أبراج القلعة وأكملها. وقد رأى العالمان (.W.W) إنه البرج الرئيسي الحامي Donjon [(١)] وإنه يشبه برج قلعة شيزر. وأيدهما في ذلك سوفاجه[(٢)]. لما لا حظوه من ضخامته ووجود الستائر محيطة بكل أطرافه، خلافاً للأبراج الأخرى التي لا تمتد الستائر لتشمل الجهة المطلة على داخل القلعة.

ونحن نؤيد كينك[(٣)] الذي يرفض قبول هذا الرأي مبدياً الأسباب التالية:

آ - بالنسبة لحجم البرج، فإنه ليس أضخم بكثير من البرجين رقم ٤ ورقم ١٢، وليس أكثر اتساعاً من البرج رقم ٩. كما أنه ليس أكثرها ارتفاعاً.

ب - أما بالنسبة للستائر فالسبب في أنها تحيط بكل جهات البرج هو أن الجزء المطل نحو داخل القلعة جد ضئيل، ويؤلف قسماً من الجبهة الغربية فقط، ولذا فليس من المنطق أن توضع الستائر على القسم البارز من هذه الجبهة، ويترك قسمها الآخر دون ستائر لكونه لا يطل على الخارج.

جـ - لم يبن هذا البرج ليكون مستقلاً لأن بابه (المفتوح على الممر الدفاعي ضئيل بشكل ظاهر.

---

(١) وهو في القلاع الأوربية برج كبير بالغ الارتفاع مستقل بحيث يستخدم كآخر معقل للحامية بعد سقوط القلعة.

(٢) Citadelle, op. cit.,p.73

(٣) المصدر المار ذكره ص ٨٠.

د - يعتبر هذا البرج مقراً غير ملائم لقائد القلعة بسبب التنظيم غير المريح لقاعاته، خاصة إذا علمنا بأن هناك قصراً خاصاً كان يقيم فيه السلطان يقع في الجهة الجنوبية الغربية للقلعة (انظر المبنى رقم ١٧ في المصور رقم ٢) وسنأتي على وصفه بعد قليل.

البدنة الواقعة بين البرجين (١-٢):

البدنة تعبير قديم يطلق على قطعة السور بين برجين وقد رمزنا إلى كل بدنة برقم البرجين اللذين يحدانها. يبلغ طول هذه البدنة (٣٢,٥م) وهي متصلة بالبرج (رقم١) بشكل محكم. أي أن أحجارها متداخلة مع حجارته، بينما نجدها تنفصل عن البرج (رقم٢)، وكأنه بني مستقلاً عنها. سوف نجد هذه الظاهرة الأخيرة في أكثر البدنات، ونفسرها بكون أبراج القلعة بني كل منها مستقلاً عن الآخر، ثم شيدت البدنات لتصل فيما بينها (انظر الصورتين ٢٣و٢٤).

ما تزال هذه البدنة بحالة جيدة محتفظة بوضعها الأصيل باستثناء شرافاتها التي زالت كلية. وتوجد على حجارتها كتابة تؤرخ ترميم القلعة في عهد الظاهر بيبرس كما رأينا (الكتابة رقم ٩).

ويتصف تصميم البدنات بشكل عام بالصفات التالية " سور سميك مبني بالحجارة، المنحوتة مزود بطبقتين من المرامي. الطبقة السفلى في مستوى أرض الممر الدفاعي يتقدم كل مرمى ايوان.

والطبقة العليا تقع فوق سطح الممر الدفاعيي ومراميها خالية من الاواوين. ثم تنتهي البدنة في أعلاها بشرافات ذات مرامي أصغر حجماً. ولكن مرامي الطبقة العليا في هذه البدنة زودت بالاواوين أيضاً.

البرج رقم (٢) وباب القلعة الشرقي:

يمتاز هذا البرج بكونه يحتوي على باب القلعة الشرقي الذي يصلها بالمدينة. وهو مستطيل الشكل. طوله (٥, ٢٧ متراً)، ويبرز عن البدنة المجاورة له من الجهة الشمالية مقدار (٥, ٧مترا)، وعن البدنة المجاورة له من الجهة الجنوبية (٥, ١١مترا). أما باب القلعة فمفتوح في جدار البرج الجنوبي. ويحتوي البرج على ثلاثة طوابق في داخلها قاعات مستطيلة ذات قبوتين مسقوفتين بعقدين متقاطعين مصنوعين، كسائر عقود القلعة، من الحجر الغشيم والمونة. يفصل بين العقود غالباً أقواس من الحجارة المنحوتة. (انظر الشكل رقم ١٤). وكان يكسو السقوف والأقواس كلسة مزينة بزخارف جصية ملونة، زالت كلياً[1] (انظر الشكل رقم ١٥). ويوجد في زاوية القبوة

---

(١) وجدنا حول هذه الزخارف تقريراً للمهندس الفرنسي Eustache de Lorey وضعه عام ١٩٢٦ يقول فيه: إن هذه الزخارف كانت تغطي سطح القوس الحجري وتتألف من شريطة من الآيات القرآنية مكتوبة فوق أرضية من الزخارف النباتية).

ويقول أيضاً: بأنه شاهد في مكان آخر من هذه القاعة آثاراً لزخارف من العهد المملوكي، القرن الخامس عشر، ورنك السلطان قانصوه الغوري (التقرير من محفوظات المعهد الفرنسي للدراسات في دمشق).

الشمالية باب صغير ينفتح إلى الممر الدفاعي الواقع خلف البدنة (١-٢). أما القبوة الجنوبية فتؤدي إلى داخل القلعة عن طريق غرفة مربعة ولهذه الغرفة باب مفتوح في جانبها الشمالي يؤدي إلى أحد أبراج القلعة السلجوقية [١]. وفي جدارها الجنوبي باب ثان يؤدي إلى الممر الدفاعي الممتد خلف البدنة (٢-٣) وإلى جواره آثار محراب زالت معالمه. وتتصل هذه الغرفة من الجهة الغربية بالقاعة الكبيرة (رقم ١٤). ويحتوي كل من طوابق البرج الذي نحن بصدده على ستة مرام، أربعة في الجدار الشرقي وواحد في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي، باستثناء الطابق الأرضي، حيث يحتل باب القلعة موقع المرمى.

أما سطح البرج فقد تهدمت ستائره بما تحتوي عليه من رواشن ومرام وشرافات. ولم يبق من الرواشن الستة سوى روشن واحد فوق باب القلعة وحوامل الرواشن الأخرى (انظر الصورة رقم ٢٥). وتتوزع الرواشن كما يلي: اثنان في الزاويتين الشمالية والجنوبية الشرقيتين. واثنان يتوسطان الجدار الشرقي، وواحد في كل من

---

(١) انظر الشكل ١٤، الرقم ١٧. يرى سوفاجه بأن هذا الباب هو الباب الشرقي للقلعة (القديمة)، ودليله على ذلك مقاييسه الصغيرة والحجارة الملونة في قوسه العاتق، التي تعتبر أول نموذج من نوعه يستعمل في دمشق. ويرى بأنها من عهد صلاح الدين، القرن الثاني عشر.

الجدارين الشمالي والجنوبي. وكل منها يحتوي على ثلاث سقاطات. . سوى رواشن الزوايا فإنها ذات ست سقاطات.

جرى ترميم على هذا البرج، ملحوظ على أجزائه العليا، أرخته الكتابة رقم (١٠)، كما سبق أن أشرنا في الفصل الرابع لدى الحديث عن ترميمات الظاهر بيبرس.

ويبدو أن البرج تعرض في عهد متأخر لا ضرار أدت إلى زوال أجزاء منه كانت ظاهرة في الصورة القديمة المأخوذة في أواخر القرن التاسع عشر والتي سبق ذكرها (الصورة رقم ٣)، وتظهر في هذه الصورة الرواشن بكاملها وفوقها خمسة مداميك من حجارة البناء.

أما بقية أقسام البرج فما تزال محافظة على وضعها الاصيل، وتشاهد في الواجهة الشرقية كتابة جميلة من عهد الملك العادل الأيوبي وعلى جانبيها طاقتان ضمن إطار جميل من الحجارة المنقوشة على شكل ضفيرة أو سلسلة متداخلة الحلقات (انظر الصورتين ٢٥و٢٦).

الباب الشرقي:

وهو باب القلعة الرئيسي من جهة المدينة. يقع بين برجين متقاربين بينهما مسافة عشرة أمتار. والباب مفتوح في الجدار الجنوبي للبرج (رقم ٢) كما ذكرنا وتحميه الدفاعات المقامة في

البرجين معاً والبدنة التي تصل بينهما وتتألف هذه الدفاعات من مرام ورواشن عديدة.

ويتجه السير بعد اجتياز الباب في خط منكسر إلى داخل القلعة. وسنلاحظ بأن هذا الباب أقل حصانة من الباب الشمالي. ذلك لأنه أقل تعرضاً للهجوم، فهو الباب المستعمل للدخول والخروج إلى دار الامارة، ومقر السلطان أو نائبه. ولقد بني الباب الشرقي للقلعة على شاكلة أبواب القصور، باب فخم تزينه المقرنصات والحليات الزخرفية (الصورتان ٢٧ و ٢٨). وهذا الباب مفتوح في إيوان سعته (٤,٢٥ مترا) وعمقه (٢,٢٠مترا) يعلوه قوسان فوق بعضهما من النوع المركب (المدبب، المؤلف من قوسين متلاقيين). وحجارتها صقيلة النحت على خلاف حجارة جدار البرج. البارزة النحت، وفتحة الباب مستطيلة محاطة بإطار من القولبات وله ساكف من قطعة واحدة من الحجر عليها شريط نافر النحت يؤلف خطوطاً منكسرة. ويعلو الساكف قوس عاتق قليل الارتفاع، مؤلف من حجارة متداخلة ومفصصة. وايوان الباب معقود بنصف قبة فيها أربعة صفوف من المقرنصات تنتهي بطاسة شعاعية (المخطط رقم ١٦) وفي زاويتي العقد محرابان صغيران مسقوفان بقبة منقوصة. ونجد في الصف السفلي من المقرنصات اثنين من المحاريب مزينين بزخارف نباتية مخرمة (الشكل ١٧)، بينما زينت المحاريب الأخرى برسوم

ملونة. وفي أسفل المقرنصات مباشرة يوجدشريط من القولبات ينتهي عند جانبي الايوان ملتفا بدائرة من الزخارف الهندسية (الشكل ١٨). وتعتبر هذه المقرنصات من أجمل النماذج التي عرفتها أبواب المباني الدمشقية في القرن الثالث عشر. توجد فوق ساكف الباب كتابة نقشت في العهد المملوكي (الكتابة رقم ٢٠)، وهي مؤلفة من سبعة أسطر وتتضمن مرسوماً سلطانياً بشأن خزائن السلاح، صدر سنة ١٣٧٩/٧٨١ (٢٢). كما نقش على جانبي ايوان الباب نص آخر يتضمن تاريخ فتح القلعة سنة ٧٩٤ من قبل السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق، ويسمى الباب في هذا النص بباب النصر، (الكتابة رقم ٢٠).

البدنة (٢-٣):

وهي أقصر بدنات السور طولها عشرة أمتار فقط، فيها باب يؤدي إلى داخل القلعة وخلرجها. قسمها السفلي مستوى الرواشن أصيل (أي من عهد العادل الأيوبي) وبحالة جيدة. والقسم العلوي مجدد في عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٣/٧١٣ كما تشير الكتابة رقم (١٩) المنقوشة في أعلاها. ونلاحظ بأن هذه البدنة على صغرها هي أكثر البدنات تحصيناً بسبب وظيفتها التي تتطلب حماية باب القلعة. فهي تحتوي على روشنين بينهما مرمى في الطابق الثاني، وروشن بين اثنين من المرامي في الستائر (الصورة ٢٩).

وهي أكثر ارتفاعاً من سائر البدنات. ولا ندري إذا كان هذا التنظيم الدفاعي موجوداً منذ العهد الأيوبي أم أنه أدخل عليها فيما بعد خلال أعمال التجديد التي تمت في عهد الناصر ابن قلاوون. بالإضافة إلي ما أشارت إليه الكتابة المار ذكرها، فإنا نلاحظ آثار التجديد بادية في قسمها العلوي، حيث اختلف نحت الحجارة عن الأصل واختلفت هندسة القسم المجدد من حيث شكل المرامي والرواشن في الواجهة ومن الخلف. فالروشنان الكائنان في الطابق الأوسط صغيران يحتوي كل منهما على فتحة واحدة (سقاطة) ومرمى صغير.

أما الروشن العلوي فمزود بثلاثة فتحات، وحوامل هذا الأخير مؤلفة من ثلاثة أحجار متراكبة بدلاً من اثنين كما هو مألوف في الرواشن الأيوبية. أما آثار التجديد من الخلف فتبدو واضحة من عهد متأخر. ولقد طرأ تعديل على النظام الدفاعي في هذه المنطقة من القلعة من أجل زيادة تحصين مدخلها الشرقي، فأحدثت بدنة أخرى أمامية تصل بين مقدمتي البرجين وأصبحت تسد الفتحة المؤدية لباب القلعة. ويتوسطها في الأسفل باب مستطيل له ساكف يعلوه قوس عاتق. وفوق الباب روشن ذي ثلاث فتحات ومرمى في كل من جانبيه (الصورة ٣٠).

أما القسم العلوي فمؤلف من ثلاث نوافذ مستطليه، تعلوها ثلاثة مداميك. وقد ظهرت في الصورة القديمة (رقم٣) قنطرتان

عاليتان متجاورتان. ومن تفحص واجهة هذه البدنة نستطيع أن نلاحظ بأن القسم السفلي أقدم من قسمها العلوي. فالأول هو الأصيل، وقد شيد كما نرجح في عهد السلطان الناصر ابن قلاوون لأن عناصره الهندسية تشبه في بنائها الأقسام التي جددت في البدنة الداخلية أي في سنة ٧١٣/ ١٣١٣. أما القسم العلوي فلا شك أنه بني في العهد العثماني المتأخر. وليس له قيمة دفاعية. ويبدو أن الفسحة الواقعة بين البدنتين قد استخدمت في هذا العهد كغرف لإقامة الحرس وتألف منها ثلاثة طوابق، الأرضي الذي استخدم كمدخل للقلعة، والأوسط غرفة مزودة بثلاث نوافذ مطلة على خارج القلعة، والعلوي عبارة عن مقصورة لها قنطرتان مشرفتان على المدينة. ووجود هذه المنشآت غير الدفاعية عند باب القلعة يفسره زوال الصفة الحربية عن القلعة في أواخر العهد العثماني.

البرج رقم ٣:

وهو أصغر الأبراج المستطيلة المشيدة منذ عهد الملك العادل الأيوبي. أطواله (٥, ٢١×١٤ مترا)، ويبرز عن البدنة المجاورة (٣-٤) مقدار (٥, ٩) مترا. أما مخططه فهو كسائر الأبراج المستطيلة، ويتألف من ثلاث قبوات عقودها متقاطعة يفصل بينها قوسان حجريان. ويحوي كل طابق على خمسة مرام، ثلاثة في الجدار الشرقي تحول أحدهما (الشمالي) إلى مرحاض، ومرمى في كل من الجدارين الجانبيين الشمالي والجنوبي.

ونشاهد في الجدار الغربي وهو المطل على داخل القلعة، ثلاثة أواوين في الداخل، ومثلها في الخارج. يحتل باب البرج أحد هذه الأواوين (الشمالي) وعلى يمين الداخل من هذا الباب يقع الدرج المؤدي إلى الطوابق الأخرى.

ويتصل الطابق الثاني (الأوسط) بالممر الدفاعي بواسطة باب مفتوح في وسط الجدار الغربي وهو باب قديم مستطيل الشكل له ساكف يعلوه عقد عاتق.

وهذا البرج أصيل كما ذكرنا، ولكن أقسامه العليا مهدومة وستائره زائلة، لم يبق منها سوى حوامل الرواشن ومدماك كان فوقها، باستثناء الجدار الشمالي للبرج فإنه يحتفظ بستائره السفلى كاملة (انظر الصورة٣١). وكان البرج في الأصل مزوداً بستة رواشن، اثنان في زاويتي الواجهة الشرقية واثنان في وسطها وواحد في كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية. ولكن هذه الرواشن أصغر من تلك التي نجدها في الأبراج الأخرى، حيث يحتوي كل منها على سقاطتين فقط بدلاً من ثلاث، أما بالنسبة لروشني الزاويتين فيحتوي كل منهما على أربع سقاطات بدلاً من ست في الأبراج الأخرى.

ويبدو أن هذه الرواشن ليست أصيلة، بل جرى تجديدها مع الستائر في العهد المملوكي. ومن تفحص الروشن المتبقي في الجدار الشمالي. نجد تشابهاً ملحوظاً بينه وبين رواشن البدنة (٢-٣) المجاورة له من حيث الريازة ونوعية الحجارة. ولذلك فإن بامكاننا أن

ننسب عملية الترميم إلى سنة ٧١٣/ ١٣١٣، السنة التي تم فيها تجديد البدنة المذكورة. وعلى هذا الأساس فإنا لا نستطيع أن ننسب عملية تجديد الستائر والرواشن إلى الظاهر بيبرس اعتماداً على الكتابة رقم (١٠) المار ذكرها في الفصل السابق، والتي نشاهدها منقوشة على كامل المدماك الواقع أسفل الرواشن مباشرة، في الواجهة الشرقية، والتي تشير إلى ترميم البرج بشكل عام في عهد الظاهر بيبرس، ذلك لأن أعمال الظاهر والفن المعماري الذي لاحظناه في أماكن أخرى من القلعة تختلف اختلافاً ظاهراً عن الترميمات التي نحن بصددها. مما يدل على أن البرج رمم أولاً في عهد الظاهر ثم رمم ثانية في حدود عام (٧١٣)، كما استنتجنا.

البدنة (٣-٤):

وطولها (٢٤) مترا، تبدو منفصلة عن كل من البرجين (٣-٤) اللذين يحدانها. مما يدل على أنها أقيمت بعد انتهاء بنائها لتصل بينهما. تحتوي هذه البدنة على أربعة مرام في الطابق الأرضي، ضمن أواوين أوسع من المعتاد[١] وتستعمل حالياً غرفاً منفردة للسجناء.

مرامي الطابق الثاني، جرى حديثاً تعديل على وضعها. أما الستائر فزائلة كلياً[٢]. كانت هذه البدنة بحالة جيدة حتى أواخر القرن التاسع عشر وكانت تحتوي على روشن واحد (انظر الصورة رقم ٣).

(١) انظر المخطط رقم ٢.

(٢) انظر (الصورة ٣٢).

ونشاهد في أعلى الواجهة لوحة لم تكتمل أعدت لنقش كتابة تذكارية، وتشغل مدماكين أحيطا بإطار زخرفي، في أركانه قولبات تتألف من مجموعة أقواس وزوايا. ويعلو اللوحة في وسطها حجر منحوت على شكل صدفة، نعتقد بأن هذه اللوحة كانت ستؤرخ عملية ترميم تمت في العهد المملوكي المتأخر.

البرج رقم (٤):

يحتل هذا البرج الذي ذكرنا في الفصل الثاني بأنه بني في عام ٦٠٤/ ١٢٠٧ زاوية القلعة الجنوبية الشرقية، وهو يختلف بشكله عن سائر الأبراج فهو يشبه برجين مستطيلين تلاقيا على شكل زاوية قائمة. طول جبهته الشرقية (٢٧,٥) مترا وطول جبهته الجنوبية (٢٥) مترا. مخططه الداخلي يتألف من قاعتين مستطيلتين متعامدتين احداهما في الجهة الشرقية للقلعة والأخرى في الجهة الجنوبية تتصلان ببعضهما بواسطة باب مفتوح في الجدار الجنوبي للقاعة الشرقية (انظر المخطط رقم ٢). ويتألف السقف من عقدين طوليين متعامدين على بعضهما ويتقاطعان في نهايتهما محدثين قبوة ذات عقد قاطع في زاوية البرج. ويتقاطع مع كل هذين العقدين الطوليين عقود جانبية أقل ارتفاعاً محدثة أواوين في الواجهات تحيط بالمرامي، وأواوين مقابلة لها في الجدران الداخلية. هذا ويحتوي كل طابق على ثمانية مرام: ثلاثة في كل من الواجهتين الرئيسيتن، الجنوبية والشرقية، وواحد في كل من الجدارين الجانبيين.

أما الأواوين الخلفية المار ذكرها فقد تحول أكثرها حديثاً إلى شبابيك ونوافذ. ويقع باب البرج المتصل بالممر الدفاعي في الجدار الخلفي (الغربي) للقاعة الشرقية ويحتل إيوانها الشمالي، وعلى يمين الداخل منه إلى البرج يوجد الدرج الصاعد إلى الطابق العلوي. وفي الزاوية الشمالية الغربية من القاعة الجنوبية يوجد المرحاض، وهو جزء من التصميم الأصيل للبرج.

لقد تهدم القسم العلوي من البرج وزالت ستائره، ولم يبق منه سوى طابقين (الصورة٣٢). جرت على البرج ترميمات عديدة تبدو في واجهاته كلها، ومن تفحص حجارة جدرانه نستنتج بأن التجديد شمل سائر الجدران من الأعلى إلى الأسفل، ولكن هذه الترميمات لم تغير من هندسته الأولى.

ويبدو البرج في الصورة القديمة المار ذكرها (رقم٣) أكمل مما هو عليه الآن بكثير حيث تظهر الرواشن في واجهتيه الشرقية والجنوبية. وهي ثلاثة في زواياه وواحد يتوسط كلا من واجهتيه وهو بفتحتين فقط، ويظهر من البناء فوق الرواشن مدماكان يخصان الستائر. ولقد تبين لنا من جراء تكبير الصورة المشار إليها بأن روشن الزاوية الشمالية الشرقية يشبه في تصميمه تماماً روشن هذه الزاوية في البرج (رقم١) الذي تقدم وصفه والذي رمم في عهد السلطان الغوري. ويلفت الانتباه أيضاً في هذه الصورة مستوى الرواشن الذي يبدو أكثر انخفاضاً من رواشن الأبراج المجاورة في الواجهة الجنوبية

للقلعة. مما يدل على أنها تأتي بعد الطابقين الأرضي والعلوي، أي أن هذا البرج كان مؤلفاً من طابقين وستائر فقط. ولكن هل كان كذلك في الأصل؟ أم أن هذا الوضع نشأ كما نرجح بعد التجديد الذي طرأ عليه في العهد المملوكي؟. لقد أشارت الكتابات المنقوشة على واجهتيه على أنه هدم وجدد مرتين: الأولى في عهد السلطان الناصر محمد بن قاتيباي سنة ٩٠٣/ ١٤٩٧ (الكتابة رقم ٢٨) والثانية في عهد السلطان الغوري سنة ٩١٩/ ١٥١٣ (الكتابة رقم ٣١). ونظراً لتقارب الفترتين فمن المحتمل أن يكون قد هدم مرة واحدة وبدىء بتجديده في أيام الناصر هذا ثم اكتمل في عهد الغوري.

نلاحظ في الواجهة الجنوبية آثار التجديد واستخدام حجارة من عهد أقدم ومن بينها رنك وأحجار كانت لكتابة أقدم عهداً تشوهت وذهب أغلبها. أما الكتابة رقم ٢٨ التي أشرنا إليها في الفصل السابق فإنها بحالة جيدة ومنقوشة بعناية في مكان متوسط من الواجهة. الواجهة الشرقية للبرج بناؤها أقل عناية من الواجهة الجنوبية وتحمل في أعلاها كتابة تؤرخ أعمال السلطان الغوري (الكتابة رقم ٣١)، وهي منقوشة على مدماك يتوسط هذه الواجهة، في مستوى الطابق الثاني، محاط بإطار من الزخارف يتألف من مشربيات ذات لونين أسود وأبيض بالتناوب، يتوسطها حشوة مستديرة. وعلى جانبي شريط الكتابة توجد حشوتان مستديرتان من الحجارة المتداخلة بلونين أبيض وأسود (الصورة رقم ١٩).

يرى «كينك»[1] بأن دوائر الحشوات كانت أماكن للمدافع، نظراً لأن المدافع كانت مستخدمة في القلاع السورية في أواخر العهد المملوكي، وأن الغوري نفسه بنى برجاً في خندق قلعة حلب معدا لاستخدامها قبل خمس سنوات من تجديد هذا البرج. ومن المحتمل أن يكون الغرض من تجديد هذا البرج هو جعله يتلاءم مع استخدام المدافع.

الواقع أن الحشوات المستديرة التي يتحدث عنها تؤلف مع شريط الكتابة عملاً منسجماً وأصيلاً، ولا يبدو عليه التعديل والتغيير.

أما عن استخدام المدافع من قبل المماليك فقد عالجناه بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث.

ونلحظ آثار التجديد أيضاً في جدران البرج المطلة على داخل القلعة، وهي تظهر اليوم مكشوفة بعد زوال الممر الدفاعي الملاصق لها في الأصل. ففي أعلى الجدار الشرقي مداميك من الآجر، ومداميك استخدمت فيها حجارة بيضاء وسوداء بالتناوب. وحجارة مأخوذة من أبنية رومانية العهد. ولا تزال الأقسام السفلى تحتفظ بحجارتها الأولى البارزة النحت التي ترجع إلى عهد الملك العادل الأيوبي.

---

(١) The defences, op. cit., p. 75

البدنة (٤-٥):

ويبلغ طولها (٣١) مترا، تهدمت من الداخل وحلت محلها منشآت حديثة، ولم يبق منها سوى الواجهة الخارجية (اعتبر سوفاجه وكينك هذه البدنة غير موجودة كلياً)، وهي حالياً دون مستوى الستائر من حيث الارتفاع، بنيت بأحجار متنوعة مما يدل على ترميم طرأ عليها في العهد المملوكي. بقي من المرامي في الطابق الأرضي مرمى واحد فقط يجاور البرج (رقم ٥). وكان عددها في الأصل خمسة مرام، كما هو الحال في البدنات الأخرى التي تعادلها في الطول، وتبدو حجارة البدنة منفصلة عن البرج رقم (٥) المذكور.

البرج (رقم ٥):

وهو أحد أبراج ثلاثة متشابهة تحتل الجبهة الجنوبية للقلعة، وقد حافظت على وضعها الأصيل أكثر من سائر الأبراج. وهذا البرج ما يزال كاملاً من الأعلى إلى الأسفل (الصورة رقم ٥) والشكل (رقم ١١). أطواله (٢٦×١٢,٥ مترا)، ويبرز عن البدنة المجاورة (٤-٥) (٩,٥ مترا) ويتألف من ثلاثة طوابق وسطح محاط بالستائر والشرافات، مخطط الطوابق الثلاثة يكاد يكون واحداً، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة مسقوفة بقبوات ثلاث يفصل بينها قوسان من الحجر المنحوت، حدثت هذه القبوات من تقاطع عقد طولي يمتد من الشرق إلى الغرب مع ثلاثة عقود أخرى تمتد من الشمال إلى الجنوب، وهذه العقود القاطعة الثلاثة تحدث ثلاثة أواوين في الواجهة الجنوبية

مخصصة للمرامي، ومثلها في الجدار الشمالي الخلفي (انظر الشكل رقم ٢٠). لقد فتح باب البرج في الطابق الأول في الإيوان الأوسط من هذه الأخيرة، ويدخل إليه من الممر الدفاعي الممتد خلف البرج، وواجهة الباب على شكل إيوان أيضاً وتعلوه فوهة مربعة لإسقاط المواد من الطابق الثاني على الأعداء، وإلى يمين الباب نجد الإيوان الغربي وفيه مرمى يطل على الممر الدفاعي. ولكن ليس له وظيفة المرمى بالطبع وإنما وجد للإنارة. أما الإيوان الشرقي فقد خصص للدرج الصاعد إلى الطوابق العليا. ويدخل إليه من باب يعلوه قوس مركب مدبب، وإلى جانبه في نهاية الجدار الشمالي يوجد المرحاض، وهو مفتوح في سماكة الجدار البالغة (٣,٤٥ مترا).

الطابق الثاني: إن أواوين المرامي الجنوبية غير متساوية في الشكل وفي الحجم، وأكبرها الايوان الغربي الذي يبلغ عرضه ٢,٧٥ مترا، ويختلف عن الأواوين الأخرى في كونه يحتوي على قوسين متراكبين الواحد داخل الآخر: بدلاً من قوس واحد. وعمق هذا المرمى مع الإيوان (٣,٤٥مترا)، وهذا يعادل سماكة الجدار.

هناك قنطرة واسعة مفتوحة في الجدار الشمالي تستخدم كباب[1]، وهي ذات قوس مركب متجاوز مبني بالحجارة البارزة النحت كحجارة الواجهة (الصورة ٣٣). أما مدخل الدرج فقد جعل

---

(١) يرى كينك أن الباب محدث، وإلى جانبه باب مستطيل أكثر ارتفاعاًو مسدود حالياً، وقد كان الباب القديم يؤدي إلى الدرج في هذا الطابق، ذلك لأن الممر الدفاعي قد جرى تخفيضه في وقت غير معلوم.

من الجانب الغربي للباب [١]، له فتحة ذات قوس مركب [٢]. أما المرحاض فيحتل هنا النهاية الشرقية للجدار الشمالي (انظر الشكل ٢١).

الطابق الثالث:

ويلاحظ بأن سقفه خال من الأقواس الحجرية التي تفصل بين القبوات المعقودة. وتوجد نافذة في واجهته الجنوبية المطلة على الخندق، حلت محل الايوان الأوسط المألوف. وتبدو هذه النافذة من الخارج أصيلة، وهي مستطيلة الشكل يعلوها ساكف وفوقه قوس عاتق، على شاكلة شبابيك المباني الأيوبية، أما المرميان المجاوران فقد حولا حديثا إلى نوافذ مماثلة (الصورة ٤٣).

أما المرحاض فإن مكانه مغير قليلاً، فهو يحتل النهاية الشمالية من الجدار الشرقي، مزود بنافذة صغيرة على شكل المرمى، في أعلاه. ويختلف تنظيم الجدار الغربي عنه في الطوابق الأخرى بسبب مرور الدرج داخله، مما اضطر إلى إلغاء المرمى المعتاد، واحتل باب البرج الجانب الشمالي من الجدار. وهو يفتح إلى الدرج الصاعد إلى السطح والنازل إلى طوابق البرج السفلي. وفي النهاية الجنوبية من

---

(١) لاحظنا بأن الاتصال الداخلي بين طوابق البرج الثلاثة قد تعطل بسبب سد منافذ الأدراج في عهد غير معروف. وأصبح الاتصال قاصراً علي الأبواب المفتوحة على الممر الدفاعي انظر الأشكال ٢٠، ٢١، ٢٢).

(٢) انظر من أجل فهم المصطلحات الفنية الملحق رقم ٣ الخاص بالمصطلحات.

الجدار الغربي هذا يوجد مرحاض ثان. إن وجود مثل هذا المرحاض الاضافي في الأبراج نادر (انظر الشكل رقم ٢٢).

أما الدرج المؤدي إلى السطح فيستمد النور من مرمى يطل على الخندق ويقع قبالة الباب المار ذكره. وينزل من هذا الدرج إلى الباب الخارجي للبرج المفتوح في النهاية الشمالية لواجهته الغربية، ويقع في مستوى أخفض قليلاً عن الطابق الثالث. وهذا الباب يصل البرج بالممر الدفاعي العلوي بواسطة سلم أو درج، نظراً لاختلاف مستوى الممر عن مستوى الباب، إلا أن الدرج الموجود حالياً حديث العهد.

يرى «كينك»[١] أن أرض الممر الدفاعي هذا قد جرى تخفيضها في عهد لاحق وأضيف من أجل ذلك الدرج المحدث وهي نفس الملاحظة التي أوردها لدى حديثه عن باب الطابق الثاني. ونحن نستبعد هذا التفسير لأن أرض الممر تؤلف سطح الممر الدفاعي الأرضي، ومن المتعذر تخفيض هذا السطح، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مثل هذه الأبواب ذات قيمة دفاعية بحتة وسنراها موجودة في أكثر أبراج الجبهة الجنوبية للقلعة. ومهمتها وصل البرج بالممر الدفاعي المحيط به والبدنات المجاورة، ولا يمنع ذلك من أن تكون الأبواب أعلى مستوى من الممر. وعندها تستخدم أما سلالم متحركة أو أدراج حجرية ثابتة. ويرى كينك[٢] أيضاً بأن باباً مماثلاً

---

(١) (The defences.., op. cit., p. 71)

(٢) (The defences..., op. cit., p. 72)

للباب الغربي، يقابله في الجهة الشرقية[1] يؤدي إلى الممــر الواقع خلف البدنة (٤-٥) ولكنه مسدود حالياً، ويمكن ملاحظة موقعه من الخارج.

السطح والستائر: يستمر الدرج القائم في الجدار الغربي للبرج في الصعود بعد اجتياز باب الطابق الثالث، ثم ينحرف باتجاه الشرق حتى يؤدي إلى السطح. وهو سطح مستو محاط بستائر عالية من جهاته الثلاث، باستثناء الجهة الشمالية المطلة على القلعة. وهذه الستائر تتألف كغيرها من طابقين الأول يحوي على الرواشن والمرامي والثاني على الشرافات الدفاعية (انظر الشكلين ٢٣ و٢٤ والصورة ٣٥).

ولكن الستائر السفلى في هذا البرج تختلف في تنظيمها عما في الأبراج الأخرى، إذ يتقدمها ممر عرضه (١٩٤) سم مسقوف بعقد طولي مدبب المقطع قليلاً. يحيط بالجهتين الجنوبية والشرقية، وهناك قطعة خاصة بستائر الجهة الغربية، منفصلة عن الممر العام بسبب وجود درج السطح الذي يحول دون اتصال هذا الممر الغربي بالممر الرئيسي. وللممر أبواب من السطح، اثنان في الجهة الجنوبية وواحد في الجهة الشرقية، وهي على شكل قنطرة ذات قوس مخموس، عرضها (١٤٧) سم وارتفاعها (٢١٥) سم، ويتقدم الممر الغربي

(١) انظر الشكل رقم ٢٢، الحرف Y.

قنطرة مسقوفة بواسطة البوارز والسقائف الحجرية بطريقة تعرف بـ Encorbellement، وهي تحمل الدرج الصاعد إلى الستائر العليا.

ويلاحظ بأن الرواشن والمرامي في ستائر هذا البرج هي في مستوى أرض الممر ولا تحتاج إلى درج للدخول إليها كما هي الحال في ستائر الأبراج المجاورة.

ويمتاز برجنا هذا بكثرة عناصره الدفاعية، فهي أكثر قليلاً من غيره من الأبراج. فالطابق السفلي من الستائر يحتوي على سبعة رواشن ومثلها من المرامي (انظر الشكل رقم ٢٣) وهي قائمة بالتناوب، روشن يليه مرمى. وهي موزعة كما يلي: ثلاثة رواشن في الواجهة الجنوبية بثلاث سقاطات، وروشنين كبيرين في الزاويتين لهما ست سقاطات، وواحد في كل من الواجهتين الشرقية والغربية.

ويلاحظ بأن الروشن الذي يتوسط الواجهة الجنوبية، ليس فيه مرمى كما في الرواشن عادة، والسبب هو وجود الكتابة التذكارية في واجهته (الكتابة رقم ١٤). ولكنه يعد أكبر رواشن القلعة، لأنه يحتوي على أربع سقاطات بدلاً من ثلاث (الصورة ب - اللوح رقم٣). لاحظ «كينك» بأن فتحات المرامي في هذه الرواشن محاطة بقولبة من الخارج، وتنتهي في الأعلى بقوس ذي ثلاثة فصوص، وقال: يشاهد مثلها في بعلبك[١].

(١) (The defences.., op. cit., p. 72)

أما المرامي السبعة الكائنة بين الرواشن فهي هنا بدون أواوين، ولكنها كبيرة، ارتفاعها ١٧٥سم، وسعتها ١١٣سم وشق المرمى الخارجي سعته ٩سم. وهي موزعة كما يلي: أربعة في الواجهة الجنوبية، اثنان في الواجهة الشرقية، واحد فقط في الواجهة الغربية، نظراً لوجود الدرج فيها. ويلاحظ بأن المرميين البعيدين في الواجهتين الشرقية والغربية بأنهما يقعان خلف مستوى البدنات، ولذا فقد أصبح لهما ميل خاص ليكون الرمي فيهما ممكناً نحو الخارج. وفتحة هذا النوع من المرامي ذات مسقط على شكل مثلث قائم الزاوية (انظر الشكل رقم ٢٣). أما القسم العلوي من الستائر فيتألف من جدار قليل السماكة (٩٥سم) مكون من شرافات يفصل بينها فرجات ضيقة سعتها ٥٥سم. وهذه الشرافات مستطيلة مؤلفة من مدماكين من نفس حجارة البناء التي تبنى بها جدران الأبراج. فتح في وسط كل شرافة مرمى صغير ارتفاعه حوالي (١١٥سم) أي يعادل ثلثي طول المرامي الموجودة في طوابق البرج والستائر السفلية. ويلاحظ بأن الشرافات التي تحتل زوايا البرج لها وجهان في كل منها مرمى. وهذا القسم من البرج ذو قيمة دفاعية هامة بسبب كثرة المرامي التي تحتوي عليها،. وعددها هنا (١٧) مرمى تسعة: في الواجهة الجنوبية، وأربعة في كل من الواجهتين الشرقية والغربية.

ويلاحظ بأن مرامي الواجهتين الشرقية والغربية كلها موجهة بشكل مائل نحو الخارج. ويرى «كينك» في هذه الخاصة شيئاً مميزاً،

ويقول بأن وظيفة البرج هي حماية البدنات المجاورة له أي تغطيتها بالرمي، ولكن بهذا التنظيم المار وصفه، يصبح الأمر غير ممكن، ويفسر ذلك الوضع الخاص كالاتي: «المرامي ترتفع عن سطح الأرض حوالي (٢٣)متراً، والبدنة المجاورة (٥-٦) يبلغ طولها (٣١,٥)متراً مما يجعل الرامي مضطراً لرمي بزاوية ميل قدرها (٣٦) درجة، وهذا لا يكفي للوصول إلى أبعد نقطة في البدنة، فضلاً عن أن المرامي قصيرة وليس لها (غاطس). ولذا فقد جعلت مهمة حماية البدنات المجاورة للبرج من مهام الرماة الموجودين في الطوابق، بينما غدت مهمة مرامي السطح هي إحداث رمي مائل باتجاه واجهة البرج المجاور، وهذا الرمي يتقاطع مع رمي البرج التالي لهذا الأخير، المجاور له من الجهة الأخرى، فمثلاً النبال الصادرة من البرجين (٤-٢) تتقاطع أمام واجهة البرج (٣)[١] الواقع بينهما فتحميه[٢].

وإذا تأملنا هذه الشرافات نلاحظ في أسفلها وعلى جانبي كل فرجة ثقبين مربعين طول ضلع كل منهما (١٠)سم. وتشاهد هذه الثقوب في أكثر ستائر الأبراج الباقية، لاسيما في البرجين (٦و٧). وفي البدنة (٥-٦). ولقد ناقشنا وظيفة هذه الثقوب خلال حديثنا عن الأسلحة والستائر الإضافية في الفصل الرابع. وقد رأى سوفاجه[٣]: «بأنها آثار ستائر خشبية إضافية كانت تركب فوق الستائر

---

(١) استعملنا هنا أرقام الأبراج الموجودة في مخطط كينك (انظر الصورة رقم ٤).

(٢) (The defences.., op. cit., p. 73)

(٣) (Citadelle, op. cit., p. 70)

الحجرية تحملها جسور خشبية من الفرجات الكائنة بين الشرافات الحجرية. ويقول بأن هذه الستائر الإضافية شبيهة بما كان في قلعة «كاركاسون» [1]».

أما «كينك» فيقول بأن مثل هذه الثقوب تشاهد في قلعة بعلبك وقلعة القدس ويبدو أنها عامة في أبنية الأيوبيين والمماليك، ويستبعد أن تكون مخصصة من أجل الستائر الخشبية، وذلك بسبب الصعوبات العملية، وعدم وجود نص عربي يشير إلى استعمالها، ويتساءل لماذا تستعمل في منطقة كدمشق فقيرة بالأخشاب، ومن أجل حماية برج جرى تزويده جيداً بالرواشن. ومن المحتمل أن تكون هذه الثقوب لحمل ما يسد الفرجات الكائنة بين الشرافات من أجل حماية المقاتلين»[2].

ولقد سبق أن أشرنا استناداً إلى المصادر العربية بأن الستائر الاضافية استخدمت في قلعة دمشق (الفصل الرابع، الأسلحة والذخائر)، وإن نفي «كينك» لوجودها بسبب فقر دمشق بالأخشاب لا يعتمد على أساس، لأن دمشق غنية بالأخشاب التي تزودها بها غوطتها الواسعة.

إن هذا البرج ما يزال يحافظ على وضعه أيام بنائه سنة ٦٠٥/١٢٠٨، توضح ذلك الكتابة رقم (٢) التي ما تزال موجودة في واجته الجنوبية، خلف مخازن سوق الحميدية.

(١) قلعة في جنوبي فرنسا في بلدة كاركاسون، مبنية بأحجار صغيرة الحجم، لها سوران وخندقان وعلى بابها جسر متحرك.
(٢) (The defences... op. cit., p. 73)

وحالة البرج اليوم جيدة ، لم ينقص منه شيء من أجزائه وعناصره، سوى أن ترميمات جرت في العهد المملوكي على ستائر واجهته الجنوبية . ويبدو هذا الترميم عند تفحص شرافات البرج (الصورة رقم٦) . وقد تقدم في الفصل الثالث كيف أن التتار حين استولوا على القلعة سنة ٦٥٨/ ١٢٥٩ ، اكتفوا بهدم أعالي الأبراج «وهدموا شراريف قلعة دمشق ورؤوس أبراجها» .

وبالرغم من وجود كتابة على البرج تشير إلى تجديده في عهد قلاوون [١] ، فإن مثل هذا التجديد غير حقيقي، وكل ما هنالك ترميمات طفيفة أجريت على ستائره كما ذكرنا آنفاً عند الحديث على أعمال السلطان قلاوون (الفصل الرابع) .

وكذلك الحال بالنسبة للتجديد الذي حدث في عهد الظاهر بيبرس كما أشارت الكتابة (رقم ٨) المنقوشة أسفل الرواشن، في الواجهة الجنوبية للبرج .

البدنة (٥-٦):

يقدر طول هذه البدنة بـ(٣١,٥ مترا) . وهي أكمل البدنات الموجودة في القلعة . وهي الوحيدة التي ما تزال تحتفظ بستائرها وشرافاتها كاملة (انظر الصورة رقم ٣٧) . ويلاحظ بأنها بنيت منفصلة عن البرجين المجاورين رقم ٥و٦ . إذ لا يوجد تداخل في

---

(١) وهي الكتابة رقم (١٤) المنقوشة على واجهة الروشن الأوسط من واجهة البرج الجنوبية (انظر النص في الملحق رقم ١) .

حجارتها معهما، وقد سبق أن فسرنا هذه الظاهرة لدى وصفنا للبدنة (١-٢)، (انظر الصورة رقم ٣٨).

ويقدر ارتفاع هذه البدنة بحوالي (٥,١١ مترا). فهي تعادل نصف ارتفاع البرج بكامله تقريباً. وتتألف من طابق أرضي ضمن الممر الدفاعي المسقوف، يحتوي على خمسة مرام ضمن أواوين كالمعتاد. وطابق ثان عند سطح الممر الدفاعي مزود بمرام دون أواوين، فوقها شرافات تسع في كل منها مرمى صغير. هذا وإن سماكة جدار البدنة في الطابق السفلي تبلغ (٥,٣ مترا)، بينما تقل سماكته في الأعلى لترك ممر خلف المرامي والشرافات.

البرج رقم (٦):

وهو بحالة جيدة وأصيلة، كامل حتى أعلاه، لم ينقص منه حجر واحد. أطواله (٢٧×١٣) مترا. ويبرز عن البدنات ثمانية أمتار. واجهاته الخارجية مبنية كلها بالحجارة البارزة النحت، باستثناء الرواشن، فهي من أحجار صقيلة (الصورة رقم ٣٩). الرواشن هنا تختلف من حيث عددها وحجمها وعدد فتحاتها عن رواشن البرج المجاور رقم (٥) فمجموعها ستة بدلاً من سبعة، موزعة على الشكل التالي: اثنان في وسط الواجهة الجنوبية، لهما ثلاث سقاطات، واثنان في زاويتهما الأماميتين، لهما خمس سقاطات بدلاً من ست في الأبراج الأخرى. روشن واحد في كل من الواجهتين الجانبيتين لكل منهما سقاطتان فقط بدلاً من ثلاث.

يتوسط الواجهة الجنوبية في مستوى الطابق العلوي (الثالث) نافذة جميلة حلت محل المرمى الأوسط، مستطيلة الشكل لها شبك حديد، يعلوها صفان من المقرنصات، ثم طاسة منحوتة على شكل صدفة من حجر واحد، وهي بارزة عن الجدار. محمولة على بارزتين Consoles زينت بالمقرنصات. ويحيط بالنافذة قولبة Moulurعلى شكل قوس مدبب ينتهي في الجانبين برأس ملتف حلزوني (الصورة رقم ٤٠).

يقول سوفاجه[١]: «إن الصدفة منقولة من المباني القديمة، وأشار في الهامش بأنها تخص تجويفاً †Nicheفي مدرج بصرى». إننا نشك في ذلك نظراً لأن القولبة وهي ذات قوس مركب (مدبب)، والنهايتين الملتفتين من خصائص الفن العربي، وإن الصدفة استمر استعمالها في العمارة الاسلامية لا سيما في العهد الأيوبي، ونشاهدها في كثر من طاسات بوابات المباني العامة وفي القباب أيضاً (في الحنايا الركنية وفي الطاقات من الخارج). ويفسر سوفاجه وجود هذه النافذة المزخرفة هنا بأن البرج يتوسط الجبهة الجنوبية للقلعة.

إن تصميم القاعات الداخلي لا يختلف عنه في البرج رقم (٥) الذي تقدم وصفه. فالسقوف ذات عقد متقاطع، تحدث ثلاث قبوات تفصل بينها أقواس حجرية محمولة على عضائد. ويلاحظ بأن سقف الطابق الأرضي زال كلياً. مقاييس القاعات (٥, ٢٠×٤٠, ٦ مترا)،

La Citadelle de Damas, op. cit., p. 72(١)

وسماكة الجدران (٣,٤٠) مترا. المرامي كالعادة مفتوحة ضمن أواوين لها عقد ذو مقطع مدبب وعرض الايوان (٣) أمتار، وعمقه (١,٩٥) مترا، وارتفاعه (٣) مترا. أما المرمى فارتفاعه (١,٦٥) مترا فقط.

يلاحظ في الطابق الثالث (الأخير) بأن الايوانين الكائنين في الجدارين الجانبين مائلان كي يحدثا رمياً أبعد نحو الخارج، كما هو الحال في مرامي الستائر الجانبية. أما في الجدار الشمالي فيوجد ثلاثة أواوين، ومرحاض في النهاية الشرقية. إن باب البرج في الطابق الأرضي يتوسط الواجهة الشمالية، وهو مستطيل الشكل، مفتوح ضمن إيوان على جانبيه مكسلتان (مقاعد حجرية) من أصل البناء (الشكل ٢٧). وهذا الباب خال من سقاطة دفاعية في سقفه كما في الأبراج الأخرى. لقد زيد في سماكة الجدار الشمالي حتى نهاية الطابق الأرضي، لإحداث بروز يصلح ممراً أمام الطابق الثاني (انظر الشكل رقم ٢٨). وبذلك أصبحت سماكة هذا الجدار (٤,٢٥) مترا.

أما الدرج المخصص للصعود إلى الطوابق العليا فقد جعل في مكان الايوان المجاور للباب. وفي الطابق الثاني (الأوسط) باب في جداره الشمالي مفتوح على سطح الممر الدفاعي [1]. وهو باب مستطيل يعلوه قوس عاتق مؤلف من أربعة أحجار مركبة تركيباً فنياً

(١) يرى «كينك» بأن الممر الدفاعي هنا ليس له جدار شمالي بسبب عدم وجود مبان خلف هذا الممر. The Defences..., op. cit., p. 99 ( )

(الصورة رقم ٤١). ويؤدي الباب إلى ممر ضيق يدخل منه إلى الطابق الثاني، وهو مسدود حالياً بسبب تهدم أرض الطابق كلياً، كما يؤدي إلى درج في الجدار الشمالي يصعد إلى الطابق الثالث باتجاه الغرب ثم ينكسر ليتجه نحو الجنوب داخل الجدار الغربي. وهو مسقوف بعقد من الحجر المنحوت ذي مقطع مدبب. وتتخلل الدرج نوافذ في الجدارين الشمالي والغربي، ومرمى في نهايته قبيل الوصول إلى السطح. وهو مرمى قصير ومائل نحو الواجهة.

السطح:

يرتفع سطح البرج حوالي (١٨)مترا عن أرض الباحة وتحيط به ثلاثة جدران، لأن الجدار الشمالي المطل على القلعة ليس له ستائر وإنما له حاجز صغير ارتفاعه (١٢)سم فقط، وسماكته ٩٠ سم (انظر الصورة ٤٢). وهذه الجدران الثلاثة تؤلف ستائر البرج، وهي على طابقين:

أولاً **الطابق السفلي**: ويرتفع ٢,٧٥ متراً وتبلغ سماكة جداره (٢,٤٠) متراً. وهو مزود بالمرامي والرواشن (الشكل رقم ٢٩).

ولا يوجد هنا رواق مسقوف خلف الستائر كما هو الحال في سطح البرج رقم (٥) المار ذكره.

تحتوي ستائر الجدار الجنوبي على ثلاثة مرام تتناوب مع روشنين. وفي كل من الجدارين الشرقي والغربي مرمى للرمي المائل

وروشن. وللرواشن مداخل ذات فتحة مستطيلة، وينزل إليها بدرج، لأنها تنخفض عن مستوى سطح البرج بمقدار (١٠٥) سم. وهذا الدرج يعرقل بالطبع إنزال الذخيرة والحجارة إلى الرواشن.

أما روشن الزاوية فله مدخلان تفصل بينهما دعامة مربعة، يؤدي كل منهما إلى أحد جناحي الروشن (الشكل ٣٩). إن مرامي الرواشن قصيرة (طولها ٦٥ سم)، ومثل هذه المرامي لا يصلح للرمي، بل مهمته في رأينا الانارة والمراقبة. ويلاحظ بشكل عام بأن الرواشن موزعة بحيث تحتل الفراغات التي تتركها المرامي دون حماية، فهي مسلطة إلى قاعدة البرج بحيث تضرب المناطق التي لا تطولها المرامي.

نورد هنا مقاييس أحد الرواشن بالتفصيل، أخذناها من روشن الواجهة الغربية: مدخل الروشن مستطيل ارتفاعه (١,٩٠) متراً وعرضه (٠,٦٧ متراً)، عرض الروشن في الداخل (٠,٤٤) متراً وطوله (١,٣٣) متراً. وارتفاع مرماه (٦٧، .) متراً وعرض فتحته الداخلية (٠,٤٤) متراً والخارجية (١٤، .)متراً أما المساقط فهي مربعة ضلعها (٤٠، .)متراً.

ثانياً - الطابق العلوي: يصعد إلى القسم العلوي من الستائر بواسطة درج أقيم عند جدارها الغربي. وتقل سماكة الجدار هنا فتصبح (٠,٩٣) متراً، وهو مؤلف من أربعة مداميك مبنية على شكل شرافات فتح في وسطها مرمى قصير (١,١٠ متراً)، وتتخللها

فجوات محدثة في المدماكين الأخيرين للستائر (الشكل ٣١). إن مجموع مرامي الشرافات هو (١٥) مرمى، سبعة في الواجهة الأمامية وأربعة في كل من الجانبين، وهذه الأخيرة هي من النوع المائل المخصص للرمي نحو واجهة الأبراج.

وتشاهد الثقوب المربعة التي سبق الكلام عنها في البرج رقم (٥) في أسفل الشرافات (انظر الشكل رقم ٣٠).

البدنة (٦-٧):

يبلغ طولها (٢٩ متراً)، وهي مبنية بشكل مائل بحيث تنحرف نحو الجنوب، بدءاً من البرج رقم ٦، محدثة زاوية حادة معه بدلاً من الزاوية القائمة. وتبدو من الخارج منفصلة عن البرجين المجاورين، أي لا تتداخل حجارتها مع حجارتهما. وهي تحتوي في الطابق الأرضي على خمسة مرامي ضمن أواوين.

يوجد في المخطط الذي نشره «كينك» للقلعة (المخطط رقم ٤)، باب ضيق بحذاء البرج رقم (٦)، لكننا لم نستطع التأكد من وجود هذا الباب من الداخل أو من الخارج بسبب المنشآت الحديثة. وليس غريباً أن يكون في هذه البقعة من القلعة باب. لأن المصادر التاريخية كما رأينا في الفصل الثالث أكدت وجود باب سر مقابل دار السعادة، التي كانت وراء القلعة من جهة الجنوب وقبالة هذه البدنة تقريباً.

أما الطابق العلوي للبدنة فقد تهدم أكثره وزالت ستائره وحل محلها جدار حديث (انظر الصورة ٤٣).

البرج رقم (٧):

وهو مستطيل، أطواله (٥, ٢٦×١٣ متراً)، ويبرز عن البدنات مقدار (٥, ٨متراً)، وتخطيطه شبيه بتخطيط أبراج الجبهة الجنوبية. لطابقه الأرضي باب مفتوح في واجهته الشمالية وهو ضمن إيوان، في سقفه فتحة مربعة لإسقاط المقذوفات على العدو. ويتصل البرج بباحة القلعة عن طريق بوابة مفتوحة مقابل بابه في جدار الممر الدفاعي مخترقة المبنى رقم (١٧) الذي أطلقنا عليه اسم القصر، كما سيأتي (انظر المصور رقم ٢).

وإلى جوار باب البرج هذا يقع الدرج المؤدي إلى الطوابق العليا والسطح، ولكنه مسدود حالياً (انظر الشكل ٣٢، D). ولكن يمكن الدخول إلى الطابق الأوسط من باب صغير مفتوح في واجهته الشمالية أيضاً ويدخل إليه من سطح الممر الدفاعي. أما الطابق الثالث فيدخل إليه من باب الجدار الغربي للبرج وهو باب مستطيل مسقوف بساكف جملوني يتقدمه درج يبدأ من مستوى سطح الممر الدفاعي (انظر الصورة ٤٤). ويلي هذا الباب دهليز ممتد خلف الجدار الشمالي للبرج مسقوف بعقد طولي من الحجر، يؤدي من ناحيته إلى الدرج الطابقي المسدود وعلى يمين الداخل فيه يقع باب الطابق الثالث. ويقابل الباب على اليسار مرمى مفتوح في الجدار الشمالي لتزويد الدهليز بالنور من داخل القلعة. وكان يقابل الباب الغربي للبرج

المتقدم ذكره باب مماثل في الجدار الشرقي، كان مزوداً بدرج للنزول بواسطته إلى الممر الدفاعي (انظر الصورة ٤٥). أملا الدرج الطابقي الداخلي فيستمر خلف الجدار الشمالي للبرج حتى يصل إلى السطح عند الحرف (E، الشكل رقم ٣٣).

ويجب أن نلاحظ هنا ما تمتاز به أبراج قلعة دمشق من سهولة وسرعة في تنقل الجند بين طوابق البرج من جهة وبين البرج ونواحي القلعة الأخرى، ففضلاً عن الدرج الداخلي الذي يصل بين الطوابق والسطح فإن لكل طابق باب أو أكثر يصله بالممر الدفاعي كما لاحظنا في هذا البرج.

نلاحظ بأن البرج رقم (٧) هذا كان بحالة أكمل في القرن التاسع عشر كما يبدو في صورته القديمة (الصورة رقم ٣)، أي أن ستائره تهدمت مؤخراً حيث لم يبق منها سوى حوامل الرواشن في الواجهة الجنوبية، وقطعة من الستائر في الجدارين الشرقي والغربي (انظر الصورتين ٤٤ و٤٥).

ويلاحظ من تدقيق الواجهة الشرقية للبرج أنها قد تلقت ترميماً يرجع إلى عهدين. العهد الأقدم يشمل الجانب الأوسط من البرج والرواشن، حيث تشاهد حجارة البناء دون بروز. ويمكن نسبة هذه الترميمات إلى السلطان خشقدم سنة ٨٦٦/ ١٤٦٢، استناداً إلى الكتابة (رقم ٢٦) التي سبق الحديث عنها في الفصل الرابع.

أما الترميم الأحدث عهداً فنجده في الجانب الجنوبي من الستائر، وحجارته أصغر من حجارة البرج الأصيلة. ونرجح أن يكون قد حدث في العهد العثماني. كما أن تحويل مرامي الطابق العلوي إلى نوافذ، حدث في وقت متأخر من العهد العثماني حينما لم تعد للقلعة أهمية دفاعية، وغدت مجرد ثكنة للجند.

البدنة رقم (٧-٨):

طول هذه البدنة (٢٥ متراً)، ولها في الطابق الأرضي من الداخل درج يصل الممر الدفاعي الأرضي بالسطح. ومثل هذا الدرج لم نجده في مكان آخر من القلعة، وقد يكون وجوده هنا عند بداية الممر الخاص بالجبهة الجنوبية له ما يماثله في الجانب الآخر من هذا الممر وعند كل زاوية من زوايا القلعة، ولكن التعديلات والمنشآت الحديثة، تحول دون التأكد من ذلك. تحوي البدنة أيضاً في طابقها الأرضي على أربعة مرام. أما في الطابق العلوي فتصبح البدنة أقل سماكة، وتحتوي على أربع فتحات مستطيلة (الصورة ٤٦) كانت ثلاث منها تودي إلى المرامي والرابعة المسدودة حالياً تؤدي إلى الروشن الذي ما يزال موجوداً وله سقاطة واحدة. توحي هندسة هذا الروشن وحجارته بأنه من العهد المملوكي (الصورة ٤٧). وكذلك طرأ ترميم واسع على هذه البدنة من أعلاها إلى أسفلها داخلاً وخارجاً، باستثناء المداميك السفلية في واجهتها الداخلية التي تبدو أصيلة بحجارتها ذات النحت البارز. ونرجح أن الترميم حدث في أواخر العهد المملوكي. هناك

كتابة تتوسط الواجهة الخارجية للبدنةلم نتمكن من قراءتها بسبب الأبنية الحديثة التي تحجبها، وبالرغم من التشويه الذي أصابها فقد استنتجنا بأنها من العهد المملوكي حتماً، كما أشرنا في الفصل الرابع (الكتابة رقم ٣٣).

البرج رقم (٨):

وهو برج الزاوية الجنوبية الغربية، تهدم أكثره (انظر الصورة ٤٨). كان على شكل زاوية قائمة شبيه في ذلك ببرج الزاوية الجنوبية الشرقية لقد بقي من جداريه الخارجيين الجنوبي والغربي، أجزاؤهما السفلى إلى ارتفاع يقارب الطابق الأرضي، وهما مع ذلك ضائعان في المباني الحديثة (مخازن سوقي الحميدية والخجا). أما القسم الداخلي المطل على الممر الدفاعي، فهو بحالة أفضل، ويرتفع حالياً إلى مستوى الطابق الثاني. وأقسامه هذه أصيلة كما تدل عليه حجارتها ومظهرها، ويلاحظ في أقسامها السفلى المطلة على الممر وجود سلسلة من الأواوين، قليلة العمق (١٢٠ سم)، ولكنها مسدودة بجدار قديم، بحيث لا يظهر أي أثر لباب إلى داخل البرج، كذلك لا يظهر باب للبرج في الطابق الثاني. ولعل تعديلاً حدث بعد تهدم البرج أدى إلى طمس معالمه.

أدى المصادر إلى تهدم هذا البرج وترميمه أكثر من مرة. روى ابن كثير [1] خبر تجديد البرج الغربي القبلي للقلعة في أيام الظاهر

---

(١) البداية والنهاية، ١٢, ١٤

بيبرس . وقال ابن تغري بردي [1] أيضاً : «وجدد الظاهر بيبرس منظرة قائمة على البرج المجاور لباب النصر» ويقصد به برجنا هذا، لأنه يجاور باب المدينة الغربي الذي كان يعرف بباب النصر ، وقد سبقت الإشارة إليه .

وذكر ابن طولون بأن برج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر ، كان يعرف ببرج القصب ، وقد سقط في زمانه سنة ٨٦٥/ ١٤٦٠ عقب الرمي على نائب السلطنة بدمشق «جانم» أخي الأشرف ثم عمر جديداً» [2] . وآخر حادث أصاب هذا البرج كان في عام ١٢٤٧/ ١٨٣٠ خلال ثورة دمشق على الوالي العثماني سليمان باشا ، وتهدم البرج نتيجة ألغام وضعها الثوار ثم أعيد بناؤه [3] .

سور القلعة الغربي أو البدنة (٨-٩):

يبلغ طول السور الممتد بين البرجين (٨-٩) مقدار ٧٥ متراً وهو متهدم وضائع المعالم ، تداخلت فيه المنشآت الحديثة في داخل القلعة وخارجها ، وأصبح من المتعذر إعطاء وصف واضح عنه . ويبدو أن الباب الحالي لا يمثل الأصل القديم كما أنه لم يبق أي أثر لبرج في هذه المنطقة . ونشاهد الأقسام العليا للأسوار من سطح المنشآت الملاصقة لها داخل القلعة ، وهي عبارة عن جدران مبنية

---

(١) النجوم الزاهرة ، ٧/ ١٩٥ .

(٢) الشمعة المضيئة ، ص ٥

(٣) انظر مذكرات تاريخية لمجهول ص ١١ إلى ٣٤ .

بالحجر الغشيم ، ويرجع تاريخ بنائها إلى أواخر العهد العثماني. ويمكن أن نلاحظ في أسفل البدنة المجاورة للبرج (رقم ٩) ثلاثة مرام ملاصقة للبرج في الطابق السفلي وهي بحالة جيدة (انظر المخطط رقم ١٢).

البرج رقم (٩):

وهو برج الزاوية الشمالية الغربية للقلعة. مربع الشكل، شبيه بالبرج المناظر له (البرج رقم ١)، يبلغ طول ضلعه (٢٠) متراً. ما يزال هذا البرج قائماً. ولكنه لا يحافظ على وضعه الأصيل وتبدو عليه آثار الترميم في أكثر أقسامه، لا سيما في القسم الخارجي البارز عن البدنات. بينما بقيت أجزاؤه الداخلية عند زاويته الجنوبية الشرقية أصيلة من أسفلها إلى أعلاها.

ونعتقد بأن مخطط البرج هذ أصيل أيضاً ولكن «كينك»[١] يرى، دون دليل مادي، بأن مخططه الأصلي كان على شكل حرف T، يتألف من قاعة رئيسية متصالبة وغرف صغيرة بين أذرعها.

ويعتقد بأن هذا البرج جدد في عهد نوروز الحافظي، ثم ضرب بالمدافع وتضرر خلال حملة أبي الذهب (حدث ذلك سنة ١١٨٥/ ١٧٧١). ولكننا نرجح أن يكون البرج قد تضرر قبل حمله أبي الذهب، وذلك في زلزال عام ١١٧٣/ ١٧٥٩. جاء في خبر

---

(١) المصدر السابق : P-90

الزلزال: «خربت قبة أعلى قلعة دمشق تسمى بديوان الظاهر[1]».

وديوان الظاهر هذا هو على الأرجح الطارمة التي بناها الظاهر على هذا البرج، ثم جددها الأشرف خليل كما تقدم في الفصل الرابع. كما أن المصادر العربية حين تتحدث عن ضرب القلعة بالمدافع من قبل قوات أبي الذهب، تشير إلى وقوع أضرار فيها: «ولكن لطف الله دارك، فما نزل بالقلعة (سوى) ثلاث أربع مدافع وثلاث أربع قنابر وما آذوا شيئاً، والباقي راحوا برا[2]».

الطابق الأرض للبرج مملوء بالتراب وقد تمكنا من دخوله من الطابق العلوي، ولاحظنا وجود بابين مفتوحين في جداره الجنوبي ولكنهما مسدودان حالياً الأول ينفذ إلى الممر الدفاعي والثاني إلى القاعة الواقعة جنوبي البرج (المخطط رقم ١٢). كما شاهدنا في وسط القاعة عضادة مضلعة تحمل عقودا تدعم السقف تشير إلى عملية ترميم لاحقة. وتبينا وجود عدد من المرامي في الجدارين الشمالي والشرقي. وعند الزاوية الجنوبية الشرقية وجدنا مقصورة حمام مسقوفة بقبة حجرية منخفضة، وتحتوي المقصورة على أنابيب المياه وخزانه الماء. أما الطابق العلوي فسقفه مهدوم كلياً ويدخل إليه من باب إلى جوار البدنة مفتوح في جدار البرج الجنوبي أيضاً، وهو مزود بدرج على الممر الدفاعي (الصورتان ٤٩ و٥٠) ويحتفظ في داخله عند

---

(١) نص لكاتب مجهول، عن الزلزال (انظر لائحة المصادر).

(٢) ولاة دمشق في العهد العثماني، ص ٨٤.

الزاوية الجنوبية الشرقية بغرفة صغيرة مسقوفة بعقد طولي. وخلف هذه الغرفة بمحاذاة الجدار الشرقي للبرج يوجد درج يؤدي إلى الطابق السفلي (انظر الشكل رقم ٣٤).

البدنة (٩-١٠):

جدارها منحرف باتجاه الشمالي الشرقي لتصل بين البرجين (٩و١٠). طولها (٤٣) مترا، تحجبها المنشآت الحديثة في الداخل والخارج، فلا يظهر منها سوى أجزاء قليلة. الجزء المجاور للبرج (رقم ٩) معوج وليس على استقامة بقية البدنة، مما يدل على وجود ترميم غير متقن. الستائر زائلة كلياً. تشاهد قطعة صغيرة منها بجوار البرج (٩) فقط. وفي واجهة البدنة الخارجية كتابة غير منشورة، ومشوهة لم نتمكن من مشاهدتها لكونها محجوبة بالمنشآت الحديثة. وهي تتألف من سطر واحد. ذكر سوفاجة بأنها من عهد نوروز الحافظي كما ميز في قاعدة البدنة أربعة مرام مردومة كلياً، يعلو كلا منها حجر نقش عليه موضوع زخرفي. واحد يمثل خطوطاً هندسية متداخلية، وآخر يمثل شكلاً نجمياً وثالث يمثل كأساً(١).

البرج (رقم ١٠)

وهو أصغر أبراج القلعة، أطواله (١٠×١٤) متراً. ويبدو من هندسته وحجمه الصغير ونوعية حجارته بأنه مجدد كلياً أو محدث

---

(١) Citadlle, op cit, p. 235, REF. 2, FIG. 26

في العهد المملوكي. يحتفظ البرج حالياً بطابقين فقط، بدون ستائر أو شرافات ورواشن، وفي كل طابق أربعة مرام، اثنان منهما في الواجهة الأمامية (انظر الشكل رقم ١٣٥). السقف مؤلف من عقد طولي وبعضه متقاطع. وفي الجانب الشمالي من البرج يوجد عضادة مربعة كبيرة يرتكز عليها السقف. للطابق الأرضي باب على الممر الدفاعي في الجهة الغربية من البرج وهو مردوم حالياً، أما باب الطابق العلوي فمفتوح في الجهة الشرقية، ضمن بناء إضافي يبرز عن واجهة البرج الجنوبية، وهذه الواجهة مولفة من قوسين متجاورين (الشكل رقم ٣٥ ب).

واجهة البرج الشمالية المطلة على قناة من مياه بردى (الصورة رقم ٩) عليها شريط من الكتابة يؤرخ أعمال السلطان الغوري، أشرنا إليها في الفصل السابق (الكتابة رقم ٢٩ في ملحق الكتابات). وهذا الشريط محاط بإطار زخرفي مؤلف من مشربيات متناوبة الألوان، أسود وأبيض، وفي وسطه رنك يحمل اسم الغوري ولقبه. ونقش على جانبي الشريط صورة أسدين ماشيين منحوتين نحتاً بارزاً (الصورة رقم ٥١). وفي أسفل الشريط رنك مؤلف من ثلاثة حقول، في العلوي مربعان صغيران وفي الأوسط كأس كبير، وفي السفلي كأسان صغيران (الصورة ٥٢).

شاهدنا في الجدار الغربي قطعة من كتابة بخط ثلث جميل بقي منها العبارة التالية (مباشرة الجـ. . .) محاطة بإطار زخرفي على شكل

ضفيرة خطوطها قائمة الزاوية ، لا شك أنها تشير إلى ترميم حدث في العهد المملوكي نجهل تاريخه بسبب نقص الكتابة ، وتدل عليه عبارة مباشرة الجناب وهو من ألقاب نائب السلطنة أو نائب القلعة .

البدنة (١٠-١١) :

وهي جدار غير مستقيم ، مائل باتجاه الشمال ، طوله (٢٤) متراً ، تهدمت البدنة وبقي منها القسم السفلي الملاصق للبرج (رقم ١٠) مع اثنين من المرامي ، من أصل أربعة كانت في كامل البدنة (انظر الشكل رقم ٣٥) .

البرج رقم (١١) وباب القلعة الشمالي :

وهو ثاني أبواب القلعة الرئيسية ، يصلها بخارج المدينة ، وللوصول منه إلى داخل القلعة يجب المرور داخل البرج (رقم ١١) ثم إلى قاعة مستطيلة خلفه حيث يوجد حالياً جامع أبي الدرداء ، ثم إلى غرفة صغيرة أخرى تنتهي ببوابة داخلية تؤدي إلى داخل القلعة . ونلاحظ بأن الدخول إلى القلعة يستوجب السير في محور ينكسر خمس مرات على شكل زاوية قائمة (انظر الشكل ٣٦) وهذا مما يضعف اندفاع العدو إلى داخل القلعة ، فضلاً عن أن الباب الخارجي لهذا الممر مفترح في جدار جانبي للبرج مما يجعله أقل تعرضاً لضربات الأعداء المباشرة .

يرى «سوفاجة» في هذا المدخل النموذج الكلاسيكي للمداخل التي تشبه شكل الحربة. وتشاهد في أكثر المباني العسكرية في حلب في القرن الثالث عشر، كمدخل قلعة حلب ذي الأبواب الحديدية الثلاثة، والمساقط المفتوحة في سقوف الممر، وهذا الأخير يؤلف منحدراً مدرجاً. إن مثل هذه العراقيل لا نجد لها مثيلاً في دمشق.

وبينما يتعرض المهاجم لمدخل قلعة حلب إلى الأخطار والخسائر ريثما يحطم الأبواب، فإن مدخل قلعة دمشق يقتصر دوره على تأخير اندفاع المهاجمين الذين تمكنوا من اكتساح الباب الخارجي[1].

يبرز البرج (رقم ١١) بكامله عن خط البدنات ويطل مباشرة على الضفة اليمنى للقناة المتفرعة عن نهر بردى (النهر المجدول) (انظر الشكل رقم ٣٦). لهذا البرج واجهة طولها (٣٠) متراً مزودة بأربعة مرام. وطول جداره الغربي (١٧) متراً والشرقي (١٤) متراً، وفي كل منهما يوجد مرمى واحد ضمن ايوان. وفي الجدار الغربي يوجد الباب الشمالي للقلعة الذي تقدم ذكره وقد جدد في العهد المملوكي أيام حكم نوروز الحافظي (سنة ١٤٠٦) بدليل الكتابة رقم (٢٢) المنقوشة فوق الباب[2]. كما أن نوعبة الأحجار ونحتها يوحيان بالتجديد المتأخر (الصورة ٥٣).

---

(١) Citadlle, Op. cit, p. 75

(٢) انظر الكتابة رقم ٢٢ في لائحة الكتابات، الملحق رقم ١.

يرى سوفاجة[1] بأن باباً آخر كان مفتوحاً في الجدار الشرقي يقابل الباب الغربي المذكور بدليل الآثار الباقية من معالمه، وهو الباب الأصلي الذي كان في أيام العادل. وإن الباب الغربي محدث في العهد المملوكي. بينما يرجح «كينك» أن يكون هذا الأخير أصيلاً وبذلك يصبح لدينا باب مزدوج (بابان) ويرى باب مثل هذه الأبواب نادرة ولكنها معروفة. ولاحظ أيضاً بأن الباب الغربي كان مزوداً بباب يغلق شاقولياًHerse ويعتقد بأن هذا الباب الشائع الاستعمال في الحصون الصليبية، تأخر استعماله في قلعة دمشق وهو يرجع إلى ترميمات «نوروز» التي تحدثنا عنها. ولاحظ بأن سماكة الجدار الغربي للبرج (رقم ١١) وقدرها (٢٥ , ٥) متراً قد زادت من الخارج بحدود (١٣٠سم) في عهد نوروز. ويمكن ملاحظة الفاصل بين حجارة الجدار القديم الذي يرجع إلى أيام العادل والجدار الإضافي[2].

تهدم سقف الطابق الأرضي لهذا البرج كما توضح الصورة رقم ٥٤. أما الطابق الأول فقد بقيت قطعة من جداره الغربي، وفيها مرمى واحد من أصل ثلاثة. تشاهد بوضوح في (الشكل رقم ٣٧).

وبقي أيضاً الجدار الجنوبي وفيه ثلاثة أواوين قليلة العمق. بينما زال الطابق الثاني كلياً، باستثناء قطعة من جداره الجنوبي، وفيها

---

(١) Citadlle, Op. cit,P.80,Fig. 13 P. 75

(٢) The defences..., op. cit., p.84

نافذة تطل على سطح جامع أبي الدرداء القائم في القاعة الواقعة خلف البرج.

ويؤدي إلى طوابق هذا البرج درج مسقوف بعقد حجري طولي (على شكل المهد المقلوب) يصل حتى السطح، مبني داخل الجدار الجنوبي للبرج.

جامع أبي الدرداء:

ويعتبر جزءاً متمماً للبوابة الشمالية للقلعة، وهو عبارة عن قاعة واسعة تتصل بالبرج رقم (١١) بواسطة قنطرة واسعة في جدار البرج الجنوبي ذات قوس مركبة سعتها (١٥, ٧ متراً). وإلى جانبها إيوانان صغيران قليلا العمق عرض كل منهما (٣٥, ١ متراً) وارتفاعه (٣٠, ٢ متراً). كما في الشكل رقم (٣٧). وفوق القنطرة قوس عاتق يتألف من مدماكين مائلين على شكل جملون، لتخفيف ثقل البرج عن القنطرة، ويشاهد هذا القوس العاتق بوضوح في الجدار الخلفي من جهة الجنوب.

وهذه القاعة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب. مسقوفة بعقد متقاطع في وسطه قبة صغيرة شبيهه بالمنور تحدث في العقد فتحة مربعة فوقها رقبة القبة، وهي مثمنة ذات حنايا أربعة موزعة في زواياها ونوافذ أربع تتناوب مع الحنايا. أما طاسة القبة فمضلعة من الداخل ويبدو لي أن القبة بوضعها غير الطبيعي هذا وطراز عمارتها،

محدثة في أواخر العهد المملوكي. ويلاحظ في الركن الشرقي من الحرم ضريح ينسب إلى أبي الدرداء، أقيم داخل إيوان صغير.

والضريح عبارة عن مصطبة من الحجر، زينت جوانبها بألواح رخامية نقشت عليها أبيات من الشعر مؤرخة في سنة ١١٣٦/١٧٢٣.

وفي الجدار الجنوبي للقاعة محراب ليس له شكل أصيل مما يدل على أنه محدث أيضاً في العهد العثماني، وإلى جانبه منبر حديث العهد.

ومما يدعو للاستغراب وقوع المصلى هاهنا في الممر الرئيسي لبوابة القلعة الشمالية، حيث يمر المشاة والفرسان على السواء. فهل هذا الوضع أصيل أم طارىء؟ ومتى أحدث المسجد والمقام؟.

لا يمكننا القول بأن المكان بني في الأصل مسجداً، فمن الناحية المعمارية لا نجد العناصر التي تخص عمارة المساجد متوفرة فيه، فالمحراب غير أصيل وناشيء عن عملية حفر وتقعير في الجدار. والمنبر كذلك حديث العهد، أما القبة فقد وجدت اثنتان مثلها في قاعات القلعة الأخرى (القاعتان ١٣و١٤ في مصور القلعة رقم ٢). فهي اذن وسيلة للإنارة [١].

---

(١) لاحظ سوفاجه في بحثه عن قلعة دمشق بأن وضع القبة الشاذ كقبة مركبة في قمة عقد القبو يعتبر غير مألوف بالنسبة للقباب المعروفة في دمشق وحلب، فلقد جعلت رقبتها بسبب صغر قطرها من ثمانية أضلاع بدلاً من ستة عشر وذلك لكي تتسع الأضلاع لفتح نوافذ فيها.

أما من الناحية التاريخية فقد روينا في الفصل الأول ما يتعلق بالصحابي أبي الدرداء وداره التي ذكرها ابن عساكر وقبره الذي عثر على شاهدته في مقبرة الباب الصغير ، وأول ذكر لمسجد أبي الدرداء أورده ابن كثير (١) . وجاء فيه أن الملك الأشرف موسى بن الملك العادل جدد مسجد أبي الدرداء . وذكر المسجد ثانية في حوادث سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩ : «وجاء القضاة والعلماء ورؤوس البلد وأعيانه إلى مسجد أبي الدرداء بقلعة دمشق» (٢) . وهذا الخبر أورده أيضاً ابن تغري بردى (٣) ولعله نقله عن ابن كثير . وفي القرن التاسع الهجري ، يصف أبو البقاء قلعة دمشق فلا يذكر المسجد بل يقول : «وفي القلعة ضريح السيد الجليل أبي الدرداء» (٤) . ويحدثنا ابن طولون (٥) في بداية العهد العثماني عن مقام أبي الدرداء في القلعة ويذكر مكوثه فيه للدراسة . ولكن أحداً من المؤرخين لم يحدد مكان المسجد أو المقام .

مما تقدم نستنتج أن مسجد أبي الدرداء أو مقامه حقيقة واقعة ولعلها أتت من الرغبة في الحفاظ على ذكرى حياته في دمشق وموضع داره التي كانت في مكان ما من القلعة قبل بنائها . ولكن أين كان المسجد في العهد الأيوبي حين جدده الملك الأشرف؟ ، وهل كان

---

(١) البداية والنهاية ، ١٣ / ١٤٨ .

(٢) ابن كثير ، ١٣ / ٢٨٨ .

(٣) النجوم ، ٧ / ٢٩٤ .

(٤) نزهة الأنام ، ص ٦٠ .

(٥) الشمعة المضيئة ، ص ٢ و١٦ .

هنا في هذا المكان الذي لا يأتلف مع وجود المدخل الرئيسي للقلعة وفي خط سير الداخلين والخارجين إليها ؟. هذا ما لا نستطيع الفصل فيه الآن.

وكان لقاعة المصلى هذه عدة منافذ أحدها في جدارها الشرقي يصلها بالممر الدفاعي الممتد خلف البدنة (١١-١٢). ولكنه مسدود حالياً. والمنفذ الثاني مفترح في الجانب الغربي من الجدار الجنوبي، ومنه إلي الممر الدفاعي الواقع خلف البدنة (١٠-١١) كما يؤدي إلى باحة القلعة ويستعمل حالياً كباب وحيد للمسجد[١]. وكان هناك منفذ ثالث مفتوح في الجانب الشرقي من الجدار الجنوبي أيضاً، يؤدي إلى الباب الداخلي لهذا المدخل عن طريق غرفة صغيرة، وهو مسدود حالياً.

وهذا الباب من أجمل ما تبقى من العناصر المعمارية الأصيلة في القلعة، شيده الملك العادل الأيوبي بدليل الكتابة رقم (٧) المار ذكرها في الفصل الثاني. والباب على شكل إيوان ارتفاعه (٧٤٠سم) وعرضه (٣٠٠ سم)، في وسطه فتحه مستطيلة ارتفاعها (٣٧٠ سم) يعلوها قوس عاتق، فوقه نافذة مستديرة لها إطار مربع نقشت داخله الكتابة المار ذكرها، كما نقش في زوايا المربع كتابة تختلف عنها من حيث الخط، وهذا نصها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

---

(١) أشار سوفاجه في المخطط الذي وضعه لهذا المدخل .(op. cit., p.75, fig. 13) إلى وجود منفذ آخر يصل القاعة بهذا الممر مفتوح في الجدار الغربي، ولكننا لم نعثر له على أثر. وكذلك لم يثبت «كينك» هذا الباب في مخططه (انظر الشكل رقم ٣٦).

وإيوان الباب معقود بقوس ثلاثي الفصوص، متجاوز قليلاً. استخدم البازلت في رؤوس الأقواس الثلاثة (الصورة رقم ٥٥).

ويرى سوفاجه بأن هذا الباب كان في الأصل الباب الشمالي للقلعة القديمة المسمى في النصوص التاريخية باسم باب الحديد. لقد أصبح هذا الباب في العهد الأيوبي محجوباً بالقاعة التي أقيمت أمامه (القاعة رقم ١٦). والتي تشاهد آثار جدرانها وعقودها عالقة فوق واجهة الباب المذكور (الصورة ٥٥).

وإلى الغرب من هذا الباب نجد غرفة مستطيلة لها باب صغير ينزل إليه بعدة درجات مفتوح في الجدار الجنوبي نحو باب القلعة. وإلى الغرب من هذه الغرفة يقع الدهليز المؤدي إلى مسجد أبي الدرداء. نجد على جانبي هذا الدهليز لوحتان من الحجر نقشت على أحداهما أبيات من الشعر. وآية قرانية (بسملة. وسقاهم ربهم شراباً طهوراً). مما يدل على وجود سبيل ماء، وتنتهي بتاريخ مرقوم هو ١١٣٣هـ. أما اللوحة الثانية فتتألف من ستة أسطر باللغة التركية. قرأنا فيها اسم الوالي رجب باشا، حكم هذا الوالي دمشق بين عامي ١١٣٠ و١١٣٤ (١٧١٧-١٧٢١).

البدنة (١١-١٢):

يبلغ طول هذه البدنة (٣٥ متراً)، وهي مهدومة، لم يبق منها سوى قطعة تلاصق البرج (رقم ١١). وتحتوي على مرمى أرضي

واحد، نجد خلفه عند الممر الدفاعي درجاً يصعد إلى الستائر، وهي زائلة كلياً. والممر الدفاعي خلف هذه البدنة مهدوم أيضاً، وتشاهد آثار عقدة عالقة في الجدار الخلفي للممر (الصورة ٥٦).

وهذا الجدار السميك (٥ أمتار) الذي سبق الحديث عنه في الفصل الأول على أنه من بقايا القلعة السلجوقية كما هو مرجح، ويوجد فيه حالياً خرق تمر منه السيارات، كان في الأصل واحداً من المرامي. (انظر الشكل رقم ٣٦- النقطة Z).

يرى «كينك» [١] بأن البدنة المذكورة هدمت بعد عام ١٨٩٤ لأن الكتابة التي كانت على جدارها الشمالي [٢] (المؤرخة في عام ٦١٤) كانت موجودة خلال زيارة «فان برشم» لدمشق سنة ١٨٩٤، ونقل نصها في مجموعة الكتابات العربية العربية لمدينة دمشق. ثم جاء سوبرنهايم فنقلها من مجموعته ونشرها في مقاله عن كتابات القلعة (سبق الإشارة إليه)، لأنه لم يجدها في مكانها.

البرج (رقم ١٢):

يقع هذا البرج في الواجهة الشمالية بين باب القلعة الشمالي وبرج الزاوية الشمالية لشرقية، مستطيل الشكل طوله ٣١ متراً وعرضه ١٤ متراً، ويبرز عن البدنات مقدار ٩ أمتار. يتألف من

---

(١) The defences, op. cit.,p 83

(٢) انظر الكتابة رقم ٦ في الملحق رقم ١.

طابقين. في كل منهما قاعة ذات ثلاث معازب مسقوفة بأقباء تفصل بينها أقواس من الحجر المنحوت. يحتوي الطابق السفلي على ثلاثة مرامي في الجهة الشمالية وواحد في كل من الجهتين الشرقية والغربية. أما باب البرج فكان في الايوان الغربي من الأواوين الثلاثة الموجودة في الجدار الجنوبي. وهو مسدود حالياً (انظر الشكل ٣٨). الطابق العلوي مماثل للأرضي من حيث تنظيمه. سوى أن الباب مفتوح في الإيوان المتوسط من الجدار الجنوبي. خصص الايوان الغربي لبيت الدرج الطابقي. الدخول إلى هذا الطابق حالياً غير متيسر بسبب انهدام جانب من سقف الطابق الأرضي.

ويلاحظ التجديد عاماً في واجهات هذا البرج باستثناء الواجهة الجنوبية. يرى «كينك»[١] أن يؤرخ ترميم البرج في عام ١٧٧٢ بسبب ما أصابه من تهدم خلال الحصار الذي ضربه أبو الذهب على دمشق في العام السابق. ولكن ليس هناك دليل ثابت على ذلك، لا سيما أن المصادر العربية تنفي وقوع أضرار ملحوظة من جراء هذا الحصار. ورجحنا أن يكون ما أصاب القلعة في تلك الفترة ناتجاً عن زلزال عام ١٧٥٩[٢].

(١) OP. CTT. P. 83

(٢) سبق أن ناقشنا هذه الناحية لدى الحديث عن البرج رقم ٩ من هذا الفصل. انظر بشأن الزلزال ماذكرناه في حاشية سابقة.

الممر الدفاعي:

أحيطت أسوار القلعة من الداخل بممر دفاعي، أطلق عليه في العهد المملوكي اسم «الأقباء المستديرة» كما رأينا في نص الكتابة (رقم ١٥)من عهد قلاوون. وهو يقابل المصطلح الفرنسي- Chemain de Ronde. ومهمة هذا الممر تأمين الانتقال بين الأبراج والبدنات ومرامي هذه الأخيرة الموزعة في أنحاء سور القلعة، وحماية الرماة أثناء الحصار من ضربات العدو.

لقد تهدمت أكثر أقسام هذا الممر وتعذر الوصول إلى أقسام أخرى منه بسبب ارتدامها. أما الأجزاء المحفوظة إلى الآن فنجدها على طول الجهة الجنوبية، ونجد قطعة قي الجهة الشرقية خلف البدنة (١-٢) وقطعة في الجهة الشمالية خلف البرج (رقم ١٢). (انظر مواقع هذه الأجزاء في المصور رقم ٢).

والممر في قسمه السفلي مسقوف بالأقباء الصغيرة على شكل عقود متقاطعة تفصل بينها أقواس من الحجر المنحوت. وتعتمد الأقباء من ناحية على جدران البدنات والأبراج، ومن الناحية المقابلة على جدران المباني الداخلية التي كانت تحيط بالممر، وسنأتي على ذكر ما بقي من هذه المباني بعد قليل.

إن عرض الممر ليس واحداً في كل أجزاء الممر بل يختلف من مكان إلى آخر، وهو يتراوح بين مترين وخمسة أمتار. وكذلك الحال

بالنسبة لارتفاعه، فأعلى سقف في الممر نجده في منتصف الجبهة الجنوبية ويقدر ارتفاعه بسبعة أمتار (انظر الشكل رقم ٣٩).

وهناك ممر دفاعي في الطابق العلوي فوق سطح الممر الأرضي يقوم بنفس مهمة الممر السفلي ولكن أكثره غير مسقوف. توجد قطعة فقط مسقوفة عند الزاوية الجنوبية الغربية (الصورة ٥٧).

ويجري الاتصال بين الممرين السفلي والعلوي، من جهة عن طريق الأبراج، ومن جهة أخرى عن طريق أدراج مقامه في الممر نفسه. عثرنا منها حتى الآن على واحد في النهاية الغربية للممر الجنوبي، وثان في وسطه، وثالث في الطرف الشمالي للممر الشرقي عند البدنة (١-٢) ورابع في الممر الشمالي خلف البدنة (١١-١٢).

كما توجد للممر السفلي منافذ تصله بباحة القلعة، عبر المباني المحيطة به، وجدنا واحداً منها قبالة البرج (رقم ٧) وآخر قبالة البرج (رقم ٦)[١].

٢ - مباني القلعة المدنية، العامة والخاصة

حفلت القلعة إضافة لسورها بالعديد من المباني المدنية، كالدور والقصور والحمامات والمدارس والجوامع ودور الضرب، بعضها من العهد الأيوبي والبعض من العهد المملوكي وقد تحدثنا عن كل ذلك في الفصلين الثاني والثالث.

(١) انظر مواقع الأدراج والمنافذ في المخطط رقم ٢.

ونجد اليوم مجموعة من المباني تتوزع داخل الأسوار مما يلي الممر الدفاعي، أشرنا إليها بالأرقام من ١٣ إلى ١٨ على مخطط القلعة (المخطط رقم ٢).

وتبدو هذه المباني اليوم مجهولة الهوية، يتعذر علينا أن نميز فيها المدرسة أو الجامع أو الحمام أو القصر، ولكن يغلب عليها العمارة الأيوبية. وسنعمد إلى وصفها فيما يلي:

١ - المبنى (رقم ١٧): القصر الأيوبي

اعتبر علماء الآثار هذا المبنى قصراً [١]. وهو بناء كبير تبدو من ريازته وحجارته أنه من العهد الأيوبي. يمتد أمام الممر الدفاعي الجنوبي، في الجانب الغربي منه. بطول (٨٠ متراً)، وهو مؤلف من طابقين ارتفاعهما حوالي (١٥,٥ متراً). له واجهة مؤلفة من ستة أواوين في الطابق الأرضي ومثلها في الطابق العلوي بعضها مسدود قديماً وبعضها سد في العهد العثماني (انظر الصورة ٥٨). وحجارة الواجهة المطلة على القلعة من النوع الصقيل، بينما حجارة الواجهتين الغربية ووالجنوبية من النوع البارز النحت، يتراوح ارتفاع المداميك بين (٦٠,٠ و ٧٥،. متراً).

ومخطط الطابقين متشابه وهو عبارة عن مجموعة من القاعات المتجاورة(انظر الشكل ٤٠)، يتخللها ايوان صغير، وهي ذات جدران

---

(١) Sauvaget: Citadelle de Damas, op. eit., 2° Art .p. 216

سميكة تتراوح بين ١,٤٠ متراً في الواجهات الشمالية و٢,٦٠ في الجدار الجنوبي. ونقدم فيما يلي وصفاً لقاعات الطابق السفلي، مبتدئين من الغرب إلى الشرق:

القاعة (آ):

وهي قاعة مستطيلة مسقوفة بعقدين من النوع المتقاطع بينهما عقد طولي يتجه من الشرق إلى الغرب، تطل القاعة على الباحة بايوانين بينهما باب صغير ذو قوس مركب يؤلف قنطرة ذات عقد من الحجر بسماكة الجدار، والايوان الغربي محجوب ببناء أقيم أمامه يمتد أمام الممر الدفاعي الغربي. أما الايوان الشرقي فمسدود بجدار محدث في العهد العثماني، فتح فيه باب وشباكان وطاقة مستديرة في أعلاه. وكان الايوان في الأصل مزوداً بشبك من القضبان الحديدية يدل عليه وجود ثقوب على أطراف قوس الايوان وجوانبه. وهذا يعني أن الايوان لم يكن مفتوحاً للدخول إلى القاعة، بل لتزويد القاعة بالنور الكافي نظراً لعدم توفره في الجهة الجنوبية المغلقة كلياً. وفي القاعة ممر ضيق في جدارها الشرقي يصلها بالقاعة المجاورة (ب) (انظر الشكل رقم ٤٠).

القاعة (ب):

قاعة صغيرة مربعة الشكل، مسقوفة بعقد متقاطع مغطى بكلسة قديمة مزخرفة بنقوش جصية، ويحيط بجدرانها في الأعلى

شريط زخرفي مؤلف من محاريب نقشت داخلها زخارف نباتية. وواجهة القاعة عبارة عن إيوان مفتوح على الباحة، مسدود حديثاً على شاكلة إيوان القاعة السابقة (آ؟.

القاعة (جـ):

قاعة مستطيلة ذات قبوتين، مسقوفة بعقدين متقاطعين يفصل بينهما قوس حجري. واجهتها خالية من الاواوين، يدخل إليها من باب صغير مستطيل يعلوه ساكف وعقد عاتق.

القاعة (د):

قاعة مستطيلة أيضاً مسقوفة بثلاثة أقباء. القبوة الوسطى من النوع المتقاطع والجانبيتان طوليتان. في واجهتها ايوان مسدود على شاكلة الاواوين السابقة وباب صغير مستطيل يعلوه ساكف فوقه قوس عاتق (الصورة ٥٩)، مما يدل على أن الايوان لم يكن مفتوحاً في الأصل أو مستعملاً كمدخل. يقابل الباب المذكور في جدار القاعة الجنوبي منفذ إلى الممر الدفاعي الممتد خلف القصر.

الايوان (هـ):

ايوان قليل العمق يطل على باحة القلعة، مرمم حديثاً وفوقه ايوان مماثل في الطابق الثاني وخلفه ايوان يطل على الممر الدفاعي أعلى من مستوى الطابقين.

القاعة (و):

قاعة مستطيلة مسقوفة بعقدين متقاطعين يفصل بينهما قوس حجري، ولها ايوانان في واجهتها الشمالية، وهي متهدمة حالياً.

الطابق العلوي للقصر:

لهذا الجناح من القصر طابق ثان وهو كما قلنا يشبه في تخطيطه الطابق الأرضي الذي تقدم وصفه (الشكل ٤٠) إلا أن أواوين القاعات المطلة على باحة القلعة الظاهرة المعالم من الناحية الهندسية، مسدودة في الأصل بجدران فتح فيها نوافذ. ويلاحظ بأن القاعتين (آ) و (ب) في الطابق العلوي متصلتان ببعضهما بواسطة باب على شكل قنطرة مفتوح في الجدار المشترك بينهما وكذلك القاعات (جـ) و (د) متصلتان ببعضهما بباب مماثل. وتوجد حالياً أبواب تبدو محدثة في الجدارين الغربي والجنوبي. يرى سوفاجه[١] أن الاتصال بالطابق العلوي كان يتم بواسطة درج في الجدار الشرقي للقاعة (ب) ولكنه مسدود حالياً (انظر المصور ٤). ويرى أن للقصر طابقاً ثالثاً تهدم أثناء حصار تيمورلنك لدمشق، بدليل الدرج المودي إليه. ونرى بأن وجود الدرج لا يستلزم وجود طابق ثالث وإنما هو من أجل الوصول إلى السطح. ويعارض «كينك»[٢] أيضاً فكرة الطابق الثالث لأنه

---

(١) Citadelle.., op.cit.,p.217, 219

(٢) The defences.., op. cit., p. 63

سيكون عندئذ أكثر ارتفاعاً من البدنات مما يعرضه للعدوان والقذف من قبل العدو.

ويرى سوفاجه أيضاً بأن للقصر جناحاً آخر تهدم أثناء عدوان تيمور لنك وزالت معالمه(١). وقال بأن الحفريات التي أجريت في عام ١٩٢٤ في المنطقة الواقعة أمام القصر دلت على وجود رواق قائم على عضائد ذات مقطع مربع ضلعه ٢٤٥ سم، مبنية بالحجر المنحوت، ويفصل بين العضائد مسافة قدرها (١٥ متراً) وكانت العضائد تحمل أقواساً (٢). ويلي الرواق باحة وجد في أرضها رقعة مبلطة بالفسيفساء الرخامية الملونة بالأبيض والأحمر والأصفر (٣). كما عثر على بقايا حمام وبركة. تشير هذه المكتشفات إلى أن المباني التابعة لها كانت من العهد المملوكي. ونرجح استناداً للمصادر التي سبق الحديث عنها بأنها من عهد الأشرف خليل.

٢- المبنى رقم ١٦:

توجد مجموعة من المباني الممتدة بين البابين الشرقي والشمالي، متصلة ببعضها، مختلفة في هندستها وتخطيطها، شيدت على الأرجح في العهدين الأيوبي والمملوكي. أما المبنى الذي أعطيناه

---

(١) Citadelle.de Damas, op.cit.,2 Art., p.237

(٢) انظر المخطط رقم ٣، الموقع S.

(٣) انظر الشكل ٤١.

رقم (١٦) فهو عبارة عن قاعة أقيمت خلف البوابة الشمالية للقلعة وتتألف من ست معازب موزعة على جناحين ، زال الجناح الغربي وبقيت آثار عقوده عالقة بواجهة البوابة (انظر الصورة ٦٠).

٣ - المبنى رقم ١٥:

وهو عبارة عن قاعة طولها (٦٩ متراً) وعرضها (١٠ أمتار) تتألف من تسع معازب أو قبوات سقفت بعقود متقاطعة تتخللها أربعة أقواس من الحجر أحدها متقن النحت، ذو قولبات جميلة. ولهذه القاعة أربعة أبواب مفتوحة في جدارها الشمالي على باحة سماوية يرتفع مستواها عن أرض القاعة بسبب وجود ردم وأنقاض. تتصل هذه القاعة من الغرب بالمبنى رقم (١٦)، بينهما الآن باب مسدود. وكذلك الحال في الجهة الشرقية حيث تتصل بالمبنى رقم (١٤).

٤ - المبنى رقم ١٤:

قاعة مربعة واسعة جداً (سعتها حوالي أربعمئة متر مربع). مؤلفة من تسع معازب موزعة على ثلاث صفوف. المعزبة الوسطى مسقوفة بقبة، أما المعازب الأخرى فسقوفها عقود متقاطعة (أقباء) تفصل بينها أقواس حجرية (انظر المصور رقم ٢).

ويحمل القبة أربعة عمد قصيرة ولكنها ضخمة (قطرها ١,١٠ متراً) وفوقها عمد كورانتية منقولة من بناء أقدم

يرجع إلى العهد الروماني [1]. وتحمل الأعمدة أربعة أقواس من الحجر من النوع المدبب تحمل بدورها رقبة القبة ذات الاثني عشر ضلعاً. والمؤلفة من طبقتين: السفلى تتألف من مدماكين من المقرنصات، يختلف كل منهما عن الآخر من حيث شكل المقرنصات وما تضمه محاريبها من نقوش. لاحظ عليها سوفاجه آثار نقوش جصية يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر. وقال بأن المقرنصات ترجع إلى العهد الأيوبي. أما الطابق العلوي لرقبة القبة فقد بقي منه مدماكان من حجارة البناء تتخللها قواعد لأعمدة صغيرة كانت تحمل أقواساً لنوافذ عددها اثنتا عشرة نافذة.

أما طاسة القبة فلا أثر لها، ولا بد أنها زالت مع القسم العلوي للرقبة. ويلاحظ بأن الانتقال بين الشكل المربع والشكل المضلع يتم بواسطة مثلثات ركنية مزدوجة تملأ زوايا المربع أي ما بين الأقواس. وهذا الأسلوب شائع في قباب مدينة حلب الأيوبية. لا نستطيع أن

(١) انظر ما ذكرناه حول هذا الموضوع في الفقرة الخاصة بمواد البناء في الفصل الثاني (الفقرة الخاصة بوصف القلعة)، وما ورد في المصادر العربية من هدم العادل لقطعة من سور معبد جوبيتر واستخدام حجارتها وعمدها في بناء القلعة. يقول سوفاجه عن هذه الأعمدة بأنها ترجع إلى العهد الروماني الامبريالي، وليس هناك ما يمنع من تأريخ اعادة استعمالها في القرن (١٣). ويضيف بأن «كريمر» يعتقد بأنها موجودة في مكانها الأصلي. أما «فاتزنجر» فيرى بأنها منقولة من بناء روماني وأن نقلها حدث في عهد لا يرقى إلى أبعد من العهد البيزنطي (Citadelle, p, 88).

نفيد من المصادر العربية في معرفة حقيقة هذه القاعة ووظيفتها، وصلتها بالدور والقصور التي مر ذكرها في هذه المصادر، ولكن الرحالة الفرنسي D'Arvieux الذي زار القلعة في القرن السابع عشر تحدث عن بناء شاهد بعد دخوله من باب القلعة الشرقي مباشرة وسماه «القصبة»، كانت تسك فيه النقود. وأضاف قائلاً: «وإلى جانبه قبة واسعة مكشوفة كلياً، محمولة على أربع عضائد ضخمة لا يوجد ما يشبهها ضخامة، وأظن أنها قادرة على حمل قبة القديس بطرس في روما[(١)]» ومما لاشك فيه أن الوصف المتقدم ينطبق على قبة هذه القاعة التي نحن بصددها. ونفهم من قوله بأنها مكشوفة كلياً، وأن طاستها كانت زائلة قبل أيام هذا الرحالة.

القاعة (رقم ١٣):

وتقع خلف الممر الدفاعي للبدنة (١-٢) وهي قاعة طويلة تتألف من أربع معازب مسقوفة بثلاث قبوات بينها قبة صغيرة حملت أقواسها على عضائد جدارية، أما طاسة القبة ورقبتها فمهدومتان.

يرى سوفاجه[(٢)] بأن جدران هذه القاعة الثلاثة الشمالي والجنوبي والغربي كانت جدراناً للقلعة القديمة ثم أضيفت العضائد إلى الجدار الغربي من أجل حمل القبة عند إحداث القاعة. ولهذه

---

(١) Mémoire de Chevalier D'avieux, p. 450

(٢) Citadelle de Damas, op. cit., p. 9

القاعة منفذ على شكل دهليز في الجانب الغربي منها ينزل إليه بدرج بسبب ارتفاع مستوى الأرض في هذه الناحية[1] . ولها منفذ مسدود حالياً على الممر الدفاعي في جدارها الشرقي، ومنفذ آخر مسدود في جدارها الجنوبي.

❊ ❊ ❊

(١) الأرض المرتفعة هنا هي الباحة الخاصة بالقاعة رقم ١٥ التي تقدم ذكرها.

الفصل السابع

قلعة دمشق وفن العمارة العسكرية

دراسة للعناصر المعمارية في قلعة دمشق بالمقارنة مع أعمال التحصين الأخرى المعاصرة

شهدت بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية حركة واسعة في مجال بناء الحصون وتشييد القلاع وأسوار المدن. ما تزال آثار هذه القلاع مائلة أمام أعيننا، سواء منها ما شيده العرب أو ما أقامه الفرنج في المناطق التي احتلوها من البلاد[1].

وأدت حركة البناء هذه إلى تطور ملحوظ في فن العمارة العسكرية، بلغ ذروته في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث

---

(١) نذكر من القلاع التي شيدت في سورية في هذه الفترة قلاعاً عربية كدمشق وحلب وشيزر ومصياف وبصرى وصلخد، وجعبر والمضيق والصبيبة والنجم. وقلاعاً صليبية كالحصن والمرقب وصافيتا ويحمور وصهيون، وطرطوس. (انظر مواقع هذه القلاع في المصور رقم ١٠ - الملحق رقم٥).

عشر)، الفترة التي شيدت فيها قلعة دمشق من جديد وأدخلت تعديلات واسعة على قلاع حلب وبصرى والحصن وغيرها.

وكانت قلعة دمشق حين تم بناؤها من قبل السلطان الأيوبي الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦١٥/١٢١٨ مثال القوة والحصانة، وموضع اعجاب أهل العصر. سنعمد من أجل توضيح هذه الحقيقة إلى إبراز خصائصها ومميزاتها عن طريق دراسة العناصر المعمارية الهامة التي يقوم عليها فن العمارة والتحصين أو التي تلعب دوراً محسوساً في مهام المقاومة والدفاع، وذلك بالمقارنة مع العناصر المماثلة من القلاع الأخرى التي جرى تشييدها في الفترة المشار إليها، الواقعة بين أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر. وهذه العناصر هي التالية:

١- الهندسة والمخطط العام ٢- تصميم المداخل والأبواب ٣- الأبراج ٤- البدنات ٥- الممرات الدفاعية ٦- الستائر ٧- المرامي ٨- الرواشن ٩- الخندق ١٠- خصائص عامة.

١- الهندسة والمخطط العام:

لم يتقيد بناة الحصون والأسوار في هذه الفترة بالشكل المستطيل أو المربع أو المستدير، الوضع الذي كانت عليه غالب الحصون في العهود القديمة والكلاسيكية. وإنما أصبح المخطط يتكيف بحسب

الظروف والبيئة الجغرافية وطبيعة الأرض. وحتى أسوار المدن القديمة لدى توسعتها في هذه الفترة كانت تأخذ شكلاً غير منتظم. كما حدث عند توسيع حدود مدينة دمشق وتجديد أسوارها في عهد نور الدين والعهد الأيوبي.

إن أكثر قلاع هذه الفترة والتي أتينا على ذكر أهمها قبل قليل شيدت فوق مرتفع صخري واضطر بناتها أن يعطوها شكل القاعدة الصخرية التي شيدت القلعة عليها (الشكلان ٤٤و٤٣). ويمكن أن نستثني قلعتين فقط شيدتا مرجلتين على الأرض وهما قلعتا دمشق وبصرى. وقد اتخذت قلعة بصرى[1] شكلاً شبه دائري لأنها أحاطت بالمدرج القديم، الذي غدا جزءاً من تحصيناتها (الصورة ٦١).

أما قلعة دمشق فإن مخططها، كما رأينا في الفصل السابق، قريب من المستطيل، لكنه غير منتظم، وزواياه غير قائمة، وقد عزونا ذلك إلى أسباب منها وجود فرع لنهر بردى في حدها الشمالي اتخذ حاجزاً طبيعياً لها. وثانيها قيامها في مكان قلعة سابقة هي القلعة السلجوقية. وثالثها: بناؤها على مراحل وبصورة مجزأة من قبل عدد من البناة الذين أسهموا مع العادل في مسؤولية الإعمار.

---

(١) شيدت قلعة بصرى على مراحل متعددة كانت أخراها وأهمها المنشآت التي تمت في العهد الأيوبي (انظر المقال المنشور في مجلة الحوليات، المجلد السادس، القسم الأجنبي.

وقلاع الفرنج أيضاً كانت مشيدة على المرتفعات الجبلية، باستثناء حصني يحمور وطرطوس. كما لم يكن لها شكل منتظم وإنما اتخذت شكل المرتفع الذي شيدت عليه[1] أما طرطوس التي أقيمت على شاطئ البحر فكان لها شكل المستطيل غير المنتظم، بينما كان لحصن يحمور، وهو صغير بالنسبة للقلاع الأخرى، شكل مستطيل، مستقيم الأضلاع، قائم الزاوية (انظر الشكل رقم ٤٧).

ويجب أن نشير هنا ونحن في صدد البحث عن الهندسة والتخطيط، بأن قلعة دمشق كانت مزودة بسور واحد، بينما نجد غالب القلاع الصليبية المعاصرة مزودة بسورين كقلعة الحصن (الشكل ٤٦) وقلعة المرقب (الشكل ٤٥). إن وجود أكثر من سور في القلاع وفي أسوار المدن تقليد قديم في العمارة العسكرية السورية نجده في أكثر العصور[2]. ومن القلاع العربية التي شيدت في هذه الفترة التي نحن بصددها وزودت بسورين، قلعة جعبر[3] وقلعة مصياف[4].

(١) انظر الأشكال (٤٤، ٤٥، ٤٦).

(٢) عثر على سورين في تحصينات المدن القديمة كقادش (قرب حمص)، ومدينة بغداد التي شيدها المنصور وكانت مزودة بأكثر من سور، وكان لمدينة الرافقة (الرقة) المعاصرة لبغداد سوران أيضاً.

(٣)انظر مقالنا: حضارة الجزيرة والفرات، مجلة الحوليات الأثرية، المجلد ١٩، الصفحات: ٤٩-٧٦.

(٤) يرجع تاريخ الحصن الداخلي لقلعة مصياف إلى القرن الثاني عشر، فقد نسبت الكتابة المنقوشة على الباب بناءه إلى راشد الدين سنان زعيم الطائفة الحشيشية. بينما يرجع السور الخارجي، فيما نعتقد إلى القرن الثالث عشر.

ويدخل في دراستنا لمخطط القلاع موضوع البرج الرئيسيDonion وهذا البرج هو واحد من أبراج القلعة الذي يتميز بقوته وارتفاعه، وهو غير معروف في التحصينات العربية بينما هو مألوف في قلاع الفرنج في الشام وفي أوربا. ويكون أحياناً في وسط القلعة مستقلاً عنها كبرج صافيتا الرئيسي وبرج يحمور.

وقد لاحظنا بأن مثل هذا البرج غير موجود في تصميم قلعة دمشق أو القلاع العربية المعاصرة. ولقد ناقشنا في الفصل السابق، خلال حديثنا عن برج الزاوية الشمالية الشرقية (البرج رقم١) زعم «سوفاجه» في أن يكون هذا البرج بمثابة البرج الرئيسي، ونفينا أن يكون له هذه الصفة البتة.

والقلعة العربية الوحيدة التي يشتبه بوجود مثل هذا البرج فيها هي قلعة شيزر. حيث تشاهد فيها برجاً في طرفها الجنوبي، يتميز عن سائر أبراجها بحجمه وارتفاعه، وهو يطل مباشرة على الخندق العميق (الصورة ٦٢). وقد زودت واجهاته كلها بالمرامي بما في ذلك الواجهات التي تطل على داخل القلعة. وباب البرج صغير ويرتفع عن مستوى الأرض بحيث لا يمكن الصعود إليه إلا باستخدام سلم متحرك (الصورة ٦٣). وينطبق هذا الوضع على ما تركه لنا أسامة بن منقذ من وصف لحصن معاصر هو حصن

الخربة. يقول: «ويطلع إليه بسلم خشب ثم يرفع السلم، فلا يبقى إليه طريق»[1].

٢- تصميم المداخل والأبواب:

إن أبواب الحصون والقلاع وبوابات المدن المسورة هي المكان الرئيسي الذي يحاول الأعداء النفوذ منه عند محاولتهم احتلال المدينة أو الحصن. ولذا فقد كان طبيعياً أن تنال اهتماماً خاصاً من قبل بنائي القلاع، كي يمكن الدفاع عنها وحمايتها.

لقد وصل فن تصميم هذه الأبواب والمداخل وتحصينها إلى أعلى مستوى له في مطلع القرن الثالث عشر. وأحسن مثل عليه نجده في قلعتي حلب (الشكل ٤٨) ودمشق. سبق أن وصفنا مدخلي قلعة دمشق الرئيسين الشمالي والشرقي في الفصل السابق. والميزة الرئيسية لهذه الأبواب هي أنها ذات محور ينكسر أكثر من مرة للوصول إلى داخل القلعة.

ولقد عرفت القلاع منذ القديم نوعين من المداخل أحدهما يتم الدخول إليه من باب وفق محور مستقيم عمودي على السور.

---

(١) (كتاب الاعتبار، ص ٤٨، ٧٤). هذا ولم نعثر على موقع حصن الخربة المذكور إلا إنه يفهم من حديث ابن منقذ بأنه يقع بين شيزر وأفاميا.

والثاني يتم الدخول إليه وفق محور منكسر، يؤلف زاوية قائمة[١]. وهذا التصميم الأخير يعتبر أكثر تحصيناً لأنه يعيق اقتحام الأبواب ويعرقل الدخول إلى الحصن من قبل الأعداء.. وهو الشائع في كل الحصون وأسوار المدن التي شيدت في هذه الفترة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، سواء تلك التي شيدها العرب أم التي شيدها الفرنج. وطبيعي أن الفرنج اقتبسوا هذا التصميم عن الحصون السورية لأنه لم يكن معروفاً في أوربا.

رأى «ديشامب»Deschamps في دراسته لأبواب القلاع الصليبية بأن التصميم المذكور مأخوذ عن الحصون البيزنطية[٢]. لكننا لا نجد أي باب من أبواب المدن والقلاع البيزنطية في الشام مبنياً وفق هذا النموذج الحصين. والمرجح أنهم أخذوا ذلك عن أبواب القلاع والمدن العربية التي كانت قائمة عند وصول الفرنج إلى الشام[٣] أو التي شيدت فيما بعد خلال فترة الصراع.

---

(١) ذكر «كريزويل» بأن أول استخدام لهذا التصميم في العمارة العربية كان في مدينة بغداد التي بناها المتصورAshort Account. ونشير هنا إلى أن هذا التصميم ذي المدخل المنكسر وجد قديماً في سوريا (بوابة مدينة اوغاريت الغربية من القرن الخامس عشر قبل الميلاد).

(٢) Les ENTREES des Châteaux des Croisades, Syria, T.XIII, p.372

(٣) وصل الصليبيون إلى سورية في أخر القرن الحادي عشر الميلادي واحتلوا انطاكية سنة ٤٩١/١٠٩٨.

ومع ذلك فإنا نلمس فرقاً كبيراً بين تصميمات القلاع العربية والقلاع الصليبية. فالأولى، ولا سيما التي شيدت في مطلع القرن الثالث عشر كمدخل قلعتي حلب ودمشق، أكثر تعقيداً وحصانة. فإذا تفحصنا المدخل الرئيسي لقلعة حلب رأيناه يتألف من ثلاثة أبواب متتالية، تقع على محور منكسر يحدث خمس زوايا قائمة (الشكل ٤٨). وكذلك المدخل الشمالي لقلعة دمشق (الشكل رقم ٣٦) ينكسر محور المرور فيه خمس مرات. أشار سوفاجه هنا إلى التشابه بين مداخل قلعتي حلب ودمشق، وتأثر هذه الأخيرة بالعمارة الحلبية، مفسراً ذلك باستخدام فنيين وعمال من أهل حلب في بناء قلعة دمشق[١].

أما مداخل القلاع الصليبية، فإنها تتألف من بابين مفتوحين في برج واحد على محورين متعامدين. أي أنها من النوع ذي المحور المنكسر. وأحسن مثل له نجده في أبواب قلعة صهيون (الشكل ٤٩). ولا يضاهي أبواب القلاع العربية في تحصينها سوى باب قلعة الحصن الشرقي (الشكل رقم ٥٠) ونعتقد بأنه أنشئ في القرن الثالث عشر. نظراً لأن القلعة اكتمل بناؤها على مراحل عدة[٢].

---

(١) Citadelle de Damas, op. cit, p. 222

(٢) احتل الفرنج موقع قلعة الحصن (حصن الأكراد) في عام ١١١٠، وأضيفت إلى القلعة منشآت وتحصينات بعد زلزال ١١٧٠م واستمر العمل والتطوير في التحصينات إلى منتصف القرن الثالث عشر انظر: Daschaps: Crak des Chevaliers, p. 272

ونذكر من خصائص الأبواب الحصينة بالإضافة إلى المدخل ذي المحور المنكسر، أن يفتح الباب الخارجي في الجدار الجانبي لأحد الأبراج، وليس في واجهته. وأن يكون إلى جواره برج آخر قريب منه يحميه. وبذلك يصبح المدخل في حماية من الدك بالمنجنيق، وكذلك يتعذر استخدام الأكباش بحرية في عملية الاقتحام بسبب ضيق المكان. وهذا خلافاً للأبواب الحصينة التي عرفت في العهود السابقة لهذه الفترة، ولا سيما أبواب الحصون الرومانية (انظر الشكل رقم ٥١).

ويدخل في تصميم أبواب الحصون أيضاً تأمين عزلها عن المحيط الخارجي بواسطة خندق أقيم عليه غالباً جسر، قسم منه ثابت وقسم متحرك. لقد ضاعت آثار الجسور المتحركة، فلم نعد نراها اليوم كما كانت تستخدم في ذلك الزمان، وتحولت إلى جسور ثابتة كلياً أو إلى جسور متهدمة.

ويدلل «ديشامب» على استخدام الجسور المتحركة- في القلاع الصليبية بما شاهده من آثارها في قلعة الحصن، عند باب السر الكائن في الجبهة الجنوبية للسور الخارجي. وهذه الآثار عبارة عن قناة شاقولية من الحجر بارزة على الجدار الذي يعلو الباب تخص سلاسل الجسر المتحرك القديم[١].

---

(١) Crac des Chevaliers, p. 254

وقد كنا أشرنا في الفصل السابق لدى حديثنا عن أبواب قلعة دمشق، بأن باب السر الكائن في السور الغربي للقلعة كان مزوداً بجسر متحرك. ولكن وصفه وصلنا من مؤرخ في العهد المملوكي (أبو البقاء الدمشقي)، وبذلك لن نكون متأكدين من كونه كذلك في العهد الأيوبي.

وزودت المداخل والأبواب أيضاً بما يعرف بالغلق الشاقولي Herse وهو عبارة عن حاجز من الحديد ينزل شاقولياً بواسطة السلاسل فيسد الطريق أمام المهاجمين. نجد هذا العنصر شائعاً في القلاع الصليبية[١] بينما هو غير معروف في القلاع الأيوبية. وتشاهد آثار مثل هذا الحاجز في باب قلعة دمشق الشمالي المجدد في عهد نوروز (القرن الخامس عشر)، وهي عبارة عن قناتين وراء فتحة الباب، مفتوحتين على الجانبين من الأعلى إلى الأسفل، ينزلق الحاجز فيهما.

ويبدو أن الأيوبيين عوضوا عن هذا العنصر باستخدام سلسلة من الأبواب الحديدية المحكمة الاغلاق. ما تزال نماذج كاملة منها موجودة في أبواب قلعة حلب الثلاثة المتتالية في مدخلها الرئيسي الحصين.

ونذكر في عداد العناصر التي تزيد في حصانة الأبواب والدفاع

---

(١) Rey: Etude sur I' Architecture militaire... p. 195

عنها السقاطات المقامة فوق فتحة الباب أو في الرواشن البارزة عن الباب، ومهمتها اسقاط المقذوفات أو الزيوت المغلية على العدو المحاصر حينما يحاول اقتحام الأبواب وسوف نتحدث عن هذا العنصر في فقرة خاصة من هذا الفصل.

٣- الأبراج:

الأبراج من العناصر الدفاعية الهامة في أسوار المدن والحصون. تزودها بالقوة الضاربة الرئيسية. وقد عرف البرج في التحصينات القديمة على أشكال متعددة، منه المستدير ومنه المربع والمستطيل والمضلع. ولكن أبراج قلعة دمشق كلها من النوع المربع والمستطيل ويبدو أن هذا التصميم أكثر ملاءمة لإقامة أبراج ضخمة وقوية ومزودة بعدد أكبر من المرامي والرواشن، وهذا تطور ملحوظ في بناء الأبراج.

في القلاع الصليبية المعاصرة كان البرج المستدير هو التصميم الشائع. نجده في قلعة الحصن وفي قلعة المرقب. لقد استخدم البرج المستدير، في القلاع العربيةج في القرن الثاني عشر، لكنه كان ضئيلاً وأقل فاعلية من أبراج قلعة دمشق. نجد مثل هذه الأبراج المستديرة في سور مدينة دمشق وهي من عمل نور الدين. وقد مر معنا في الفصل الأول لدى حديثنا عن قلعة دمشق السلجوقية أن برجاً شيد في عهد صلاح الدين كان مستديراً. أما أبراج قلعة حلب فهي من النوع

المستطيل، لكنها صغيرة الحجم وقليلة البروز. ولا تجاري في حجمها ضخامة أبراج قلعة دمشق.

هذا من حيث الشكل العام للأبراج. أما من حيث التفصيل فإننا نجد لأبراج قلعة دمشق خصائص أخرى نعددها فيمايلي:

١- الأبراج تبرز بروزاً ملحوظاً عن السور. ولهذا البروز قيمة في كونه يزيد في مساحة الواجهات المزودة بالقوة الضاربة (المرامي والرواشن). يبلغ بروز البرج رقم (١) خمسة عشر متراً. والبرج رقم (٦) ثمانية أمتار. وهذا البروز يعتبر كبيراً بالنسبة لأبراج القلاع الأخرى التي لا يتجاوز بروزها أربعة أمتار أو خمسة (برج واحد في قلعة الحصن في سورها الخارجي يبرز عشرة أمتار).

٢- عدد الطوابق ثلاثة ويضاف إليها فوق السطح طبقتين من الستائر. وعدد الطوابق مهم لأنه يزيد في عدد المرامي. بينما لا نجد في أبراج القلاع الصليبية عدداً مماثلاً من الطوابق. فبعضها مؤلف من طابق، وبعضها الآخر من طابقين. لأن الأجزاء السفلية من الأبراج خالية من الطوابق. وبذلك يقل عدد مراميها. توجد أبراج من ثلاثة طوابق ولكنها نادرة. كذلك الستائر ذات الطابقين نادرة أيضاً. وعلى كل فإننا إذا حسبنا عدد المرامي في برج من أبراج قلعة دمشق نجده يبلغ قرابة الأربعين. وهو عدد لا مثيل له في أبراج القلاع

الأخرى المعاصرة التي أتينا على ذكرها، لا سيما حينما تكون الأبراج من النوع المستدير.

٣- تمتاز الأبراج في قلعة دمشق بتخطيط دقيق لا نراه في غيرها، فطوابقها الثلاثة تتصل بالممر الدفاعي بواسطة أبواب خاصة، كما تتصل فيما بينها بأدراج داخل البرج. وهذا مما يسهل الانتقال بين البرج والممر الدفاعي والأبراج الأخرى من جهة، وبين طوابق البرج من جهة ثانية. وفضلاً عن ذلك فإن طوابق البرج مبنية بإتقان وتنظيم بحيث تؤلف قاعات حقيقية تصلح لكي تكون مهاجع مريحة لحامية القلعة.

٤- تلفت أبراج قلعة دمشق الأنظار بضخامتها. فقد وصفها «كينك» بقوله: «إن استعمال مثل هذه الأبراج الضخمة غير معروف لدي في أي مكان آخر وحتى في أوربا والشرق الأدنى[١]». ولكي نتبين هذه الحقيقة يجب أن نلقي نظرة على مقاييس أبراج قلعة دمشق فمساحة البرج رقم (١) تبلغ ٢٠×٢٤ متراً. والبرج رقم (١٢) ٣٠×١٥ متراً. وارتفاع البرج رقم (٦) يبلغ ٢٤,٥٠ متراً.

إن مثل هذه الأبراج غير موجود في قلعة أخرى من القلاع المعاصرة فأبراج قلعة حلب باستثناء برج المدخل كلها ضئيلة الحجم وكأنها دعامة جدارية في السور. والسبب في عدم العناية بالأبراج

---

(١) The Defences, op. cit. p. 62

وجود القلعة فوق مرتفع واعتمادها على حماية الموقع الطبيعي خلافاً لقلعة دمشق التي اعتمدت كل الاعتماد على الأبراج.

٥- هناك نقطة ضعف يلحظها المختصون بفن التحصين في قلعة دمشق، تتعلق بسوء توزيع المرامي في الأبراج، فهي تأتي فوق بعضها على خط شاقولي (انظر الشكلين ١٩ و٢٥) ومصدر هذا الضعف كما يرى كل من «سوفاجه»(١) و«كينك»(٢) أمران: الأول يتعلق بقوة البنيان إذ تحدث المرامي فراغاً في كتلة الجدار على خط واحد مما يضعف من مقاومته إزاء ضربات المنجنيق.

والأمر الثاني يتعلق بساحة الرمي، حيث تكون الساحة هي ذاتها بالنسبة لكل الطوابق بينما هي أشمل حينما تتوزع المرامي، ويختلف مكانها بين طابق وآخر، أي غير متسامتة شاقولياً.

ومع اعترافنا بصحة هذه الملاحظة، فإنا لا ننسى بأن مهندسي قلعة دمشق كانوا، كما يبدو، ملزمين باتباع هذا الترتيب في توزيع المرامي، لعدة أسباب، منها الرغبة في التوفيق بين عقود السقف وفتحة المرامي حيث تأتي المرامي دائماً عند تقاطع العقود العرضانية مع العقد الطولي في كل قاعة من قاعات الأبراج (انظر الأشكال ٢٠، ٢١، ٢٢). وعند محاولة تجنب نقطة الضعف المشار إليه بتغيير مواقع

---

(١) Citadelle de Damas, p. 66

(٢) The Defences, op. cit. p. 62

المرامي، فإن ذلك لابد سيؤدي إلى إنقاص عدد المرامي، وهذا أمر غير مرغوب فيه. وسبب آخر من أسباب توزع المرامي على هذا النسق المشار إليه هو التماثل في مخطط القاعات ومقاييسها، لا سيما وأن التناظر رغبة أصيلة عند الفنان العربي.

كما أن مهندسي قلعة دمشق عوضوا عن النقص في ساحة الرمي الناشئ عن توزيع المرامي بالشكل الموصوف بتوجيه عنايتهم إلى تصميم الستائر وجعل رواشنها ومراميها تتناوب فيما بينها فتأتي مغايرة لأماكن مرامي الطوابق (انظر الشكل ١٩). كما جعلوا بعض المرامي الجانبية في الستائر مائلة باتجاه واجهات الأبراج. وبذلك أمكن تغطية مزيد من الفراغ في ساحة الرمي.

٤- البدنات:

يطلق تعبير بدنة كما رأينا على قطعة السور الواقعة بين برجين وقد وجدنا هذا الاسم مستعملاً في المصادر العربية القديمة وفي النصوص المنقوشة على القلاع. وهو يقابل المصطلح الفرنسيCourtine. وتعتبر البدنات أيضاً عنصراً هاماً في كيان القلعة الدفاعي. نجدها في قلعة دمشق وقد بلغت مستوى لائقاً من حيث الإتقان والقوة، فقد شيدت بمداميك من الحجارة الكبيرة البارزة النحت وبلغ ارتفاعها الوسطي ٥, ١١ متراً (البدنة ٥-٦)، وسماكتها ٥, ٣ متراً. زودت بالمرامي في أسفلها وأعلاها. ففي بدنات قلعة

دمشق. التي يبلغ الطول الوسطي للواحدة ٣٠,٣٥ متراً، نجد غالباً أربعة أو خمسة مرام في الطابق الأرضي، وهي مرام كبيرة مزودة بأواوين واسعة، ومثلها في الطابق العلوي للبدنة الكائن فوق السطح. ويعلو البدنة شرافات في كل منها مرمى صغير، عددها الوسطي تسع شرافات. وأكثر بدنات قلعة دمشق خالية من الرواشن، وجدنا ثلاثة في البدنة المجاورة لباب القلعة الشرقي، ووجدنا واحداً مجدداً في العهد المملوكي في البدنة (٧-٨). وكان هناك روشن في البدنة (٣-٤) زال مؤخراً يمكن مشاهدته في الصورة المأخوذة للقلعة في القرن التاسع عشر (الصورة رقم ٣).

والبدنات في قلعة دمشق محاطة من الداخل بممر دفاعي، مهمته تأمين الحماية عند الانتقال بين أجزاء البدنة ومراميها. وسوف نتحدث عنه كعنصر من العناصر الهامة في فقرة خاصة. وإذا قارنا هذه الخصائص التي تمتاز بها بدنات قلعة دمشق مع القلاع الأخرى المعاصرة، وجدنا بأن بدنات قلعة حلب ليس لها نفس الأهمية، نظراً لقيام قلعة حلب فوق مرتفع واعتمادها على حصانتها الطبيعية أكثر اعتمادها على قوة الأسوار من أبراج وبدنات. ولكن البدنات في قلعة الحصن (في السور الخارجي) تمتاز عن قلعة دمشق بكثرة الرواشن، بنوعيها المنفصلة والمتصلة. وهذه الرواشن عنصر دفاعي هام سنتحدث عنه أيضاً في فقرة مقبلة. مثل هذه البدنات المزودة بالرواشن المتصلة نجده أيضاً في قلعة بصرى.

٥- الممرات الدفاعية:

الممر الدفاعي اصطلاح اطلقناه على ما يعرف بالفرنسية Chemain de Ronde وهو عنصرمكمل للبدنات والأبراج. ومهمته تأمين الوصول إلى المرامي المفتوحة في البدنات وإلى الأبراج في طوابقها العديدة. وقد تطور تصميم المرامي وكانت على أوضاع مختلفة خلال العصور، وفي التحصينات المتعددة، ففي القرن الثاني عشر كانت تحدث ضمن جدار البدنة نفسه. مثال ذلك القلعة التي شيدها صلاح الدين في القاهرة[١]، وقلعة الحصن التي بناها الفرنج.

ويمكننا عرض المزايا الرئيسية للممرات الدفاعية في قلعة دمشق في النقاط التالية:

١- ممر مستقل يحيط بأسوار القلعة، أبراجها وبدناتها، وهو متصل لا تقطعه الأبراج.

٢- الممر الدفاعي مؤلف من طابقين: السفلي مسقوف وهو في مستوى أرض القلعة، والعلوي غير مسقوف في مستوى متوسط بين الطابق الثاني والثالث للأبراج بحيث ينزل منه إلى الطابق الثاني ويصعد بواسطة درج حجري إلى الطابق الثالث.

---

(١) يبلغ عرض الممر (٨٨، متراً) وارتفاعه (٢٥، ٢ متراً) وهو فوق مستوى الأرض (انظر: Crewell: M.A. of Egypt, II, p. 16).

٣- يؤمن الممر الدفاعي الاتصال بسهولة ويسر بين البدنات والأبراج وذلك على الشكل التالي:

الطابق الأول ونقصد به الطابق الأرضي، وكذلك الطابق الثاني، في كل برج لهما باب مفتوح على الممر مباشرة. أما الطابق الثالث فله باب أو بابين في جداريه الجانبيين مزودين بأدراج تصلهما بالممر (انظر الصورة ٤٤).

٤- الاتصال بين الممر السفلي والممر العلوي يتم عن طريق الأبراج، وأحياناً عن طريق أدراج داخل الممر. وجدنا واحداً منها في الزاوية الجنوبية الغربية وآخر في الجهة الشرقية عند البدنة (١-٢).

٥- الممر واسع، ولكن عرضه ليس واحداً في كل أقسامه، ويتراوح بين ٢,٥ و٥أمتار. كما يتراوح ارتفاعه بين ٥ أمتار و٩أمتار.

هذه الصفات للممرات الدفاعية في قلعة دمشق تجعلها تمتاز عن مثيلاتها في القلاع الأخرى، التي لا نجد فيها مثل هذا التنظيم الدقيق. فالممرات في قلعة بصرى مجزأة ومنفصلة عن بعضها، ولكل بدنة ممر مستقل. وليس هناك اتصال دقيق كالذي وصفناه في قلعة دمشق بين الممر وبين الأبراج.

أما القلاع الصليبية، فأغلبها من الطراز القديم، ممر ضيق داخل جدار البدنة ومتقطع، ويرتفع الطابق السفلي المسقوف عن مستوى

أرض القلعة فيصعد إليه بدرج محدث داخل البدنة، كما في السور الغربي لقلعة الحصن. ولا يوجد اتصال دقيق بين الممر والأبراج، بل تحجز هذه بين أجزاء الممر. وقد ينعدم هذا الممر في بعض أجزاء السور كما في قلعة الحصن، في سورها الخارجي الغربي (الشكل ٤٦) أو تحل محله قاعات واسعة، كما في قلعة المرقب (الشكل رقم ٥٢).

٦- الستائر والأسطحة:

تعتبر أعالي الأسوار وأسطحة الأبراج أهم موقع استراتيجي في القلاع. وكانت تستخدم منذ القديم كقوة ضاربة. لقد أبرزنا أهمية الستائر التي تحيط بسطح الأبراج والتي تعلو البدنات من الناحية الستراتيجية لدى حديثنا عن هندسة قلعة دمشق وعن ستائر بدناتها وأبراجها وذكرنا بأن ما تحويه هذه الستائر من مرام ورواشن يزيد عما في طبقات الأبراج منها. هذا فضلاً عن الستائر الإضافية التي كانت توضع على الأبراج عند الحصار.

وكانت سطوح الأبراج تستعمل كمسرح لعمليات المنجنيقات، وكانت الستائر المحيطة بالسطح من ثلاث جهاته تؤمن الحماية الكافية لهذه المعدات. بينما تساعد الجهة الخلفية للسطح، وهي بدون ستارة، على تحريك المنجنيق وامتداد ذراعه في الفراغ المطل على داخل القلعة.

ويمكننا أن نعتبر ستائر قلعة دمشق أكثرها تنظيماً وفاعلية لاسيما ستائر البرجين (٥و٦) الكائنين في السور الجنوبي (المخطط رقم ٢)، وقد سبق أن قدمنا وصفاً كاملاً لهذه الستائر في الفصل السابق.

ولئن خلت ستائر قلعة دمشق من الرواشن المتصلة، التي نجد نماذج لها في القلاع الأخرى كقلعة بصرى وقلعة الحصن، فإنها تتميز بحسن تنظيمها وقوتها الضاربة المتمثلة في الرواشن (المنفصلة)، والمرامي الموزعة على طابقين من الستائر، وهي تتفوق بذلك على سائر القلاع المعاصرة.

وقد لاحظنا بأن الستائر في كل أنحاء قلعة دمشق تتألف من طابقين[١]. بينما لا نجد هذه الخاصة في غيرها من القلاع الصليبية كقلعتي المرقب والحصن[٢]. ولقد وجدنا قطعة من سور طرطوس الذي يرجع إلى عهد الحروب الصليبية مزودة بطابقين من الستائر (الصورة ٦٤) ولكنها ليست في مستوى ستائر قلعة دمشق من حيث

(١) يقول «كينك» إنه في حالات نادرة يوجد ثلاث طبقات من الستائر (المصدر المار ذكره، ص ٧٤، الهامش رقم ١) لكنه لا يأتي بمثل على هذا النموذج النادر، كما أننا لم نعثر خلال تحرياتنا في أي القلاع العربية أو الصليبية على ثلاث طبقات من الستائر.

(٢) توجد قطعة من السور الخارجي لقلعة الحصن ذات طابقين، اعتبرها «Rey» من ترميمات الظاهر بيبرس (Etude...., OP. Cit, P.45).

التنظيم والهندسة. وفي قلعة حلب لا نعثر على مثل هذين الطابقين في أسوارها وأبراجها بسبب تهدم أعاليها، ولكن برجاً يبدو مجدداً في أواخر العهد المملوكي، وهو البرج المتقدم في سفح القلعة الجنوبي يحوي على طابقين من الستائر (الصورة ٦٥). وكذلك في جزيرة أرواد نجد أسوار حصنها الصغير الكائن على الشاطئ وكذلك في قلعتها طابقين من الستائر (١). (انظر الصورتين ٦٦ و٧٥) كذلك كانت الستائر في قلعة بصرى تتألف من طابقين، ولكن الطابق العلوي زائل منها كلياً.

لاحظنا في بعض ستاذر قلعة الحصن الموجودة في الجبهة الجنوبية للحصن الداخلي وضعاً خاصاً، إذ تتألف الستائر من سلسلة من الشرافات المزودة بالمرامي، ولكن الفجوات الفاصلة بين الرواشن مسقوفة على غير العادة (انظر الصورة ٦٨). وقد حسبنا أن هذا الوضع ناتج عن تعديل طرأ على الشرافات من أجل زيادة ارتفاعها. ولكن Rey حين وضع دراسة لمخطط القلعة قرر أصالة هذا الوضع (٢). وأيده في ذلك أيضاً Deschamps (٣).

---

(١) لم يشر أحد ممن درسوا فن العمارة العسكرية إلى تاريخ هذين الحصنين، بدا لي من تفحص عناصرهما أنهما من بناء الصليبيين وقد جرت عليهما ترميمات بعد تحرير الجزيرة في العهد المملوكي الذي تم سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢ (انظر النجوم الزاهرة، ٨/ ١٥٤).

(٢) Etude Sur L'architecture..., op. cit. PI. VII.

(٣) Crac des Chevaliers.P. 250.

٧- المرامي:

المرمى هو العنصر الدفاعي المخصص لرمي العدو بالسهام أو النشاب. وقد جعل على شكل نافذة ضيقة أو شق في جدار السور أو البرج. ويبدو أن استخدام المرمى في الحصون جاء متأخراً[1] بالرغم من قدم سلاح الرمي (القوس والنشاب)، وظهوره في عهد موغل في القدم.

تطورت أشكال المرامي وتصميماتها خلال العصور ووصلت إلى أرقى مستوى لها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. حيث أصبحت أكثر ارتفاعاً يقف فيها الرماة بارتياح، وغدا شكلها يشبه المحراب المتقن البناء بالحجر المنحوت، أو على شكل فرجة تتسع نحو الداخل قائمة بين جدارين مائلين بشكل متعاكس بحيث يكون شكل مسقطها الأفقي مثلثاً متساوي الساقين رأسه عند شق المرمى الذي تتراوح فتحته بين ٨ و١٢ سنتمترا.

والمرمى مسقوف بطرق مختلفة. فالسقف أحياناً أفقي، مؤلف من بلاطة تعتمد على بارزتين، جعلتا غالباً مقعرتين لتتيح مكاناً أوسع يقف فيه الرامي (الشكل ٢٦ والصورتان ٧١و ٧٢).

---

(١) أول استخدام عرفناه للمرامي كان في العهد الروماني، ولكن بشكل محدود جداً، وذلك في بعض الحصون السورية التي شيدت في عهد ديوكلسيان كخان الحلابات وخان التراب في بادية الشام ثم تم استعمالها بعد ذلك في أكثر القلاع البيزنطية (الصورة رقم ٦٩). انظر: POIDBARD: La trce de Rome, PI. XLI.

وأحياناً يكون السقف معقوداً على شكل قنطرة (الصورتان ٧٠و٧٤). وفي كل الأحوال نجد ارتفاع المرمى يزيد عن ارتفاع شق الرمي، لكي يتسع لوقوف الرماة. أما عمق المرمى فيختلف من حصن لآخر، بحسب سماكة الجدران، (عمقه في مرامي قلعة دمشق يتراوح بين ١٤٠و٢٠٠ سنتمترا. ويصل عمقه في بعض مرامي قلعة الحصن إلى ٢٦٠ سنتمترا). ونود أن نشير هنا إلى أن هذا العمق لا يتناول الإيوان الذي يتقدم المرمى والذي سنتحدث عنه بعد قليل.

ومحور المرمى أو محور الرمي يكون عادة عمودياً على الجدار المفتوح فيه. ولكنا وجدنا في قلعة دمشق مرامي ذات محور مائل بمقدار ٤٥ درجة. وهذه المرامي نجدها في مؤخرة الجدران الجانبية للأبراج وستائرها (الشكل ٢٩، الحرفO). والغاية من هذه المرامي المائلة احداث رمي موجه نحو واجهة أبراج القلعة. وهذه خاصة تكاد تنفرد بها قلعة دمشق، وتدل على دراسة دقيقة لفن الرمي[١].

أما شق المرامي فبعضها أضيق من بعض ويتراوح كما قلنا بين (٨و١٢سنتمترا) وقد أدراجنا في آخر هذه الفترة لائحة تتضمن مقاييس شق المرمى في عدد من القلاع من حيث ارتفاعه وعرضه.

هناك خاصة نجدها في بعض شقوق المرامي يطلق عليها كلمة غاطس Plongeon وهو عبارة عن منحدر في أسفل الشق نحو الخارج

(١) في سور القاهرة الفاطمي (برج باب الفرج) باب فيه مرمى واحد من هذا النوع.

يساعد في توجيه الرمي نحو مسافة أقرب إلى جدار السور. وهذه الخاصة غير موجودة في مرامي قلعة دمشق كما رأينا.

يرى «كينك» بأن هذا النوع من المرامي غير موجود في الحصون الإسلامية، وقليل الاستعمال في الحصون الصليبية. إلا أني عندما تفحصت خصائص مرامي الحصون السورية شاهدت هذه الظاهرة في مرامي عدد من القلاع، فقلعة جعبر أكثر مراميها مزودة بغاطس شديد الانحدار (الصورة ٧٣). وفي قلعة حلب يشاهد الغاطس في مرامي الطابق الأوسط لبرج قاعة العرش، وهو خفيف الانحدار، وربما كان هذا القطاع مجدداً في العهد المملوكي.

أما قلاع الفرنج فإن الغاطس مألوف في كثير من المرامي، شاهدناه في قلعة الحصن وقلعة المرقب وبرج صافيتا، وهو على شكل مثلث رأسه عند شق المرمى.

شيء آخر يتصل بهندسة المرامي، إلا وهو تزويدها بإيوان يتقدم المرمى أخذ يظهر في أكثر القلاع منذ أواخر القرن الثاني عشر، وتعمم استعماله في القرن الثالث عشر. وقد زودت به مرامي قلعة دمشق كلها باستثناء مرامي الستائر. والإيوان يشبه غرفة صغيرة عرضها الوسطي ثلاث أمتار وعمقها متران وتتسع لعدد من الرماة يتنابون الرمي فيما بينهم (الشكل رقم ١٣). ويرتفع الإيوان عن مستوى الأرض قليلاً، وينخفض كذلك عن مستوى المرمى بما يعادل

ارتفاع درجة واحدة. ولا نجد هذا الإيوان في مرامي قلعة جعبر ومصياف المبنيتين في وقت أبكر من قلعة دمشق بينما نجده في أكثر مرامي قلعة بصرى المعاصرة. وفي هذه القلعة نجد أحياناً إيواناً واحداً يضم اثنين من المرامي، كذلك نجد هذه الظاهرة موجودة في بعض مرامي قلعة صلاح الدين قلعة صهيون سابقاً فإن الأقسام المبنية في المرحلة الأولى السابقة لعام ١١٧٠ خالية مراميها من الاواوين. بينما نجد مرامي الأقسام المبنية بعد هذا التاريخ مزودة بالاواوين.

وفي الجدول التالي بعض الأرقام التي تعطي فكرة عن مقاييس الأجزاء المختلفة للمرمى في عدد من القلاع والأسوار.

* * *

جدول بقياسات المرامي وأجزائها الرئيسية بالسنتمترات

اسم القلعة	ارتفاع الايوان	عمق الايوان	عرض الايوان	طول شق المرمى	عرض شق المرمى
قلعة دمشق	١٩٥	١٩٥	٣٠٠	١٦٨	٩، ١١
قلعة بصرى				١٩٠، ١٣٠	١٥
أسوار حلب				٢٣٠-٢٦٨	٩
قلعة مصياف				٥٠	
قلعة جعبر				٩٠، ١٢٠	٢٥-١٣
قلعة الحصن	٢٢٠، ٢٣٥	١٨٠	٢٢٥، ٣٠٥	١٧٥، ٢٠٥	٨
قلعة المرقب				١٩٠	
برج صافيتا					١٢
أسوار القاهرة (صلاح الدين)	٩٠، ١٠٥	٢٦٠			
قلعة القاهرة (صلاح الدين)	١٠٥، ٩٠	٢٦٠	١٧٠		
الرصافة	٢٠٠			١٦٠	
قلعة حلب				١٧٥، ٢٠٢	٢٠

ملاحظة: تمثل هذه الأرقام المقاييس الوسطية الشائعة في المرامي الرئيسية للقلاع، ويوجد استثناء واختلاف في بعض نواحي القلاع، ولا سيما في مرامي الشرافات والستائر التي هي دائماً أصغر من غيرها.

٨-الرواشن والسقاطات:

أطلقنا كلمة «الروشن» كاصطلاح وجدناه مستعملاً في عدد من المصادر التاريخية على العنصر المعماري المستخدم في القلاع لحماية الأبواب والأسوار وهو عبارة عن شرفة بارزة مسقوفة مزودة «بسقاطات» وهي فتحات تصب منها الزيوت أو تلقى منها الحجارة أو غيرها على العدو المحاصر للقلعة لعرقلة مهمته في دك الحصون. وقد أخذنا الكلمة من المصادر العربية القديمة. ويقابلها باللغة الفرنسية كلمةBreteche. أما «السقاطات» فيقابلها كلمةMachicoulis في اللغتين الفرنسية والانكليزية. ويحتوي الروشن على عدد من السقاطات يتراوح بين واحد وأربع تتوزع بالتناوب مع الحوامل الحجرية البارزة التي يعتمد عليها الروشن (انظر الصورة رقم ٥).

وهناك أشكال عدة للرواشن من حيث التصميم، ولكن الوظيفة واحدة فمنها النوع العادي الذي نجده في واجهات الأبراج وفي زواياه وهذا الأخير مؤلف من واجهتين. وله سقاطات أكثر عدداً موزعة على الجبهتين (انظر الشكل رقم ٣٠).

والنوع الثاني روشن يمتد على طول جدار البرج أو البدنة مؤلف من سلسلة من السقاطات المتواصلة (الصورة ٧٦).

والنوع الثالث لهذا العنصر الدفاعي هو ما نشاهده غالباً عند أبواب القلاع والمدن المسورة ويتكون من سقاطة كبيرة مفتوحة

في أعلى الباب تحدث من فراغ وراء قنطرة الباب الأمامية (انظر الصورة ٧٧).

والنوع الأول من الرواشن هو الشائع في قلعة دمشق والقلاع الأخرى المعاصرة وهي في قلعة دمشق دائماً موجودة في الطابق السفلي للستائر، يدخل إليها من السطح، وتتألف من ثلاث سقاطات غالباً. قياس فتحتها (٤٠×٤٠ سنتمترا)، سوى روشن واحد يحتوي على أربع سقاطات وهو الروشن الذي يتوسط واجهة البرج (رقم ٥)، أما رواشن الزوايا فهي تحتوي غالباً على ست سقاطات، ثلاث في كل جهة.

إن الرواشن الكبيرة ذات السقاطات المتواصلة (النوع الثاني) غير موجودة البتة في قلعة دمشق. وهي قليلة الاستعمال في القلاع والحصون العربية، نجد نموذجاً لها في برج الصالح أيوب الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية لسور مدينة دمشق وتاريخه (٦٤٦/١٢٤٨)، وفي قلعة بصرى أيضاً عند البدنةالواقعة في الجهة الشمالية، في القسم العلوي من ستائرها (الصورة ٧٦). أما الرواشن من النوع الأول فهي موجودة في بقية أنحاء قلعة بصرى، بقي عدد قليل منها وتتألف غالباً من سقاطتين.

وعرفت قلعة الحصن النوعين من الرواشن، الأول نجده في البدنات ويتألف من سقاطة واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو

أربعاً. أما الثاني ذي السقاطات المتواصلة فإنه يتوج أعالي الأبراج (الصورة ٧٨).

إن جميع الرواشن من النوعين المتقدم ذكرهما مزودة بالمرامي المفتوحة في واجهاتها، وهي قصيرة عادة لا يتجاوز طولها في رواشن قلعة دمشق ٦٧ سنتمترا (الصورة ٧٩). يري «كينك» بأن وظيفة هذه المرامي الإنارة والمراقبة وتوجيه عملية القذاف من السقاطات، ذلك لأن مفعولها كمرامي جد محدود، كما أن وضعها غير مريح للرماة[١]. الواقع أن مثل هذا المرمى أو النافذة عنصر أساسي في الرواشن ولا يمكن الاستغناء عنه.

وقد ظهر الروشن الصغير من النوع الأول في العمارة العربية منذ عهد مبكر[٢]. نجد نموذجاً له فوق باب قصر الحير الشرقي وهو من بداية القرن الثامن الميلادي (الصورة ٧٥). ثم يظهر في تدمر في التحصينات التي أقيمت على سور معبد بل في تدمر في العهد

(١) Teh Deffenres.... Op.Cit.. p. 73

(٢) يرى كريزويل بأن سورية عرفت هذا الروشن الحجري منذ عهد مبكر في العهد البيزنطي وأن أقدمها عثر عليه في أبراج ترجع إلى عامي ٤٩٢ و٥٢٢ في قرى جرادة وسرجلة ورفادة في الشمال من سورية، وكانت تستعمل في أغراض منزلية كمرحاض. أما التي استخدمت في الأغراض العسكرية فأقدمها يرجع إلى عام (٥٥١) وهو روشن برج للمراقبة في قرية دارقيتا في شمالي سورية. انظر: Early Muslim Arch. 1, p. 345

السلجوقي[1] في القرن الثاني عشر. ثم نجد روشنا ثالثاً من القرن نفسه يظهر فوق باب مدينة دمشق الشرقي يرجع إلى أعمال نور الدين محمود بن زنكي. وهذه الرواشن الثلاثة كلها بسقاطتين فقط.

ويبدو أن استخدم هذه الرواشن كان محدوداً قبل القرن الثاني عشر، ثم أصبح عنصراً دفاعياً هاماً يغطي أعالي الأبراج وأحياناً البدنات، كما رأينا في قلعة دمشق. وقد ثبت بأن الفرنج لم يكونوا يعرفون استخدام هذا النوع من الرواشن الحجرية قبل الحروب الصليبية. لكنهم سرعان ما اقتبسوا تصميمه عن العمارة السورية. ويعتبر الروشن الذي تبدو آثاره على أحد أبواب قلعة صلاح الدين (صهيون) أقدم ما بناه الفرنج من الرواشن ويرجع إلى عام ١١٠٨م. ولم تكن الحصون المشيدة في أوربا وقتئذ قد عرفت الرواشن الحجرية، وإنما كانت تعتمد على نوع من الستائر الخشبية البارزة التي يطلق عليها اسم: Hourdage[2].

ويرى «سوفاجه» أن هذا النوع من الرواشن الصغيرة هي أصل الرواشن ذات السقاطات المتواصلة (النوع الثاني)[3]، خلافاً لما زعمه «فان برشيم» من أن الروشن الأول (الصغير) كان تطويراً للروشن

---

(١) يرى كريزويل بأن تحويل المعبد إلى حصن حدث في عهد يوسف بن فيروز سنة ٥٢٧/ ١١٣٢. انظر: The Muslim Archi. of Egypt, II, p. 60

(٢) Les Entrées Des Chateaux..., op. cit, p. 370

(٣) Citadelle de Damas, op. cit. p. 69

الثاني ذي السقاطات المتواصلة[1]. ونحن نؤيد رأي سوفاجه بالنظر لقدم النوع الأول وعدم ظهور النوع الثاني إلا متأخراً. ويبدو أن أول من استخدم النوع الثاني أي المتواصل من الأوربيين هم الصليبيون. فكان تطويراً للستائر الخشبيةHourdage لمألوفه في الغرب. لكنه لم يستخدم في القلاع العربية إلا نادراً كما رأينا.

أما النوع الثالث لهذا العنصر الدفاعي وهو ما يسمىAssomoire أي السقاطات المفتوحة في قنطرة الباب. فإنه لا يشبه من حيث الشكل الرواشن، ولكنه يؤدي نفس الوظيفة. لقد رأينا هذا النوع مستخدماً في القلاع المشيدة في بداية القرن الثالث عشر المعاصرة لقلعة دمشق، سواء العربية منها أو الصليبية. باستثناء قلعة دمشق نفسها. نجده مثلاً في بوابات قلعة بصرى وقلعة نجم وقلعة حلب، وفي بوابات أسوار مدينة حلب (باب انطاكية)، وفي خان العروس المشيد في عهد صلاح الدين. كما نجده في بوابة قلعة صلاح الدين التي شيدها الصليبيون وفي قلعة الحصن.

ويلفت نظرنا في هذه الأخيرة وجود سقاطات مفتوحة ضمن ثلاث قناطر كبيرة مقامة في جدار برج الزاوية الشمالية الغربية للحصن الداخلي. إنه نموذج فريد، وإن كان يماثل من حيث التصميم السقاطات المستخدمة في البوابات (انظر الصورة ٨٠). وتمتاز

(١) Voyage En Syrie, p. 148

السقاطات المذكورة بوجود ميل في أسفل جدار البرج تسقط عليه المقذوفات فتنطلق نحو المهاجمين إلى مسافة أبعد من أسفل البرج. ولهذه السقاطات نوافذ للمراقبة في أعلى البرج.

زعم «ديشامب» حين شاهد هذا العنصر الدفاعي في إحدى بوابات قلعة صلاح الدين(١) بأنه من ابتكار الفرنج(٢). ورد العالم البريطاني «كريزويل» على هذا الزعم بقوله: «إن مثل هذه السقاطات موجود في أبواب القاهرة الفاطمية (باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة) المشيدة في عام ٤٨٠/ ١٠٨٧، أي قبل خروج الصليبيين من بلادهم بعشر سنوات، ثم ظهرت في عهد صلاح الدين في برج الظفر وفي أبواب قلعة القاهرة(٣).

وأضيف إلى رد «كرزويل» هذا بأن العرب استخدموا هذا النوع من السقاطات في العمارة العسكرية قبل هذا التاريخ بكثير، حيث نجدها مستعملة في حصن الأخيضر العباسي الذي يرجع إلى القرن التاسع الميلادي (عهد الرشيد على الأرجح). نجد سلسلة من القناطر المحمولة على دعامات بارزة في السور تترك فراغاً بينها وبين جدار

---

(١) إن مقاييس هذه السقاطة كما أثبتها «ديشامب» هي كمايلي: ٣٥ سنتمترا سماكة القنطرة الأمامية، ٦٥ سنتمترا فتحة السقاطة أو الفراغ بين القنطرة والجدار الخلفي الراجع (الصورة ٨١).

(٢) Les Entées Des Chateaux, op. cit, p. 375

(٣) The Muslim Architectur in Egypt, p. 61

السور، وهي موزعة بشكل منتظم في أنحاء السور (انظر الشكل رقم ٥٣ والصورة ٨٢). كما نجدها مستخدمة في بوابات هذا الحصن أيضاً، حيث نجد سلسلة من السقاطات تلي بعضها البعض في دهليز الباب (الشكل ٥٣).

٩ - الخنادق:

تعتبر الخنادق من أهم العناصر الدفاعية في أعمال التحصين. عرف استعمالها منذ العصور القديمة[1] كمانع اصطناعي، لاسيما حينما يكون الحصن محروماً من الموانع الطبيعية. وقد يكون الخندق جافاً، أو يملأ بالمياه ليصبح أكثر مناعة وهذا هو الوضع الشائع. ففي كل الأحوال، لابد لاجتياز الخندق من جسور ثابتة أو متحركة تقام أمام الأبواب. ويحيط الخندق بأسوار القلعة وأبراجها مباشرة عندما تكون مشيدة في مستوى الأرض (مرجلة) كما هو الحال في قلعتي دمشق وبصرى، أو يحيط بسفح صخري أو مصفح بحجارة البناء المنحوتة، عندما تكون القلعة قائمة فوق مرتفع طبيعي. وهذا الوضع نشاهده في خندق قلعة حلب وخندق قلعة الحصن الداخلي.

وتتفاوت الخنادق من حيث سعتها وعمقها. كنا رأينابأن عرض خندق قلعة دمشق يبلغ (٢٠) متراً في أكثر أقسامه. وكذلك عرض

---

(١) أقدم ما عرف من الخنادق حتى الآن هو خندق وسور أريحا في فلسطين الذي يرجع إلى العصر الحجري الحديث. وقد بلغ عرضه كما يقول Konyonتسعة أمتار وعمقه ثلاثة. وكان محفوراً في الصخر. انظر: Jericho, op. cit, p. 68

خندق قلعة بصرى . أما عرضه في قلعة الحصن (الخندق الداخلي) فيتراوح بين ٥ , ١٢ و١٥ متراً، وفي قلعة صلاح الدين (صهيون) يقدر بـ ١٥ و١٨ متراً . ولكن أكبر خندق عرف في الحصون السورية هو خندق قلعة حلب حيث يبلغ (٢٦) متراً في مستوى السطح طبعاً .

أما أعماق الخنادق ، فمن الصعب قياسها لأن أكثرها مردوم في الوقت الحاضر . وحين اعتمدنا على الروايات التاريخية في التعرف على عمق خندق قلعة دمشق ، وجدنا الفرق كبيراً بينها . فقد ذكر أبو البقاء أن عمقه كان في عهده (القرن الخامس عشر) مئة ذراع ، أي ما يعادل (٦٥) متراً . بينما قدرها الرحالة الفرنسي «درافيو» (القرن السابع عشر) بما يعادل ستة أمتار[١] . وهذا الرقم الأخير نراه أقرب إلى الواقع ، فلقد تبين أن عمق خندق قلعة بصرى بعد تعزيله مؤخراً لا يزيد على هذا المقدار . أن أعمق خندق عرف حتى الآن هو خندق قلعة صلاح الدين المحفور في الصخر إلى الجانب الشرقي من القلعة حيث بلغ (٢٨) متراً .

١٠ - خصائص دفاعية عامة ، الحصانة وقوة البنيان:

جرت العادة عند تشييد الحصون والقلاع ، أن يبحث البناة عن الموقع الطبيعي الحصين في المرتفعات ، أو على ضفاف الأنهار . كذلك كان غالب الحصون والقلاع التي شيدها الأيوبيون ، ولكن قلعة دمشق

---

(١) انظر الفقرة الخاصة بالخندق والمياه في الفصل الثاني من هذا البحث .

حرمت من هذه الخاصة الطبيعية، فاضطر بناتها إلى تشييدها (مرجلة) أي في مستوى أرض المدينة. وأفادوا من وجود مياه نهر بردى وفروعه الجارية شمالي المدينة وغربها، فاتخذوا موقع القلعة في الزاوية الشمالية الغربية، وعوضوا النقص في الحصانة الطبيعية بالنواحي الفنية والمعمارية. فاهتموا بسماكة الجدران، وضخامة الحجارة وطريقة نحتها، وارتفاع الأسوار والأبراج، وبتقريب الأبراج من بعضها، والاكثار من المرامي والرواشن فيها. واستخدموا المداخل الحصينة ذات المنعطفات العديدة، وأبواب السر. وأحاطوا القلعةبخندق عميق تملؤه المياه فتشكل مانعاً اصطناعياً يزيد في حصانة القلعة.

لا شك أن قوة البنيان تتمثل في سماكة الجدران. وتبلغ في قلعة دمشق مقداراً يتراوح بين ٩٠, ٣ و٩٠, ٤ متراً[١]. وتمتاز القلاع الصليبية كذلك بجدرانها القوية والسميكة. بلغ سمكها في قلعة صلاح الدين ٤٠, ٤ متراً، وذلك في البرج الرئيسي الحامي.

وتتميز أكثر القلاع الصليبية والعربية بتقنية خاصة تزيد في مقاومة الجدران، وذلك باحداث سفح مائل في أسفل الجدران يزيد سماكة الجدران إلى ثلاثة أمثالها، وتعطي هذه السفوح للجدران

(١) الحق «كينك» في مقاله عن قلعة دمشق لائحة بسماكة مختلف جدران الأسوار والأبراج انظر: (The defenves..., op. cit, p. 94).

مقاومة ضد ضربات المنجنيق وأعمال النقب والزلازل[١]. ونجد مثل هذه الجدران في قلعة بصرى وقلعة نجم وقلعة حلب وشيزر وفي أكثر القلاع الصليبية (الصورتان ٨٣، ٨٤).

ونعتقد بأن الأيوبيين اقتبسوا هذه التقنية عن القلاع الصليبية، بالرغم من أنها موجودة في سورية منذ العصور القديمة. وجدناها في أوغاريت عند بوابة السور الغربية (الصورة ٨٥) التي يرجع تاريخ بنائها إلى حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد[٢].

وهناك تقنية أخرى تزيد في مقاومة الجدران، تقوم على أساس استخدام جذوع الأعمدة في عرض الجدران بشكل أفقي، وجدناها مستخدمة في عدد من التحصينات، باستثناء قلعة دمشق. وأحسن مثل عليها نجده في قلعة بصرى، في أبراجها الأيوبية، حيث وضعت جذوع الأعمدة بارزة قليلاً عن سطح الجدار، وموزعة بشكل منتظم (الصورة رقم ٢). ينسب «آبيل» في مقاله عن قلعة بصرى[٣] أصل هذه التقنية إلى الصليبين حيث ظهرت في تحصينات صيدا وجبيل وطرابلس، ثم أخذها عنهم الأيوبيون فطبقوها في بصرى في الأبراج التي شيدت في عامي ٦٤٧/ ١٢٤٩ و٦٤٩/ ١٢٥١.

---

(١) انظر: Rey: op. cit, p. 15

(٢) عثر في حفريات أريحا على «وار ذات سفح مائل»، يرجع تاريخها إلى عصر البرونز القديم. انظر (K. Kenyon: jericho, p. 220).

لكنا لا نؤيد أبيل في هذا الرأي، ونرجح أن يكون الصليبيون قد اقتبسوا هذه التقنية عن التحصينات التي وجدوها في سورية. لأن العرب استخدموا الأعمدة على هذه الطريقة في تحصينات أقدم، نجد أمثلة لها في سور معبد «بل» في تدمر الذي حوله السلاجقة إلى حصن في مطلع القرن الثاني عشر، وفي أحد أبراج قلعة دمشق السلجوقية، ونقصد به البرج المجاور للباب الشمالي الذي اعتبره «سوفاجه» من العهد البيزنطي أو بداية العهد الإسلامي[١].

ومما يتصل بقوة البنيان أيضاً طريقة نحت الحجارة وتركيبها. لقد كانت الطريقة التقليدية في بناء الجدران أن تجعل مركبة من وجهين من الحجر (كلينين)، بينهما حشوة (بلوكاج) من المونة والحجر الغشيم أو المكسر، هذه الطريقة نجدها في قلعة دمشق وغيرها من القلاع المعاصرة. أما مقاييس الحجارة، فقد بلغ الارتفاع المتوسط للمداميك في قلعة دمشق ٦٢، . متراً. وفي بعض أبراج قلعة بصرى ٨٥، . متراً. وهذه الضخامة في قياس الحجارة من تقاليد العمارة السورية العريقة. ولكن حجارة قلعة دمشق تميزت بمظهر خاص نشاهده في سائر واجهاتها. فهي ذات نتوء يبرز مقداراً يتراوح بين (١٠ و ٣٠) سنتمتراً[٢]. ويلاحظ بأن الجزء البارز من الحجر مقطوع بصورة عفوية

---

(١) انظر مقال أبيل عن قلعة بصرى في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد السادس لعام ١٩٥٦.

(٢) ذكر سوفاجه بروز الحجارة في قلعة دمشق يبلغ الخمسين سنتمتراً (Citadelle, p. 63) ولكننا بعد تفحصنا لحجارة القلعة لم نجد ما يتجاوز العشرين سنتمتراً.

بحيث يصبح للحجر عدة وجوه غير متساوية. أما قاعدته فمحاطة بإطار صقيل عرضه خمسة سنتمترات. ولهذه النوع من الحجارة البارزة فوائد عدة، منها ما يتعلق بالمظهر العام فهو يعطي للقلعة مزيداً من القوة والجبروت. ومنها ما يتعلق بالمقاومة. يقول «سوفاجه» بأن مثل هذه الحجارة تعطي للجدران مقاومة ضد مقذوفات المنجنيق أكثر بكثير من مقاومة الحجارة الملساء[١]. ولعل مصدر هذه المقاومة أن حجارة المنجنيق حين تصيب وجهاً من الوجوه البارزة تلاقي سطحاً أصغر مما لو وقعت على الحجارة الملساء.

أما «ديشامب» فيرى أن الكرات الحجرية المقذوفة تفقد كثيراً من قدرتها عندما تصادف وجه الجدار ذي الحجارة البارزة. ويضيف بأن مثل هذه الحجارة البارزة لم تعرف في فرنسا قبل القرن الثالث عشر، وأن الصليبيين، عند وصولهم إلى سورية شاهدوا هذه التقنية مستعملة في تحصينات ترجع إلى عهود قديمة كأسوار «دورا أوروبوس» المبنية في القرن الرابع قبل الميلاد[٢].

الواقع أن استخدام الحجارة البارزة النحت تقليد عريق في سورية. نشاهده في مباني مدينة «أوغاريت» الكنعانية التي ترجع إلى متصف الألف الثاني قبل الميلاد (الصورة ٨٦). ونلاحظ هنا بأن

---

(١) Citadelle, p. 65

(٢) Crac de Chevaliers, p. 228

البروز غير كبير، ولعل الغرض منه مجرد اختصار عملية النحت، أما في القرون الوسطى، فقد زاد بروز الحجارة ولا سيما في الحصون الأيوبية، كقلعة دمشق وقلعة بصرى، وهو يقارب العشرين سنتمتراً كما ذكرنا[1]. ولقد استخدمت الحجارة البارزة في الحصون الصليبية ولكن بروزها أقل فهو لا يتجاوز العشرة سنتمترات في حجارة قلعة الحصن.

(١) ذكر كريزول بأن بروز حجارة قلعة صلاح الدين في القاهرة يبلغ (٢٢) سنتمتراً انظر: The Muslim Archi. of Egypt, II, p. 9.

الخاتمة

لقد كان هدفنا من هذه الدراسة المستفيضة التي وضعناها عن قلعة دمشق والتي تناولت الجوانب التاريخية والمعمارية والعسكرية، أن نبرز أهمية القلعة وما كان لها من شأن في تاريخ دمشق خاصة ومنطقة الشرق العربي عامة، والدور الذي قامت به في فترة تعتبر من أخطر فترات التاريخ، حين واجهت المنطقة عدواناً من الغرب وآخر من الشرق (الصليبيون والمغول).

كما هدفنا أيضاً إلى تسليط الأضواء على أهميتها من الناحية المعمارية وعلى آثارها الهامة الضائعة المنسية، التي لا يفطن إلى وجودها، إلا القلة القليلة من الناس وذوي الاختصاص بسبب احاطة الأسواق بها من كل جانب، وبسبب وقوعها في مستوى الأرض، خلافاً لما هي عليه سائر القلاع، التي نراها ظاهرة مكشوفة جاثمة فوق هضبة أو مرتفع، يؤمها الناس من كل حدب وصوب.

ويكفي أن يطلع القارئ على ما قدمناه في الفصل الخامس من وصف لآثار قلعة دمشق الباقية ويلقي نظرة على مجموعة الصور

والمخططات الخاصة بها حتى يكون فكرة واضحة عن أهميتها، ويرى بأن قلعة دمشق ما تزال موجودة حقيقة، بأسوارها وأبراجها، شبه كاملة، وفي مستوى نادر من الأصالة والصيانة.

لقد أوضحت في هذه الدراسة على أن مدينة دمشق عرفت في تاريخها قلعتين. الأولى هي التي أطلقنا عليها اسم القلعة السلجوقية نظراً لأن السلاجقة هم الذين شيدوها في عام ٤٦٨/ ١١٧٥. وأتينا كذلك بالأدلة المتعددة بأن هذه القلعة كانت أول حصن عرفته دمشق. فنفينا بذلك نظرية وجود حصن روماني في مكانها، أعتقد بوجوده أكثر العلماء والأثريين.

ولقد عاشت القلعة السلجوقية قرابة مئة وثلاثين عاماً، كانت مليئة بالأحداث فهي الفترة التي شملت عهد أتابكة السلاجقة بكامله، وعهد نور الدين وصلاح الدين وجزءاً من حكم أخيه الملك العادل، وكان هؤلاء جميعاً يتخذونها دار إمارة وقصراً حصيناً يقيمون فيه مع أسرهم وأتباعهم من القادة.

والملك العادل هذا هو الذي قام بهدم القلعة السلجوقية عام ٥٩٩/ ١٢٠٢، لا لشيء سوي الرغبة في إشادة قلعة حديثة أكثر قوة وتطوراً وملاءمة لروح العصر.

وقد أسمينا هذه القلعة الثانية القلعة الأيوبية، وهي التي

نشاهدها اليوم. وقد استمر بناؤها منذ تولى العادل السلطنة في عام ٥٩٩/ ١٢٠٢ حتى أواخر أيامه. (توفي العادل سنة ٦١٥/ ١٢١٨).

وقد بذلت الجهود العظيمة عند بناء القلعة الجديدة كي تتوفر فيها كل متطلبات التطور في فنون العمارة وأساليب التحصين، ولتكون أقدر على المقاومة من كل قلعة أخرى شيدت قبلها.

ولقد استعرضنا التجارب التي مرت بهذه القلعة بعد بنائها، وحالات الحصار العديدة التي مرت بها في أيام الأيوبيين والمماليك، وكشفنا من خلال ذلك عن أنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في ذلك الوقت ضد القلاع، أو التي يستخدمها أهل القلاع ضد أعدائهم ومحاصريهم.

ثم تتبعنا بدقة وعناية ما طرأ على بناء القلعة من أعمال الهدم والترميم وما كان يضاف إليها من منشآت في كل زمن.

فلقد استمرت أعمال التحصين وإشادة المنشآت العسكرية والمدنية في القلعة الأيوبية كما لاحظنا طوال العهدين الأيوبي والمملوكي. وكان كلما تهدم فيها شيء أو لحق به ضرر ما، سارع إلى ترميمه وتجديده السلاطين والولاة.

وقد بذلنا الجهد في تأريخ كل جزء من أسوار القلعة وأبراجها، وكل عنصر من عناصرها المعمارية معتمدين على المصادر التأريخية

وعلى النصوص المنقوشة على مباني القلعة، أو على الملاحظة والفحص الدقيق مستقرئين الفنون والأساليب المتجلية في هذه الأجزاء والعناصر.

وأنهينا البحث في النواحي المعمارية بدراسة مقارنة، بينا فيها خصائص كل عنصر من العناصر الأساسية في قلعة دمشق وقارناها بالعناصر المماثلة في القلاع الأخرى كي نبرز مكانة القلعة في تاريخ العمارة العسكرية ويظهر بوضوح المستوى الذي بلغته في سلم تطور هذا الفن المعماري.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى معضلة المصطلحات التي تواجه هذا النوع من الدراسات. فلقد عانينا لدى الحديث عن الوصف الهندسي للقلعة والتحليل المعماري للعناصر المعمارية والزخرفية من فقر اللغة العربية في هذا النوع من المصطلحات. ولكنا عمدنا إلى احياء ما عثرنا عليه مستعملاً في المصادر العربية القديمة، أو إلى أخذ ما صلح لدينا مما في معاجم المصطلحات الفنية الموضوعة حديثاً، فإذا لم تف هذه وتلك بالغرض، فلم يكن أمامنا سوى استعمال تعابير تقرب المعنى من الأذهان. وقد أحصينا هذه المصطلحات في ملحق خاص، للرجوع إليه عند اللزوم ومعرفة ما يقابله باللغة الفرنسية.

* * *

الملاحق

الملحق رقم (١)

الكتابات المنقوشة علي مباني القلعة

مرتبة بحسب التسلسل الزمني

الجدول العام للكتابات

الرقم	الموضوع	المكان	التاريخ والعصر	الملاحظات
١	تجديد برج	القلعة السلجوقية المهدومة	٥٧٤ - صلاح الدين	محفوظة في المتحف الوطني
٢	تشييد برج	البرج رقم (٥)، الواجهة الجنوبيبة	٦٠٥- الملك العادل	
٣	تشييد برج	البرج رقم (٦)، الواجهة الجنوبية	٦٠٦- الملك العادل	
٤	تشييد برج	البرج رقم (١)، الواجهةالشرقية	٦٠٦- الملك العادل	
٥	تشييد برج	البرج رقم (٢)، الواجهة الشرقية	٦١٠- الملك العادل	
٦	تشييد مكان	الواجهة الشمالية للقلعة	٦١٤- الملك العادل	مفقودة

الرقم	الموضوع	المكان	التاريخ والعصر	الملاحظات
٧	تشييدمكان	البوابة الشمالية، الباب الداخلي	- - الملك العادل	
٨	تجديد برج	البرج رقم (٥)، الواجهة الجنوبية	٦٥٩- بيبرس	
٩	تعمير القلعة بعد تحريرها	البدنة (١-٢)، الواجهة الشرقية	٦٥٩- بيبرس	
١٠	تجريد برج	البرج رقم (٢)، الواجهة الشرقية	٦٧٢ - بيبرس	
١١	تجديد برج	البرج رقم (٣) الواجهة الشرقية	٦٧٦- بيبرس	
١٢	نص	مبعثرة في جدران البرجين (١ و١٢)	- - بيبرس	
١٣	نص	قطع مبعثرة في البرج رقم (١٠)	- - بيبرس	
١٤	تجديد برج	البرج رقم (٥)، الواجهة الجنوبية	٦٨٠- قلاوون	

الرقم	الموضوع	المكان	التاريخ والعصر	الملاحظات
١٥	عمارة الاقباء	الممر الدفاعي الغربي، إلى جوار البرج رقم (٦)	٦٨٤ – قلاوون	لم تنشر قبلا
٦	عمارة الأقباء	على البرج رقم (١٢)	– – قلاوون	مفقودة
١٧	نص	الممر الدفاعي الجنوبي، الطابق العلوي، إلى جوار البرج رقم ٨	– – قلاوون	ناقصة
١٨	تشييد مكان	في الممر الشرقي خلف البدنة (١–٢)		غير مقروؤة كلها
١٩	عمارة البدنات	واجهة البدنة (٢–٣) الداخلية	٧١٣ – الناصر محمد	

الرقم	الموضوع	المكان	التاريخ والعصر	الملاحظات
٢٠	مرسوم سلطاني	فوق باب القلعة الشرقي	٧٨١- المنصور علاء الدين علي	
٢١	نص تاريخي	فوق باب القلعة الشرقي	٧٩٤ - الظاهر برقوق	
٢٢	ترميم القلعة	باب القلعة الشمالي	٨٠٩ - نوروز	
٢٣	نص	البدنة (٩-١٠)	.. - نوروز	
٢٤	نص	باب القلعة الشرقي	- -الظاهر ططر	لم تنشر
٢٥	مرسوم سلطاني	باب القلعة الشرقي	٨٢٥ - الأشرف برسباي	
٢٦	تجديد برج	البرج رقم (٧)، الواجهة الجنوبية	٨٦٦- السلطان خشقدم	
٢٧	تجديد برج	البرج رقم (٧)، الواجهة الجنوبية	- - مملوكي	مقلوبة، فقد نصفها
٢٨	تجديد برج	البرج رقم (٤)، الواجهة الجنوبية	٩٠٢-السلطان محمد بن قايتباي	

الرقم	الموضوع	المكان	التاريخ والعصر	الملاحظات
٢٩	تجديد برج	البرج رقم (١٠)، الواجهة الشمالية	٩١٤- السلطان الغوري	
٣٠	تجديد برج	البرج رقم (١)، الواجهة الشرقية	٩١٥- الغوري	
٣١	تجديد برج	البرج رقم (٤)، الواجهة الشرقية	٩١٩- الغوري	
٣٢	شطر من كتابة	القاعة (آ) من القصر رقم(١٧)	- - مملوكي	مفقودة
٣٣	نص	البدنة (٧-٨)	. . - مملوكي	مشوهة، لم تنشر
٣٤	شطر من كتابة	البرج رقم (٧)	- - مملوكي	مبعثرة وناقصة لم تنشر

النص الكامل للكتابات المنقوشة على مباني القلعة

الكتابة رقم (١):

١- جدد هذا البرج في أيام

٢- مولانا الملك الناصر صلا

٣- ح الدنيا والدين أبو المظفر

٤- يوسف بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسمائة[١].

الكتابة رقم (٢):

١- بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان

٢- الملك العادل سيف الدنيا والدين سلطان جيوش المسلمين قامع

(١) نشرت في:

Viet: Note d' Epigraphie Syro- Musulman, Syria, Vol. 7 p. 50

٣- الكفرة والمشركين جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الأوثان ناشر

٤- العدل والإحسان حامي الحرمين الشريفين أبو بكر بن أيوب ابن

٥- شادي خليل أمير المؤمنين أدام الله أيامه وذلك في سنة خمس وستماية صلى الله عليه وسلم(١).

الكتابة رقم (٣):

١- بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله. أمر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك العادل المجاهد المرابط المظفر المؤيد المنصور سيف الدنياوا

٢- لدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين ملك الديار المصرية والشامية والاخلاطية أبو بكر بن أيوب بن شادي خليل أمير المومنين أدام الله سلطانه

٣- وبنى هذا البرج العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب أعز الله نصره بتولي

---

(١) نشرت في:

a) Sobernheim, op. cit. N° 1

b) Repertoire, op. cit, T. X, N° 3639, p. 27

نائبه أبي الغنائم بن عبد الرحمن الغرسي الملكي المنصوري سنة ست وستمائة[1].

الكتابة رقم (٤):

١-٣ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور.

٤- بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان .

٥- الملك العادل سيف الدنيا والدين سلطان جيوش المسلمين حامي الحرمين

٦- الشريفين أبو بكر بن أيوب بتولية العبد الفقير إبراهيم بن موسى وذلك سنة ست ستماية[2].

الكتابة رقم (٥):

١- بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج

٢- المبارك مولانا السلطان الملك العادل

---

(١) نشرت في:
a) Sobernheim, op. cit. N⁰ 2
b) Rep., T. X, N⁰ 3651, p. 37

(١) نشرت في المصدرين السابقين:
a) Sobernheim, op. cit. N⁰ 3
b) Repertoire., T. X, N⁰ 3650, p. 36

٣- المظفر المؤيد المنصور سيف الدنيا والدين سلطا

٤- ن الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين حا

٥- مي الحرمين الشريفين أبا بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين

٦- أعز الله نصره وذلك في سنة عشر وستمائة بتولي

٧- الأمير مبارز الدين إبراهيم بن موسى أدام الله أيامه[١]

الكتابة رقم (٦):

١-بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا المكان المبارك مولانا

٢- الملك العادل سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام خليل أمير

٣- المؤمنين عز نصره بتولي إبراهيم بن موسى وسنقر ال . . . أحمد بن أقوش رحمه الله سنة أربع عشر وستمائة[٢].

الكتابة رقم (٧):

---

(١) نشرت في المصدرين السابقين:
a) Sobernheim, op. cit. N° 4
b) Rep., T. X, N° 3727 p. 89

(٢) نشرت في:
a) Sobernheim, op. cit. N° 5
b) Rep., T. X, N° 3808 p. 144

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا المكان مولانا السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين أبو بكر بن أيوب(١).

الكتابة رقم (٨) وتتألف من (آ-ب-ج):

آ) ١-٢ بسم الله الرحمن الرحيم

ب) ١- هذا ما أمر بتجديده

٢- وعمارته (...) مولانا السلطان الملك

٣- الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر الغازي

٤- المؤيد المظفر المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام

٥- والمسلمين سيف الملوك والسلاطين صاحب القبلتين خادم الحرمين

٦- الشريفين قسيم أمير المومنين بيبرس الصالحي النجمي خلد

٧- الله سلطانه وأدام أيامه وأعلا شأنه

٨- ولا زال سعد جده منصوراً وأعانه

٩- جوده وإحسانه العالي منشوراً بمحمد وآله وأصحابه

ج) ١- بتولي العبد الفقير

---

(١) نشرت في:

a) Sobernheim, op. cit. N° 6

b) Rep., T. X, N° 3807p. 145

٢- إلى رحمة ربه الأمير عز الدين ايبك

٣- الصالحي المعروف بالزراد في

٤- سنة تسع وخمسين وستمائة(١).

الكتابة رقم (٩):

اللوحة العليا

١- لله الملك رب العالمين

٢- مديم نعمته على الشاكرين

الشريط السفلي:

١- بسم الله الرحمن الرحيم عز لمولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور بيبرس النجمي الصالحي وأمر بعمارة القلعة المنصورة بعد تسليمها للعدو المخزول في حادي وعشرين من جماد الآخر

٢- في سنة ثمان وخمسين وستمائة واستخلصها الجيش المنصور يوم الأحد سابع والعشرين من رمضان المبارك في التاريخ المذكور بتولي العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى الأمير عز الدين ايبك

---

(١) نشرت في:

a) Sobernheim, op. cit. N° 7

b) Rep., T. XII, N° 4476 p. 56

الملكي الظاهري الصالحي المعروف بالزراد وتمت هذه العمارة في سنة تسع وخمسين وستمائة[١].

الكتابة رقم (١٠):

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين فاتح الأمصار مبيد الإفرنج والتتار صاحب البرين مالك القبلتين زين الحاج والحرمين قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه وضاعف امكانه وشيد شأنه ببقاء المولى السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين[٢] أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره بتولي العبد الفقير إلى الله الأمير شجاع الدين اسماعيل ابن عمر الطوري الملكي الظاهري في شهر جمادى الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة[٣].

الكتابة رقم (١١):

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البرج المبارك مولانا

---

(١) نشرت في:
a) Sobernheim, op. cit. N° 8
b) Rep., T. XIII, N° 4477 p. 58

(٢) المقصود به بركة خان ابن الظاهر بيبرس، وفي ذلك إشارة لترشيحه لولاية العهد كما نعتقد.

(٣) نشرت في:
a) Sobernheim, op. cit. N° 9
b) Rep., T. X, N° 4690 p. 193

السلطان الملك الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر الغازي المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين فاتح الأمصار ومبيد الفرنج والتتار وارث الملك سلطان العرب والترك خلد الله سلطانه في سنة ست وسبعين وستمائة(١).

الكتابة رقم (١٢):

١- ... (الـ) سلطان الملك الظا (هر) ...(٢)

٢- ... عز الدين ايبك الـ (ـزراد) ...(٣).

الكتابة رقم (١٣):

١- حصون الـ . . . .

٢- (بيـ) ـبرس النجمي الصالحي . . .

٣- بمباشرة الجنـ (ـاب) . . . . .

---

(١) a) Sobernheim, op. cit. N° 10

b) Rep., T. XIII, N° 4738 p. 226

(٢) القسم المحصور بين قوسين مفقود من النص، والتنقيط يشير إلى وجود نقص في النص.

(٣) نشرت في الكتابتان ١٢و١٣ في a)Sauvaget: Citadelle de Damas, op. cit. N° 227

b) Repertoire, op. cit. T. XII, 4478, p. 59 et N°4746, p. 231

الكتابة رقم (١٤):

١- بسم الله الرحمن الرحيم جدد عمارة البرج المبارك في أيام

٢- مولانا السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي خلد الله

٢- سلطانه بتولي العبد الفقير إلى الله سيف الدين قجقار[١] المنصوري الصالحي في سنة ثمانين وستمائة[٢].

الكتابة رقم (١٥):

الوجه الجنوبي من العضادة[٣]

١- أمر بعمارة هذه الاقباء الدائرة المولى السلطان الأعظم الغازي

٢- المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور فاتح الزمصار والثغور ملك الوجه الغربي

٣- الإسلام حامي الشريعة المحمدية بالجيوش الإسلامية مبيد الطغاة وعبدة الا

---

(١) اسمته المصادر التايجية وكذلك الكتابات الأخرى ارجواش والجمقدار.

(٢) نشرت في:

a)Sobernheim, op. cit. N° 11

b) Rep, op. cit. T. XII, 496, p. 262

(٣) اكتشفنا هذه الكتابة في الممر الدفاعي الغربي بالقرب من البرج رقم (٦) وتنشر هنا لأول مرة.

٤- وثان قاتل أهل الشرك وحملة الصلبان الملك المنصور

الوجه الشمالي

٥- سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي رفع اللّه الإسلام ببقائه وأكثر

٦- بعزه ونصره (...) اعتابه وذلك بتولي العبد الفقير إلى ربه المستوهب

الوجه الشرقي

٧- غفران ربه الأمير الأجل المجاهد المثاغر كهف الفقراء والمساكين

٨- علم الدين سنجر اراجواش الجمقدار المنصوري في شهور سنة أربع وثمانين وستمائة.

الكتابة رقم (١٦)[١]:

١- بسم اللّه الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه الأقباء المباركة المستديرة[٢] من باب النصر إلى باب

---

(١) نشرت في:

a)Sobernheim, op. cit. N° 12

b)Répertoire, op. cit. T. XIII, 4925, p. 85

(٢ نشرت في المصدرين المشار إليهما (المستدربة) والصحيح ما أثبتناه اعتماداً علي الكتابة رقم ١٥ التي تذكر بوضوح هذا المصطلح.

٢- الفــرج على الأبراج والبـدنات في أيام مـولانا السلطان العالم العادل الغازي المجاهد

٣- في سبيل الله تعـالى الملك المنصـور سيف الدنيـا والدين قلاوون الصالحي وكان المجتهد في

٤- عمارة ذلك واحداثه والمباشر له العبد الفقير إلى الله تعالى

٥- علم الدين سنجر المعروف بزراجواش المنصوري راجياً عند الله

٦- من الثواب وحسن المآب رحمه الله ورحم من ترحم عليه أن هان عليه وكان الفراغ من ذلك في

٧- المحرم سنة تسع وثمانين وستمائة .

الكتابة رقم (١٧)(١):

١- (...) المرابط المؤيد المظفـر الغـازي المنصـور خلد الله بقاءه(...)

٢- (...) علاء الدين بتولي العبـد الفقير إلى ربه علم الدين سنجرالجمقدار المعروف بارجواش .

---

(١) نشرت في:

a) Sobernheim, op. cit. N^{O} 13

b) Répertoire., T. XIIi, N^{O} 4928 p. 87

الكتابة رقم (١٨)[١]:

١- بسم (اللّه الرحمن الرحيم)... المكان... المبارك... في أيام مولانا السلطان

٢- الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي خلّد اللّه سلطانه ببقاء ولده ولي عهد السلطان

٣- (الملك الأشرف) صلاح الدنيا والدين خليل أعز اللّه أنصاره

٤- . . . .

٥- . . . . وانزل اللهم الـ ... صواء. . .

٦- الـ (ـعبد) الفقير إلى رحمة ربه علـ (ـم الدين سنجر). . .

الكتابة رقم (١٩)[٢]:

١- أمر بعمارة هذه البدنات مولانا السلطان الملك

٢- الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن الملك المنصور

---

(١) نشرت في: a) Sauvget, Citadelle de Damas, op. cit. , N° 230
b) Répertoire., T. XIII, N° 4927 p. 86

(٢) نشرت في: a) Sobernheim, op. cit. N° 14
b) Répertoir., T. XIV, N° 5325 p. 78

قلاوون بتولية الأمير عز الدين ايبك رحمه الله في سنة ثلاث عشر وسبعمائة.

الكتابة رقم (٢٠)[١]:

١- بسم الله الرحمن الرحيم لما كان بتاريخ مستهل شهر شعبان المكرم سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ورد مرسوم شريف شرفه الله تعالى وسبحانه

٢- على المقر الأشرف المخدومي السيفي كمشبغا المنصوري كافل المملكة الشريفة الشامية المحروسة أعز الله أنصارها تاريخه حادي

٣- عشرين جمادى الآخرة سنة تاريخه ومضمونه المرسوم بالأمر الشريف العالي السلطاني الملكي المنصوري العلائي أعلاه الله تعالى

٤- وشرفه أن يبطل كلما استجد على مال خزائن السلاح المنصورة المقرر على الجامع بدمشق المحروسة من مرتب وغيره وأن تحمل الأمر على حكم المراسيم المكرمة قبل تأريخه

٥- بذلك وأن لا ينصرف لأحد من خلق الله تعالى الدرهم الفرد سوى الجزء بابتياع من السلاح والأصناف والآلات برسم خزائن السلاح المنصورة وجامكيه

---

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 15

٦- مباشريها وأن يستعاد ما حدث خلاف ذلك لاستيفاء سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ممن قبضه ويحمل إلى خزائن السلاح ليصرف في ثمن ابتياعاتها يكون ملعون ابن ملعون

٧- من يتعرض ذلك بشيء حسب المرسوم الشريف بالإشارة العالية الاتابكية السيفية برقوق المنصوري عز نصره وذلك في أيام المقر الشريف المخذومي الزيتي زبالة الفارقاني عز نصره.

الكتابة رقم (٢١)(١):

آ- الجزء الأول: على الطرف الأيمن من الباب:

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- فتحت هذه القلعة المنصورة

٣- وملكت لمولانا وسيدنا المعظم

٤- الملك الظاهر أبي سعيد برقوق حفظ

٥- الله الإسلام والمسلمين ببقائه

٦- وبقاء دولته الشريفة

٧- نهار الاثنين السادس والعشرين من

---

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 16

٨- صفر المبارك سنة أربع وتسعين وسبعمائة

٩- على يد المعز الأشرف السيفي تمر بغا المنجكي

ب- الجزء الثاني: على الطرف الأيسر للباب:

١- حاجب الحجاب بالشام المحروس أعز الله

٢- تعالى أنصاره والمقرات العالية

٣- السادة الأمراء شيد الله عضد

٤- هذه الدولة الشريفة بهم

٥- لقب هذا الباب بباب النصر

٦- الظاهري وكتب في التاسع

٧- والعشرين من صفر سنة أربع وتسعين

٨- وسبعمائة أحسن الله تعالى عافيته

٩- والحمد لله وحده.

الكتابة رقم (٢٢)[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام آمنين[٢] عمر هذه

---

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 17

(٢) نشرها سوبرنهايم (آمين). والصحيح هو ما أثبتناه بالرجوع إلى الآية القرآنية.

القلعة المنصورة مولانا ملك الأمراء نوروز الحافظي أعز الله أنصاره في شهور تسع وثمان مائة.

الكتابة رقم (٢٣)[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم (نصر من الله وفتح قريب) (رنك)... السيفي (نو) روز الحافظي أعز (الله) أنصاره في ...

الكتابة رقم (٢٤):

نص غير مقروء[2]

الكتابة رقم (٢٥)[3]:

١- هذا ما وقفه مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر

٢- خلد الله ملكه على مقام سيدنا الشيخ العلامة تقي الد

٣- ين ابن تيمية تغمده الله برحمته المرج الخالي بدمشق المحروسة

٤- على تنوير ثلاثة مصابيح وخادم من ريع هذا الوقف كل شهر

---

(١) نشرت في: Sauvaget,Citadelle de Dams, op. cit. , N° 1236

(٢) كتابة لم تنشر، أعطاها سوبرنهايم (المصدر السابق) رقم ١٨ في محموعته، ونسبها للظاهر ططر وأرخها في عام ٨٢٤، وقال بأنها مؤلفة من عشرة أسطر، سبعة منها أزيل نصفها.

(٣) نشرت في: Sobernheim, op. cit. , N° 19

٥- ستون درهماً وما فضل من ثمرة هذا الوقف يرصد للعمارة

٦- وشرط النظر فيه لنائب القلعة بدمشق كائناً من كان

٧- وقف مولانا السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه على المقام

٨- المذكور أعلاه الحانوتين المتلاصقين تجاه حمام الحموي

٩- برأس مسجد القصب المعروف بملك أم خليل وأحمد

١٠- ويصرفون ذلك على مصالح مقام المرحوم الشيخ تقي الدين (بن)

١١- التيمية والكامل (...)

١٢- وكان ذلك بتاريخ أواخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة

١٣- في أيام مولانا المقر الأشرف الكافلي الفخري

الكتابة رقم (٢٦)(١):

الحمد لله أمر بإعادة هذا البرج مولانا السعيد(٢)

السلطان الملك الظاهر أبو النصر خشقدم خلد الله ملكه بمباشرة المقر الصارمي

---

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 20

(٢) نشرها سوبرنهايم (السعيد مولانا) والصحيح ما أثبتناه بعد تدقيق النص في مكان وجوده.

إبراهيم نائب القلعة بدمشق بن المرحوم بيغوت المؤيدي سنة ست وستين وثمانمائة.

الكتابة رقم (٢٧):

١- بسملة

٢- أمر بعمارة هذا البرج المبارك

٣- مولانا السلطان الملك[١]

الكتابة رقم (٢٨):

الحمد لله جدد عمارة هذا البرج المبارك بعد وقوعه في أيام مولانا السلطان الملك

الناصر أبي السعادات ولد مولانا قايتباي[٢] في آخر سنة ثلاث وتسعمائة

الحمد لله وحده[٣]

الكتابة رقم (٢٩)[٤]:

آ- بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب

---

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 21

(٢) كلمة قايتباي غير واردة عند سوبرنهايم، وقد تمكنا من تصحيحها بالرجوع إلى مكان الكتابة وتدقيق النص.

(٣) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 22

(٤) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 23

ب- أمر بتجديد هذا البرج المبارك بعد انهدامه مولانا السلطاني المجاهدي المرابطي قانصوة الملك الأشرف أبو النصر الغوري عز نصره خادم الحرمين الشريفين مهزم الجيشين عز نصره بتاريخ شهر رجب الفرد سنة أربع عشر وتسعمائة

جـ- الحمد للّه عمل الواثق بربه العزيز أحمد بن العطار

الكتابة رقم (٣٠)[١]:

آ- بسم اللّه الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البرج المبارك لهدمه مولانا السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري خادم الحرمين الشريفين مهزم الجيشين عز نصره بتاريخ سنة خمس عشرة وتسعمائة[٢]

ب- عمل الواثق بربه العزيز أحمد بن العطار

جـ- الرنك (دائرة مؤلفة من ثلاثة أسطر كمايلي:

١- قانصوة

٢- عز لمولانا السلطان الملك الاشرف أبو النصر قانصوة الغوري

٣- عز نصره

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 24

(٢) ورد التأريخ عند سوبرنهايم (خمس وعشرين وتسعمائة)، وهو غير مقبول لأن الغوري توفي سنة ٩٢٢/١٥١٦ فما أثبتناه هو الصحيح.

الكتابة رقم (٣١)[١]:

آ- بسم الله الرحمن الرحيم

ب- أمر بتجديد هذا البرج المبارك لهدمه مولانا السلطان قانصوة الملك الأشرف عز نصره بمباشرة المقر السيفي سقطباي[٢] ... أعز الله أنصاره بتاريخ سنة تسع عشرة وتسعمائة

جـ- ١- الحمد لله عمل الواثق

٢- بربه العزيز أحمد بن العطار.

الكتابة رقم (٣٢):

. . . . (منصف المظلومين من الظا) لمين كهف (الفقراء)[٣]

الكتابة رقم (٣٣):

١- بسـ (سم الله الرحمن الرحيم)

٢- . . . . ط

٣-

٤-

٥- . . . . . (الأمـ) ـير عز الدين . . . .

---

(١) نشرت في: Sobernheim, op. cit., N° 25

(٢) ورد اسمه في اعلام الورى (ص ١٩٩) سنطباي، وهو نائب القلعة وقتئذ.

(٣) نشرت في: Sauvaget, Citadelle..., op. cit., N° 233

الكتابة رقم (٣٤)[1]:

. . . . مولانا المقر الأشـ(ـرف) . . .

(أعز الله) أنصاره وكان . . . . . .

(١) انظر بشأن الكتابتين ٣٣، ٣٤ الجدول العام للكتابات.

الملحق رقم (٢)

لائحة بأسماء نواب قلعة دمشق في العهد المملوكي

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
الأمير طيبرس الوزيري (١)	٦٥٩هـ-١٢٦٠م	٦٥٩هـ-١٢٦٠م	نقل إلى نيابة دمشق ثم عزل سنة ٦٦٠
شجاع الدين اسماعيل بن عمر الطوري (٢)	٦٧٣هـ-١٢٧٤م	٦٧٥هـ-١٢٧٦م	توفي
علم الدين سنجر الدواداري (٣)	٦٧٨هـ-١٢٧٩م	٦٧٨هـ-١٢٧٩م	
حسام الدين لاجين المنصوري (٤)	٦٧٨هـ-١٢٧٩م	٦٧٩هـ-١٢٨٠م	نقل إلى نيابة دمشق
سيف الدين قجقار المنصوري (٥)	٦٨٠هـ-١٢٨١م		

(١) انظر ترجمته في «تالي كتاب وفيات الأعيان لابن الصقاعي» (ص٩٣).

(٢) ورد اسمه في الكتابة رقم (١٠) المؤرخة عام ٦٧٣هـ. توفي سنة ٦٧٥هـ - ١٢٧٦م استناداً إلى شاهدة قبره.

(٣) ورد اسمه كنائب للقلعة في هذا العام، انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٨٨.

(٤) أصبح نائباً للسلطنة في دمشق عام ٦٧٩هـ وحتى ٦٩٠هـ (أعلام الورى ص ٨).

(٥) ورد اسمه في الكتابة رقم (١٤).

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
علم الدين سنجر ارجواش الجمقدار[(١)]	٦٨٤ هـ - ١٢٨٥م	٧٠١ هـ - ١٣٠٠م	توفي
سيف الدين اقبجا[(٢)]	٧٠٠ هـ - ١٣٠٠م	٧٠١ هـ - ١٣٠١م	نقل إلى غزة
سيف الدين بهادر السيجري[(٣)]	٧٠١هـ - ١٣٠١م	٧١١ هـ - ١٣١١م	عزل
سيف الدين بلبان الجوكنداري[(٤)]	٧٠٢ هـ - ١٣٠٢م	٧٠٣ هـ - ١٣٠٢م	نقل
سيف الدين بلبان البدري[(٥)]	٧١١ هـ - ١٣١١م	؟	

(١) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة ٢/ ١٧٠) والبداية والنهاية ١٤/ ٣، ٧، ١٧، ٢٠) ورد اسمه في الكتابات رقم ١٥، ١٦، ١٧، ١٨.

(٢) عين كشريك للنائب المتقدم ذكره (ارجواش). (انظر البداية والنهاية ١٤/١٦، ١٧).

(٣) عين في البدء شريكاً لارجواش المتقدم ذكره بعد النائب اقبغا (البداية والنهاية ١٤/ ١٧) ثم عزل وأعيد سنة ٧٠٣هـ (البداية١٤/ ٢٨) كان نائباً سنة ٧٠٩هـ (البداية ١٤/ ٥٢) عزل ونقل إلى البيرة سنة ٧١١ هـ (البداية ١٤/ ٦٣).

(٤) عين عوضاً عن ارجواش المتوفي (ابن كثير١٤/ ٢٢). نقل إلى نيابة حمص سنة ٧٠٣ (انظر ابم كثير ١٤/ ٢٨؟.

(٥) عين بعد نقل السيجري (ابن كثير ١٤/ ٦٣) والسلوك ٢/ ١٠٦.

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
عـــز الـدين ايبك الجمالي [(١)]	٧١٢هـ - ١٣١٢م	٧١٨هـ - ١٣١٨م	نقل
سنجر الدميتري [(٢)]	٧١٨هـ - ١٣١٨م	٧٢٧هـ - ١٣٢٦م	عزل
مغلطاي الخازن [(٣)]	٧٢٧هـ - ١٣٢٦م	٧٣٦هـ - ١٣٣٥م	توفي
ســـيف الـدين اياجي [(٤)]	٧٥٣ هـ - ١٣٥٢م	؟	
زيـن الـديـن زبـالـه الفارقاني [(٥)]	٧٥٦ هـ - ١٣٥٥م	٧٨٤ هـ - ١٣٨٢م	توفي

(١) عين سنة ٧١٢ شريكا في النيابة مع بلبان (المقريزي ٢/ ١٢٠). ورد اسمه في الكتابة رقم (١٩) المؤرخــة سنة ٧١٣/ ١٣١٣ . نقل إلي نيـابة الكوك سنة ٧١٨ (السلوك ٢/ ١٨٥).

(٢) سماه في السلوك في خبر تعيينه : عز الدين ايبك الدميتري (٢/ ١٨٥) وسماه عند عزله «سنجر» وهو الأصح (السلوك ٢/ ٢٨٨).

(٣) انظر (السلوك ٢/ ٢٨٨) والبداية ١٤/ ١٧٥ .

(٤) ورد ذكره كنائب للقلعة عام ٧٥٣ (ابن كثير ١٤/ ٢٤٤، وابن اياس ١/ ١٩٦) ولا نعلم سنة ولايته وعزله.

(٥) ورد خبر اعادة تعيينه لنيابة القلعة سنة ٧٦٢ (ابن كثير ١٤/ ٢٨٧) ويبدو أنه هو النائب المعزول سنة ٧٦١ بسبب هرب سجناء من القلعة، وورد في الخبر المذكور أنه مضى على نيابته ست سنوات فتكون بذلك ولايته سنة ٧٥٦ (ابن كثير ١٤/ ٢٧١) وذكر اسمه بعد ذلك في الكتابة رقم (٢٠) المنقوشة على القلعة المؤرخة سنة ٧٨١. ثم ذكر خبر عزله سنة ٧٨٤ عند ابن قاضي شهبه (المخطوط حوادث سنة ٧٨٤). وذكرت وفاته في شعبان من هذا العام في النجوم ١١/ ٢٩٦).

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
تومان الناصري[1] [2]	٧٦١ هـ - ١٣٥٩م	٧٦٢ هـ - ١٣٦٠م	توفي
سيف الدين برناق الحمصي[3]	٧٦٢ هـ - ١٣٦٠م	٧٦٢ هـ - ١٣٦٠م	توفي
بلبان ابن عبد الله[4]	٧٨٤ هـ - ١٣٨٢م	٧٩١ هـ - ١٣٨٨م	توفي
ابن المهمندار[5]	٧٩٠ هـ - ١٣٨٨م		
الأمير علم دار[5]	٧٩١ هـ - ١٣٨٨م		
الأمير سيف الدين ملك[5]	٧٩١ هـ - ١٣٨٨م		
سيف الدين المنجكي بلبان[6]		٧٩٦ هـ - ١٣٩٢م	توفي

(١) تولى بعد عزل النائب السابق (زبالة). (انظر الدرر الكامنة ١/ ٥٢٨).

(٢) ورد خبر وفاته في هذا العام ابن كثير (١٤/ ٢٨٠). وكان النائب السابق ذكر خبر عزله سنة ٧٨٤ عند ابن قاضي شهبه (المخطوط حوادث سنة ٧٨٤؟. وذكرت وفاته في شعبان من ٧٦٢.

(٣) انظر (تاريخ ابن قاضي شهبة. المخطوط حوادث سنة ٧٨٤، ٧٨٧، ٧٩١).

(٤) ورد اسمه كتائب لقلعة دمشق في كتابة منقوشة على قبر في التربة الكاملية الملاصقية لجدار الجامع الأموي الشمالي مؤرخة في عام ٧٩٠.

(٥) ذكره ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٧٩٦، (المخطوط).

(٦) ابن قاضي شهبة (المخطوط سنة ٧٩٦).

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
جمال الدين يوسف الهيدباني (١)	٧٩٦ هـ - ١٣٩٣م	٨٠١ هـ - ١٣٩٨م	عزل
سيف الدين منطرق (٢)		٨١٠ هـ - ١٤٠٧م	قتل
الأمير شاهين (٣)	٨٢٠ هـ - ١٤١٧م	٨٢١ هـ - ١٤١٨م	
الأمير سنقر (٤)	٨٢١ هـ - ١٤١٨م	٨٢٣ هـ - ١٤٢٠م	عزل
أركماس الظاهري (سيف الدين) (٥)	٨٢٤ هـ - ١٤٢١م		
النجيبي (٦)	٨٢٦ هـ - ١٤٢٢م		
الأمير فارس (٧)	٨٤٢ هـ - ١٤٣٨م		
شاهين الطوغاني (٨)		٨٥٢ هـ - ١٤٤٨م	توفي

(١) ابن قاضي شهبة (المصدر السابق)، والنجوم الزاهرة (١٢/ ١٧٦).

(٢) النجوم الزاهرة (١٣/ ٦٤).

(٣) النجوم الزاهرة (١٤/ ٦٣، ٦٦).

(٤) النجوم الزاهرة (١٤/ ٦٦، ٩٣).

(٥) النجوم الزاهرة (١٤/ ٢٠٢) توفي سنة ٨٥٤ (النجوم ١٥/ ٥٥٤)، أعلام الورى (ص ٥٩، ٦٢).

(٦) ذكره ابن طولون في حوادث هذا العام (أعلام الورى ص ٤١).

(٧) النجوم ١٥/ ٢٨٩.

(٨) النجوم ١٥/ ٣٨٢، ٥٢٧.

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
الأمير بيسق اليشتي (١)	٨٥٢ هـ-١٤٤٨م	٨٥٣ هـ-١٤٤٩م	توفي
جانبك الناصري (٢)		٨٤٨ هـ-١٤٤٤م	نقل
سودون المحمدي (٣)			
سودون اليشبكي (٤)	٨٦٥ هـ-١٤٦٠م		
سودون فندورة اليشبكي التركماني (٥)		٨٦٦ هـ-١٤٦١م	توفي
الصارمي ابراهيم بن بيغوف (٦)	٨٦٦ هـ-١٤٦١م		
يشبك السيفي علي باي (٧)	٨٧٢ هـ-١٤٦٨م		

(١) النجوم ١٥/ ٣٨٢، ٥٤٤.

(٢) النجوم ١٥/ ٣٦٢.

(٣) النجوم ١٥/ ٣٦٣.

(٤) ذكره ابن طولون في حوادث هذا العام (أعلام الورى ص ٥٩، ٦٢).

(٥) النجوم ١٦/ ٢٦٧.

(٦) ورد اسمه في الكتابة رقم ٢٦ المؤرخة في عام ٨٦٦.

(٧) ابن اياس ٢/ ٩٣.

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
علي بن شـــاهين العثماني (1)	ما قبل ٨٨٥ هـ -١٤٨٠م	٨٩٣ هـ -١٤٨٦م	توفي
محـمـد بن علي بن شاهين	٨٩٢ هـ -١٤٨٦م	٨٩٢ هـ -١٤٨٦م	عزل
ايدني الاشرفي (2)	٨٩٣ هـ -١٤٨٧م	٨٩٩ هـ -١٤٩٢م	عزل
بردبك (3)	٨٩٩ هـ -١٤٩٢م	٨٩٩ هـ -١٤٩٢م	توفي
بخشباي (4)		٩٠٢ هـ -١٤٩٦م	عزل
مملوك جــــانم		٩٠٥ هـ -١٤٩٩م	عزل
مصبغة (5)	٩٠٦ هـ -١٥٠٠م		
دولتباي اليحياوي (6)		٩٠٨ هـ -١٥٠٢م	نقل

(١) ابن اياس ٢/ ٢٣٨ ورد اسمه عند ابن طولون (مفاكهة الخلان ١/ ٥- ١/ ٧١) علاء الدين ين شاهين وعلي بن شاهين أحياناً وذلك بدءاً من حوادث ٨٨٥ إلى أن توفي وحل محله ابنه محمد لفترة من عام ٨٩٢ ثم عزل .

(٢) ابن اياس ٢/ ٢٤٩ وابن طولون (مفاكهة الخلان؟ (١/ ٨٧، ٩٢. ٩٤).

(٣) ابن طولون (مفاكهة الخلان، ١/ ١٥٤).

(٤) ابن اياس ٢/ ٣٠٨. المفاكهة، ١/ ١٥٤، ١٦٩.

(٥) اعلام الورى ص ١٠٣ . لم يذكره ابن طولون في المفاكهة بل ذكر قبله عدداً من النواب وهم على التوالي : جاني بك (٩٠٢هـ)، ايدكي (٩٠٣هـ)، اقباي (٩٠هـ) (انظر ١/ ١٨٢، ٢٠١، ٢٠٦).

(٦) ذكره ابن طولون في حوادث سنة ٩٠٦ (اعلام الورى ص ١٣٤، ١٣٨).

اسم النائب	سنة الولاية	سنة العزل أو الوفاة	الملاحظات
(المشهور بخال الاسياد)			
بردبك [(١)]	٩٠٨هـ - ١٥٠٢م	.توفي في شوال من السنة	
طومان باي الاسمر [(٢)]	٩١٠هـ - ١٥٠٤م	٩١٣هـ - ١٥٠٧م	عزل
مسرباي [(٣)]	٩١٦هـ - ١٥١٠م	٩١٧هـ - ١٥١١م	عزل
سنطباي [(٤)]	٩١٧هـ - ١٥١١م	٩١٩هـ - ١٥١٣م	
يلباي [(٥)]	٩٢٠هـ - ١٥١٤م	٩٢٢هـ - ١٥١٦م	

(١) اعلام الورى ص ١٥١، ١٥٥.

(٢) اعلام الورى ص ١٦٨، ١٨٥ ومفاكهة الخلان، ١/ ٣٥٢، ٣٧٦.

(٣) مفاكهة الخلان، ١/ ٣٣٩.

(٤) ورد اسمه في حوادث سنة ٩١٨ هكذا: «سنطباي» (اعلام الورى ص ١٩٩) وذكر اسمه في الكتابة رقم (٣١) المؤرخة في عام ٩١٩ كتائب للقلعة على الصورة التي أثبتناها وهو الأصح.

(٥) ورد اسمه عند ابن طولون في حوادث سنة ٩٢٠ (اعلام الورى ٢٠٦ واستمر في النيابة حتى الفتح العثماني (اعلام الورى ٢١٩، ٢٨٧). وسماه في كتابه مفاكهة الخلان هكذا علي باي (١/ ٣٧٦).

الملحق رقم ٣

لائحة بالمصطلحات المعمارية والفنية الهامة

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
	A
مقرنصات	Alvéoles
قوس (معقود)	Arc (Archit.)
قوس ممشوق	Arc ogival
قوس عاتق	Arc de décharge
قوس مركب أو مدبب (مؤلف من تلاقي قوسين)	Arc brisé
قوس متجاوز	Arc outrepassé
قوس نصف دائري	Arc pleincintre
قنطرة	Arche
مرمى النبال	Archére
جائز (جسر فوق الأعمدة)	Architrave
مدماك	

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
	B
(سقاطة) فتحة في سقف الباب أو الدهليز	Assommoire
ايوان المرمى	Baie de I'archére
حشوة في الجدار	Blocage
حجر ذو نحت بارز	Bossage (piérre á bossage)
روشن (شرفة دفاعية تشبه البلكونات في أعلى الأسوار)	Bretéche
	C
طاسة (في القبة أو المحراب)	Calotte (archit.)
ممر دفاعي	Chemin de ronde
فقرة (في القوس الحجري)	Clavau (vossoir)
بارزة (حجر يبرز عن الجدار لحمل ما فوقه)	Corbeau
بدنة (جدار بين برجين)	Courtine

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
بارزة في الجدار	Console
طنف	Corniche
ستارة، جمع ستائر	Creneau
الستائر العليا في الأسوار	Crenelage
	D
البرج الحامي (برج رئيسي كبير في الحصن)	Donjon
	E
(فراغ بين شرافتين)	Embrasure
سور	Enceinte
بروز متدرج في الجدار	Encorbellement
كلسة، ملاط	Enduit
	F
واجهة	Façade
شق المرمى	Fente de Visé

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
سقاية، قسطل، سبيل	Fontaine
خندق	Fossé
افريز	Frise
جبهة مثلثة الشكل	Fronton
جزء العمود	Fût de colonne
	G
ممر مسقوف، اقباء مستديرة (اصطلاح قديم)	Galere voûée
روشن ذي سقاطات متواصلة	Galerie de Machicoulis
سفح (جدار مائل في السور)	Glacis (d'un mur)
سروال القبة (مثلث كروي مزدوج في زاوية القبة)	Glacis (d'une coupole)
	H
غلق انزلاقي (حاجز من الحديد	Herse (porte á coulisse)

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
يغلق به أبواب الحصون وممراتها من الأعلى إلى الأسفل).	
ميدان	Hippodrome
روشن خشبي (ستائر خشبية مزودة بالسقاطات)	Hourd
	J
كحلة (بين حجارة الجدار)	Joints
	L
منور (في اعلا القبة)	Lanterne
مرحاض	Latrine
ساكف	Linteau
ساكف جملوني	Linteau en bâtiére
طاقة	Lucarne
	M
سقاطة (فتحات في الرواشن	Mâchicoulis

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
وغيرها ترمى منها الزيوت المغلية والمقذوفات)	
شرافة	Merlon
قولبة: نحت في الحجر لاعطائه شكلاً معيناً	Moulure
حجر غشيم: حجارة مكسرة تستخدم لحشوة الجدران والاقباء	Moêlon
مونة (لتماسك حجارة البناء)	Mortier
	N
حنية في الجدار أو محراب	Niche
ايوان المرمى	Niche (de I'archere)
	P
ستارة (جدار في أعلى البرج أو السور مزود بالمرامي)	Paraoet
ستارة ذات شرافات	Parapet crenelet
وجه الجدار اليميني من الحجر	Parement

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
عضادة	Pilier
عضادة جدارية	Pilastre
غاطس : خاصة موجودة في بعض المرامي تحدث فيه ميلاً إلى الأسفل نحو الخارج	Plongeon
سطح	Plates - formes
جسر معلق	Pont - levis
باب السر	Poterne
	S
مقرنصات	Stalactites
زخارف جصية	Stuc (décor en Plâtre)
	R
الحصن الخلفي أو الداخلي	Réduit
طارمة : (بناء مشرف في أعلى الحصن، على شكل القبة غالباً)	Rotonde

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
	T
فقرة العمود	Tambour (d'une clonne)
رقبة القبة	Tambour (d'une coupole)
برج	Tour
معزبة : قطاع في قاعة كبيرة	Travée
حنية ركنية (في زوايا القباب)	Trompe
	V
قبوة : عقد أو سقف معقود	Voûte
عقد متقاطع	Voûte d'arêtes
عقد طولي : ذو مقطع نصف دائري أو مدبب.	Voûte en berceau

الملحق رقم (٤)

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

آ- المصادر العربية

١- ابن أبي أصيبعة (أبو العباس أحمد)، المتوفي سنة ٦٦٨هـ:

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٨٨٢.

جزءان: الأول ٣٣ صفحة. الثاني ٣٨٤ صفحة

ملاحظة: (ظهرت طبعة حديثة -بيروت١٩٦٥).

٢- ابن الصقاعي (فضل الله بن أبي الفخر)، المتوفي سنة ٧٢٧هـ:

- تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، مطبوعات المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق١٩٧٤.

٣- ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبو بكر الأسدي)، المتوفي سنة١٨٥١هـ:

- ذيل تاريخ دمشق. مخطوط في الظاهرية يجري تحقيقه من قبل الدكتور عدنان درويش. ومنه أخذنا النصوص الواردة في بحثنا، طبع منه حديثاً جزءان.

٤- ابن إياس (محمد بن أحمد المصري)، القرن السادس عشر الميلادي:

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ثلاثة أجزاء، طبعة بولاق ١٣١١/ ١٨٩٤ وصفحات لم تنشر من سنة ٨٥٧-٨٧٢. تحقيق الدكتور محمد مصطفى- ٣٢٧ صفحة من القطع المتوسط طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥١.

٥- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، المتوفي سنة ٨٧٤هـ:

-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءاً، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩-١٩٧٢.

٦- ابن جبير، (القرن السادس الهجري): الرحلة تحقيق: د. حسين نصار، دار الطباعة بمصر، ١٩٥٥.

٧- ابن خلكان (شمس الدين أحمد)، المتوفي سنة ٦٨١هـ:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء تحقيق محمد

محيي الدين عبد الحميد، طبعة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨.

٨- ابن شداد (عز الدين)، المتوفي سنة ٦٨٤هـ:

- الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. الجزء الثاني، تحقيق د. سامي الدهان. طبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٦.

٩- ابن طولون (شمس الدين محمد)، المتوفي سنة ٩٥٣هـ:

- اعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان. مطبوعات وزارة الثقافة -دمشق ١٩٦٤.

١٠- ابن طولون:

- الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، مكتبة القدسي، دمشق ١٣٤٨.

١١- ابن طولون:

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان -تحقيق محمد مصطفى، جزءان القاهرة ١٩٦٢، ١٩٦٤.

١٢- ابن طوق (القرن العاشر الهجري، توفي سنة ٩١٦):

- مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق رقمها ٤٥٣٢ تتضمن مذكرات يومية عن الفترة التي عاشها المؤلف في أواخر العهد المملوكي.

١٣- ابن عساكر (الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن)، المتوفي سنة ٥٧١ هـ:

- تاريخ مدينة دمشق، مخطوطة في ثمانين مجلداً. نشر منها:

١- المجلدان الأول والثاني تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥١- ١٩٥٤.

٢- المجلد العاشر تحقيق محمد أحمد دهمان طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٦٣.

٣- مجلدة لتراجم حرف العين المتلوة بالألف. تحقيق د. شكري فيصل، ١٩٧٨.

١٣- ابن عبد الهادي (يوسف)، المتوفي سنة ٩٠٩هـ:

- ثمار المقاصد في تاريخ المساجد، تحقيق أسعد طلس، بيروت، ١٩٤٣.

١٤- ابن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٨٩هـ:

- شذرات الذهب ٨ أجزاء، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ -١٣٥١ (١٩٣١-١٩٣٢).

١٥- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة)، المتوفي سنة ٥٥٥هـ :

- ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨ .

١٦- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل)، المتوفي سنة ٧٧٤هـ :

- البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣٢ .

١٧- ابن منقذ (أسامة)، المتوفي سنة ٥٨٤ :

- كتاب الاعتبار-تحقيق فيليب حتي، طبعة برينستون، ١٩٣٠ .

١٨- أبو البقاء (عبد الله البدري المصري الدمشق)، ولد سنة ٨٤٧هـ:

- نزهة الأنام في محاسن الشام، ٣٩٢ صفحة من القطع الصغير القاهرة، ١٣٤١ .

١٩- أبو شامة (شهاب الدين المقدسي)، المتوفي سنة ٦٦٥ هـ:

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الطبعة القديمة جزءان : مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٧هـ، والطبعة الحديثة : صدر منها الجزء الأول في كتابين :

الكتاب الأول نشره عزة العطار، القاهرة ١٩٤٧ .

الكتاب الثاني تحقيق د. محمد حلمي أحمد ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢ .

٢٠- أبو شامة (شهاب الدين المقدسي)، المتوفي سنة ٦٦٥ هـ :

- ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)، تحقيق عزة العطار، دار الكتب بالقاهرة، ١٩٤٧ .

٢١- بدران (عبد القادر)، المتوفي سنة ١٩٤٦هـ :

- تهذيب تاريخ ابن عساكر، مطبعة الترقي، دمشق، في حدود ١٣٤٩هـ .

٢٢- البديري الحلاق، من القرن الثامن عشر :

- حوادث دمشق اليومية، للفترة الواقعة بين عامي ١١٤٥/ ١٧٤١ و١١٧٥/ ١٧٦٢ .

تحقيق د. أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٥٩ .

٢٣- البلاذري (الأمام أحمد بن يحيي)، المتوفي سنة ٢٧٩ هـ :

- كتاب فتوح البلدان : طبعة مصر، ١٣١٩/ ١٩٠١، شركة طبع الكتب العربية .

٢٤- البوريني (الحسن بن محمد)، المتوفي سنة ١٠٢٤/ ١٦١٥ :

- تراجم الأعيان من أبناء الزمان، الجزءان الأول والثاني، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٩، ١٩٦٣ .

٢٥- الحنبلي (مجير الدين)، القرن التاسع الهجري: :

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، المطبعة الوهبية بمصر، ١٣٨٣هـ.

٢٦- الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك)، المتوفي بعد سنة ٧٣٦هـ:

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن: تحقيق هارلمان (اولرخ)، القاهرة ١٩٧١.

٢٧- الذهبي (شمس الدين)، المتوفي سنة ٧٤٨ هـ:

- تاريخ الإسلام، صدر منه خمسة أجزاء، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٦٧.

٢٨- الذهبي:

- سير أعلام النبلاء، مخطوطة نشر منها معهد المخطوطات في الجامعة العربية ثلاثة أجزاء:

الأول: تحقيق المنجد، بدون تاريخ.

والثاني: تحقيق الإبياري (إبراهيم) ١٩٥٧.

والثالث: تحقيق أسعد طلس، معهد المخطوطات ١٩٦٢.

٢٩- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، المتوفي سنة ٧٦٤ هـ:

- كتاب الوافي بالوفيات.

- الجزء الأول: نشر فيسبادن ١٩٦٢، الطبعة الثانية، تحقيق ريتر (هلموت).

- الجزء الثاني: طبعة استامبول ١٩٤٩، تحقيق ديدرينغ (س).

- الجزء الثالث: دمشق ١٩٥٣، تحقيق ديدرينغ (س).

- الجزء الرابع: دمشق ١٩٥٣، المطبعة الهاشمية ١٩٥٩، تحقيق ديدر ينغ (س).

- الجزء الخامس: فيسبادن، ١٩٧١..

- الجزء السادس: فيسبادن ١٩٧٢، تحقيق ديدرينغ (س).

- الجزء السابع: فيسبادن ١٩٦٩.

- الجزء الثامن: فيسبادن ١٩٧١ تحقيق محمد يوسف نجم

- الجزء التاسع: فيسبادن.

٣٠- الصفدي:

- امراء دمشق في الإسلام، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٥.

٣١- العسقلاني (ابن حجر)، المتوفي سنة ٨٥٢ هـ :

- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار المعارف في الهند، ١٣٤٨/١٣٥٠هـ.

٣٢- العمري (ابن فضل الله)، المتوفي سنةج ٧١٧ هـ :

- مسالك الأبصار، مخطوطة نشر منها الجزء الأول تحقيق أحمد زكي باشا، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤. ونشر منها صلاح الدين المنجد قطعة تخص مدينة دمشق، في مجلة معهد المخطوطات للجامعة العربية، المجلد الثالث، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧ الصفحات ١١٣-١٢٦.

٣٣- الغزي (نجم الدين)، المتوفي سنة ١٠٦١ هـ :

- كتاب الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة -ثلاثة أجزاء، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٤٩، ١٩٥٩.

٣٤- القلقشدي (أبو العباس) أحمد)، المتوفي سنة ٨٢١ هـ :

- صبح الأعشى، ١٤ جزءاً، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩.

٣٥- المحبي (محمد)، المتوفي سنة ١١١١هـ :

-خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٤.

٣٦- المقدسي (شمس الدين محمد المعروف بالبشاري) :

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، ١٩٠٩ .

٣٧- المقريزي (تقي الدين محمد بن أحمد)، المتوفي سنة ١٤٤١/٨٤٥ :

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك -جزءان في ستة أقسام، تحقيق مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨ .

٣٨- المقريزي :

-اتعاز الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخنفا، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨ .

٣٩- المهلبي (الحسن)، (القرن الرابع الهجري) : :

- المسالك والممالك، مخطوطة، نشر قطعة منها تخص مدينة دمشق، صلاح الدين المنجد، في مجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية، الصفحات ٤٣-٦٦، المجلد ٤، الجزء الأول، لعام ١٩٥٨ .

٤٠- النعيمي (عبد القادر)، المتوفي سنة ٩٢٧ هـ :

- الدارس في تاريخ المدارس، جزءان، تحقيق جعفر الحسني، طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٤٨، ١٩٥١ .

٤١- الهروي (علي بن أبي بكر الهروي)، المتوفي سنة ٦١١ هـ :

- التذكرة الهروية في الحيل الحربية، تحقيق مطيع المرابط، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٢ .

٤٢- الهمذاني (رشيد الدين):

- جامع التواريخ -تاريخ المغول- ترجمه عن الفارسية محمد صادق نشأة ورفاقه، طبعة وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة القاهرة، ١٩٦٠ .

ب- المراجع العربية والمعربة

١- الدمشقي (ميخائيل)، من القرن التاسع عشر الميلادي :

- تاريخ حوادث الشام ولبنان، من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٥٧ (١٧٨٢-١٨٤١)، تحقيق الأب لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٢ .

٢- دهمان (محمد أحمد):

- مقدمة كتاب القلائد الجوهرية لابن طولون، مكتب الدراسات، دمشق ١٩٤٩ .

٣- دهمان (محمد أحمد):

-نصوص في وصف زلزال سنة ١١٧٣هـ، مجلة المشرق -المجلد ٤٢، الجزء٢، نيسان- حزيران ١٩٤٨ .

٤- رافق (د. عبد الكريم):

- بلاد الشام ومصر، (من الفتح العثماني إلى حملة نابوليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨) الطبعة الثانية، دمشق ١٩٦٨.

٥- ريحاوي (عبد القادر):

- مدينة دمشق: تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق، ١٩٦٩.

٦-ريحاوي (عبد القادر):

- قبور العظماء في دمشق، مقال منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، المجلد ٣٤، الجزء الرابع، ١٩٥٩، الصفحات ٦٥٦-٦٦٢.

٧- ريحاوي (عبد القادر):

- حضارة الجزيرة والفرات في العهد العربي الإسلامي، بحث منشور في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد التاسع عشر لعام ١٩٦٩.

٨- ريحاوي (عبد القادر):

- قصور الحكام في دمشق، بحث منشور في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية.

القسم الأول: المجلد ٢٢ لعام ١٩٧٢ الصفحات ٣١-٧٠.

القسم الثاني: المجلد ٢٣ لعام ١٩٧٣ الصفحات ٨٥-١١٢.

٩- زامباور:

- معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١، ١٩٥٢.

١٠- الزركلي (خير الدين):

- الإعلام، الطبعة الثانية، عشرة أجزاء، القاهرة ١٩٥٤، ١٩٥٩.

١١- زكار (د. سهيل):

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الثانية (٤٣١ صفحة من الحجم المتوسط)، دار الفكر، ١٩٧٣.

١٢- زيدان (جرجي):

- تاريخ آداب اللغة العربية، أربعة أجزاء، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩١٢.

١٣- الشطي (جميل):

- روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، دار اليقظة دمشق، ١٩٤٦.

١٤- صباغ (ليلى):

- الجاليات الأجنبية في بلاد الشام، (رسالة دكتواره مخطوطة) -جامعة دمشق.

١٥-قساطلي (نعمان)، (ولد سنة ١٨٥٤):

- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ١٦٠ صفحة من القطع الصغير، بيروت، ١٨٧٩.

١٦- كرد علي (محمد):

- خطط الشام.

١٧- مؤلف مجهول، (أحد كتاب الحكومة في سرايا دمشق معاصر لفترة إبراهيم باشا):

- مذكرات تاريخية، نشرها الخوري قسطنطين المخلصي، حريصا، لبنان، بدون تاريخ.

١٨- المنجد (صلاح الدين):

- ولاة دمشق في العهد العثماني، ويضم مذكرتين تاريخيتين:

الأولى: تأليف ابن جمعة المقار من القرن الثاني عشر الهجري، سماها «الباشات والقضاة». يبدأ من أول العهد العثماني وينتهي في سنة ١١٥٦هـ، من ١-٧٠ صفحة.

الثانية: تأليف رسلان بن القاري من القرن الثالث عشر سماها «الوزراء الذين حكموا دمشق» حتى سنة ١٢٣٢هـ، من ص٧٢-٩٠. طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٤٩.

١٩- منجد (صلاح الدين):

- ولاة دمشق في العهد السلجوقي، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، ٣٢ صفحة من القطع الصغير، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٤٩.

٢٠- المنجد (صلاح الدين:

- حمامات دمشق، (نصوص قديمة من ابن عساكر وابن عبد الهادي)، ٢٥ صفحة من القطع الصغير، بيروت ١٩٤٧.

٢١- مهدي (علي):

- الاخيضر، مطبوعات مديرية الآثار، بغداد، ١٩٦٩.

٢٢- هامرتون (جون):

- تاريخ العالم، الترجمة العربية بإشراف إدارة الثقافة بوزارة التعليم العالي، مكتبة النهضة المصرية بمصر.

* * *

1 — ABEL (A) : Citadelle de Bosra, Annales Archéologiques Syriennes (A.A.S.) t. VI, 1956, Damas.

2 — Artin Pacha : Contribution à l'étude de blason en Orient, Londres 1902.

3 — D'ARVIEUX : Mémoires du Chevalier d'Arvieux, 6 volumes, Paris 1735.

4 — AYALON (D) : Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1955.

5 — CAHEN (Cl) : Atabak, Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, T. 1, Leyde, Brille, G.P. Maisonneuve depuis 1960.

6 — CRESWELL (K.A.C.) : The Early Muslim Architecture, 2 volumes, Oxford 1931 - 1940.

7 — CRESWELL : The Muslim Architecture of Egypt :
Tome I, Ikhshids and Fatimids, A.D. 939 - 1171, Oxford 1952.
Tome II, Ayyubids and early Bahrite Mamluks, Oxford 1959.

8 — CRESWELL : A Short account of Early Muslim Architecture, Pelican, London.

9 — CRESWELL : Fortification in Islam B.A.D. 1250, British Academy, 1952.

10 — DESCHAMPS (Paul) : Le Crac des Chevaliers, Vol. 1, Texte 327 p., Vol. II Planches, Paris 1934.

11 — DESCHAMPS : Les entrées des chateaux des Croisés en Syrie, Syria, T. XIII, 1932.

12 — DUSSAUD (R.) : Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiéval, Paris 1927.

13 — ELISSEEFF (Nikita) : NUR AD - DIN, 3 tomes LXXVII + 1076 P., une carte, IV planches, Institut Françai de Damas 1967.

14 — GROUSSET (R) : Histoire des Croisades et du royaume franc de Jerusalem, 3 vols., Paris 1934 - 1936.

15 — HERZFELD (Ernest) and SARRE (F) : Archaologische Reise in Euphrat - und Tigris - Gebiet 4 vols., Berlin 1911-1920

16 — Kenyon (KATHLEEN) : Digging up Jericho, London, 1957.

17 — KING (D.J. Cathcart) : The Defences of the Citadel of Damascus, Archaeologia, Vol. XCIV, p. 57 - 96 avec 2 Pl., 3 figures, Copy printed by Charles Batey for the Society of Antiquaries of London, Oxford 1951.

18 — LE STRANGE (Guy) : Palestine Under the Moslems, Description of Syria and the Holy land, From A.D. 650 to 1500, London 1890.

19 — LORTET : La Syrie d'aujourd'hui, Paris 1884.

20 — DE LOREY (E.) : Rapport rédigé le 7 octobre 1926, Archive de l'Institut Français de Damas.

21 — MAYER (L.A.) : Saracenic Heraldry, Oxford 1933.

22 — MEINECKE (Michael) : Zur mamlukischen Heraldik, Mitteilungen des Deutschen Archaologischen instituts abteilung Kairo, Band 28, 2 1972.

23 — OPPENHEIM (Max Van) : Von Mittelmeer Zum Persischen Golf, Berlin, 1899.

24 — PARROT (André) : 1 - Assur, Paris, 1961, 2 - Sumer, Paris, 1960.

25 — POCOKE (Richard) : Description of the East, Pocoke's Travel, 2 volumes, London 1745.

26 — POIDBARD (A) : La trace de Rome dans le desert de Syrie Le limes de Trajan à la Conquête Arabe, 2 vols. Texte et Atlas, Paris 1934.

27 — PORTER (J.L.) : Five years in Damascus, 2 vols. London 1855.

28 — De POUS (Anny) : Notice sur l'evolution de l'Archère dans les chateaux Féodaux des Pyrénés Méditerranéeennes entre le Xème et le XIVème Siècle, (Revue) Gladius : Tome IV, Granada 1965.

29 — REY (G.) : Etude sur les monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'île de Chypre, Paris, 1871.

30 — RUNCIMAN (Steven) : A History of the Crusades, Vol. II, The Kingdom of Jerusalcm, Cambridge 1925.

31 — SAUVAIRE (H.) : Description de la Ville de Damas, Journal

Asiatique 1894 - 1896.

32 — SAUVAGET (Jean) : La Citadelle de Damas, SYRIA, XI, 1930 pp. 59 - 90 & pp. 216 - 241, 28 figs. + 6 Planches.

33 — SAUVAGET (Jean) : Le Plan Antique de Damas, SYRIA, XXVI, 1949, 3e et 4e Fasc., p. 314 - 358.

34 — SAUVAGET (Jean) : Monuments Historiques de Damas, in - 8e, 116 p. + 6 pl., Beyronth, 1932.

35 — SESTON (W.) : Diocletien et la Tétrarchie, 398 p. Paris 1926.

36 — SETTON (K.M.) : Ed. A History of the Crusades, 2 vols. University of Pensylvania, 1955.

37 — SMAIL (R.C.) : Crusading Warfaire, 1097 - 1193, Cambridge Univ. Press, 1954.

38 — SOBERNHEIM (M.) : Die Inschriften der Zitadelle von Damaskus, Der Islam, t. XII, 1922, p. 1 - 28 + 3 pl. + 1 Plan.

39 — SOURDEL (D & J) : La Civilisation de l'Islam Classique, Arthaud, Paris 1968.

40 — SOURDEL - THOMINE : Bourdj. Encyclopédie de l'Islam, N.E., T.1, p. 1355, Leyde, 1960.

41 — WULZUNGER (Karl) und WATZINGER (Carl) : Damascus 2 vols. :

I - Die Antike stadt. 112 p. + 85 Figs. + 1 plan (les pages 55 - 57, Berlin.

II - Die Islamische Stadt, Leipzig, 1924, 203 p. + 67 pl. + 57 figs. (p. 166 - 182).

42 — VAN BERCHEM (Max) : Inscriptions Arabes de Syrie, Dans Mémoires de l'Institut Egyptien, Fasc. III.

43 — VAN BERCHEM (Max) & Edmond FATIO : Voyage en Syrie, 3 vols. + Planche, Le Caire 1914.

44 — WIET (Gaston) : Notes d'Epigraphie Syro - Musulmane, Syria, VII, 1926, pp. 46 - 152.

45 — WIENER (Wolfgang Müller) : Castles of the Crusaders, Mc GRAW - HILL Book Company, New York - Toronto, 1966.

46 — ZIADEH (Nicolas) : Damascus under the Mamluks, university of Oklahoma Press, 1964, 1 carte, XX + 140 p.

47 — Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines.

48 — Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, 16 vols., Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1931 - 1964.

ملحق رقم (٥)

لائحة بالخرائط والرسوم

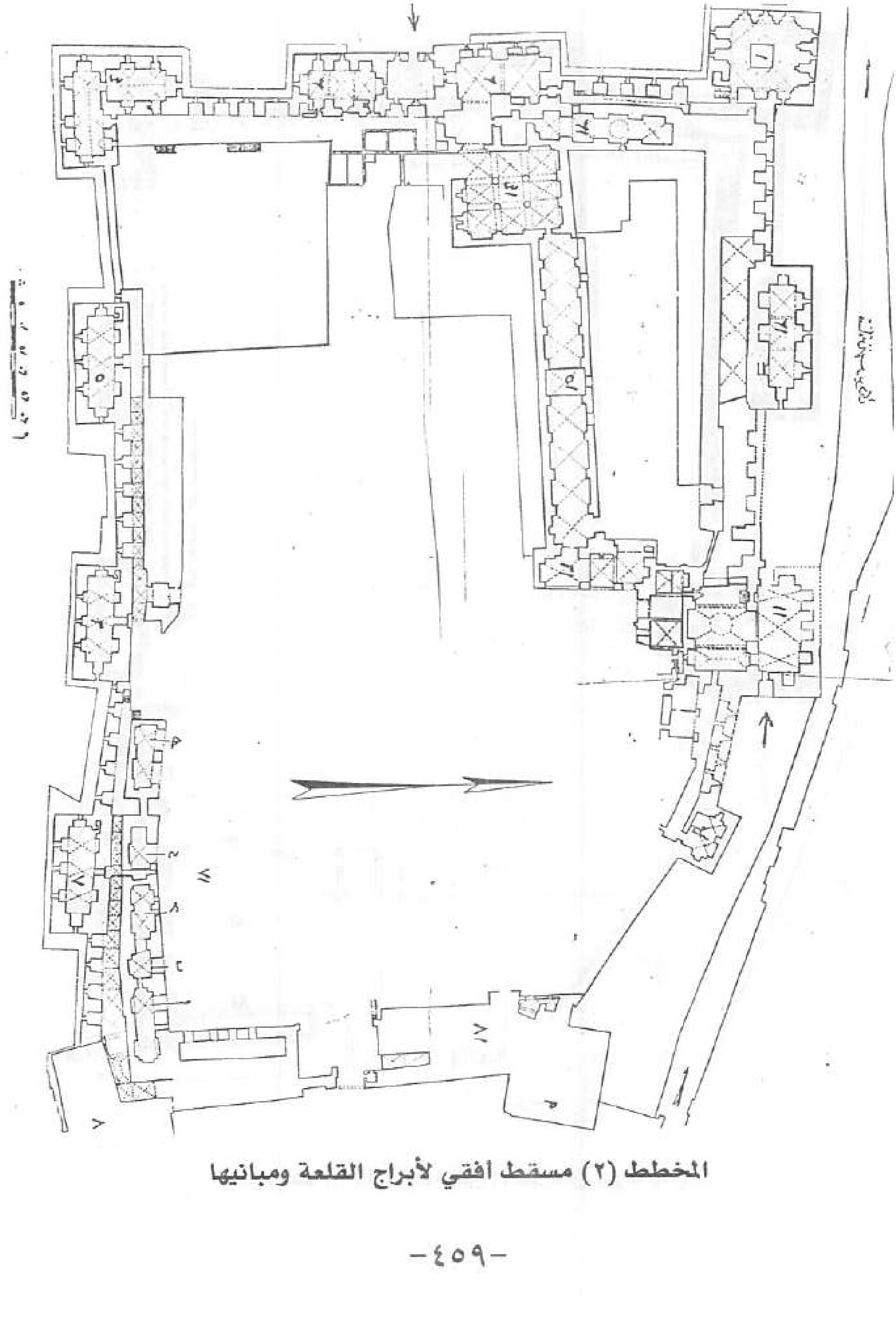
الرقم المتسلسل للمخططات	الموضـوع
١	مصور طوبوغرافي عقاري لموقع القلعة وما حولها
٢	المخطط الهندسي العام للقلعة (مسقط أفقي)
٣	المخطط المنشور من قبل سوفاجة
٤	المخطط المنشور من قبل (كينك)
٥	مصور باب الفرج وطاحونة القلعة وبرج القلعة رقم (١)
٦	مخطط مدينة دمشق القديمة وموقع القلعة منها
٧	مخطط معبد جوبيتر
٨	مخطط مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر
٩	مصور جغرافي للقلاع والمواقع التاريخية في سورية
١٠	مخطط يرج الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة القديمة
١١	مخطط طاحونة القلعة (مسقط أفقي)
١٢	مخطط الممر الدفاعي المجاور للبرج رقم (٩) مع البرج المستدير (مسقط أفقي)

ملحق رقم (٦)

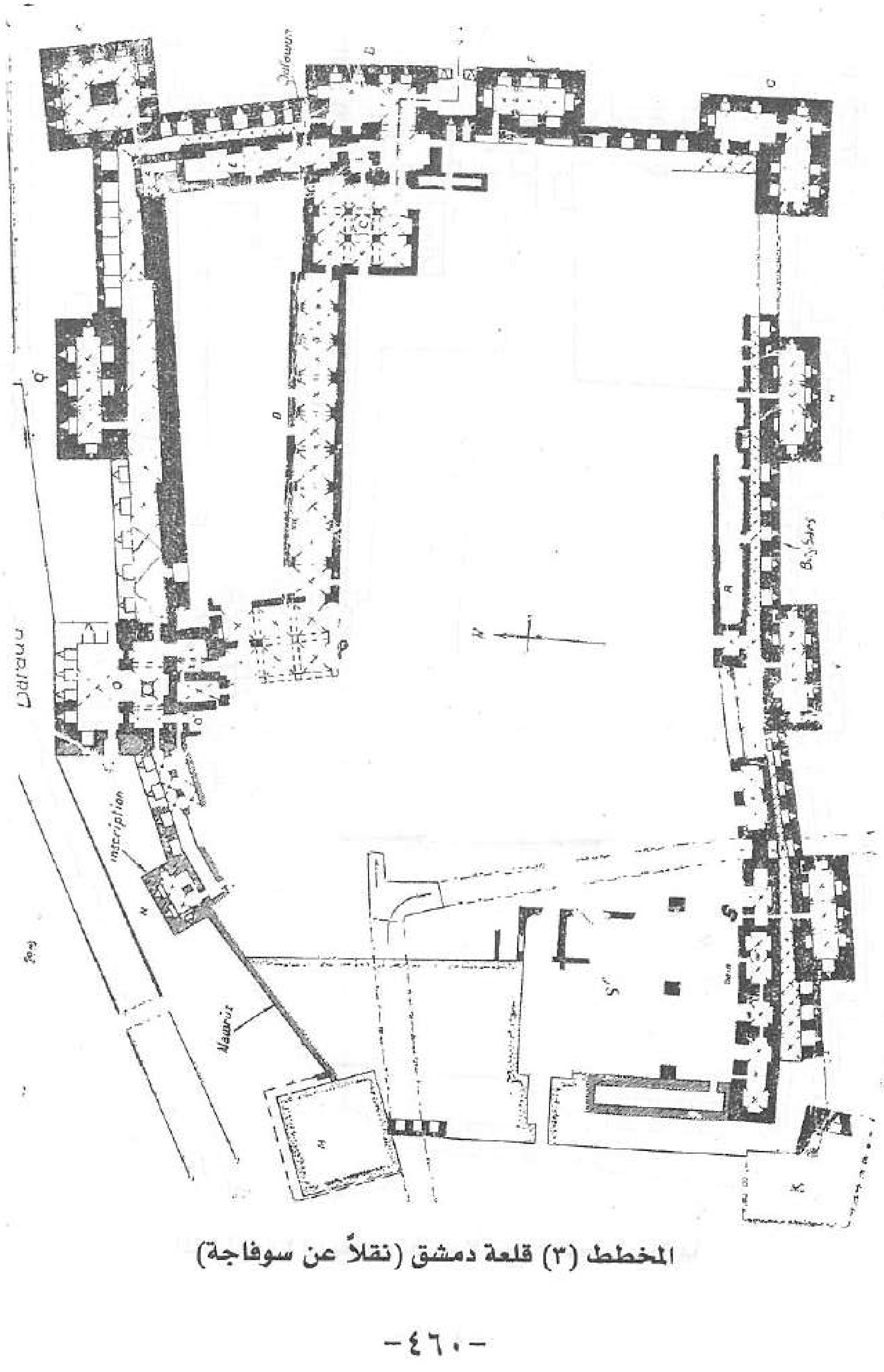
لائحة الصور الفوتوغرافية

الرقم	الموضوع
٤٧	روشن البدنة (٧-٨)
٤٨	البرج رقم ٨
٤٩	البرج رقم ٩
٥٠	البرج رقم ٩
٥١	البرج رقم (١٠)، الواجهة الشمالية
٥٢	البرج رقم (١٠)، الواجهة الشمالية
٥٣	الباب الشمالي
٥٤	البرج رقم (١١) من الداخل
٥٥	الباب الشمالي الداخلي (باب الحديد)
٥٦	البدنة (١١-١٢)
٥٧	الممر الدفاعي في السور الشمالي (السطح)
٥٨	واجهة القصر (المبنى ١٧)
٥٩	باب قاعة في القصر (رقم ١٧)
٦٠	آثار القاعة رقم (١٦).
٦١	قلعة بصرى
٦٢	برج قلعة شيزر

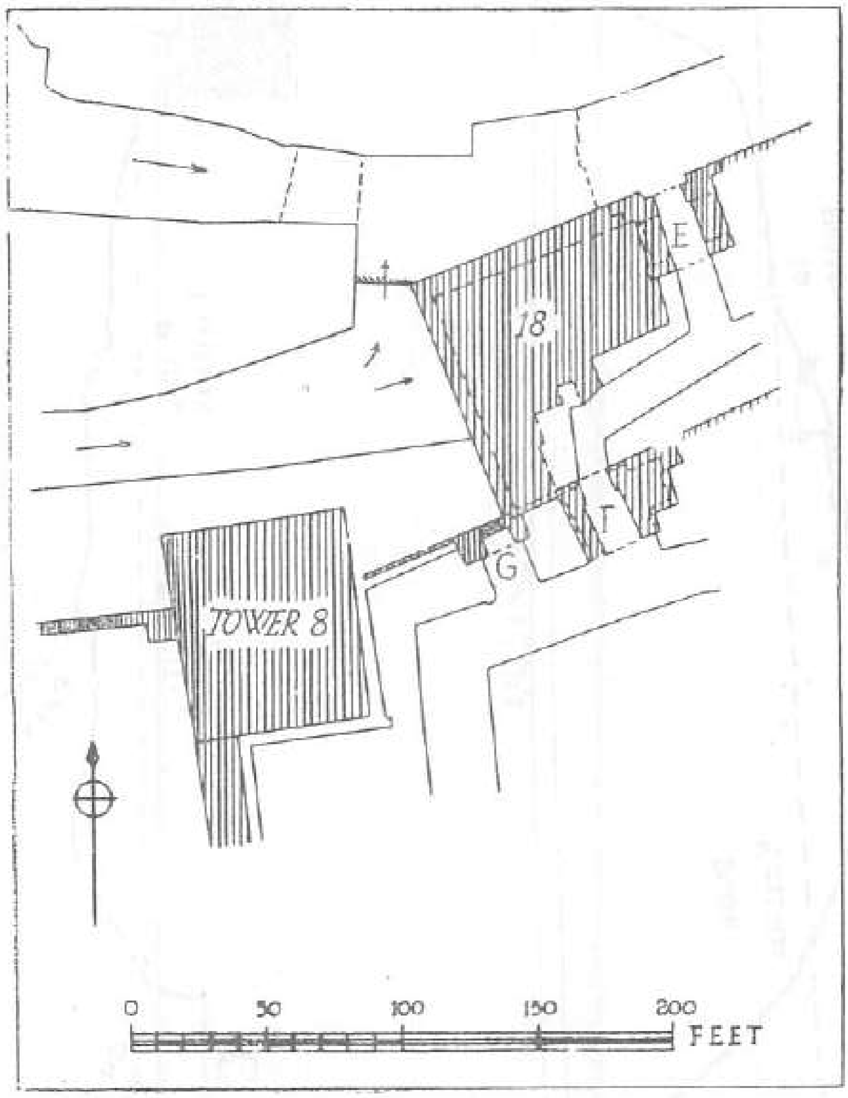
الرقم	الموضـوع
٧٩	روشن في قلعة دمشق من الداخل
٨٠	سقاطات برج في قلعة الحصن
٨١	سقاطة باب في قلعة صهيون
٨٢	سقاطات في سور حصن الاخيضر
٨٣	سور قلعة الحصن الداخلي (السطح)
٨٤	سور قلعة نجم (السطح)
٨٥	بوابة مدينة أوغاريت
٨٦	جدار سور في أوغاريت



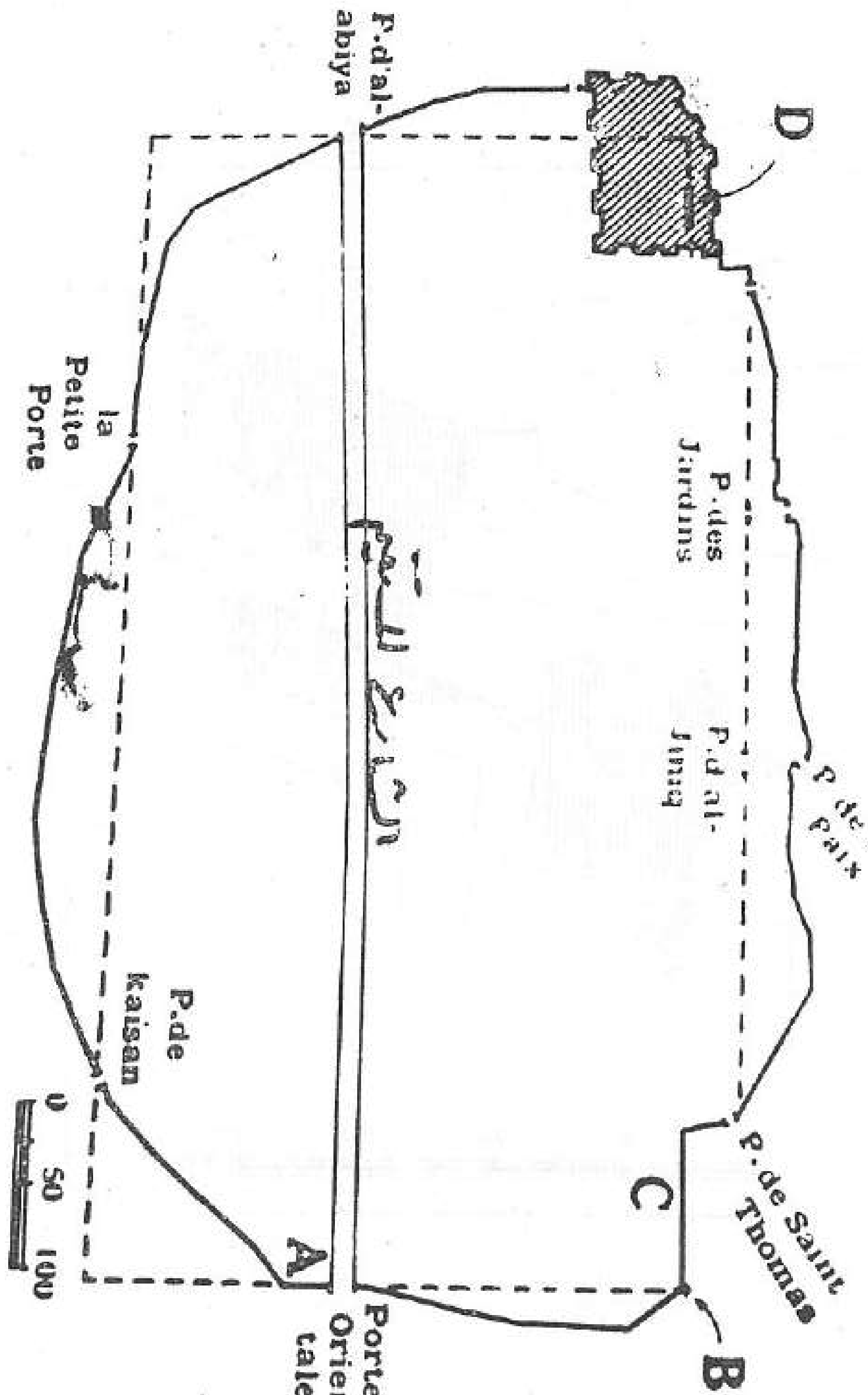
المخطط (٢) مسقط أفقي لأبراج القلعة ومبانيها



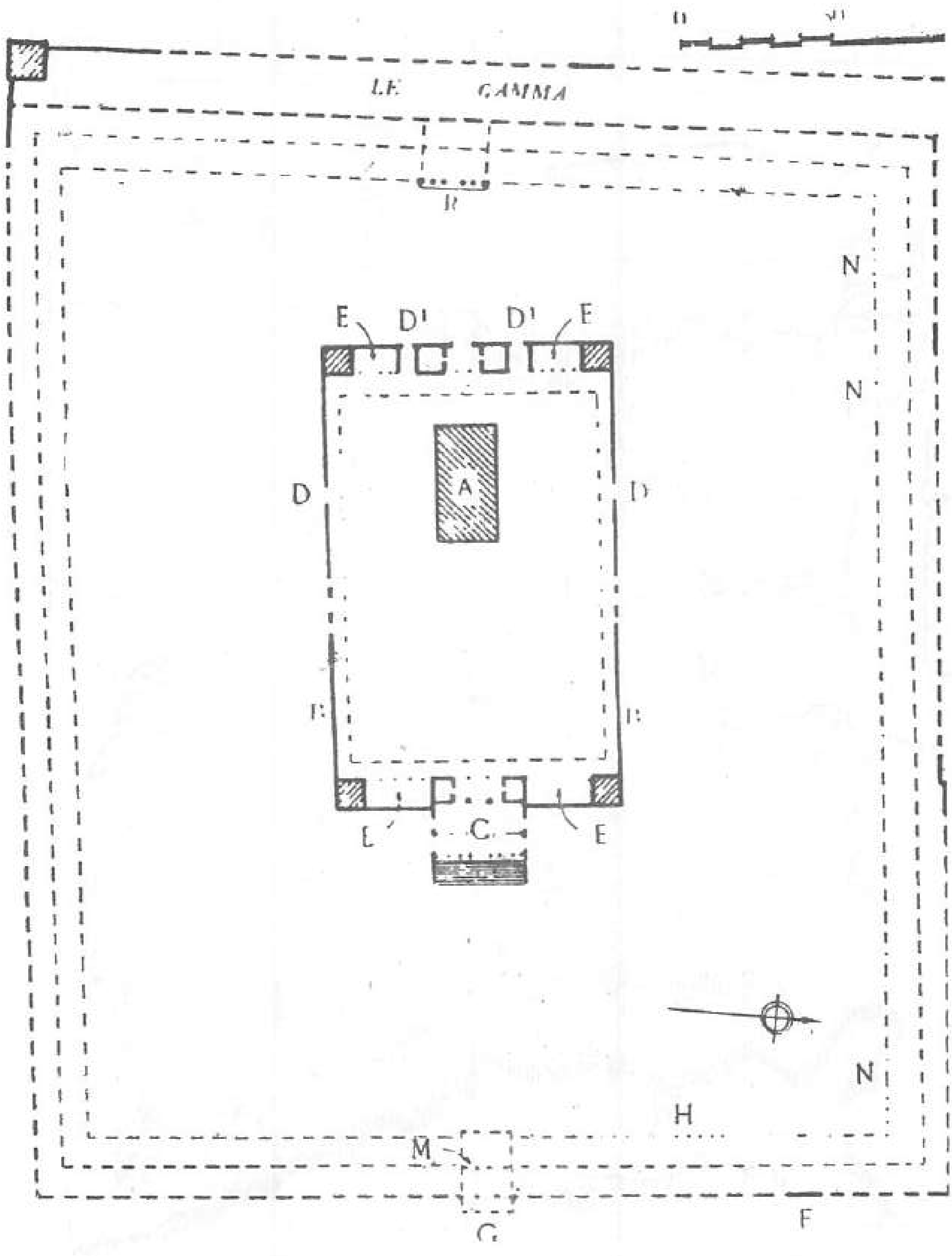
المخطط (٣) قلعة دمشق (نقلاً عن سوفاجة)



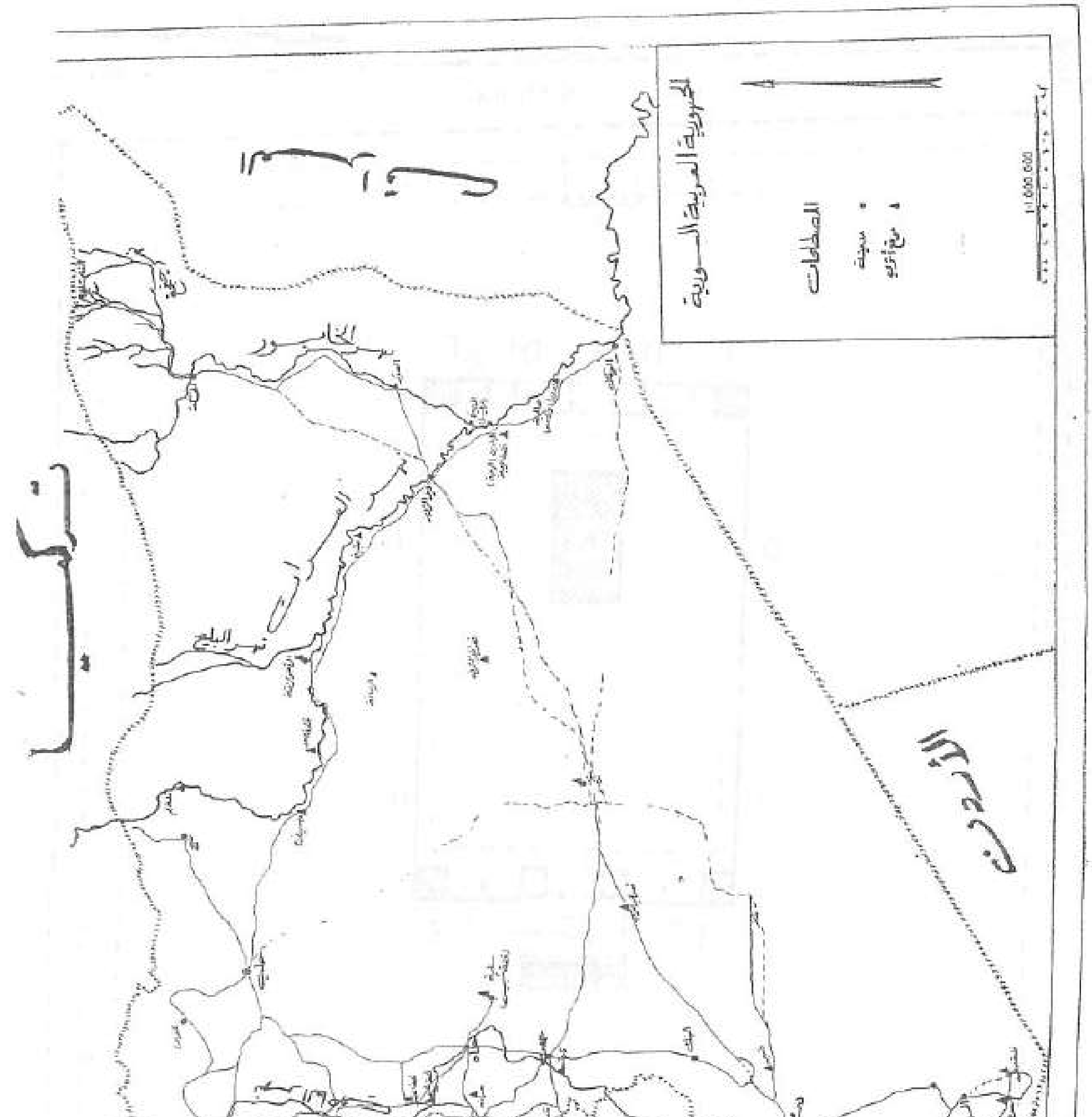
المخطط (٥) موقع القلعة بالنسبة لسور المدينة الشمالي وتشاهد فيه طاحونة المناخلية (١٨) وبابي الفرج الداخلي والخارجي، وبرج الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة (٨) نقلاً عن «كينك»



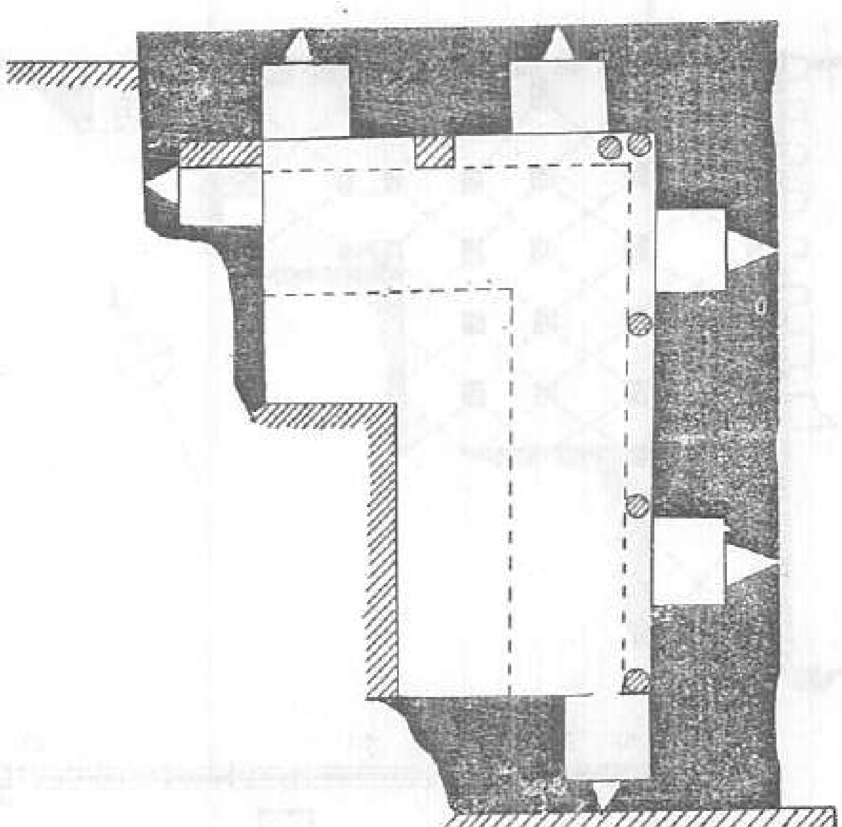
المخطط (٦) مدينة دمشق القديمة وموقع القلعة منها



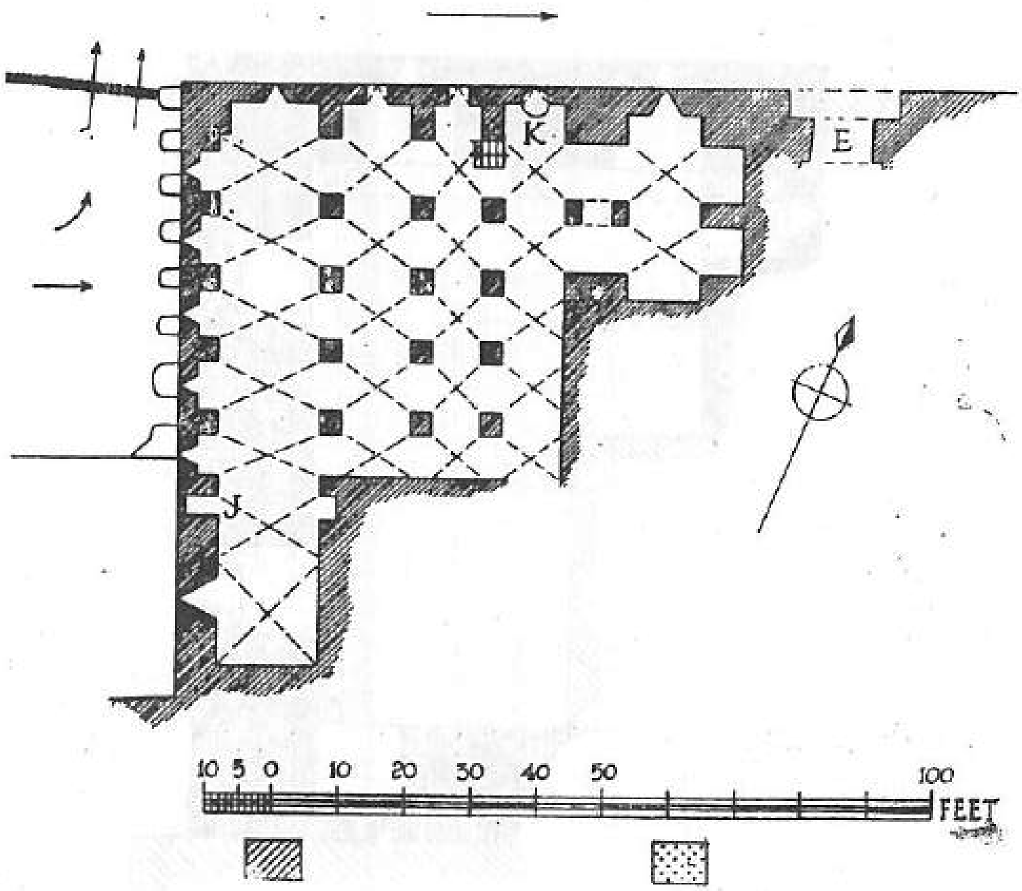
المخطط (٧) معبد جوبيتر (نقلاً عن سوفاجة)



الشكل (٩) مصور جغرافي للقلاع والمواقع والأماكن

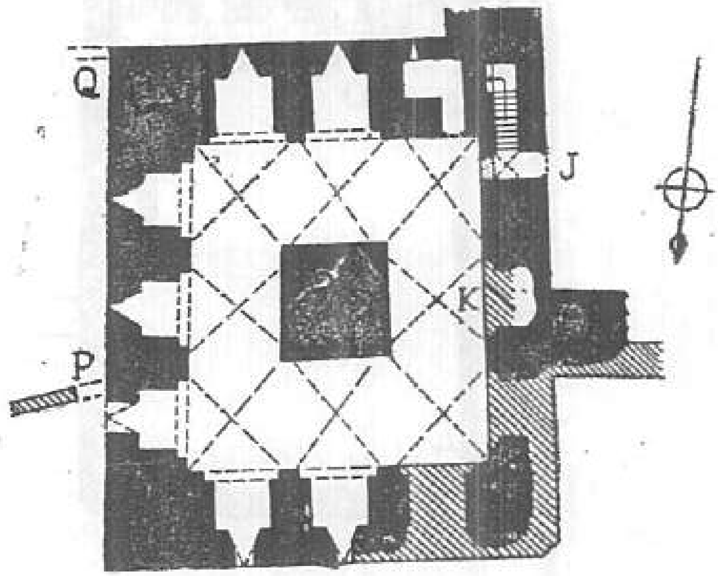


الشكل (١٠) القلعة السلجوقية
مخطط برج الزاوية الشمالية الشرقية (نقلاً عن سوفاجه)

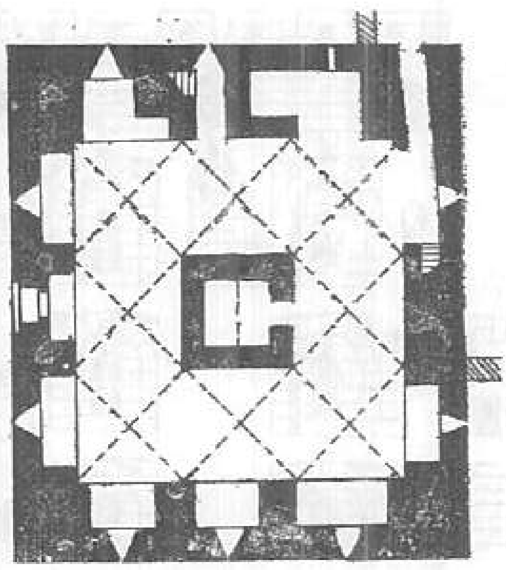


الشكل (١١) مخطط طاحونة باب الفرج الملاصقة للقلعة من الجهة الشمالية الشرقية (نقلاً عن «كينك»)

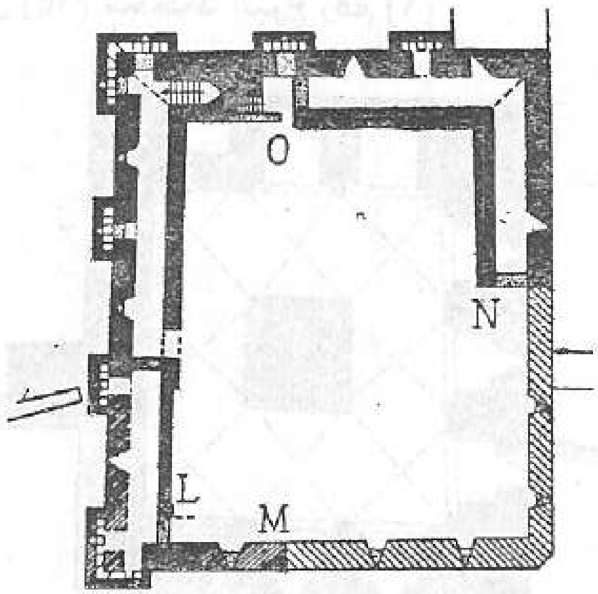
الشكل (١٣) مخطط البرج رقم (١)



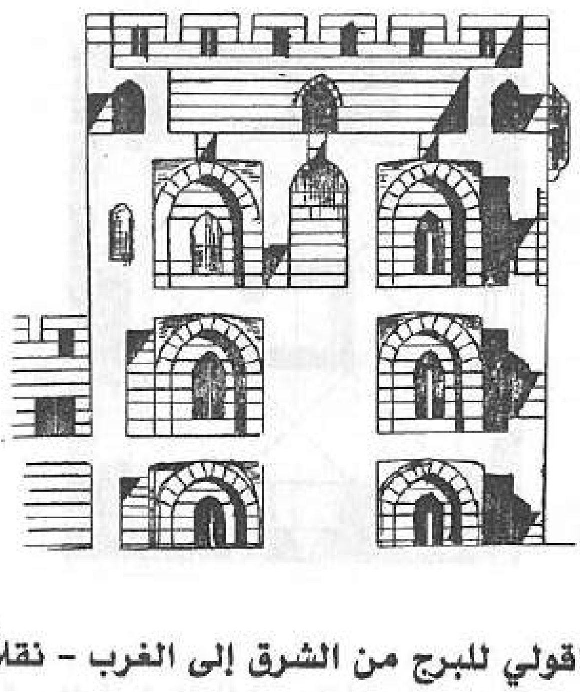
آ - مسقط أفقي للطابق الأول (الأرضي) - نقلاً عن «كينك»



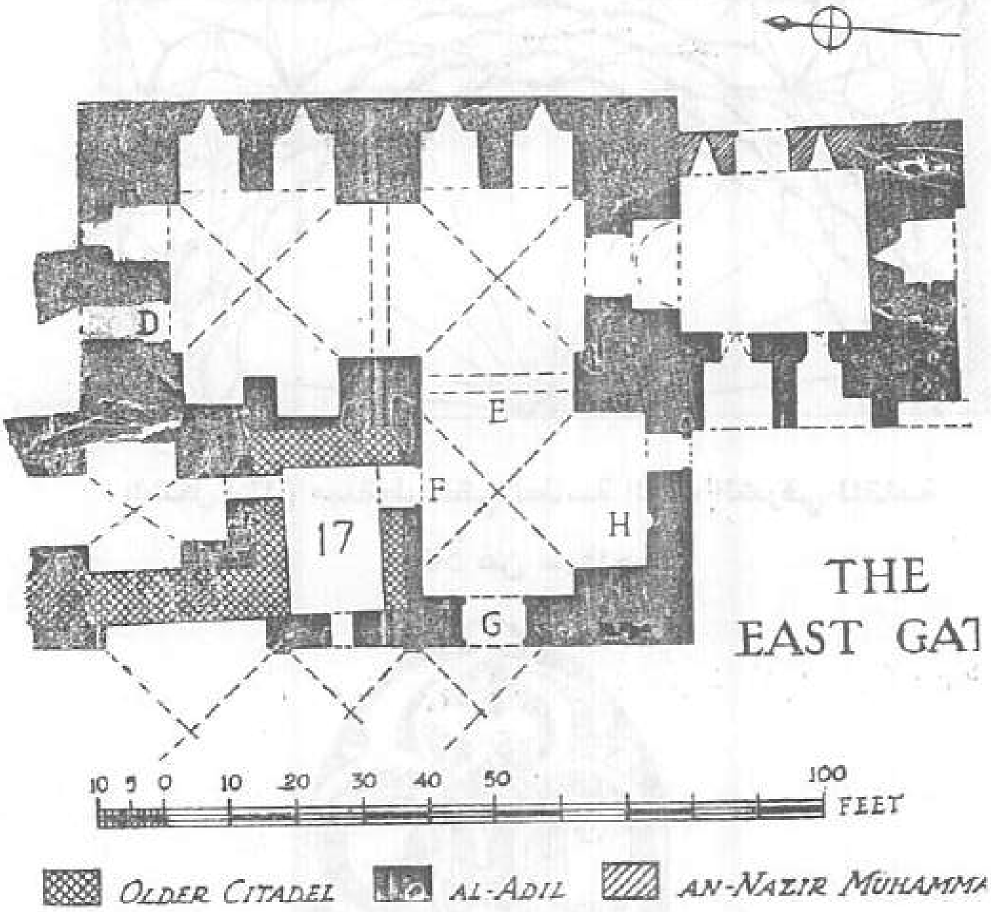
ب – مسقط أفقي للطابق الثالث - نقلاً عن «سوفاجه»



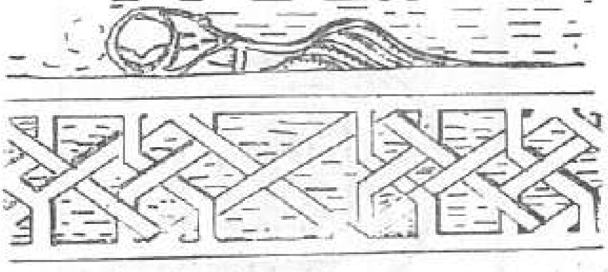
جـ - مسقط أفقي للسطح والستائر (الطابق السفلي) - نقلاً عن «كينك»



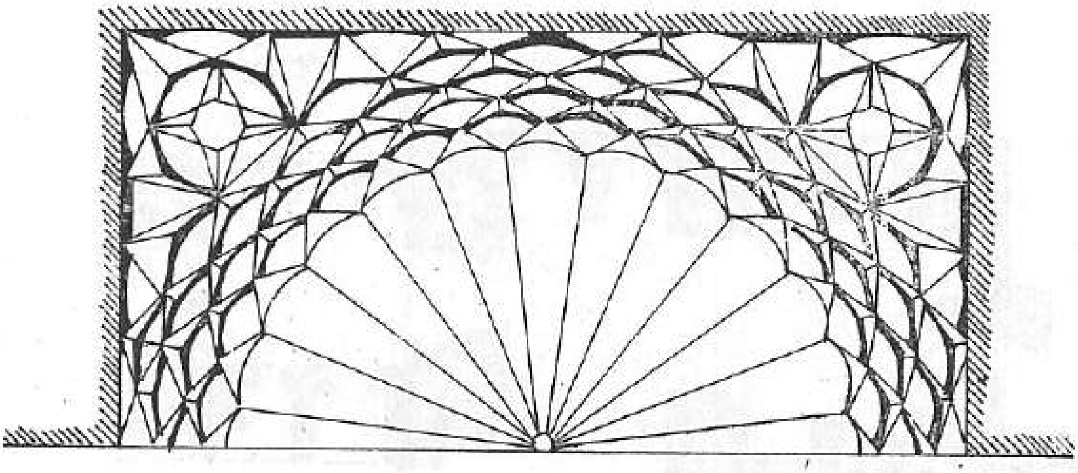
د - مقطع شاقولي للبرج من الشرق إلى الغرب - نقلاً عن «سوفاجه»



الشكل (١٤) مسقط أفقي للبرج رقم ٢ والباب الشرقي للقلعة والبدنتان المجاورتان له (٢ - ٣) (نقلاً عن كينك)



الشكل (١٥) زخارف جصية في قاعة الباب الشرقي (البرج رقم ٢) (نقلاً عن سوفاجه)

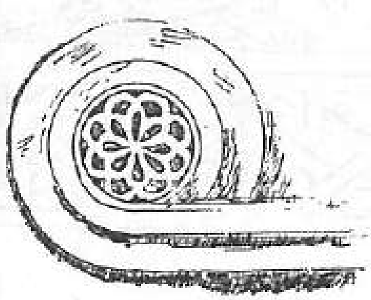


الشكل (١٦) مسقط أفقي لطاسة الباب الشرقي للقلعة

(نقلاً عن سوفاجه)

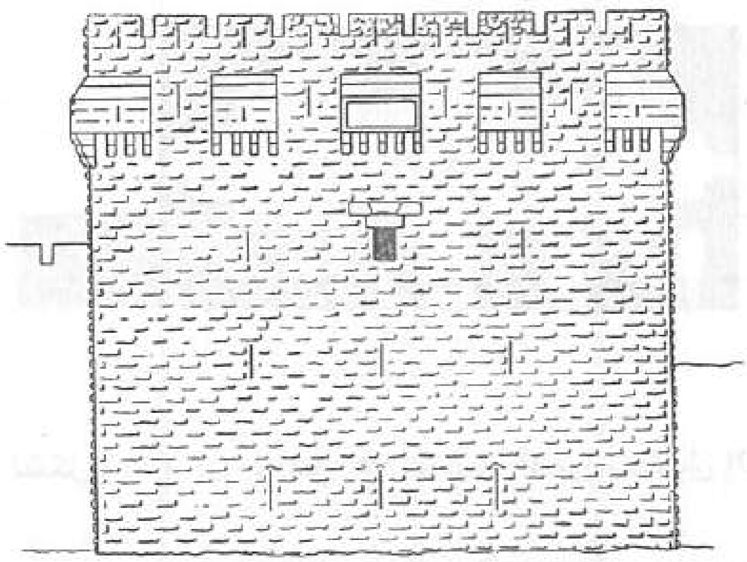


الشكل (١٧) زخارف محاريب المقرنصات في طاسة الباب الشرقي للقلعة

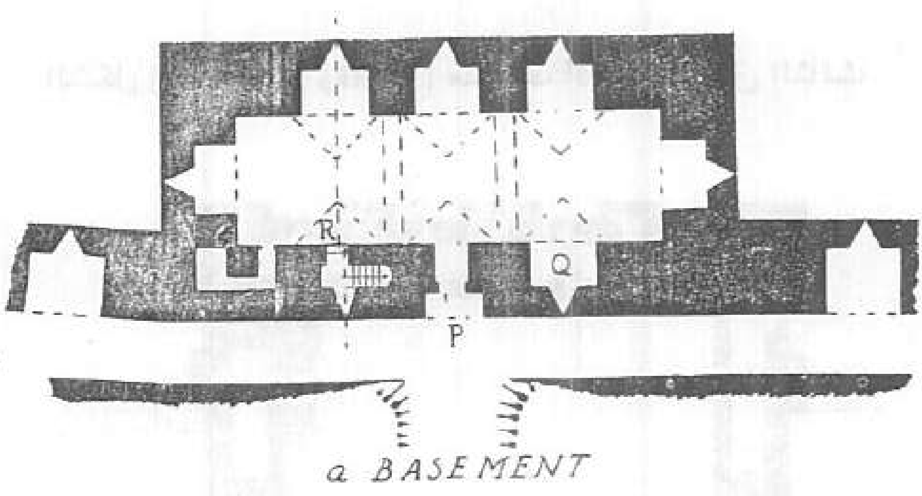


الشكل (١٨) نهاية القولبة التي تعلو باب القلعة الشرقي

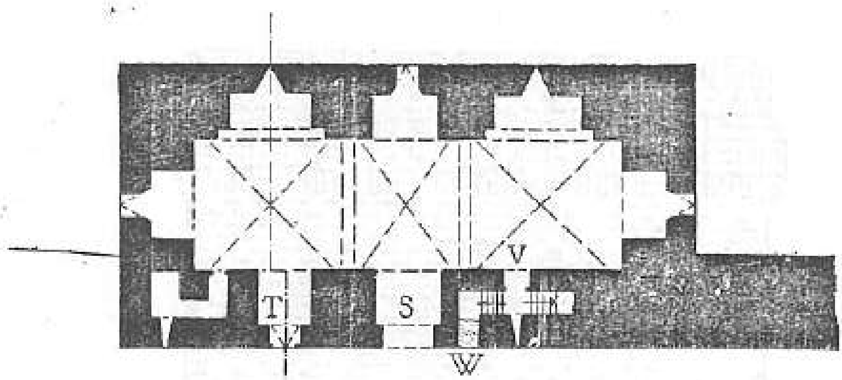
(نقلاً عن سوفاجه)



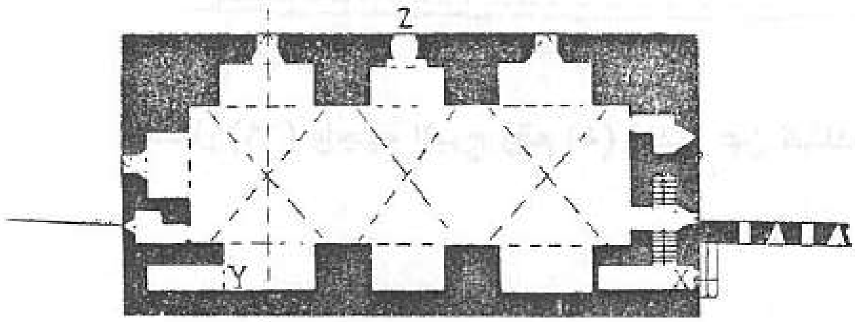
الشكل (١٩) واجهة البرج رقم (٥) (نقلاً عن كينك)



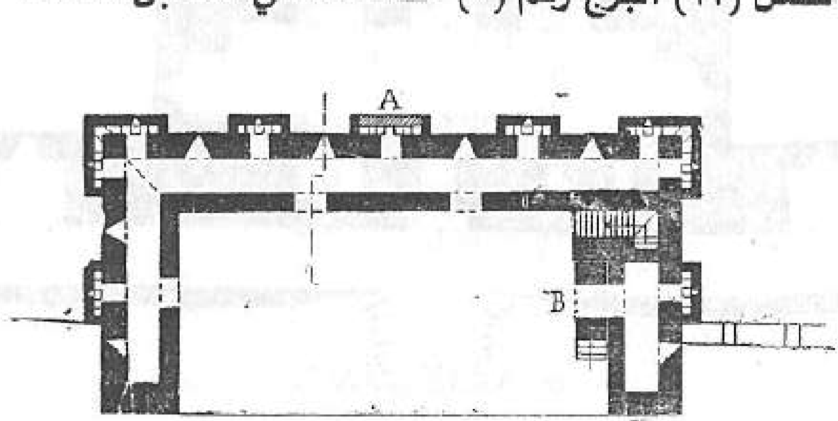
الشكل (٢٠) مسقط أفقي للطابق الأول
من البرج رقم (٥) (نقلاً عن كينك)



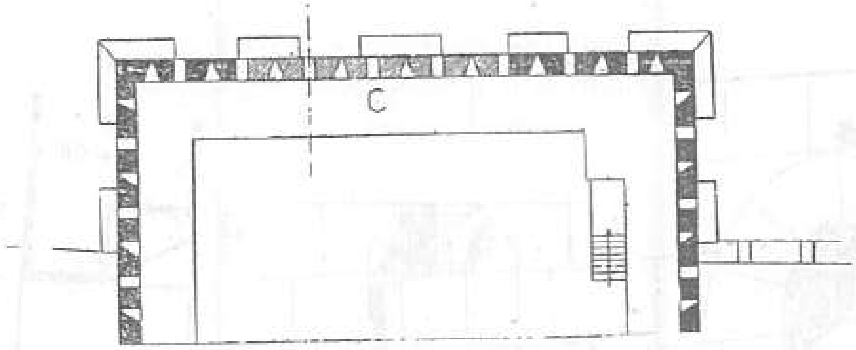
الشكل (٢١) البرج رقم (٥) مسقط أفقي للطابق الثاني



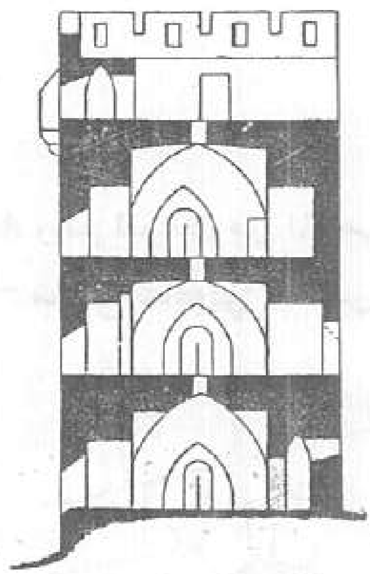
الشكل (٢٢) البرج رقم (٥) مسقط أفقي للطابق الثالث



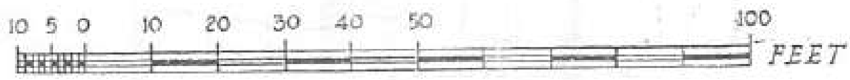
الشكل (٢٣) البرج رقم (٥) مسقط أفقي للطابق السفلي من الستائر



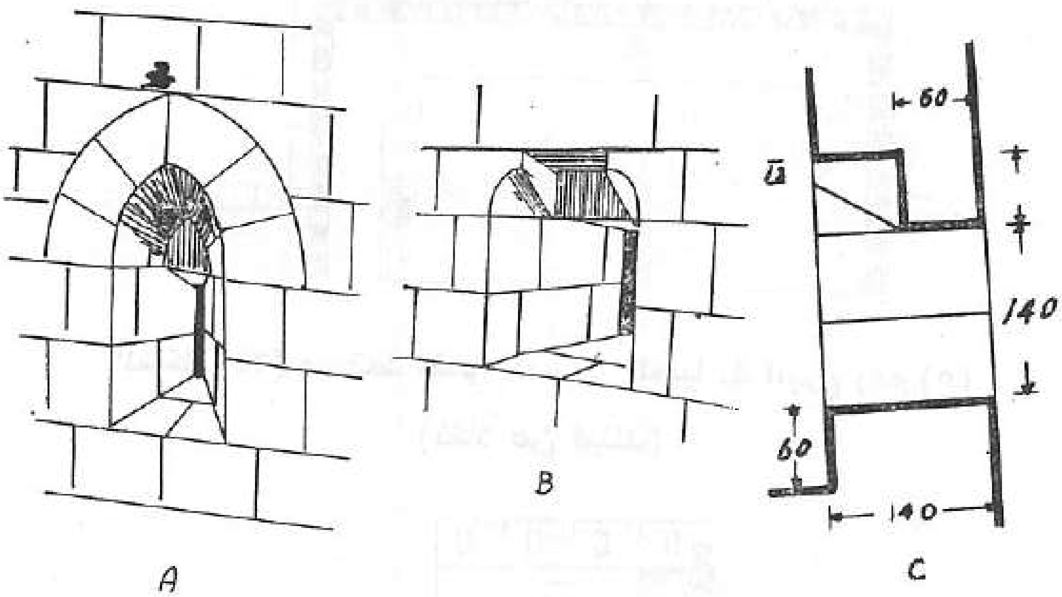
الشكل (٢٤) مسقط أفقي للستائر العليا في البرج رقم (٥)
(نقلاً عن كينك)



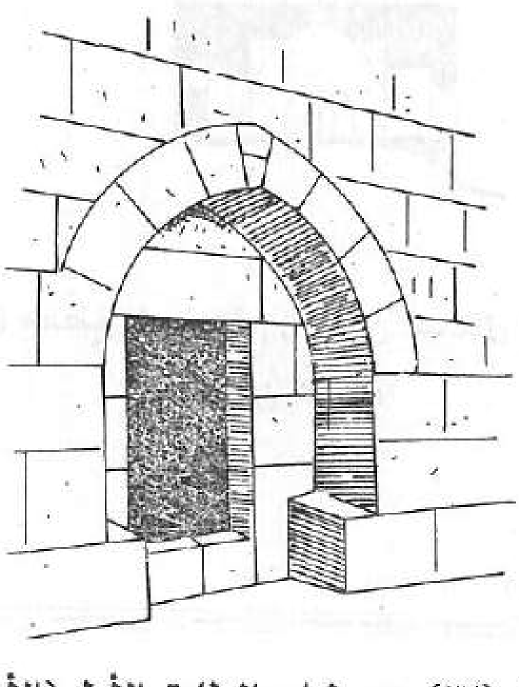
الشكل (٢٥) مقطع البرج رقم (٥) من الشمال إلى الجنوب
(نقلاً عن كينك)



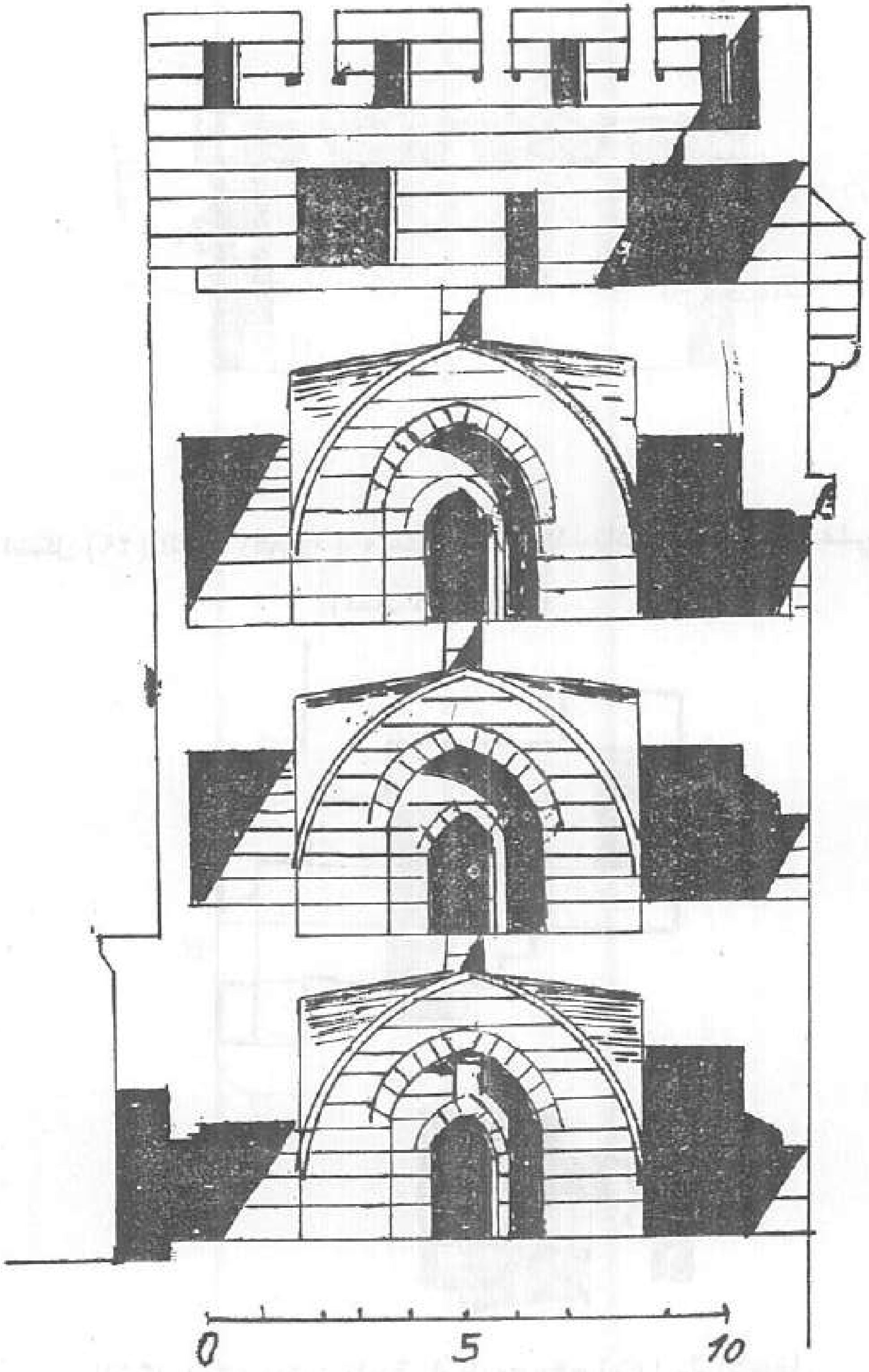
- مقياس بالأقدام للأشكال من ١٩ إلى ٢٥



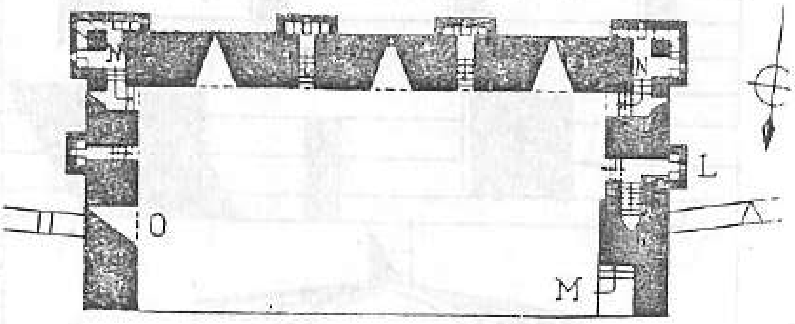
الشكل (٢٦) AB رسم لنوعين من المرامي المستخدمة في بدنات – قلعة دمشق – مقطع شاقولي للمرمى B (نقلاً عن سوفاجه)



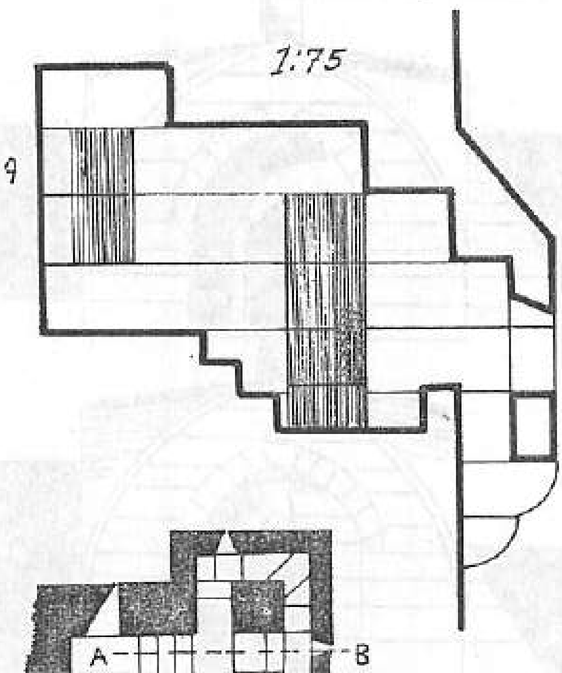
الشكل (٢٧) رسم لباب الطابق الأول (الأرضي) في البرج رقم ٦ (نقلاً عن سوفاجه)



الشكل (٢٨) مقطع شمالي جنوبي للبرج رقم (٦)
(نقلاً عن سوفاجه)



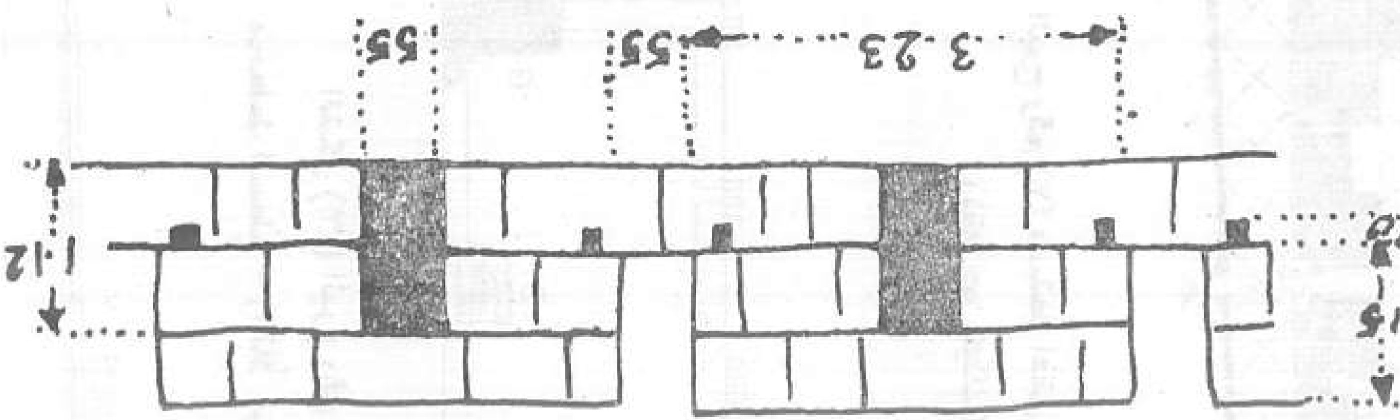
الشكل (٢٩) البرج رقم (٦)، مسقط أفقي للستائر (الطابق السفلي) (نقلاً عن كينك)



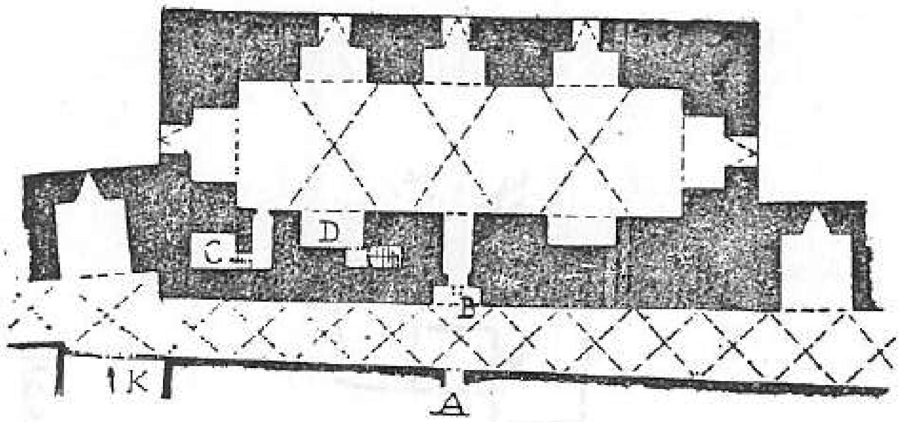
الشكل (٣٠) روشن زاوية في البرج رقم (٦) أ في الأسفل

مسقط أفقي مقياس ١/١٥٠ من الأعلى

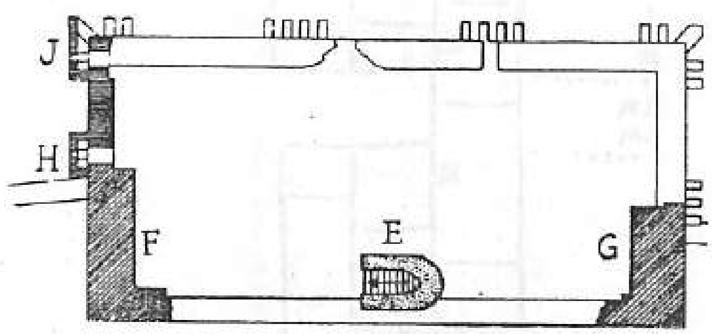
مقطع مقياس ١/٥٧ (نقلاً عن سوفاجه)



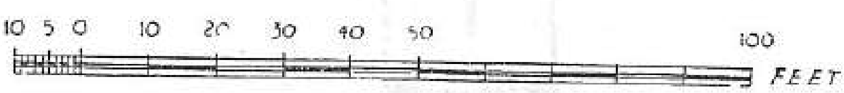
الشكل (٣١) رسم لجزء من الستائر العليا في البرج رقم (٦)
واجهة خلفية (نقلاً عن سوفاجه)



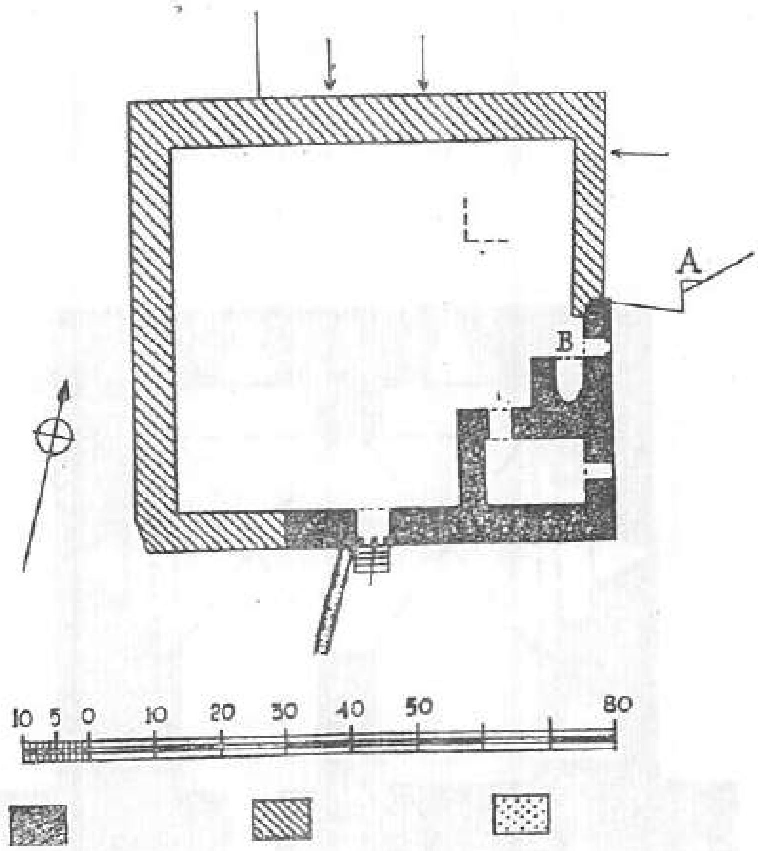
الشكل (٣٢) البرج رقم (٧) مسقط افقي للطابق الأرضي (الأول)
(نقلاً عن كينك)



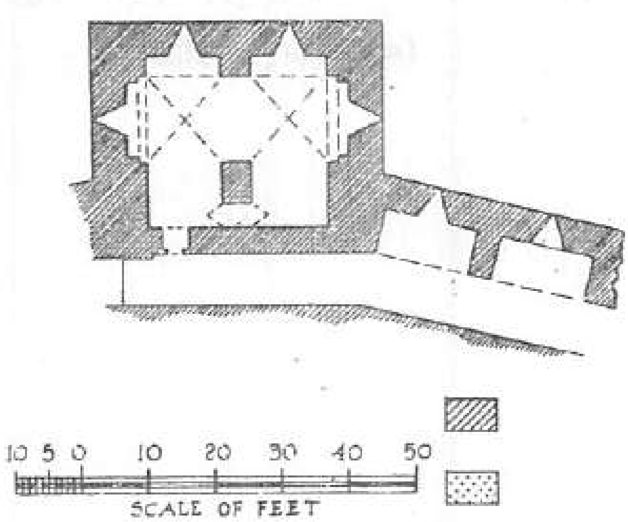
الشكل (٣٣) البرج رقم (٧)
مخطط السطح - (نقلاً عن كينك)



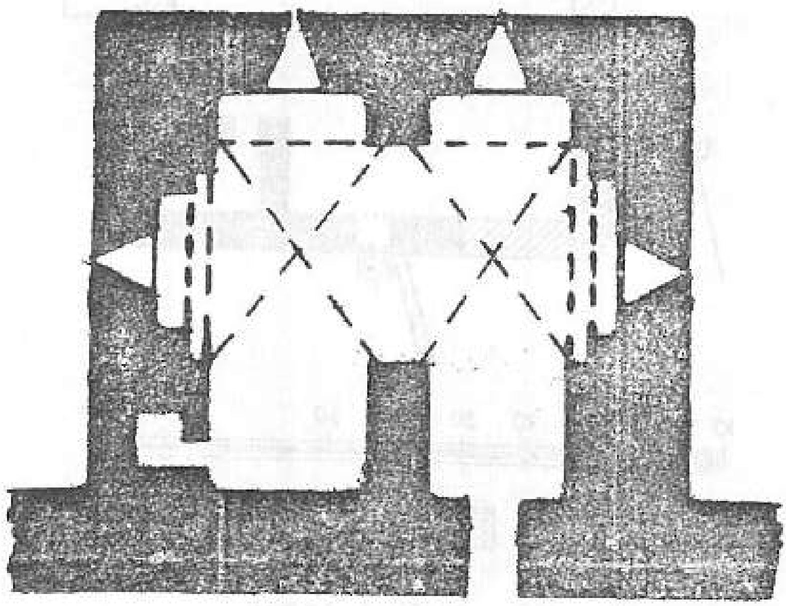
مقياس عام بالأقدام للرسوم المنقولة عن «كينك»



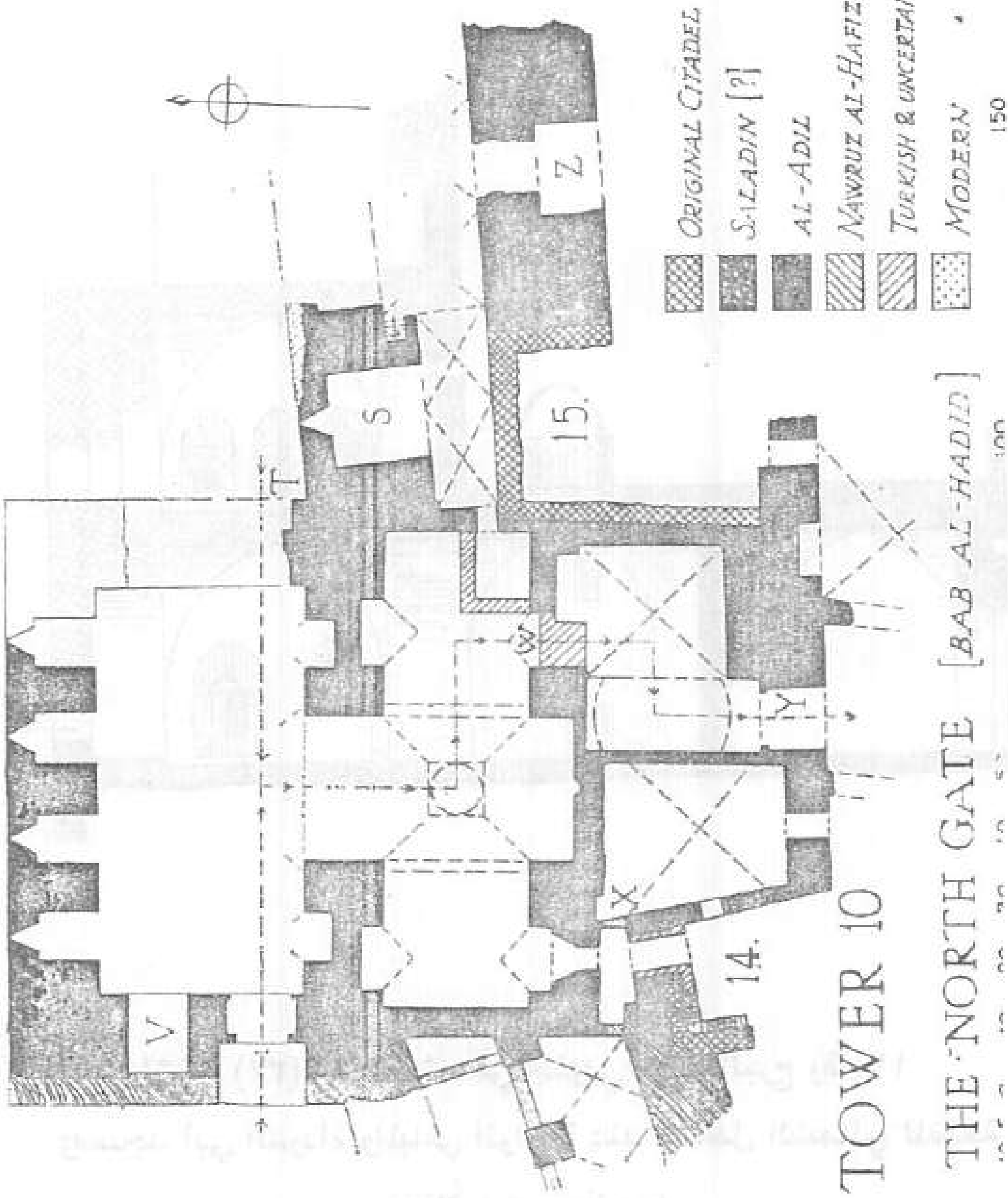
الشكل (٣٤) البرج رقم (٩)
الطابق العلوي (نقلاً عن كينك)



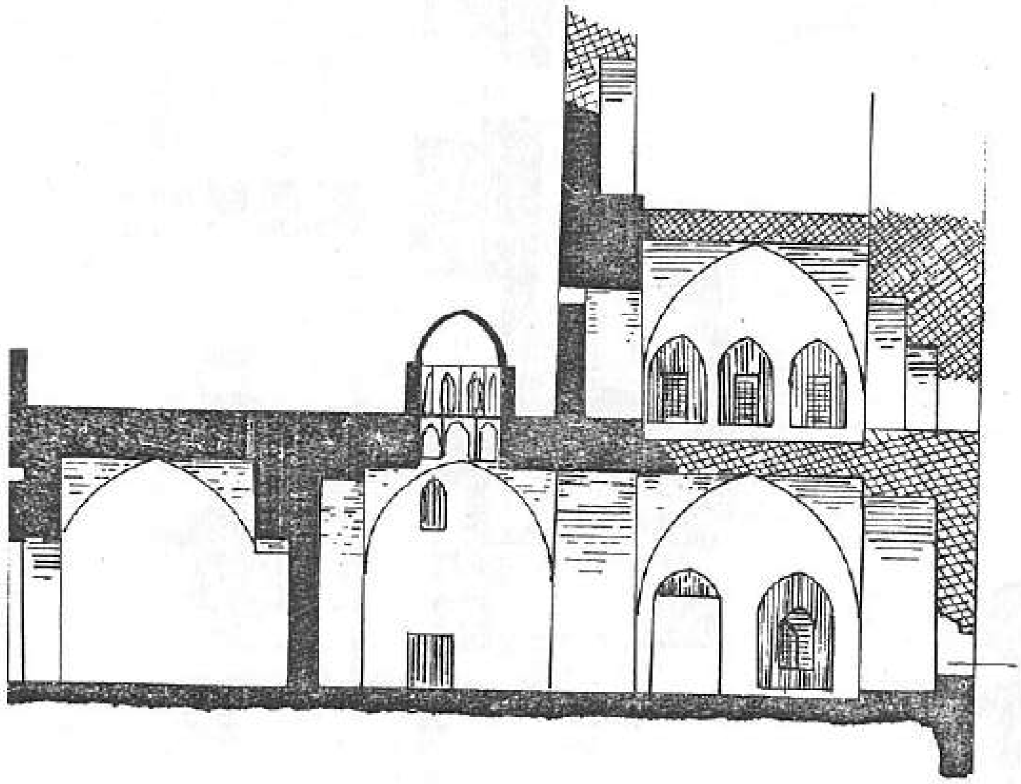
الشكل (٣٥/آ) البرج رقم ١٠ الطابق الأرضي
(نقلاً عن كينك)



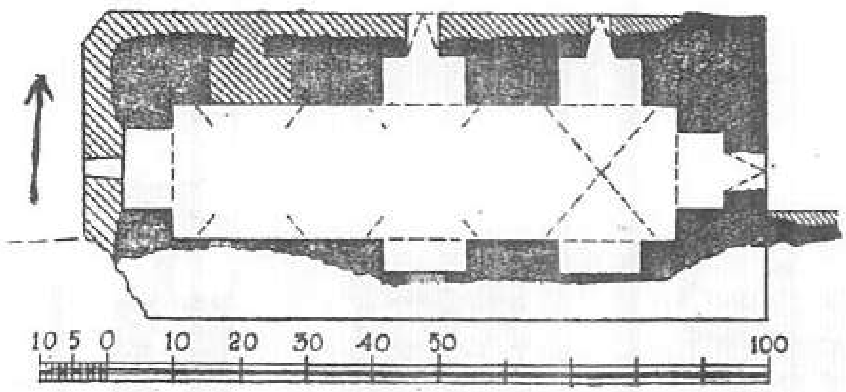
الشكل (٣٥/ب) البرج رقم ١٠ الطابق العلوي
(نقلاً عن سوفاجه)



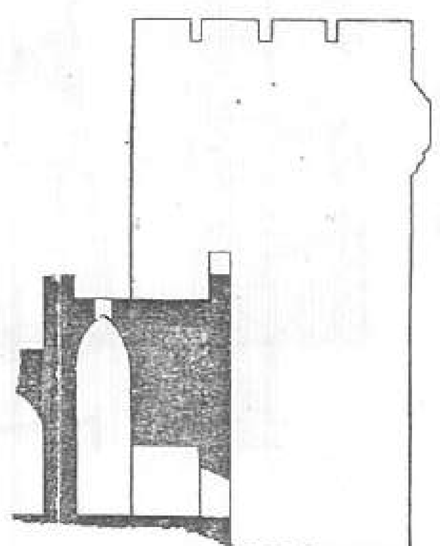
الشكل (٣٦) مخطط المدخل الشمالي والبرج رقم ١١
(نقلاً عن كينك)



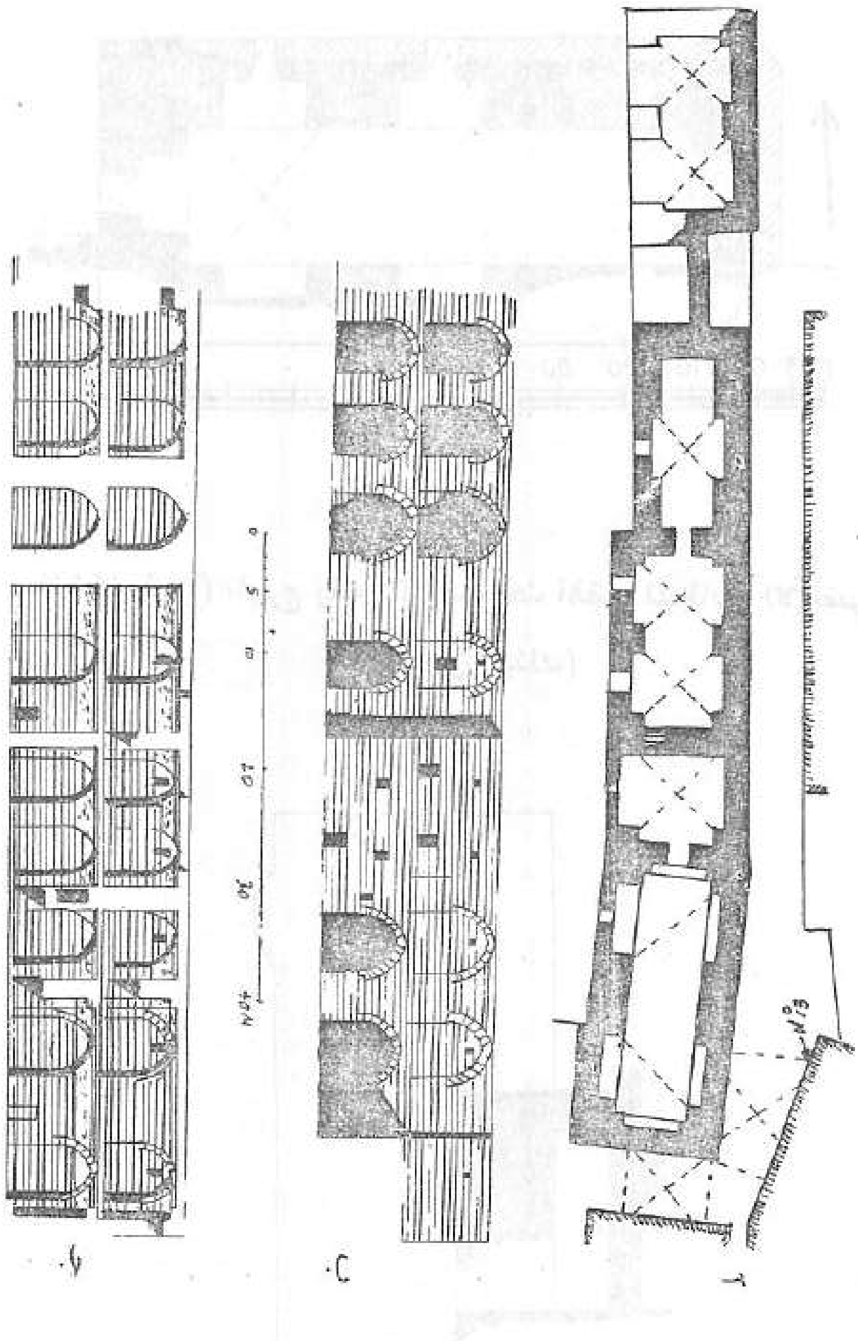
لشكل (٣٧) مقطع شمالي جنوبي يمثل البرج رقم ١١
ومسجد أبي الدرداء والمباني الواقعة عند المدخل الشمالي للقلعة
(نقلاً عن سوفاجه)



الشكل (٣٨) البرج رقم ١٢، مسقط أفقي للطابق الأرضي (نقلاً عن كينك)

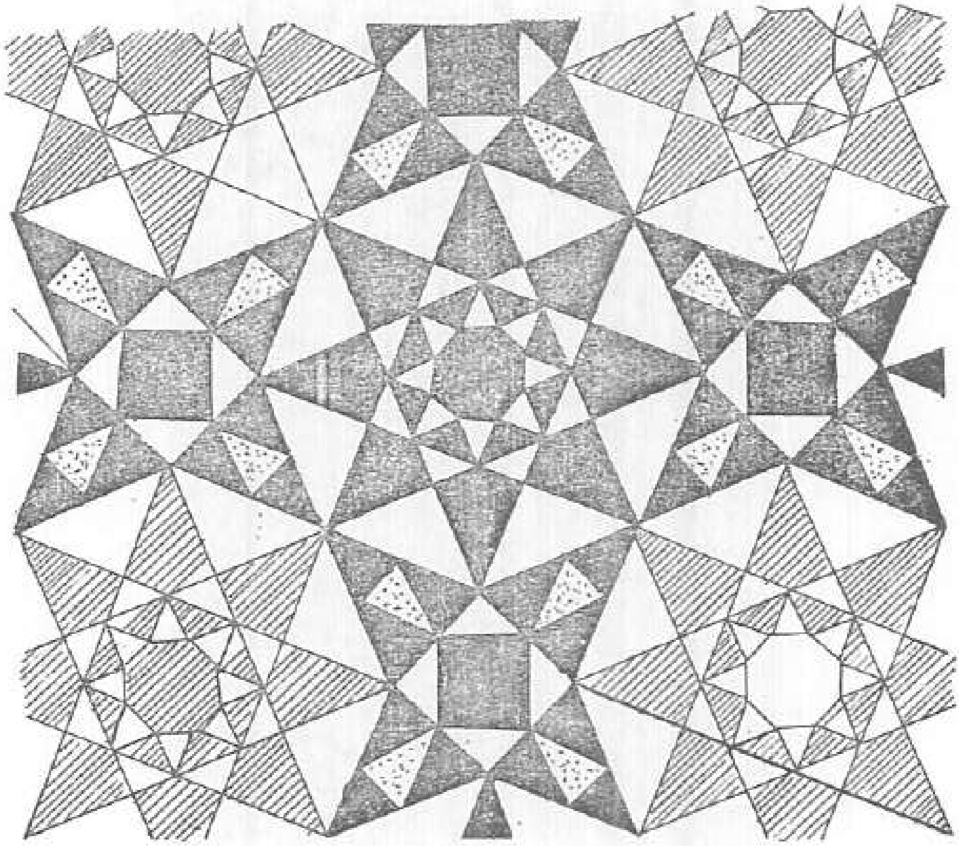


الشكل (٣٩) مقطع يبيّن وضع الممر الدفاعي المسقوف بالنسبة للبدنات، عند البرج رقم ٥ (نقلاً عن كينك)

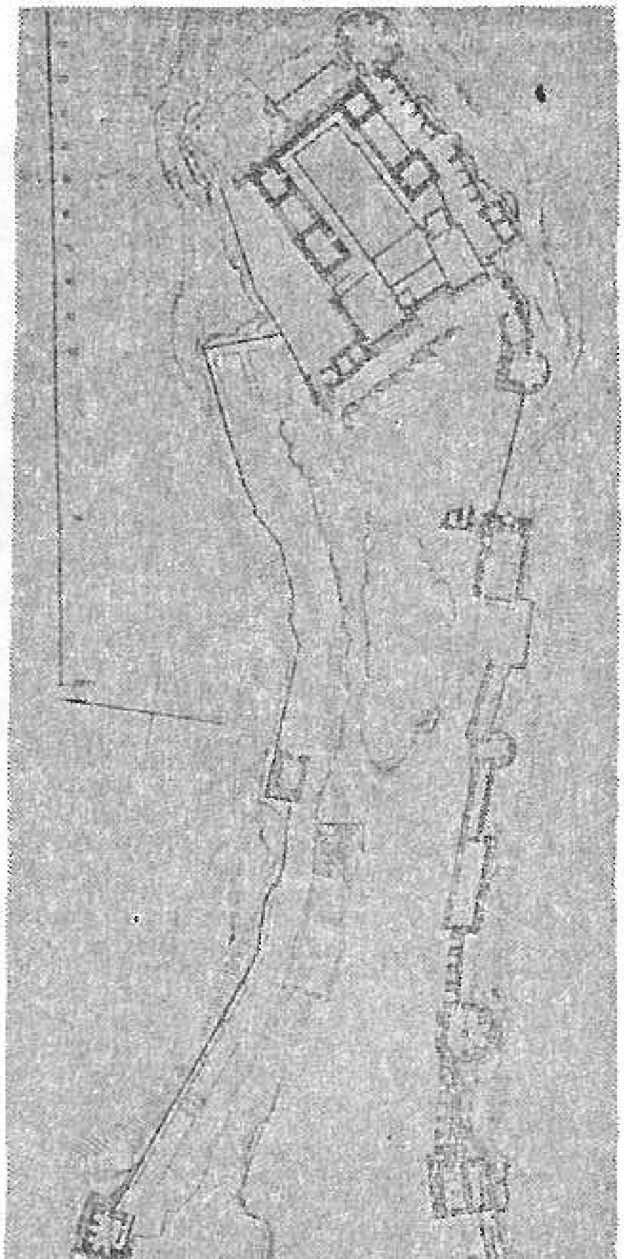


آ – مسقط أفقي ب – الواجهة الشمالية جـ- مقطع من الشرق إلى الغرب

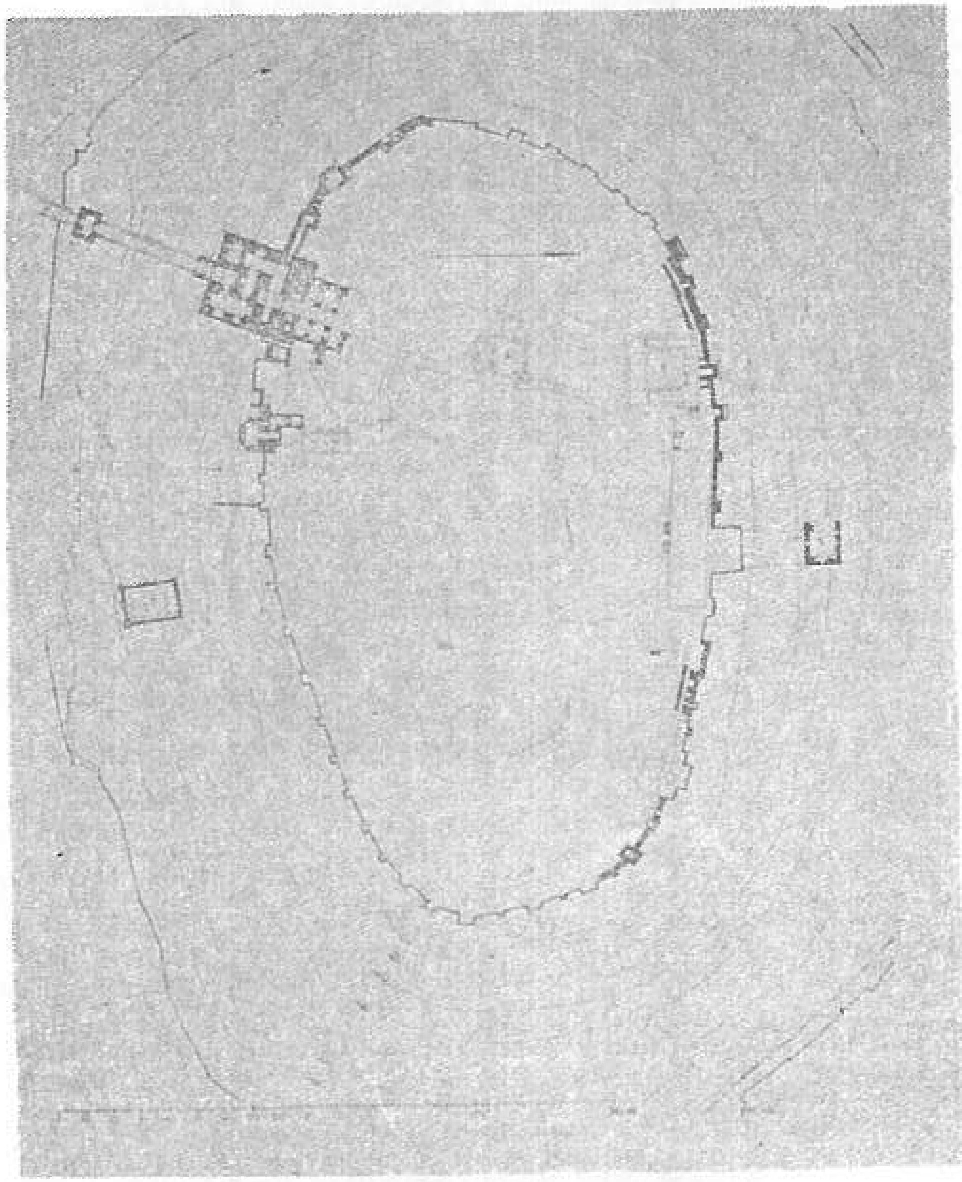
الشكل (٤٠) القصر الأيوبي (نقلاً عن سوفاجه)



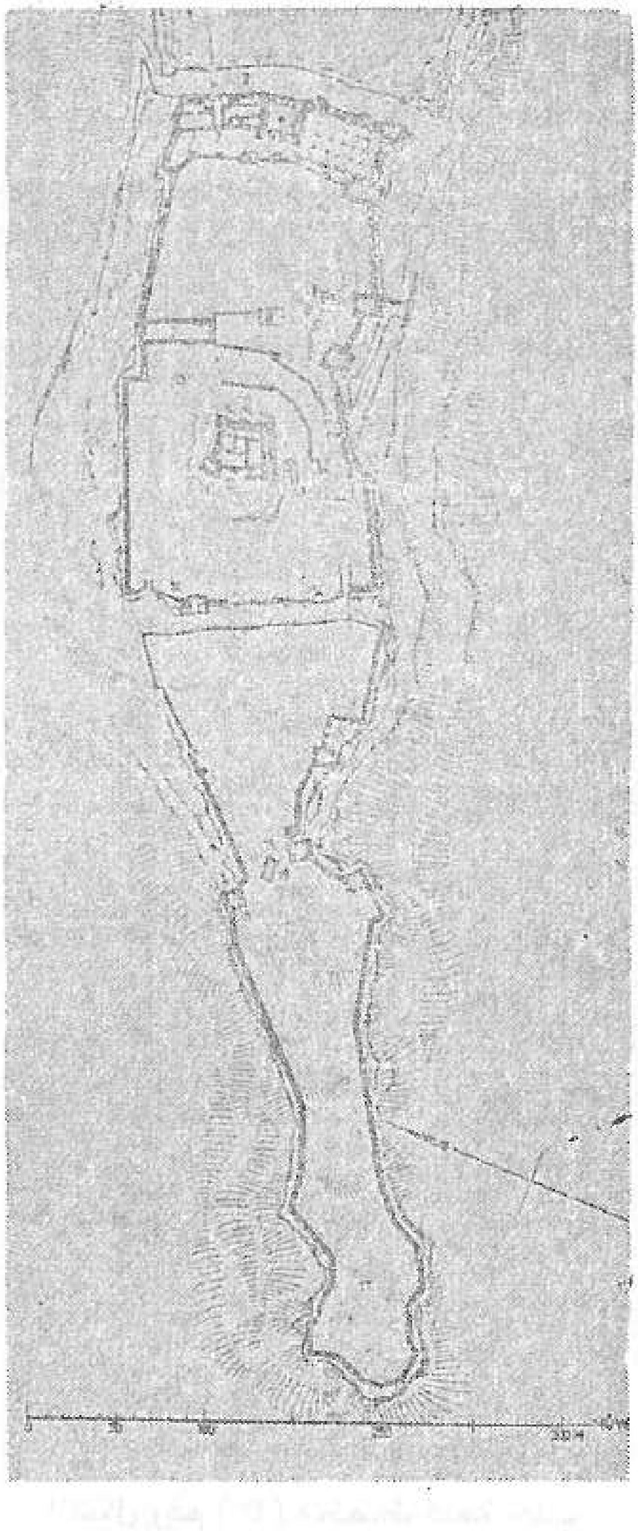
الشكل (٤١) بلاط من الفسيفساء الرخامية
اكتشف في موقع القصر (نقلاً عن سوفاجه)



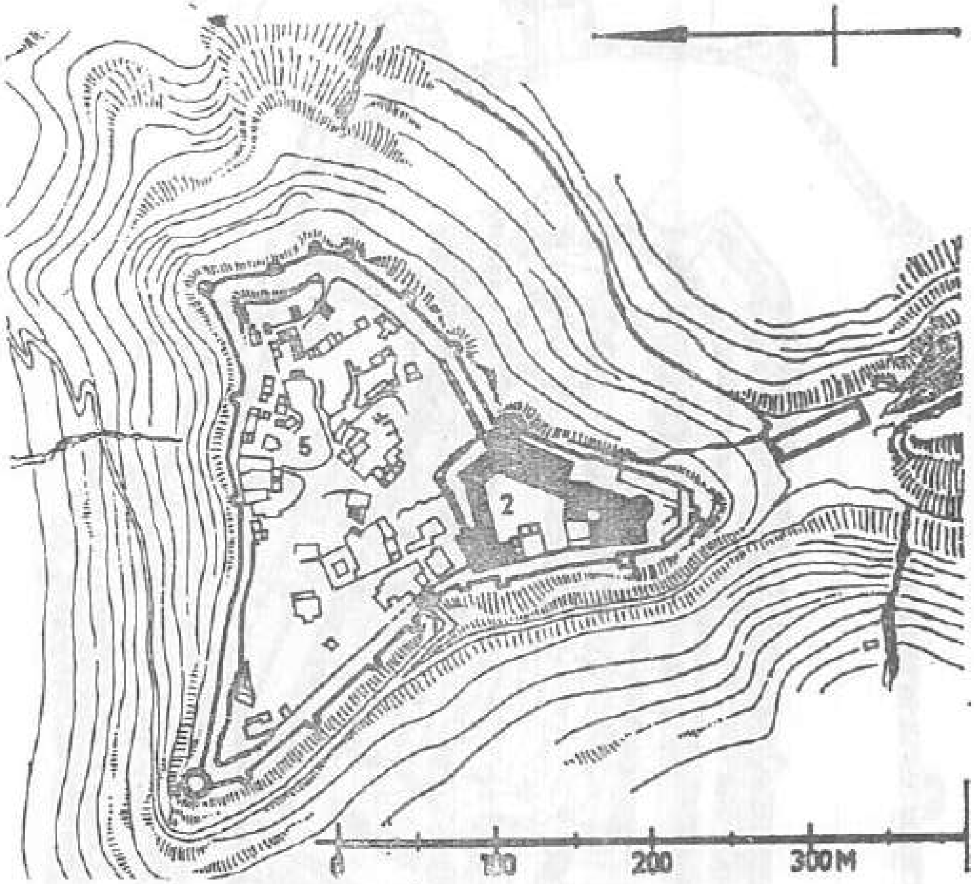
الشكل (٤٢) مخطط قلعة الصليبية (نقلاً عن فينر)



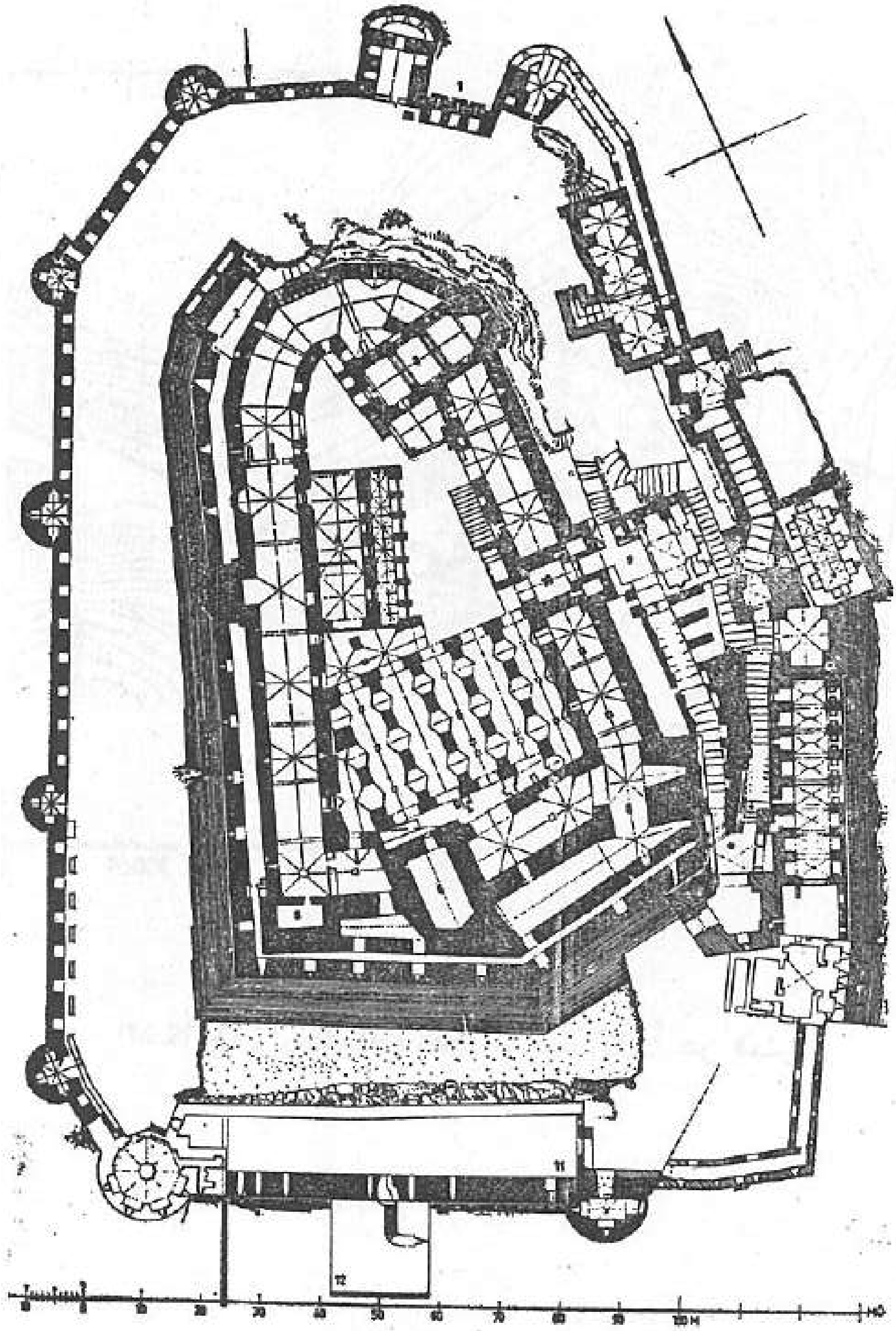
الشكل رقم (٤٣) مخطط قلعة حلب
(نقلاً عن فينر)



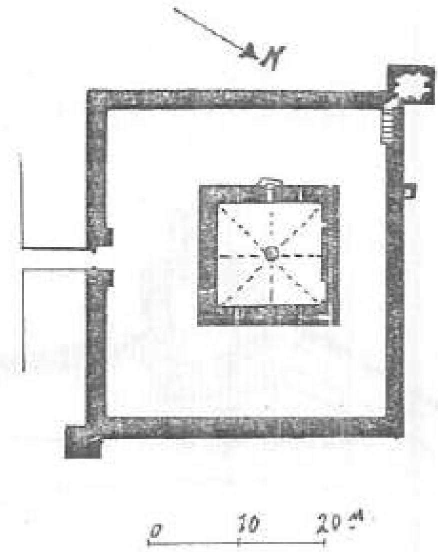
الشكل (٤٤) مخطط قلعة صلاح الدين (صهيون)
(نقلاً عن فينر)



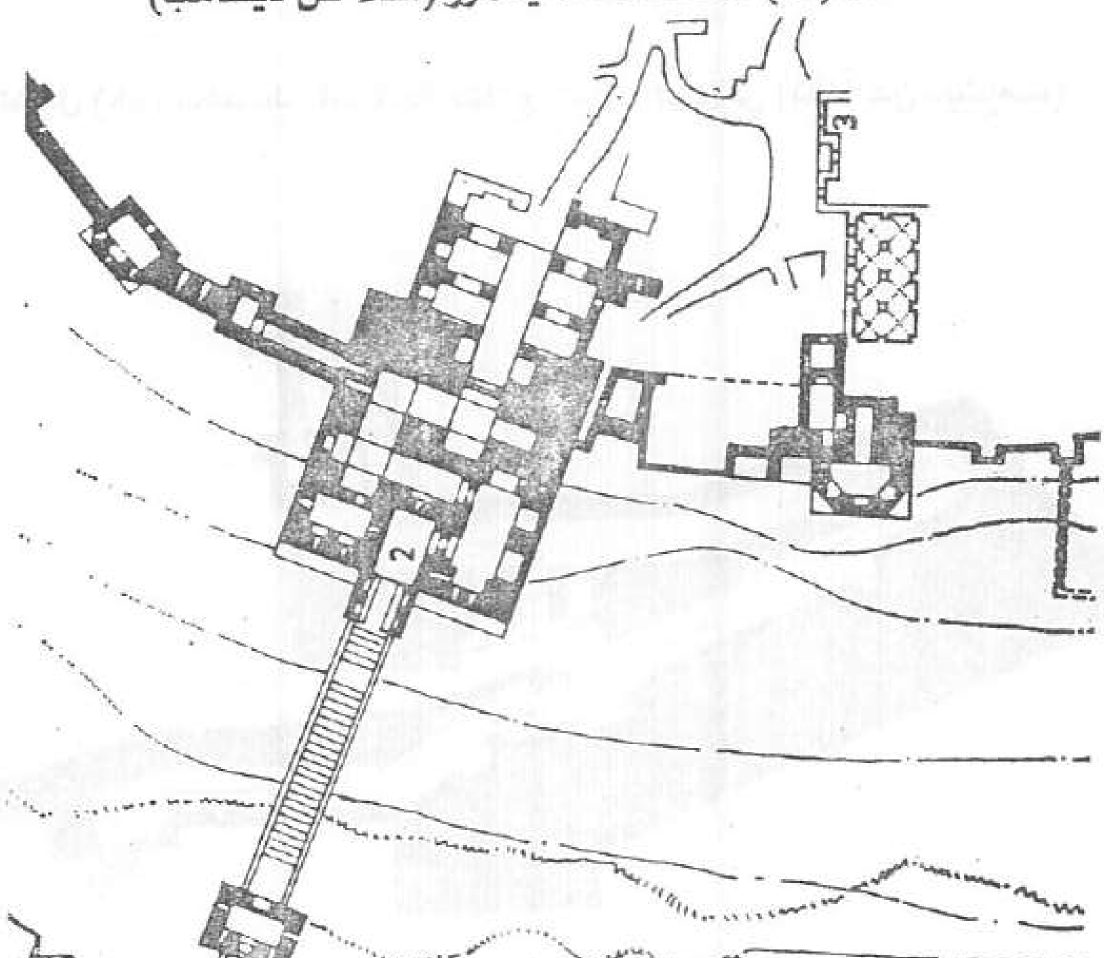
الشكل (٤٥) مخطط قلعة المرقب (نقلاً عن فينر)



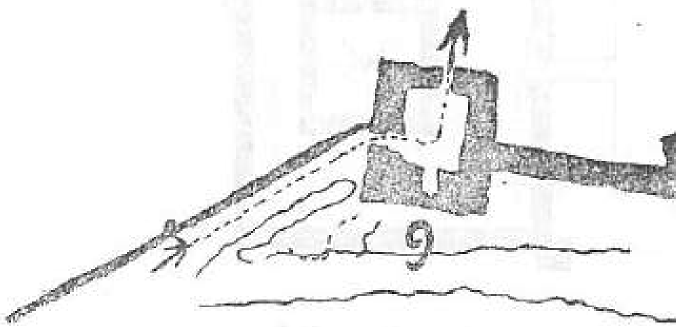
الشكل (٤٦) مخطط قلعة الحصن (نقلاً عن فينر)



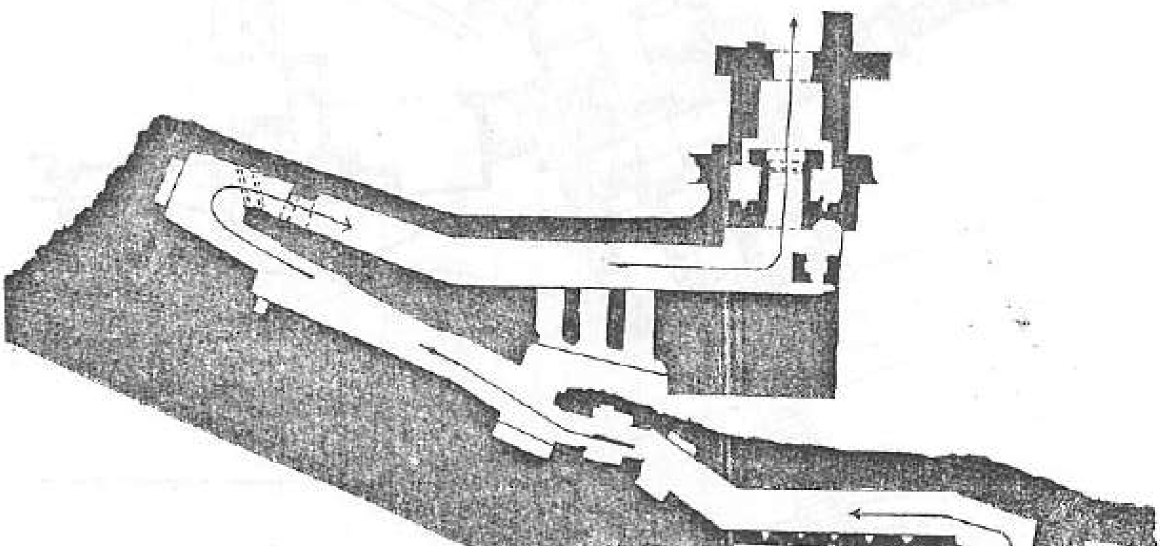
الشكل (٤٧) مخطط قلعة يحمور (نقلاً عن ديشامب)



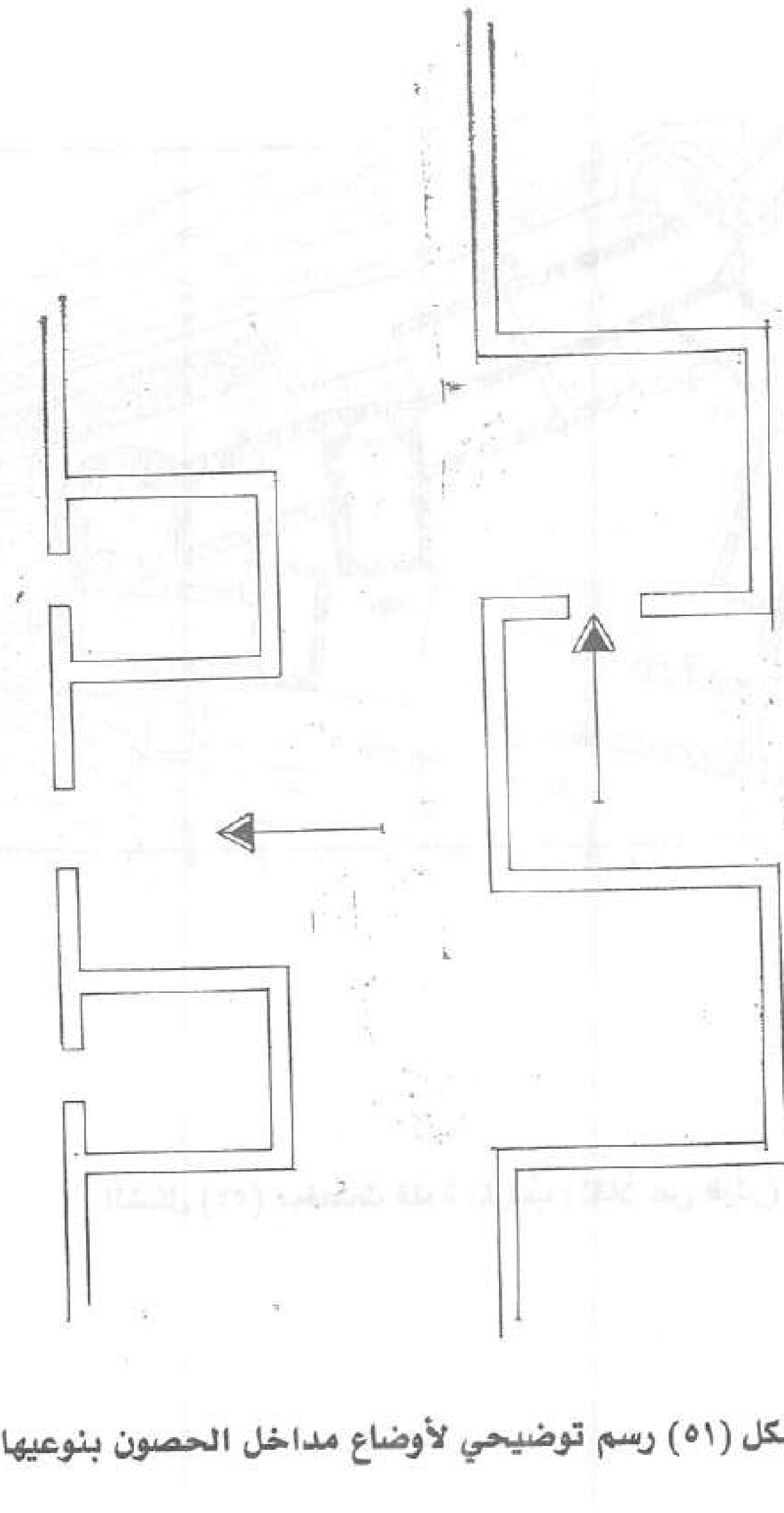
الشكل (٤٨) مخطط مدخل قلعة حلب (نقلاً عن فينر)



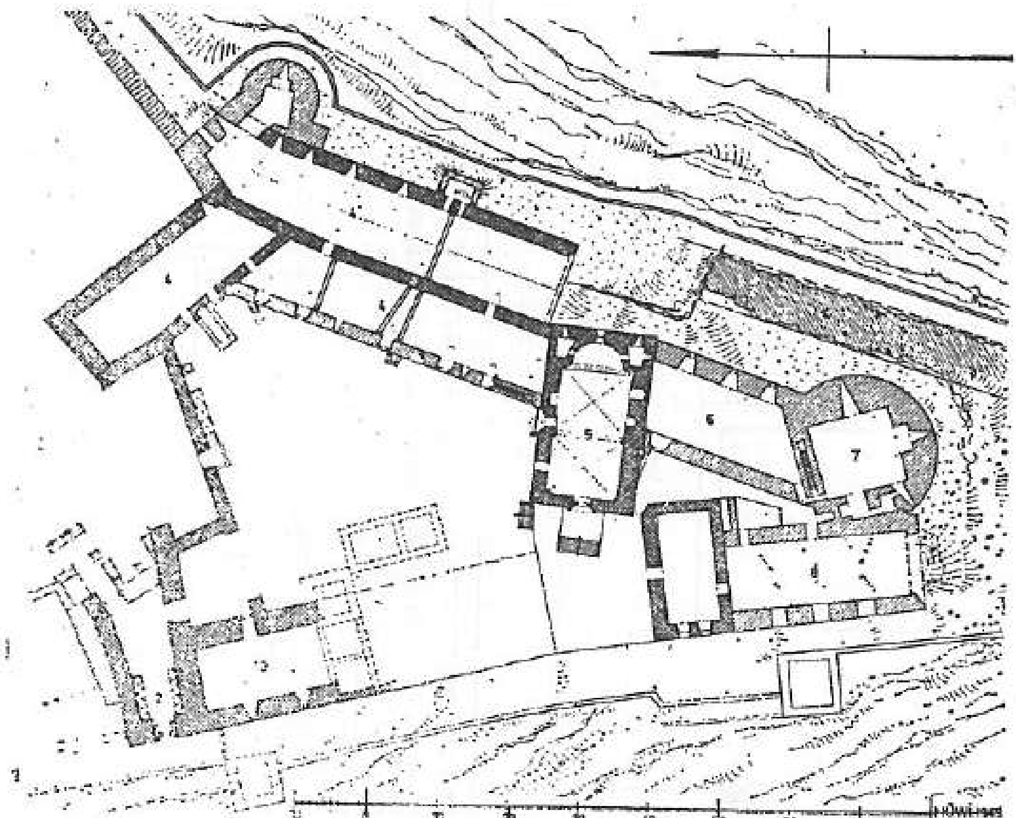
الشكل (٤٩) مخطط باب قلعة صلاح الدين الرئيسي (نقلاً عن ديشامب)



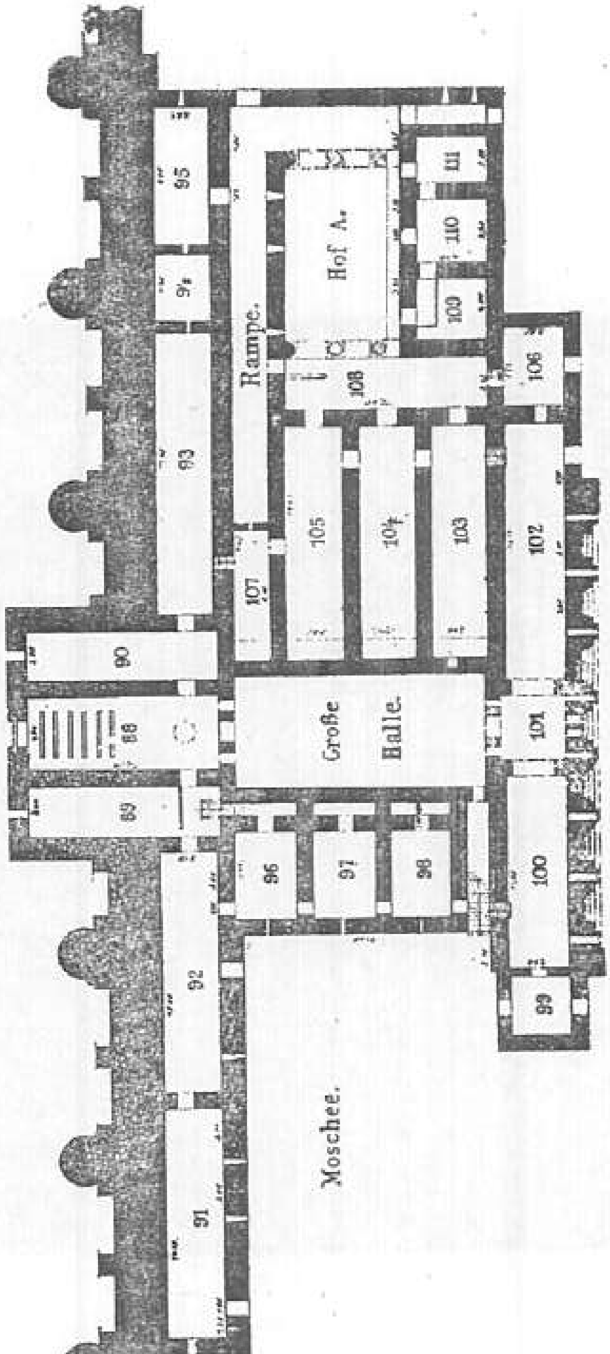
الشكل (٥٠) مخطط مدخل قلعة الحصن (نقلاً عن ديشامب)



الشكل (٥١) رسم توضيحي لأوضاع مداخل الحصون بنوعيها



الشكل (٥٢) مخطط قلعة المرقب (نقلاً عن فينر)



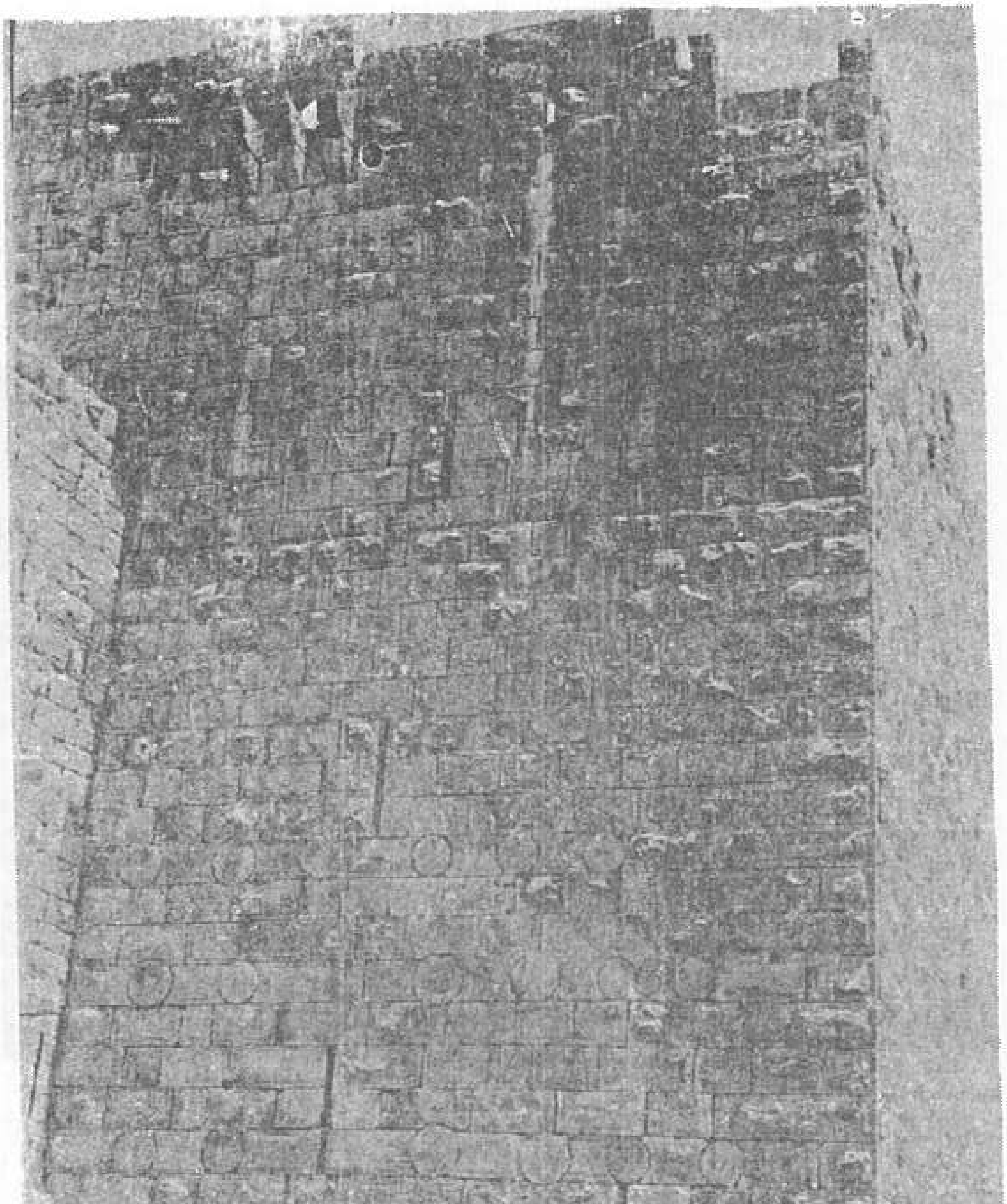
الشكل (٥٣) قطعة من مخطط قصر الأخيضر العباسي، تشاهد عند السور بين الأبراج نظام السقاطات المقنطرة، وكذلك سقاطات الباب والدهليز (نقلاً عن كريزديل)



اللوحة (١)

آ - الكتابة رقم (١) منقوشة على البرج

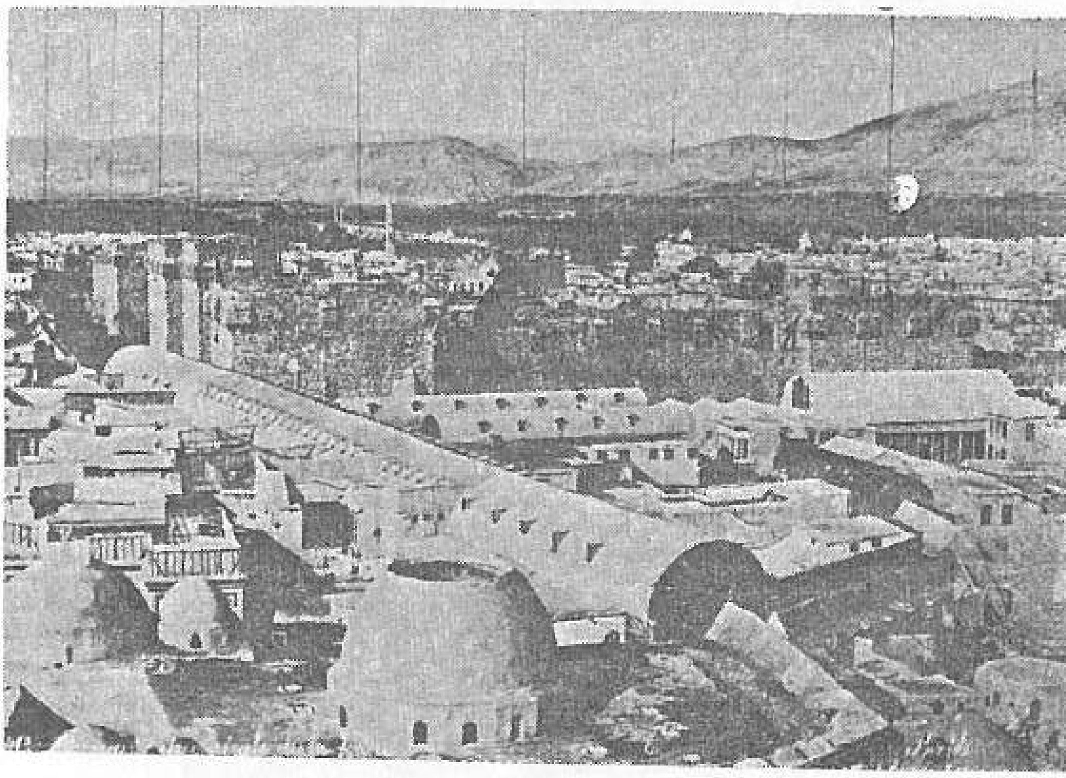
المجدد في عهد صلاح الدين (القلعة السلجوقية)



اللوحة (٢)

ب - أحد الأبراج في قلعة بصرى

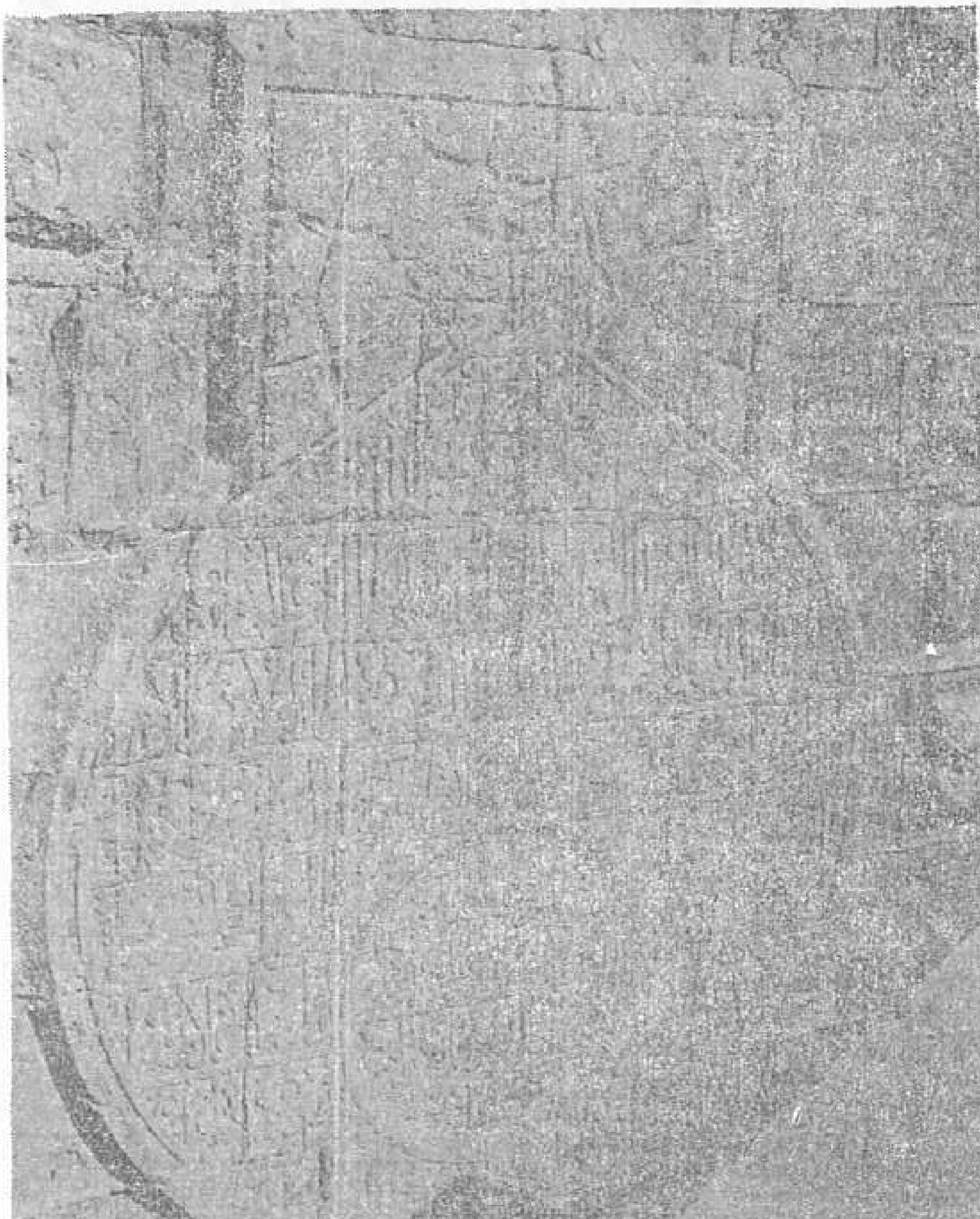
تشاهد فيه استخدام جذوع الأعمدة في مداميك البناء



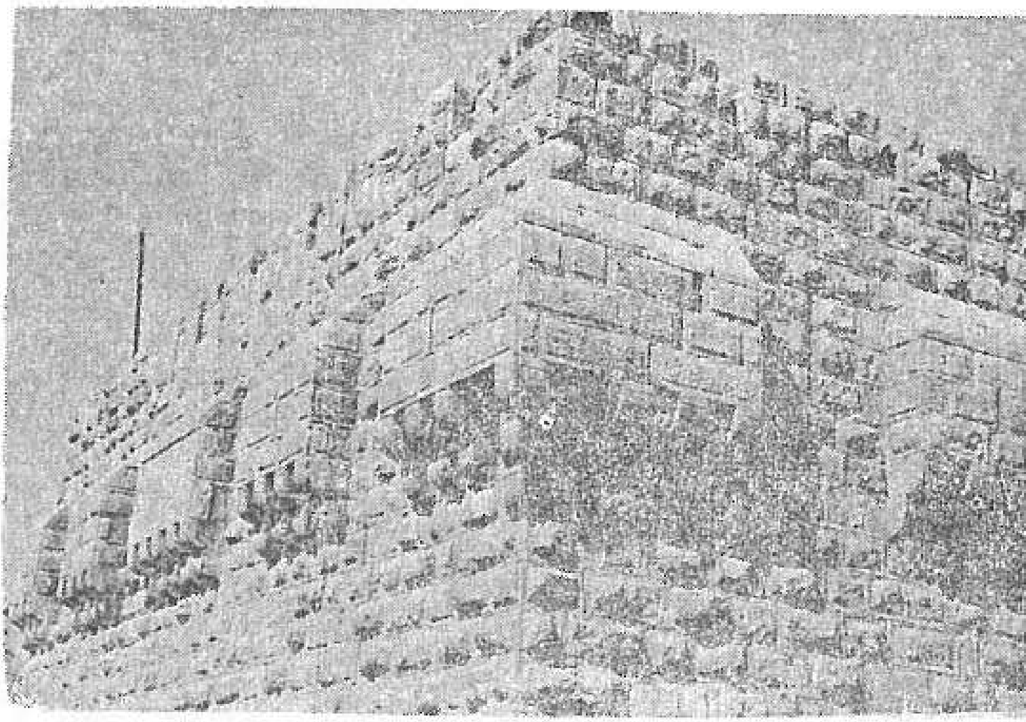
اللوحة (٣)

آ - القلعة وما حولها في القرن التاسع عشر

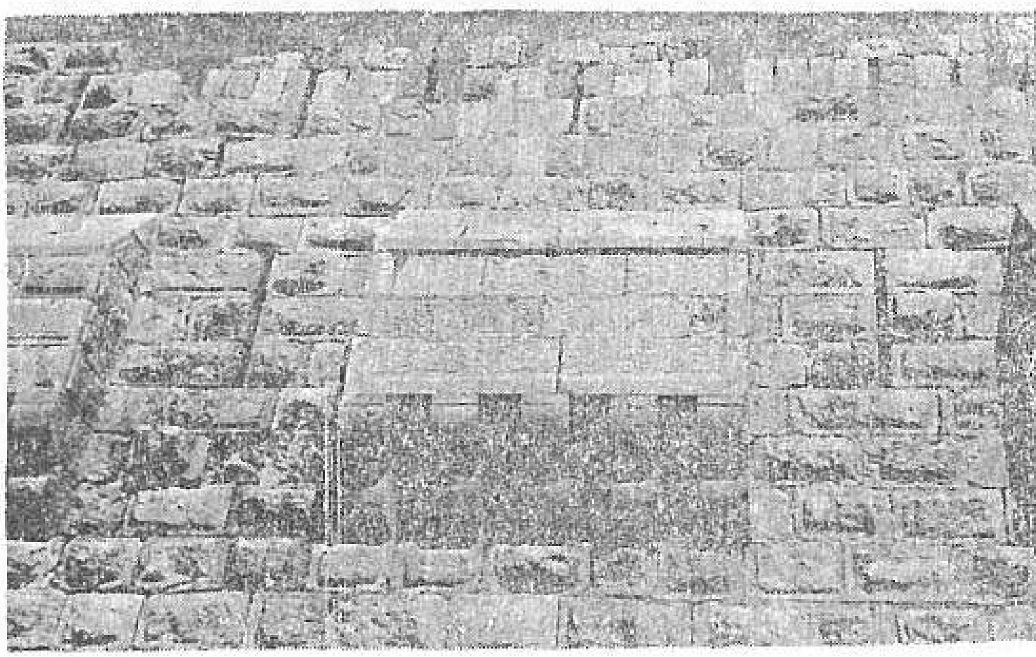
(للمصور بون فينس)



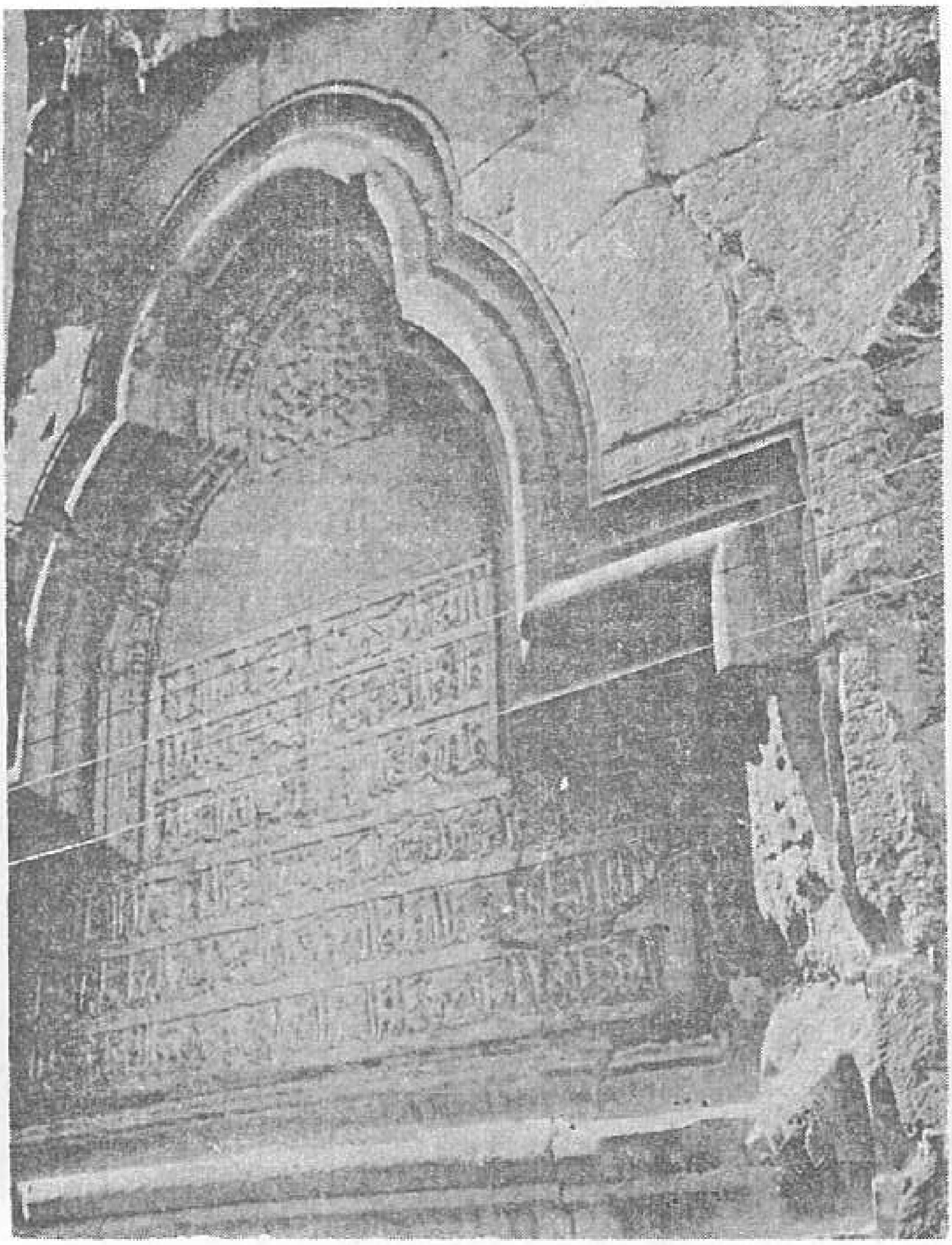
ب — الكتابة رقم (٨)، الموجودة على البرج رقم (٥)، الظاهر بيبرس



اللوحة (٥)   آ - البرج رقم (٥)، الواجهتان الجنوبية والشرقية



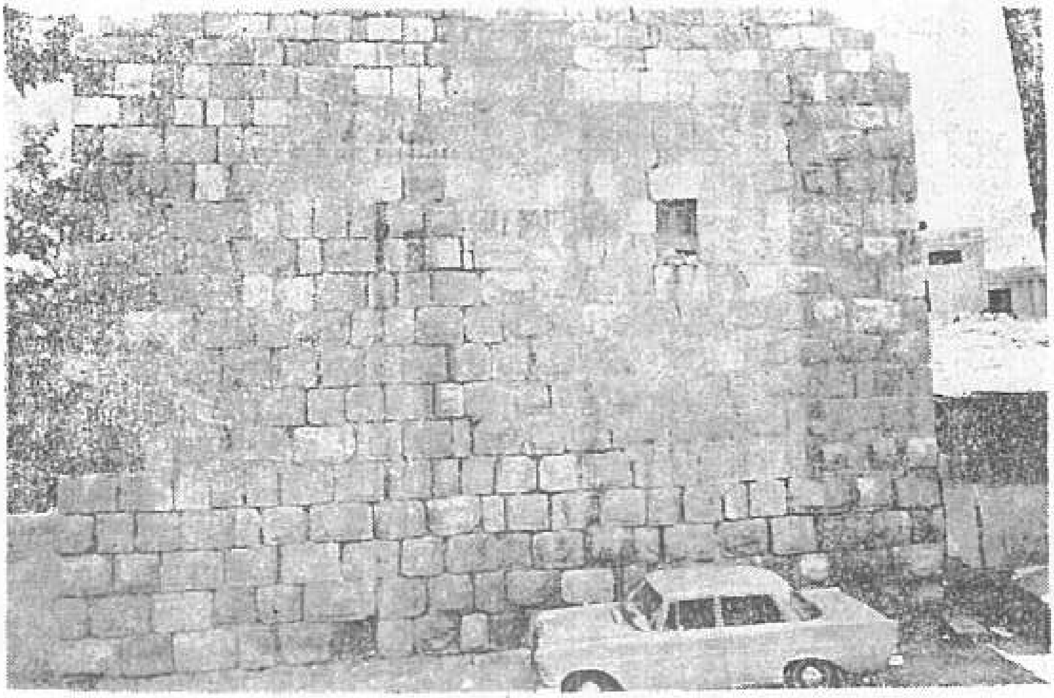
ب – البرج رقم (٥)، الواجهة الجنوبية،
الروشن الأوسط والكتابة رقم (١٤)، قلاوون



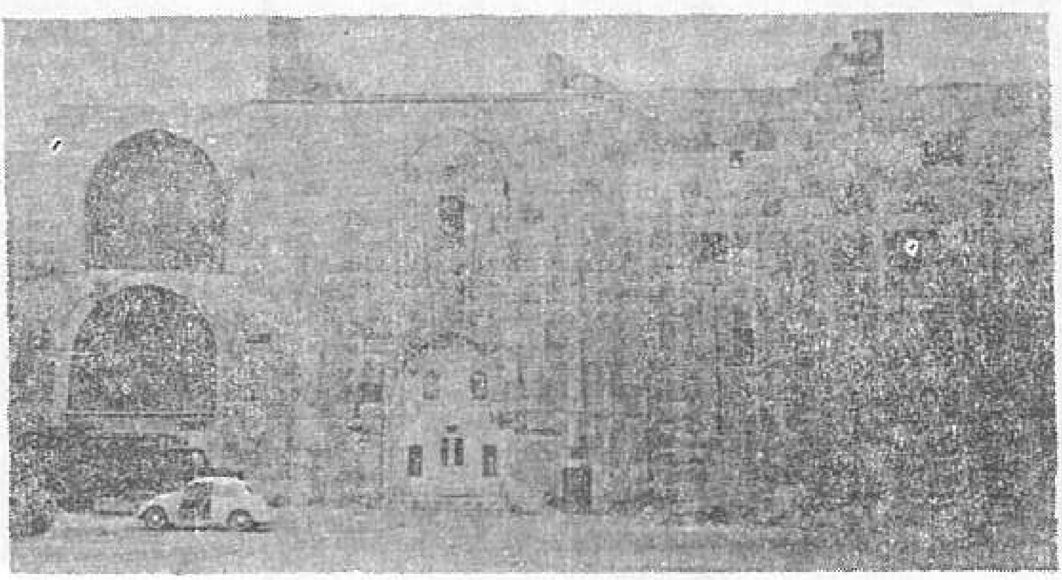
اللوحة (٧) آ - الكتابة رقم ٣ في الواجهة الشرقية للبرج رقم (١)



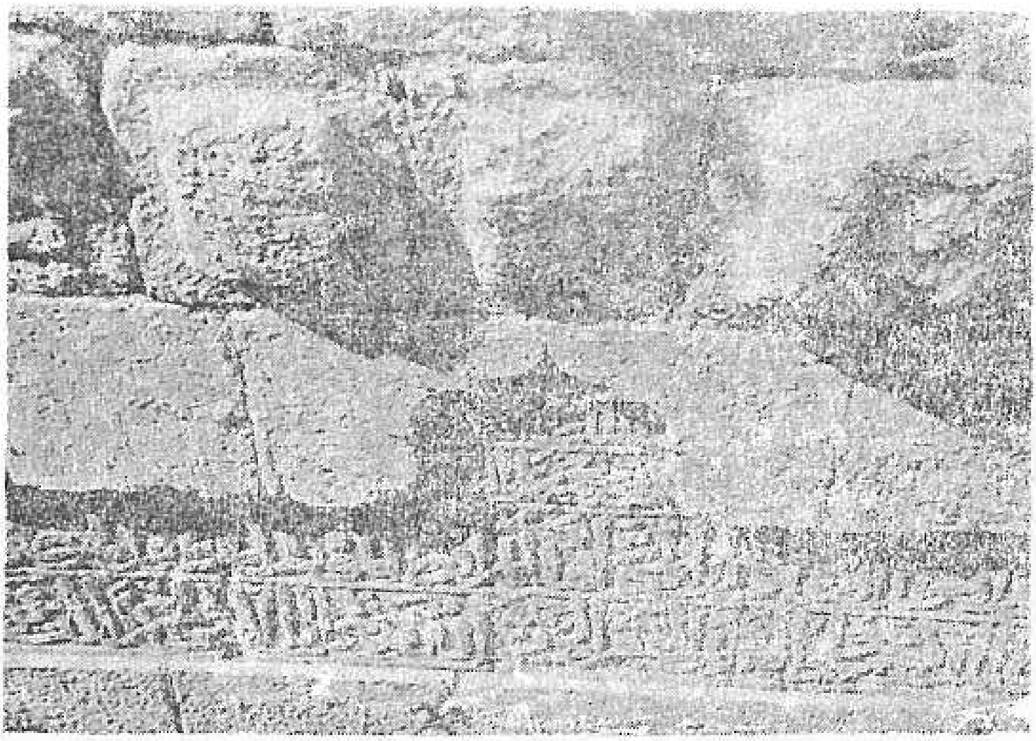
اللوحة (٨) ب — الكتابة رقم (٥) على الواجهة الشرقية للبرج رقم ٢



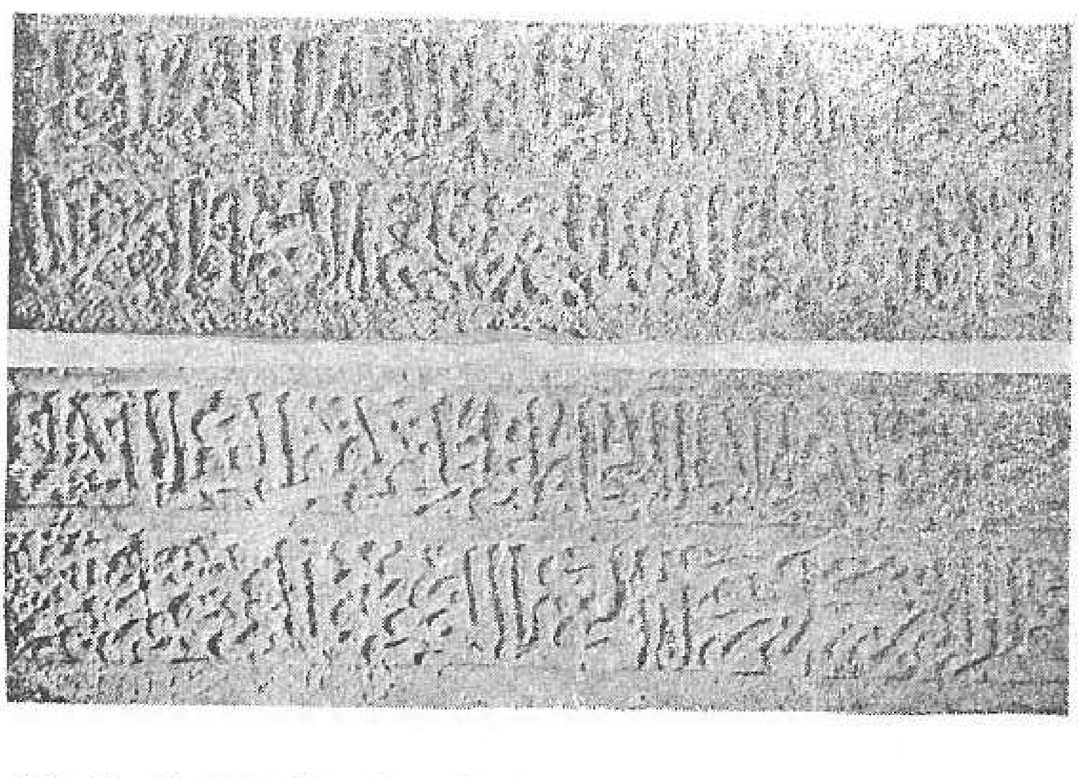
اللوحة (٩) البرج رقم (١٠) الواجهة الشمالية



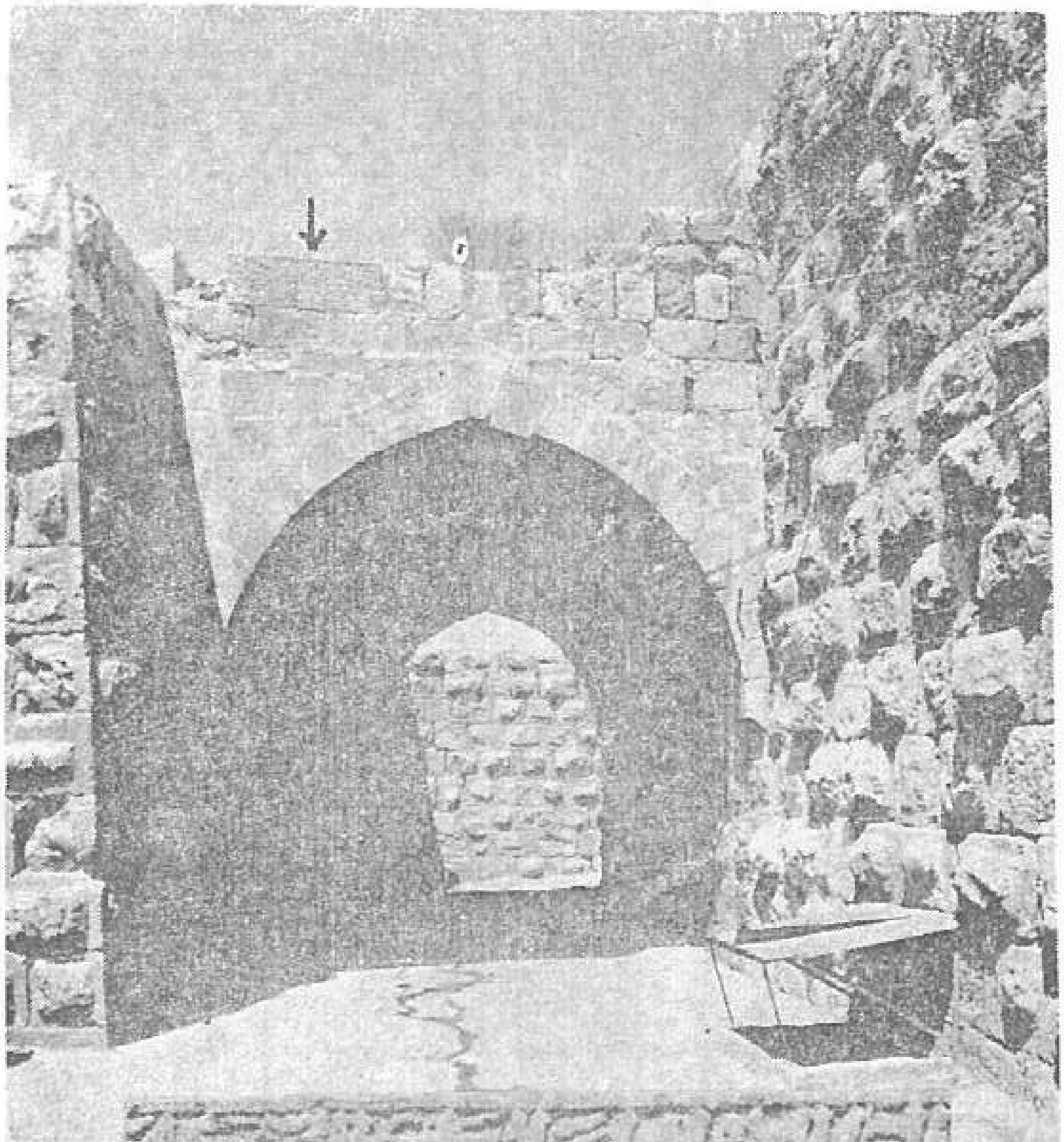
اللوحة (١٠) واجهة القصر رقم (١٧)



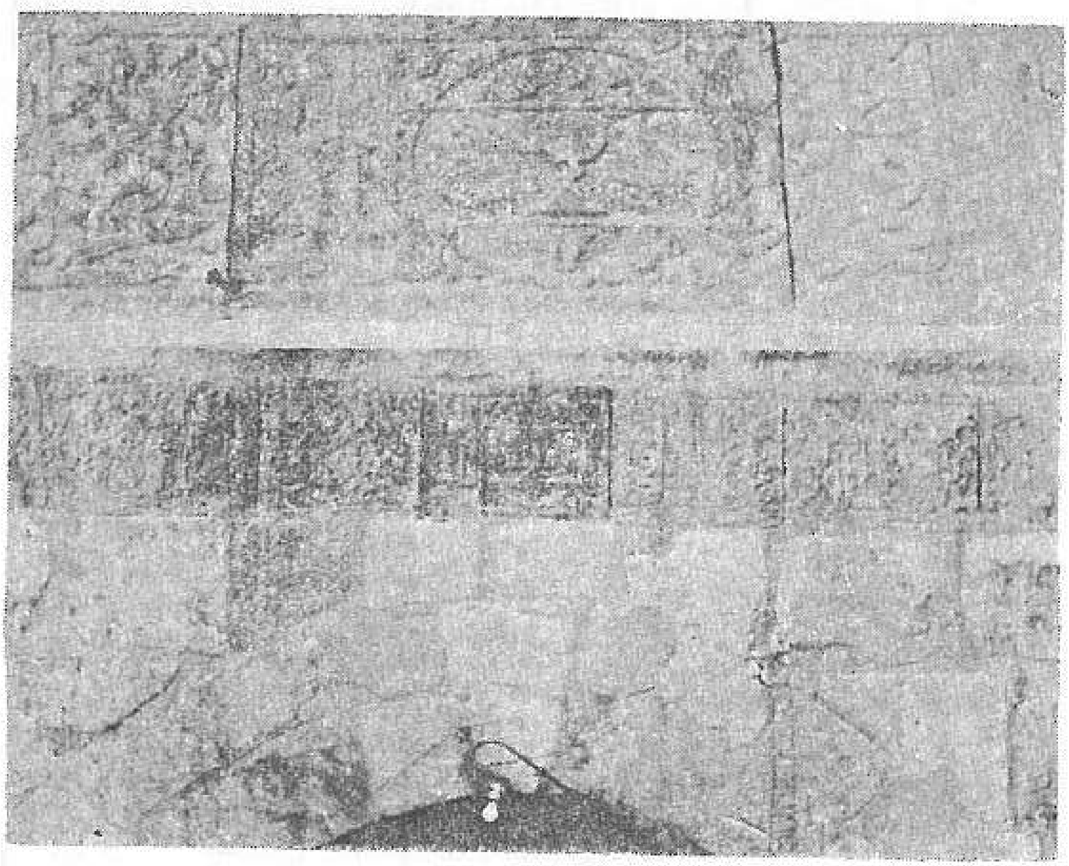
اللوحة (١١) الكتابة رقم (٩) الموجودة على البدنة (١-٢)- بيبرس



اللوحة (١٢) الكتابة رقم (١٥) الموجودة على أوجه العصادة في الجناح رقم (٨)



اللوحة (١٣) آ - الطابق العلوي للممر الدفاعي الشمالي، والكتابة رقم (١٧) حيث يوجد السهم (في أسفل الصورة، النص مكبر)



اللوحة (١٤ و ١٥)

ب - الكتابة رقم (٢٢) الموجودة فوق قنطرة الباب الشمالي للقلعة

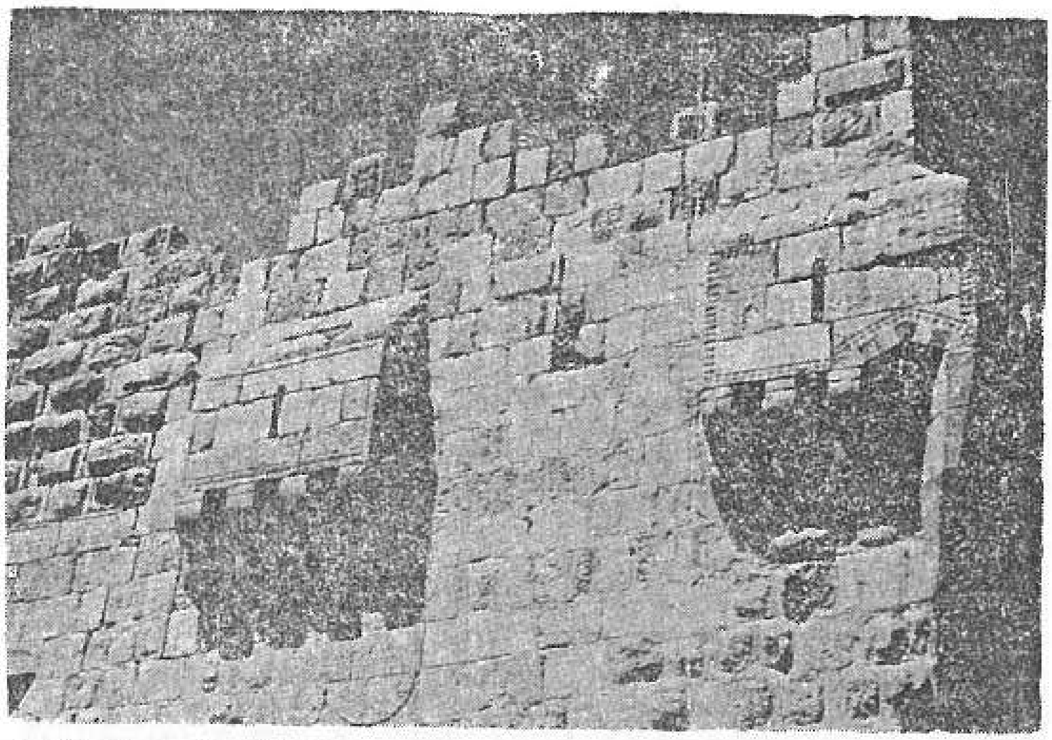
(في الأعلى مشهد مكبر)



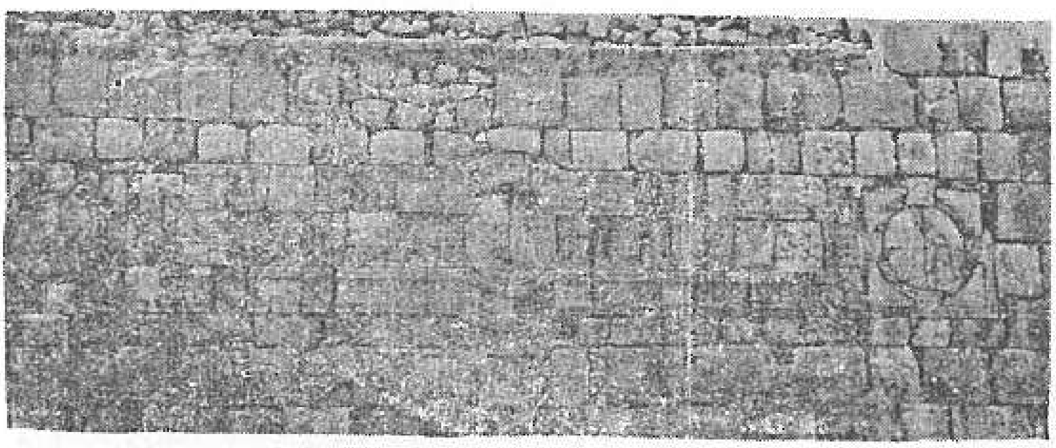
الكتابة رقم (٢٨)، الموجودة على الواجهة الجنوبية للبرج رقم (٤)



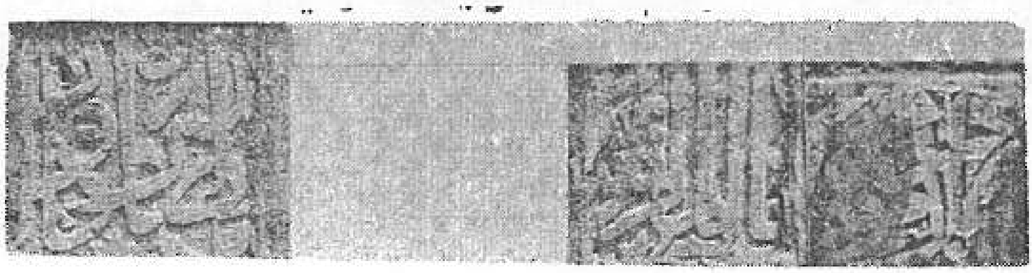
قطعة من الكتابة رقم (٢٩) الموجودة على الواجهة الشمالية للبرج رقم (١٠)



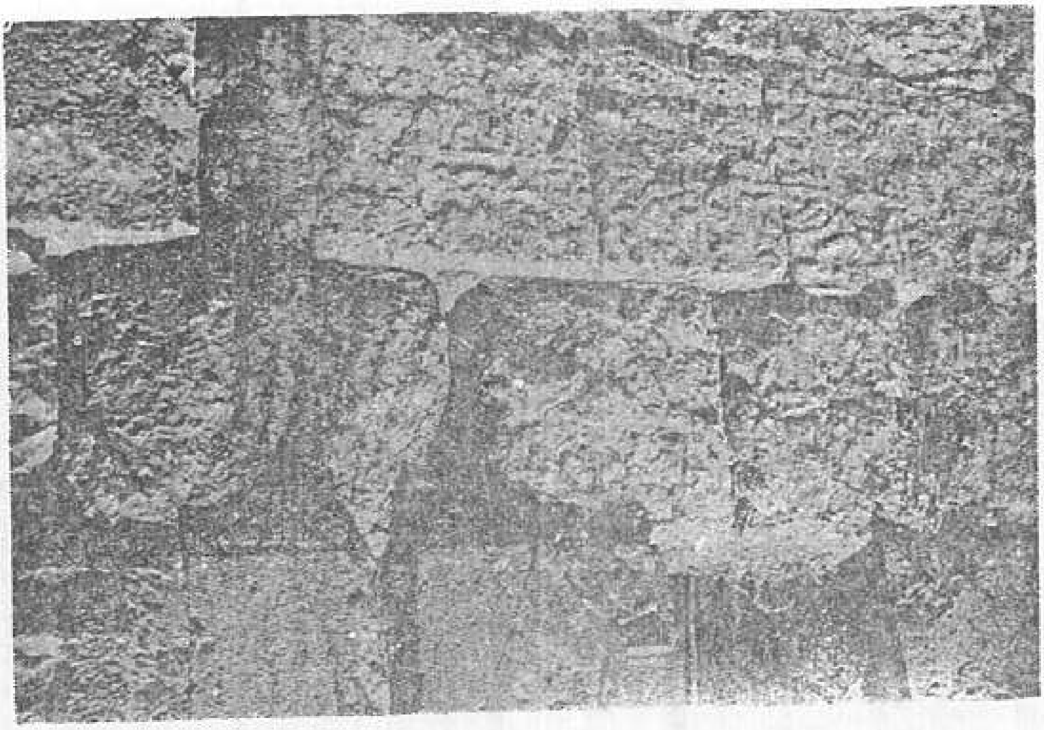
اللوحة (١٨) آ- الواجهة الشرقية للبرج رقم (١)، الجزء الشمالي (ترميمات الغوري)



اللوحة (١٩) الكتابة رقم (٣١) المنقوشة على الواجهة الشرقية للبرج رقم (٤) (ترميمات الغوري)



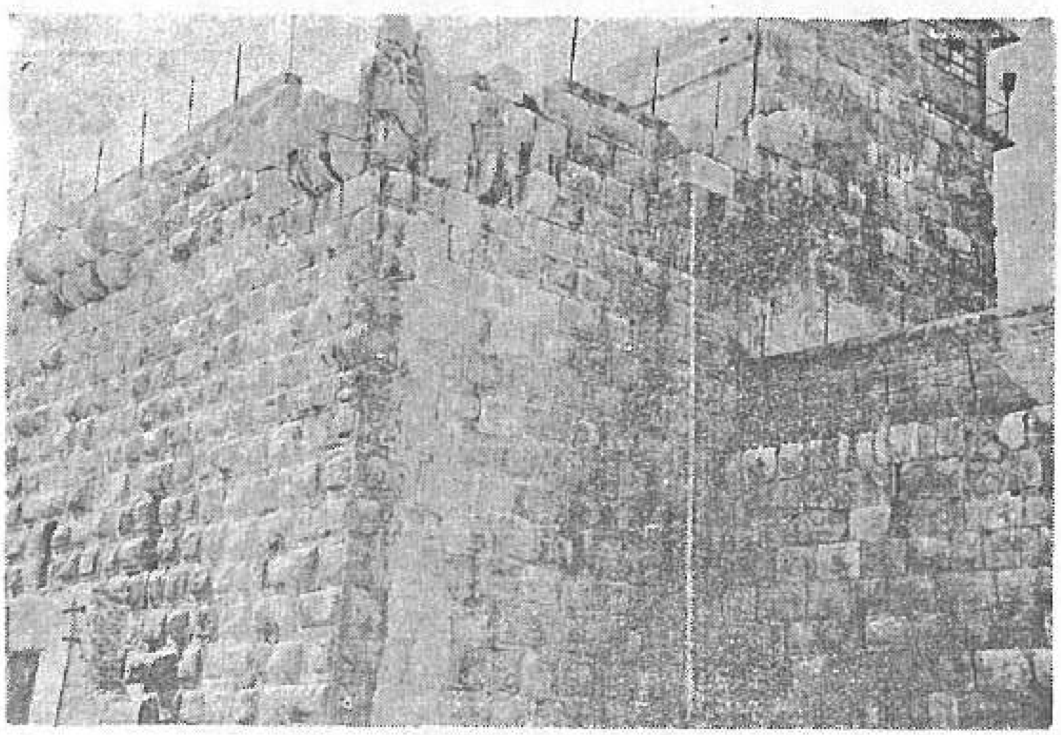
اللوحة (٢٠) الكتابة رقم (٣٤)، ثلاث قطع مبعثرة في الواجهة الغربية للبرج رقم (٧)



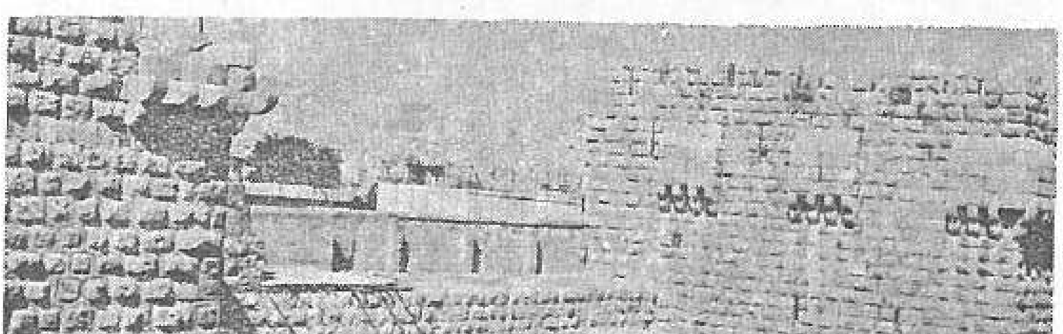
اللوحة (٢١) الكتابة رقم (٣٣) الموجودة على البدنة (٧-٨)، وهي مشوهة ومتآكلة



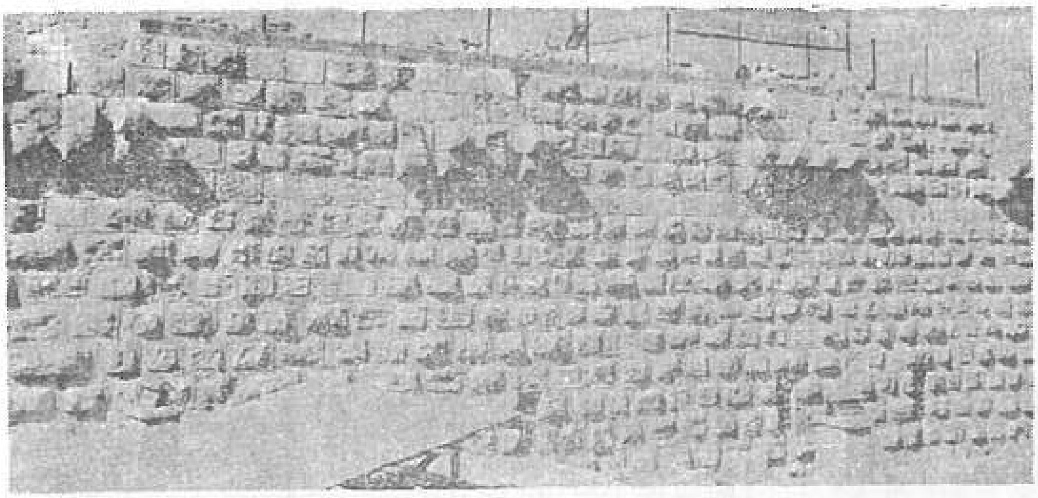
اللوحة (٢٢) البرج رقم (١) الواجهة الشرقية



اللوحة (٢٣) الجانب الشمالي الشرقي من البرج رقم (٢)
والى جواره قطعة من البدنة (١-٢)



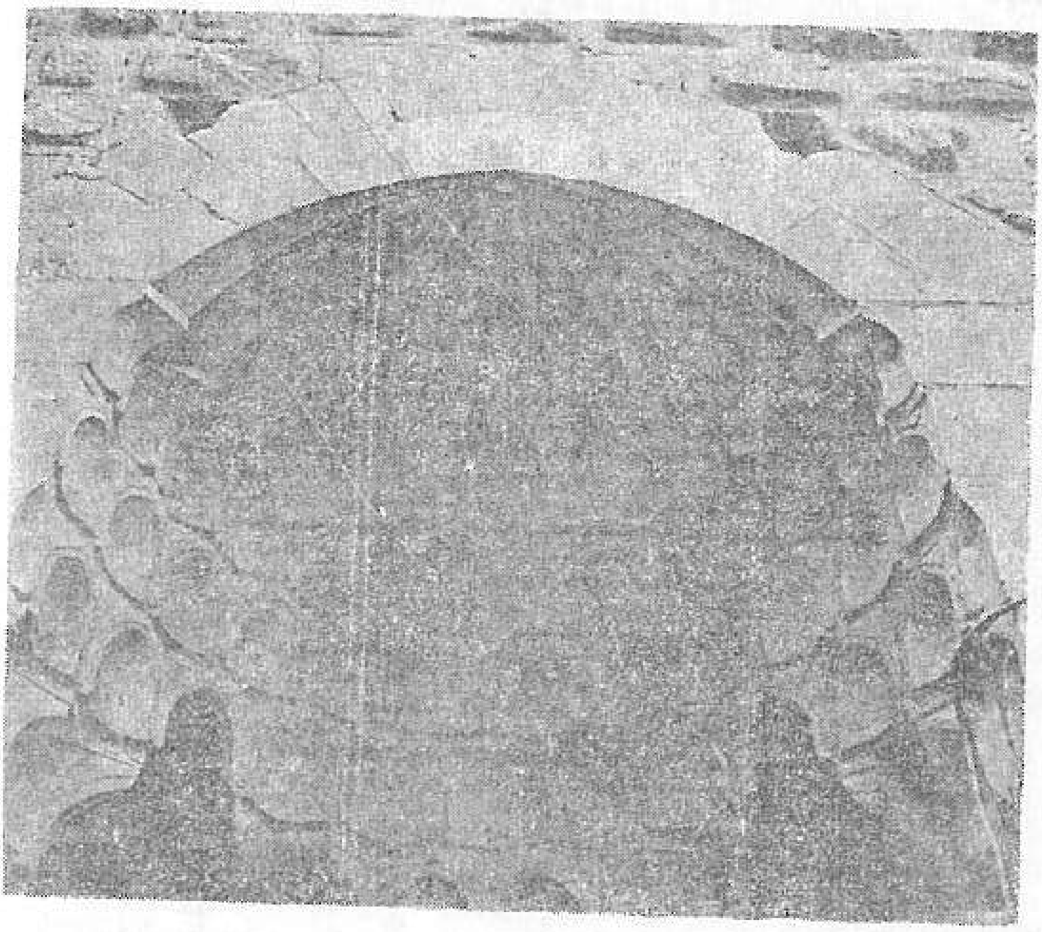
اللوحة (٢٤) الواجهة الجنوبية للبرج رقم (١) والبدنة (١-٢)



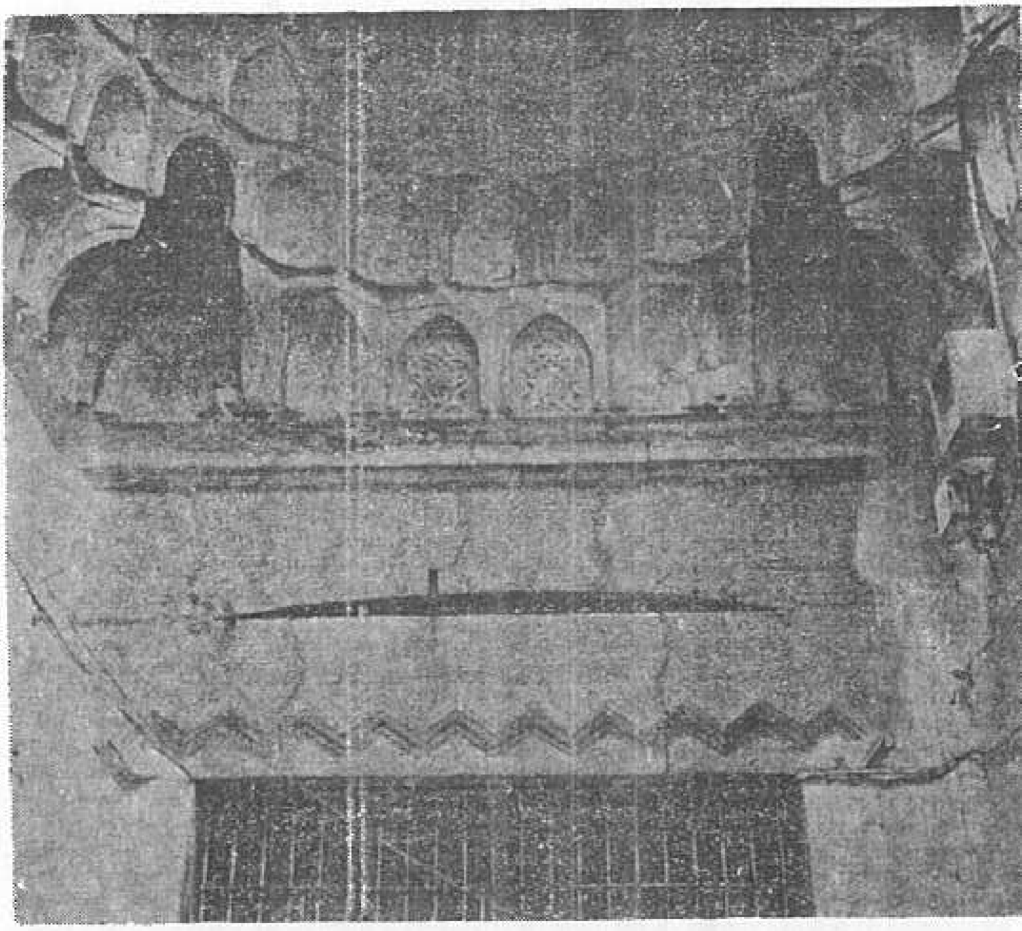
اللوحة (٢٥) آ - الواجهة الشرقية للبرج رقم (٢) والكتابة رقم (١٠)



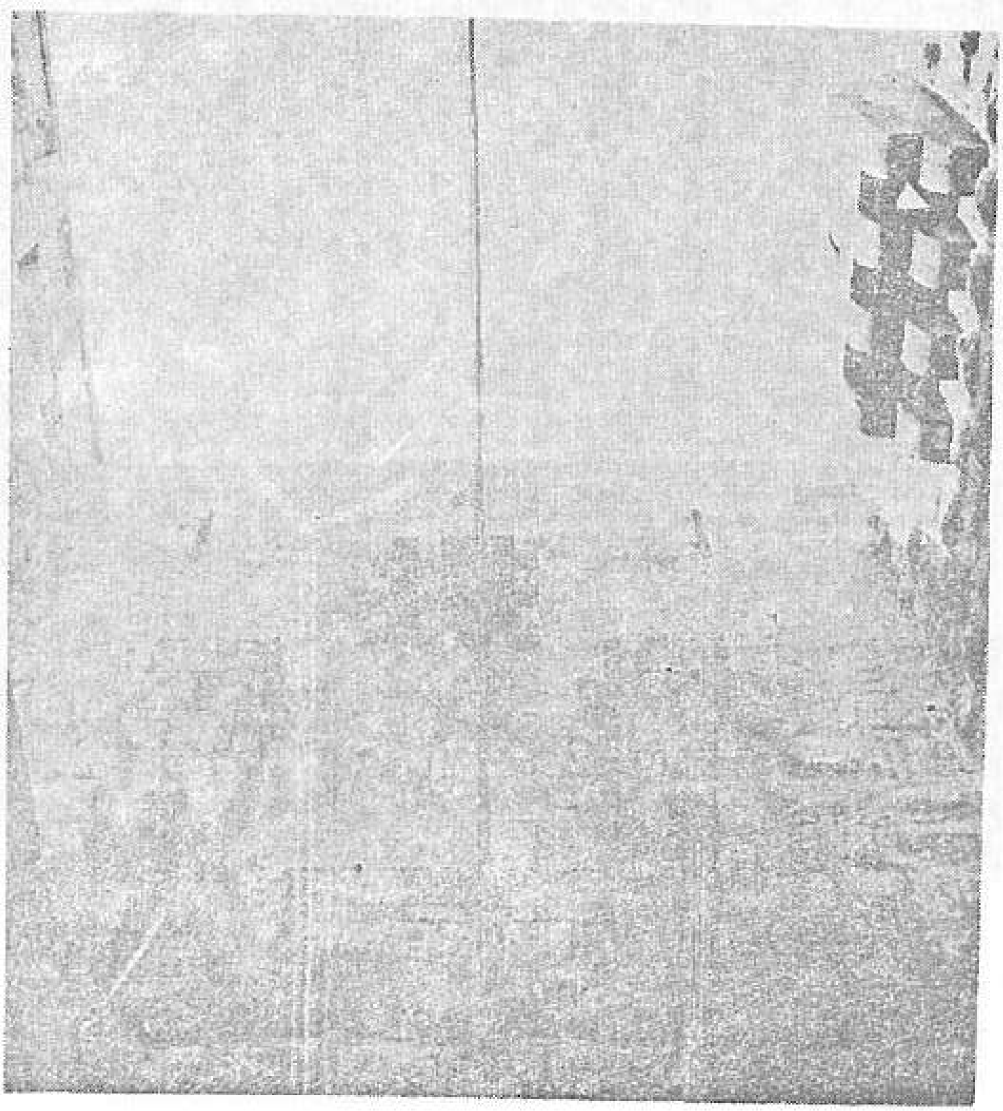
ب، جـ - نافذة من عهد الملك العادل أبي بكر في الواجهة الشرقية للبرج رقم (٢)



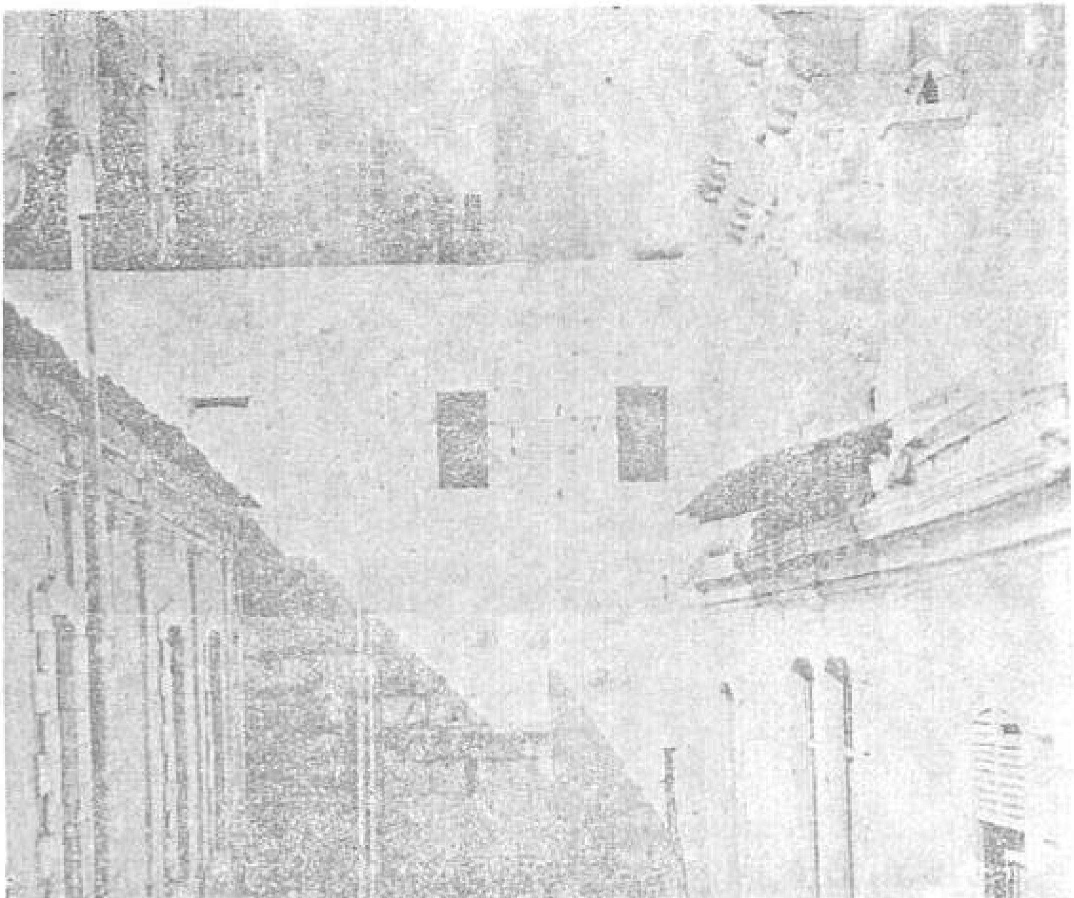
اللوحة (٢٧)



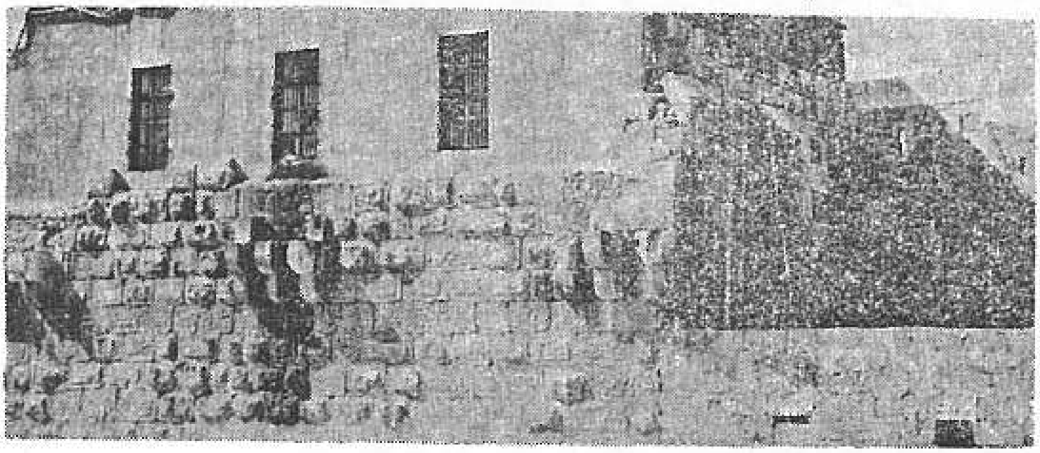
اللوحة (٢٨) الباب الشرقي، إيوان الباب ومقرنصاته



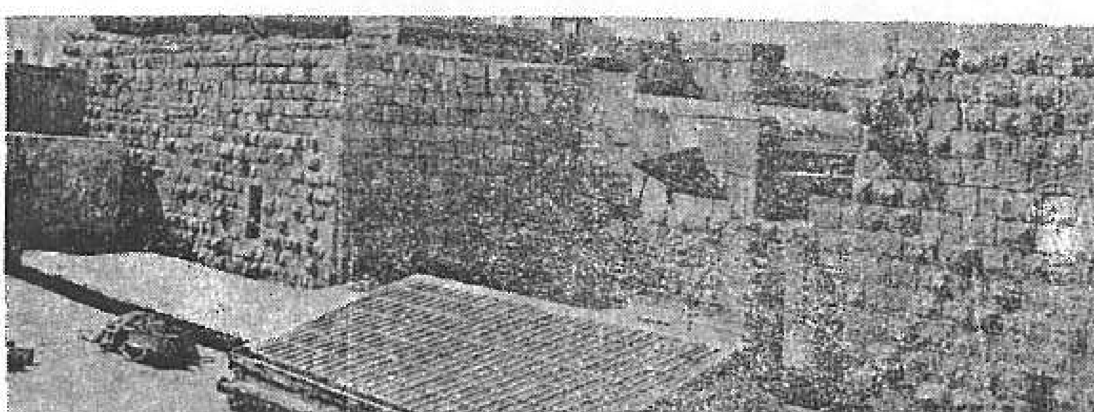
اللوحة (٢٩) القسم العلوي للبدنة الداخلية (٢-٣) المجاورة للباب الشرقي



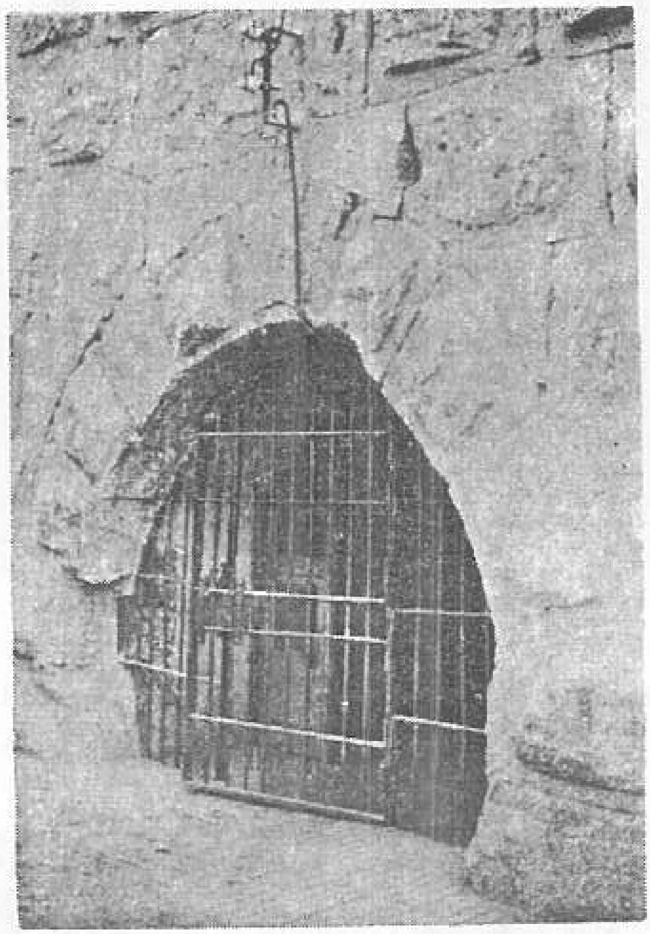
اللوحة (٣٠) ب – البدنة الخارجية (٢-٣) الإضافية
التي تتقدم الباب الشرقي الرئيسي للقلعة



اللوحة (٣١) آ – البرج رقم (٣)، الواجهتان الشمالية والجنوبية

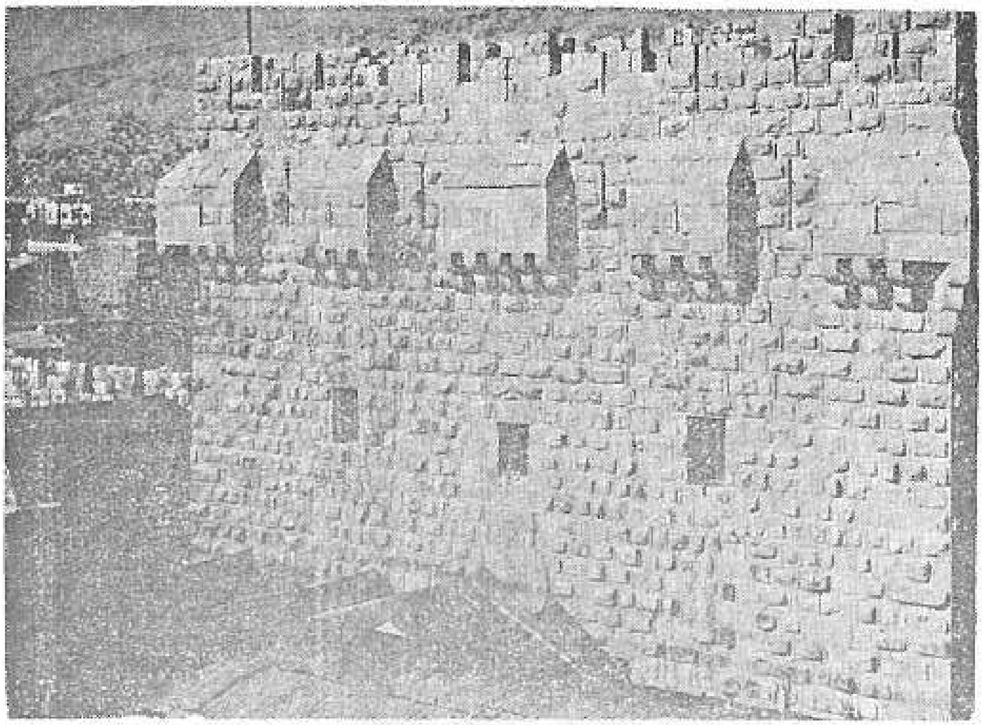


اللوحة (٣٢) البدنة (٣-٤) والبرج رقم (٤)، الواجهتان الشمالية والشرقية

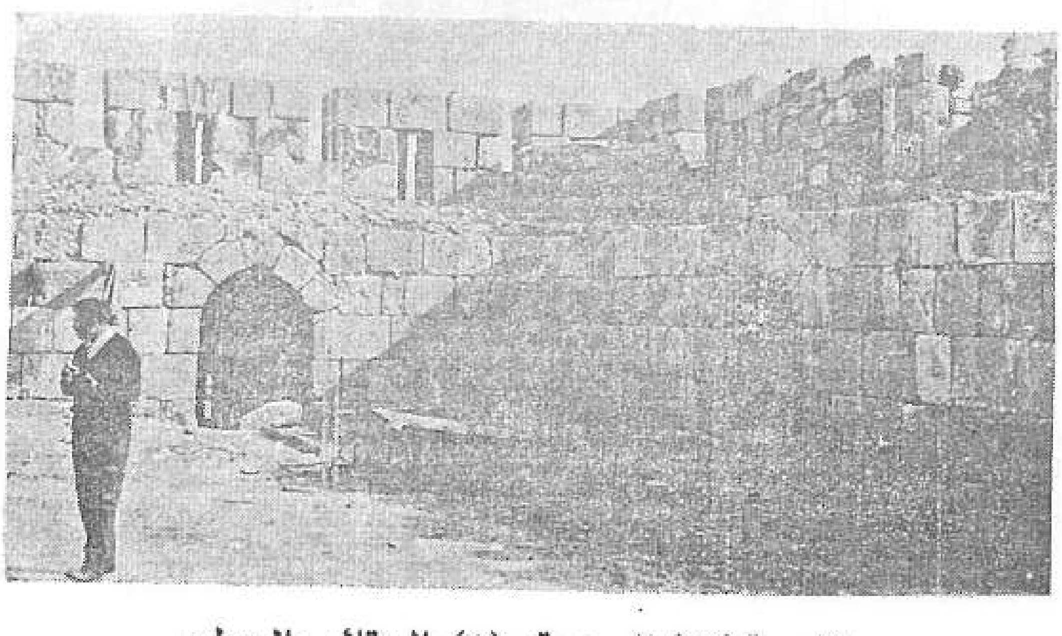


اللوحة (٣٣)

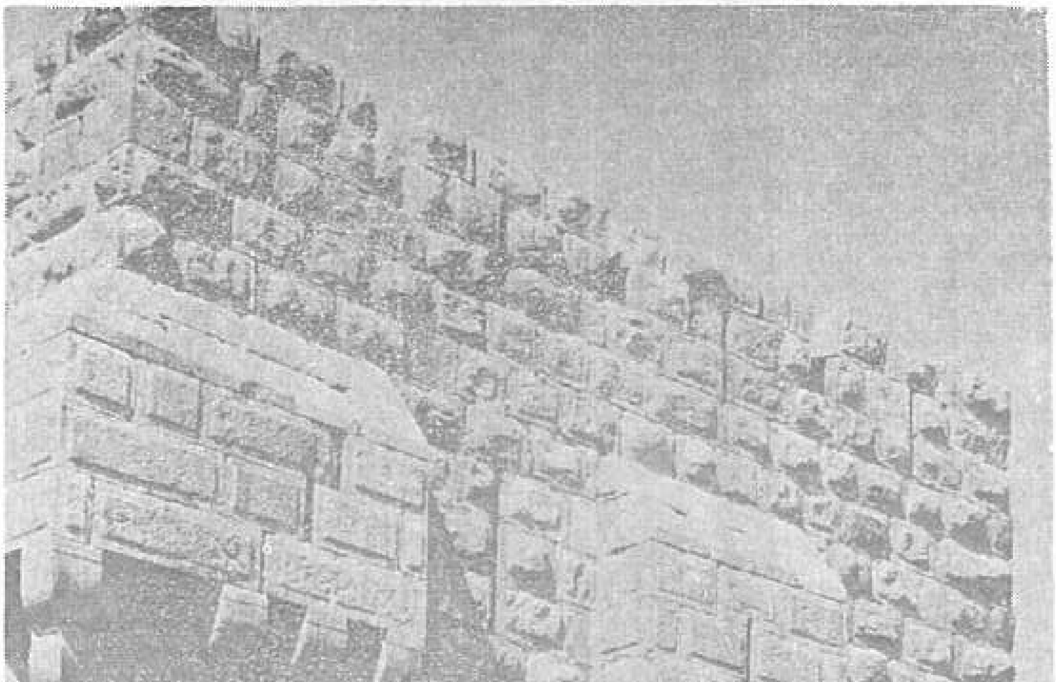
آ - البرج رقم (٥)، باب الطابق الثاني



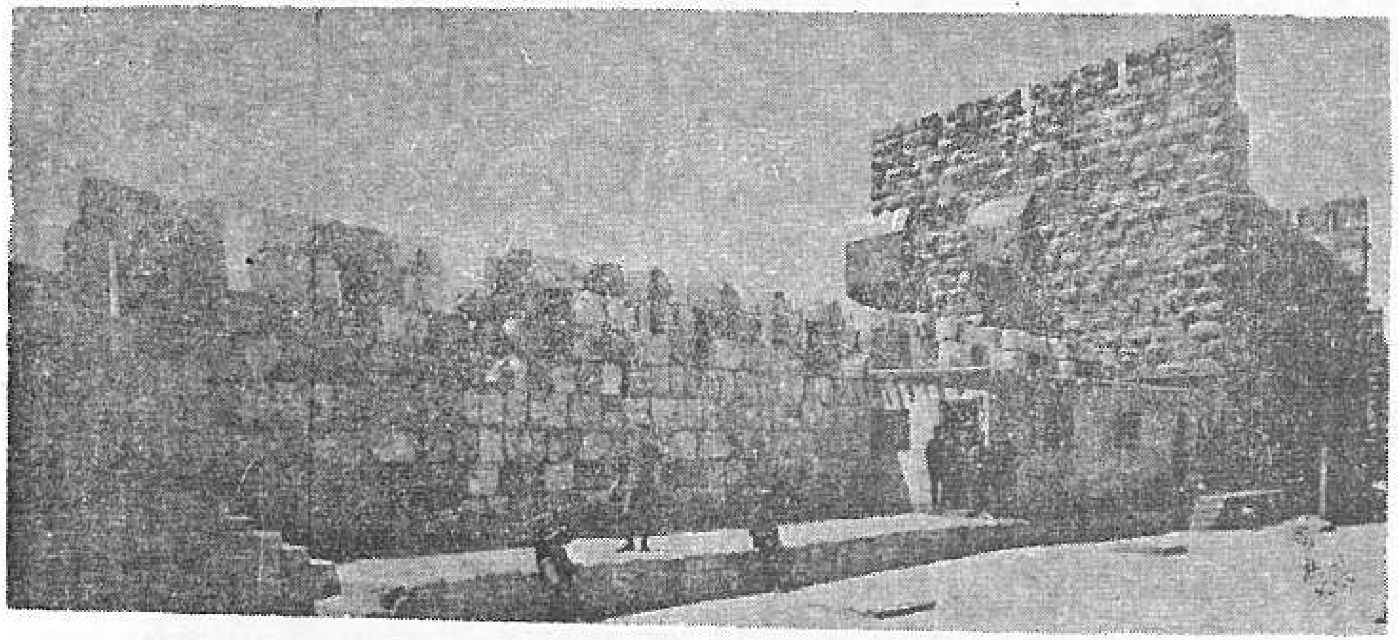
اللوحة (٣٤) البرج رقم (٥)، الواجهة الجنوبية



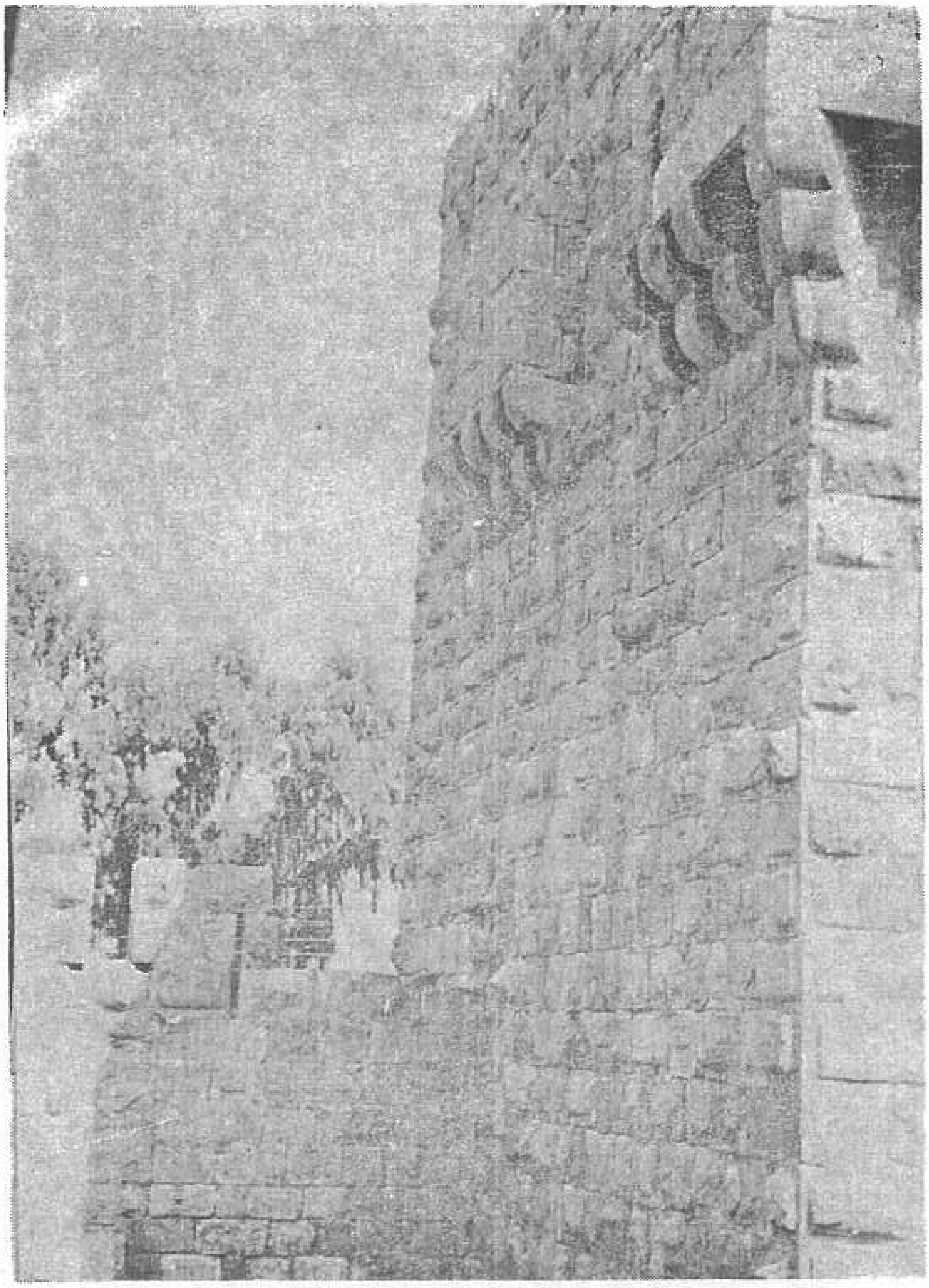
اللوحة (٣٥) البرج رقم (٥)، الستائر والسطح



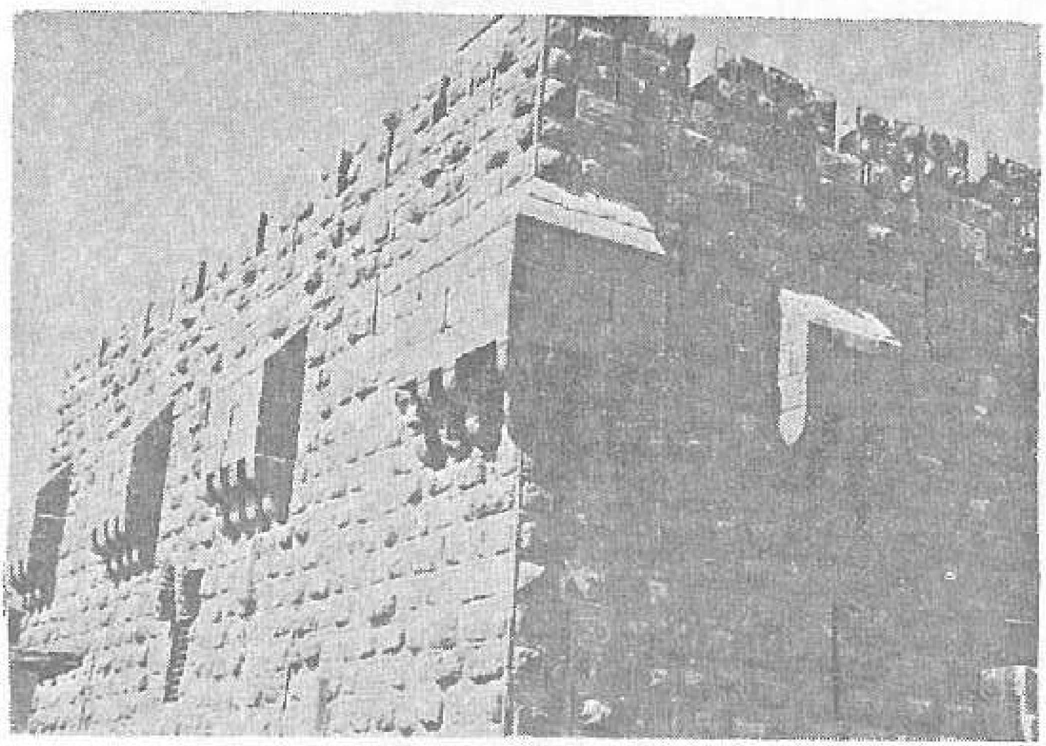
اللوحة (٣٦) البرج رقم (٥) الواجهة الشرقية



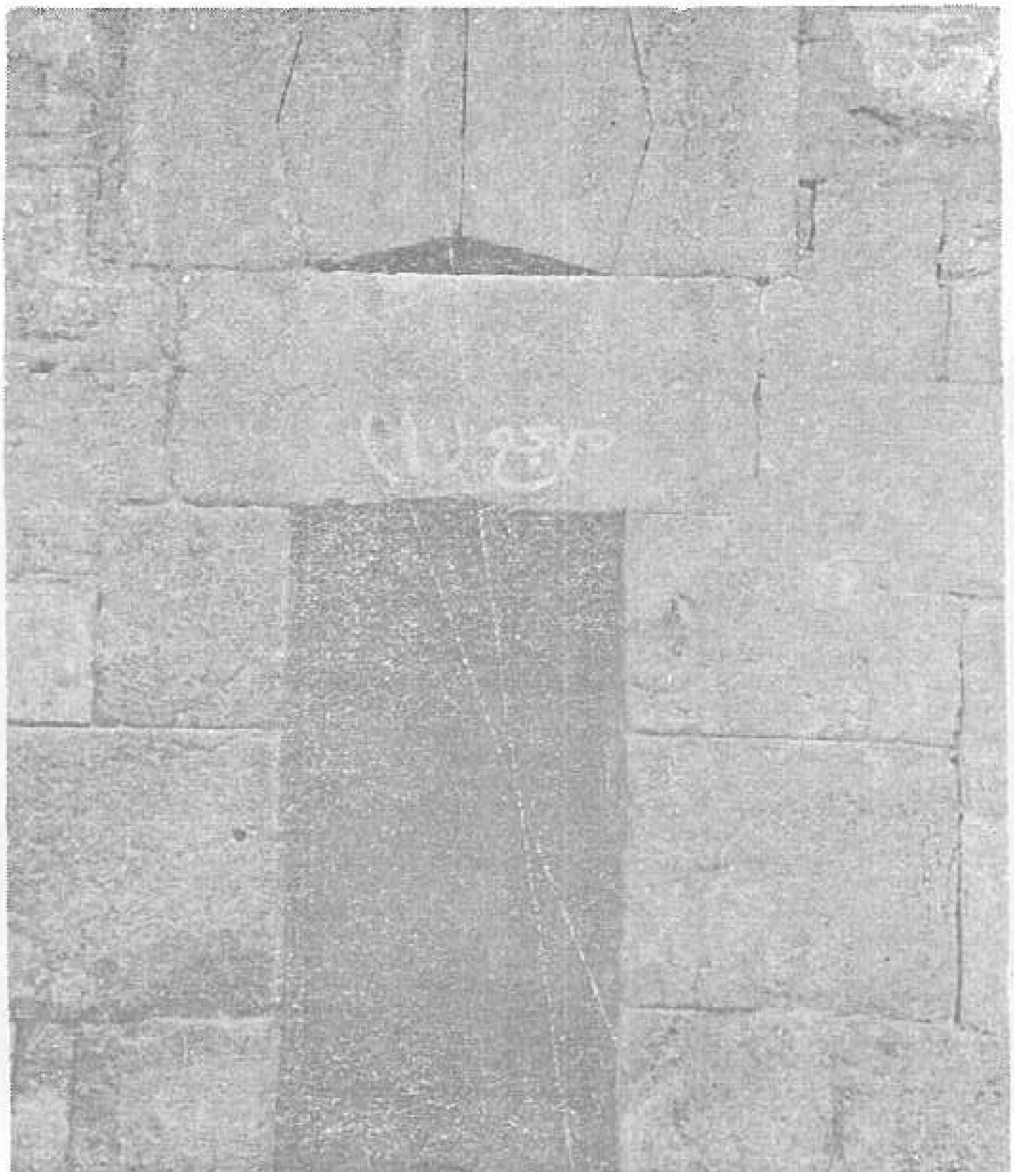
اللوحة (٣٧) البدنة (٥-٦) ، الواجهة الداخلية



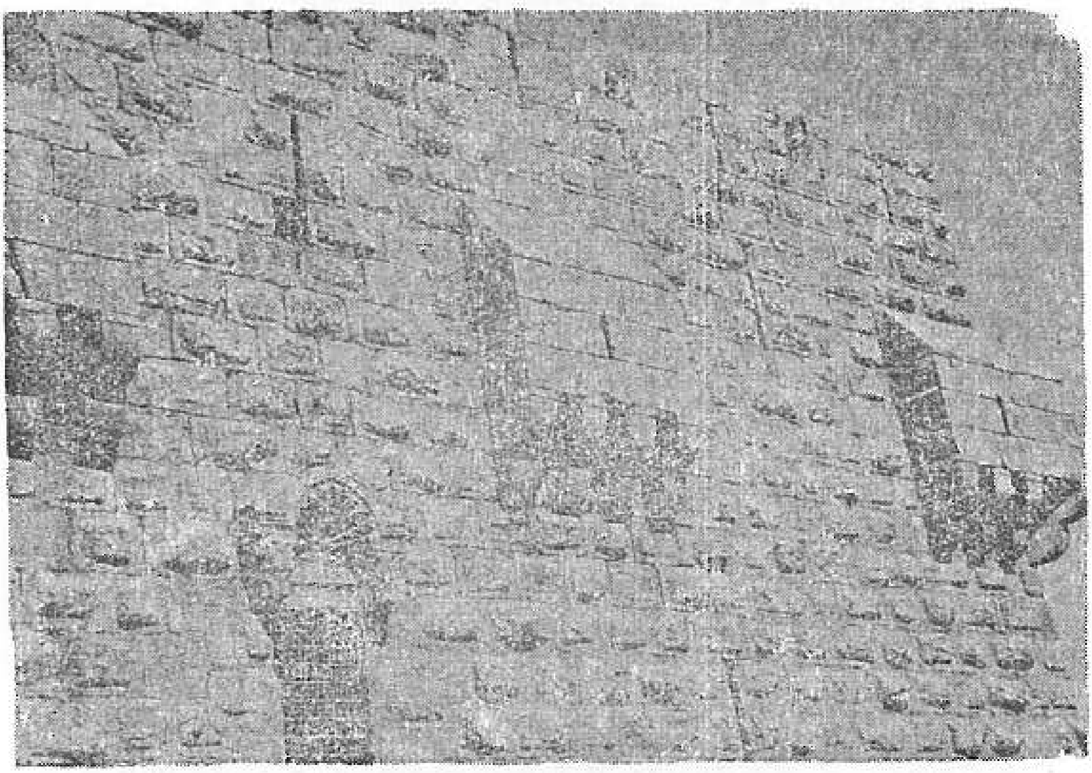
اللوحة (٣٨) قطعة من البدنة (٥-٦)، ومكان التصاقها بالبرج المجاور رقم (٥)



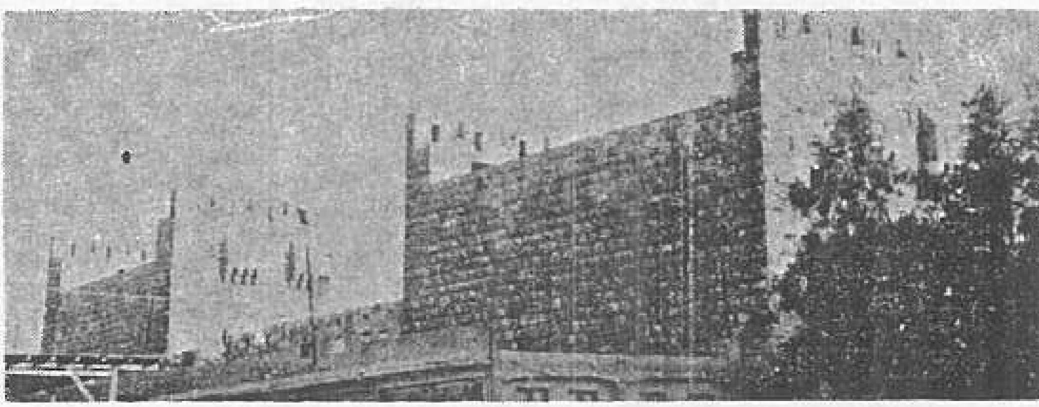
اللوحة (٣٩) البرج رقم (٦)، الواجهتان الشرقية والجنوبية



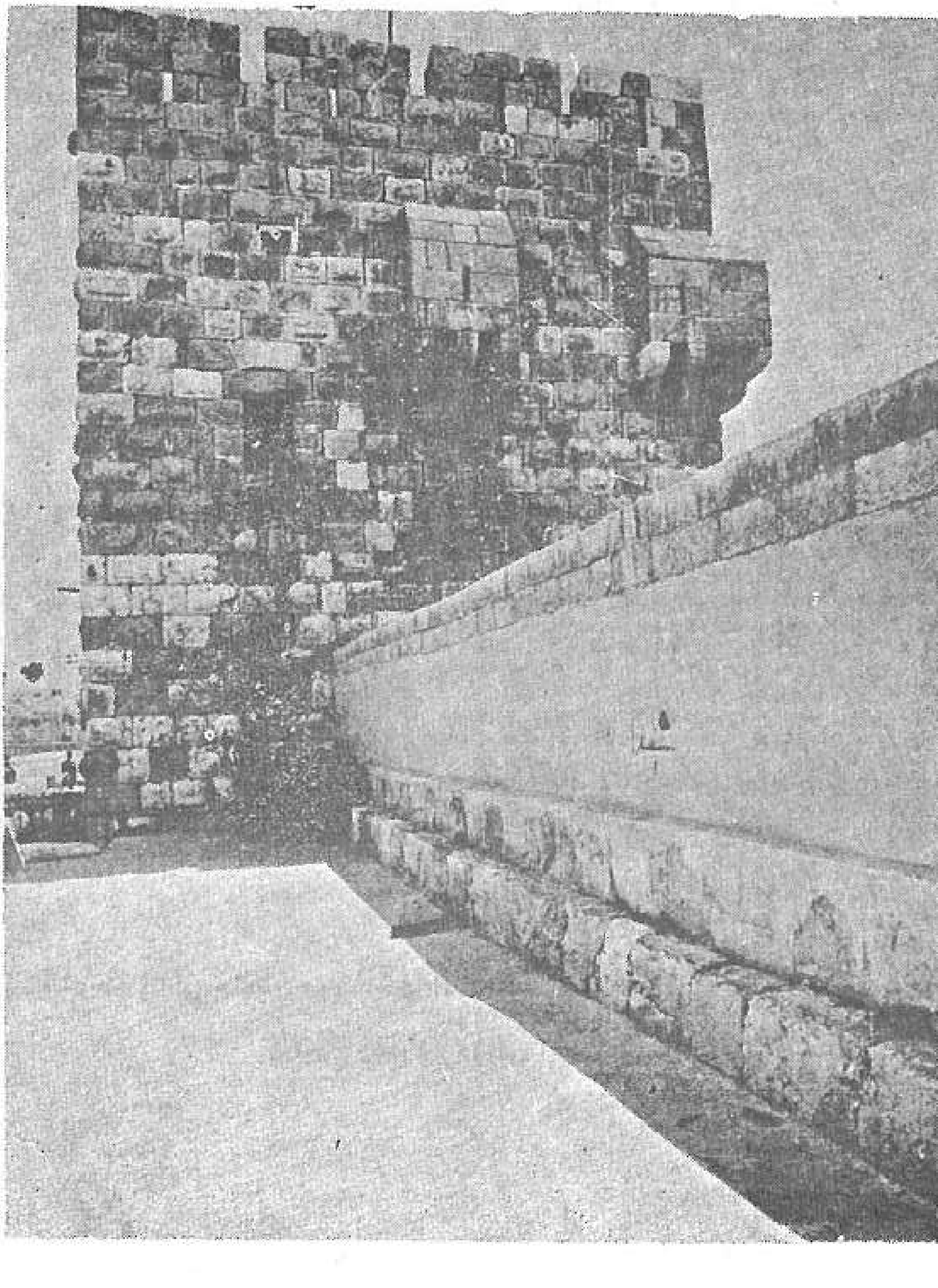
اللوحة (٤٠) آ – البرج رقم (٦)، باب الطابق الثاني



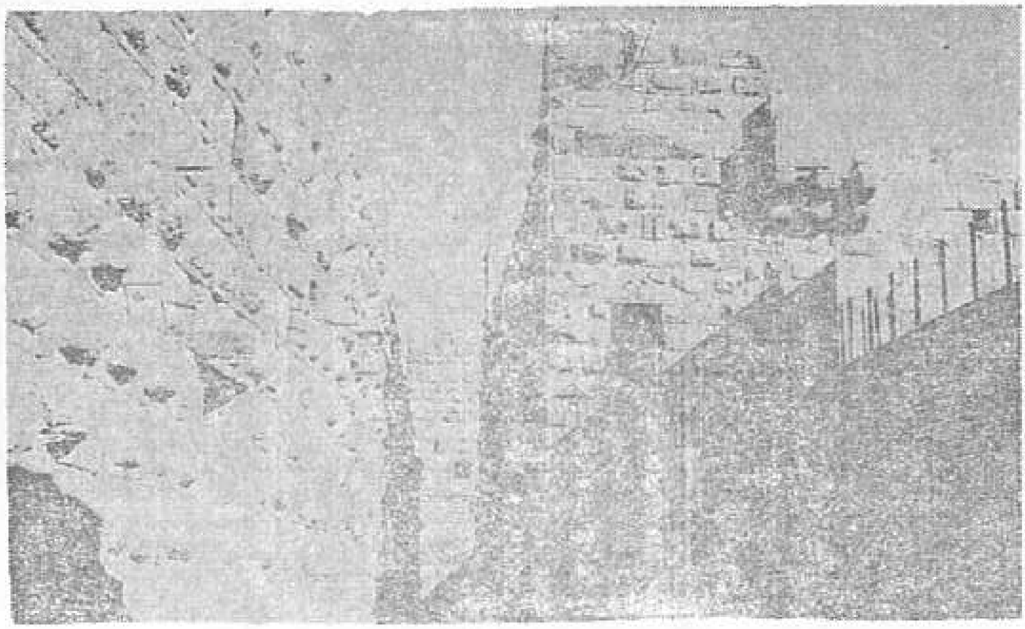
اللوحة (٤١) ب - البرج رقم (٦)، نافذة البرج



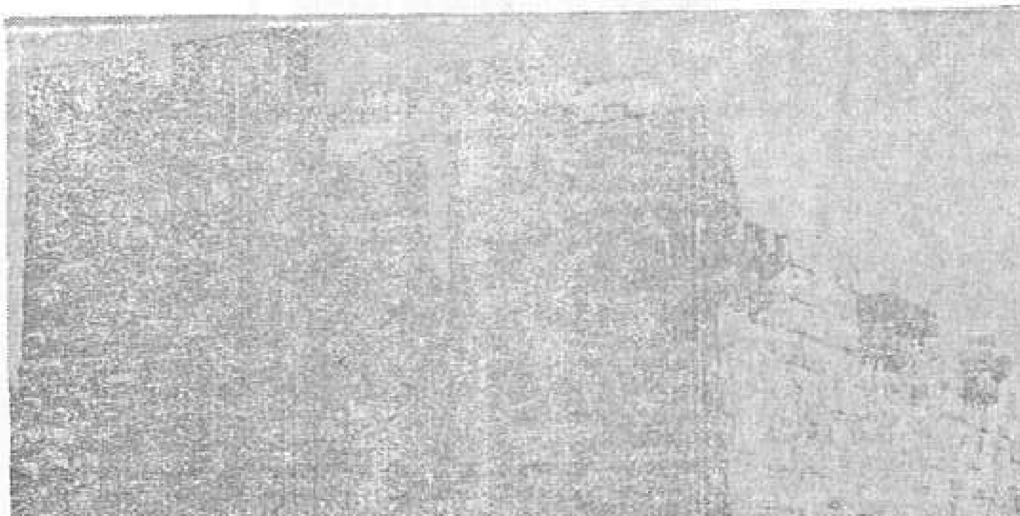
اللوحة (٤٢) منظر من داخل القلعة للبرج رقم (٦) إلى اليمين والبرج رقم (٥) (إلى اليسار)



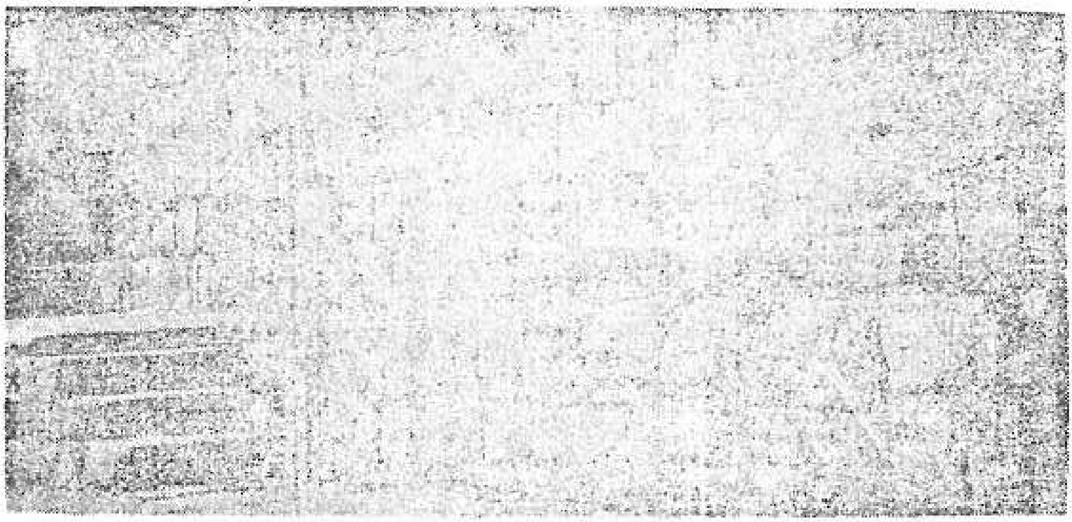
اللوحة (٤٣) ستائر البدنة (٦-٧) من الداخل، والواجهة الغربية للبرج رقم ٦



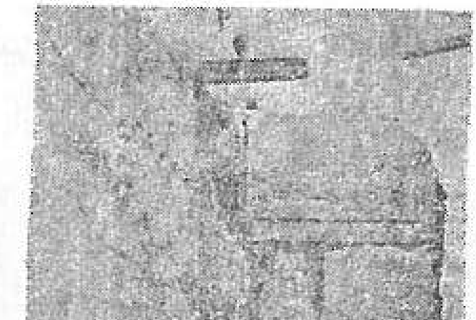
اللوحة (٤٤) البرج رقم (٧)، الواجهة الغربية وفيها الباب والدرج، المؤديان إلى الممر الدفاعي العلوي



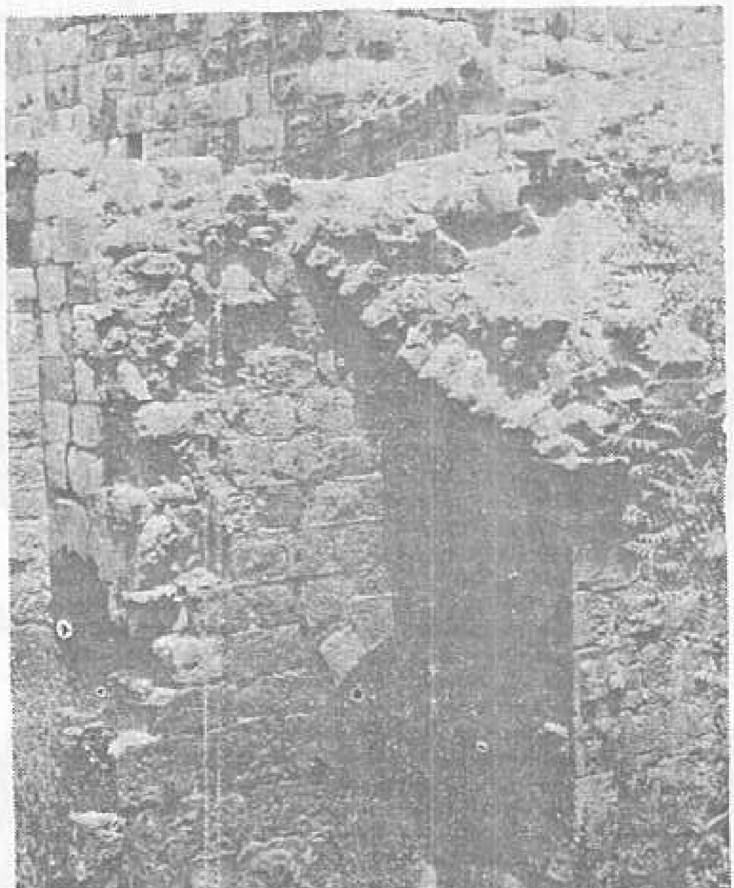
اللوحة (٤٥) البرج قم (٧)، الواجهة الشرقية وآثار الباب المسدود والدرج المؤدي إلى الممر الدفاعي العلوي وقد أحطناهما بخطين



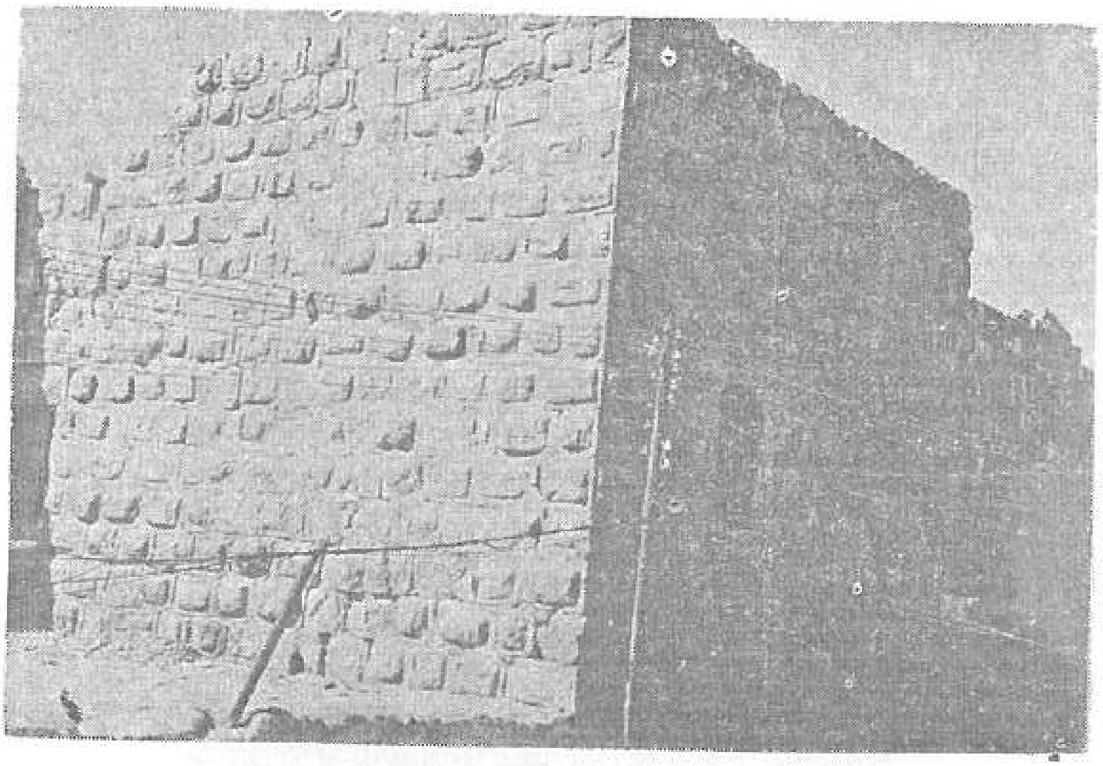
اللوحة (٤٦) البدنة (٧-٨) منظر من الداخل



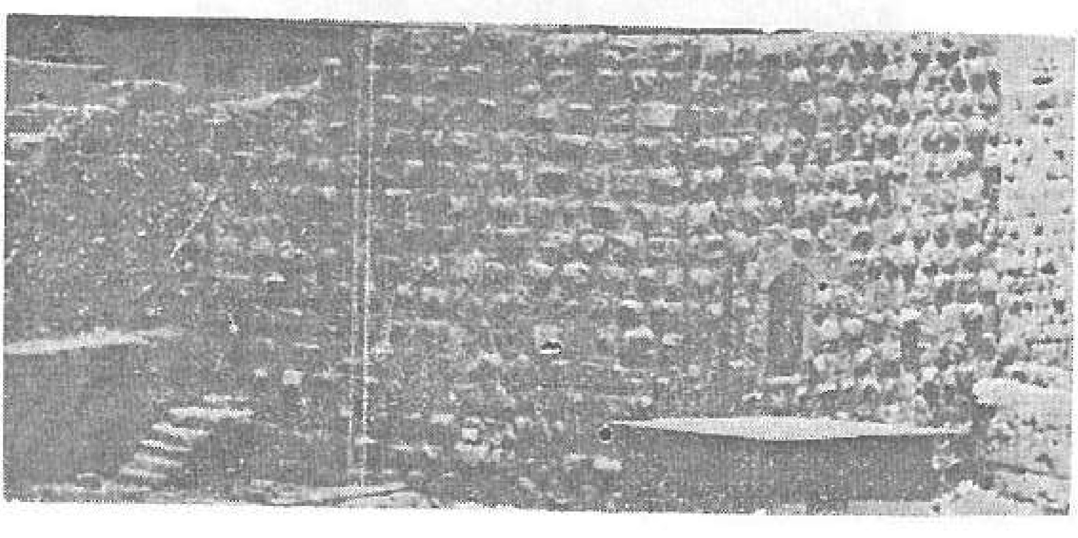
اللوحة (٤٧) روشن البدنة (٧-٨)



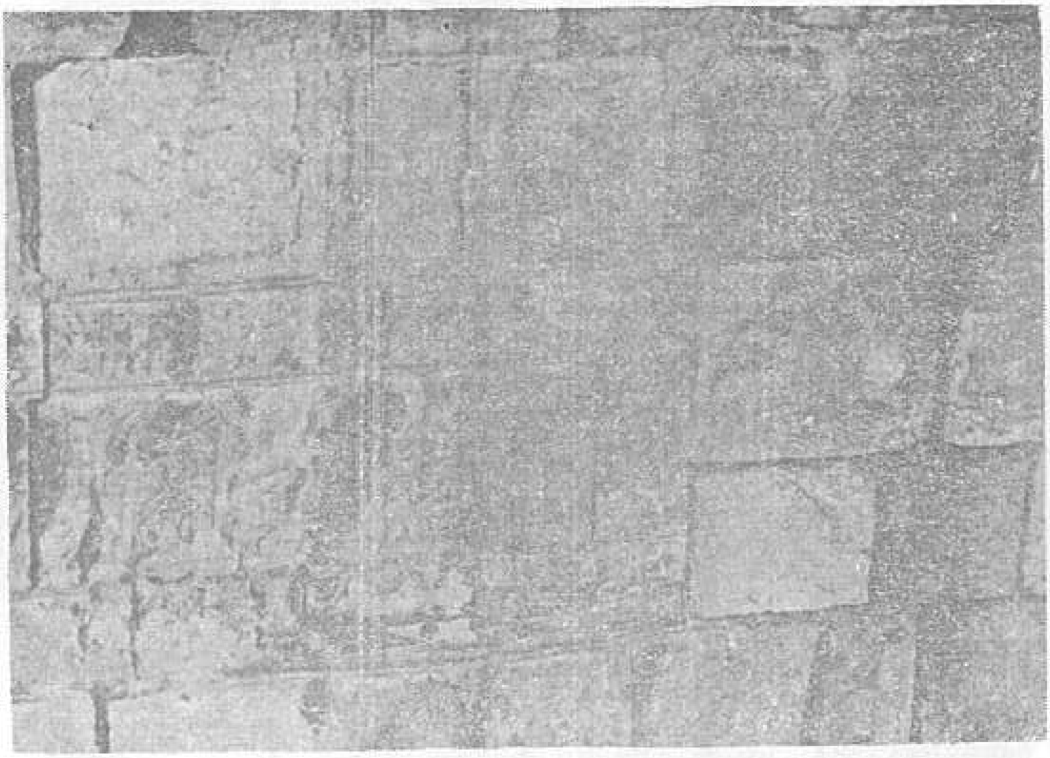
اللوحة (٤٨) البرج رقم (٨) في حالته الحاضرة



اللوحة (٤٩) البرج رقم (٩)، الواجهات الشرقية والجنوبية للقسم العلوي من البرج



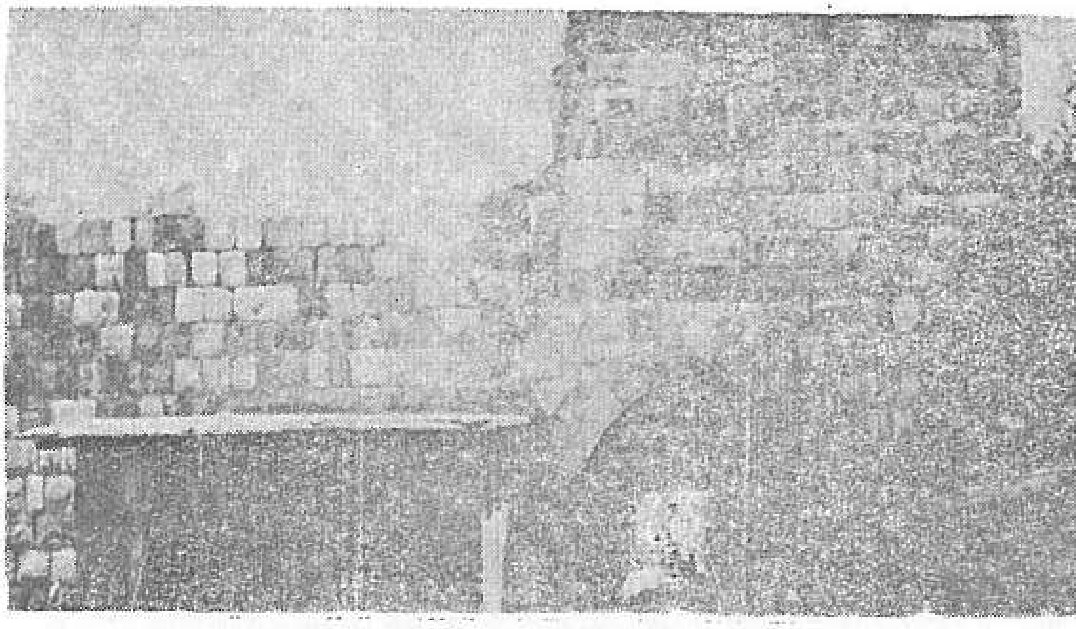
اللوحة (٥٠) البرج رقم (٩)، القسم العلوي، ويبدو فيه باب الطابق العلوي والدرج وقطعة من البدنة المجاورة للبرج (السور الغربي)



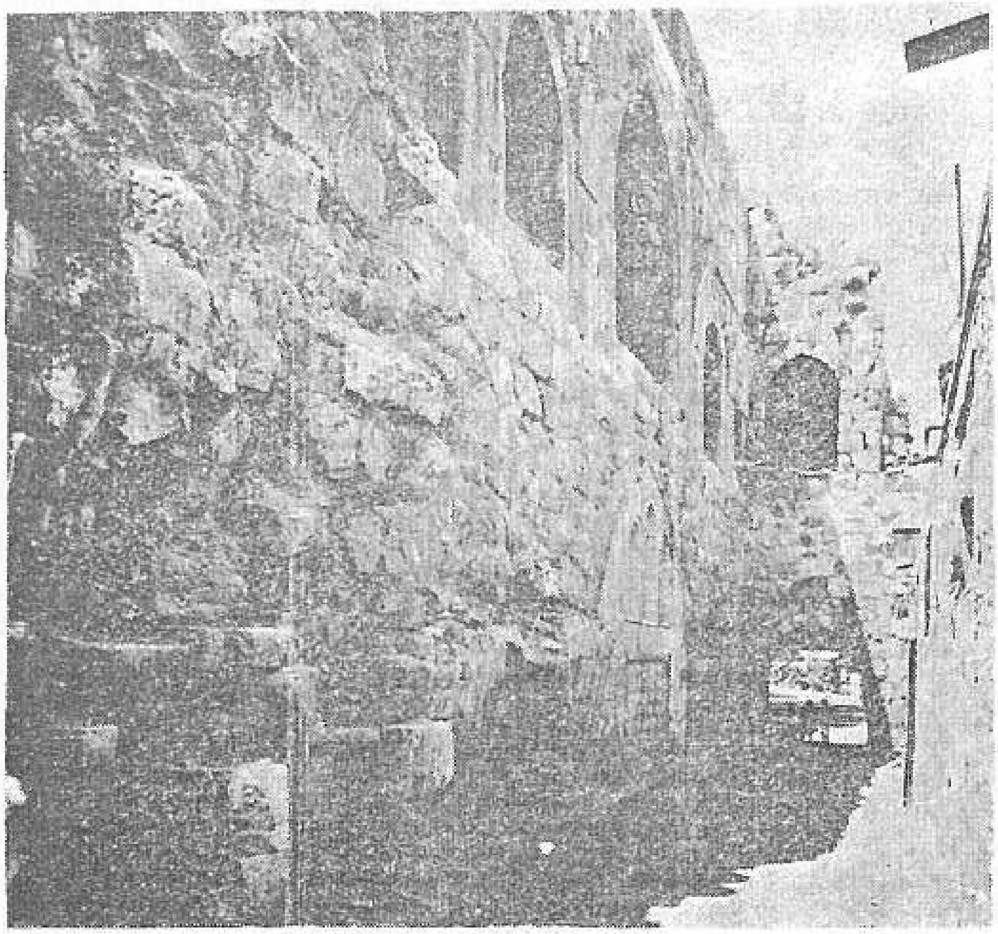
اللوحة (٥١) البرج رقم (١٠)، بعض النقوش والكتابات في الجدار الشمالي



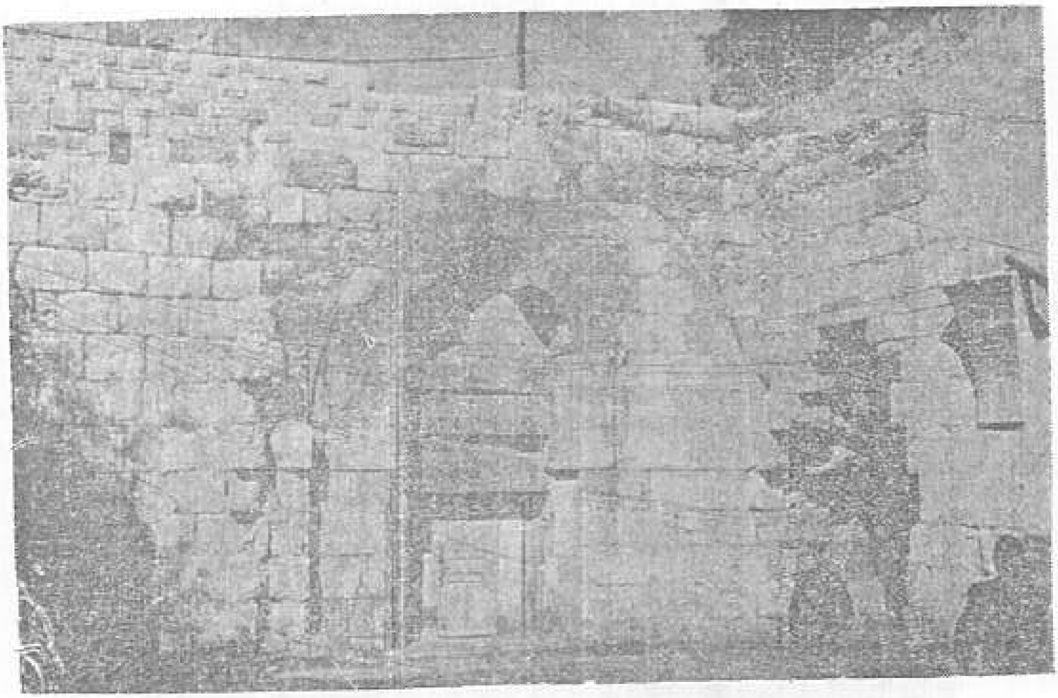
اللوحة (٥٢) البرج رقم (١٠)، بعض النقوش والكتابات في الجدار الشمالي



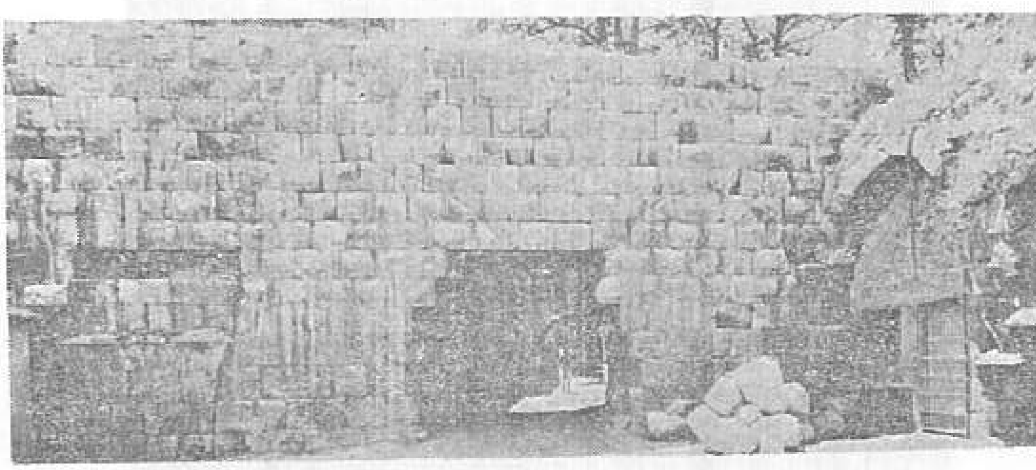
اللوحة (٥٣) باب القلعة الشمالي، والواجهة الغربية للبرج رقم (١١)



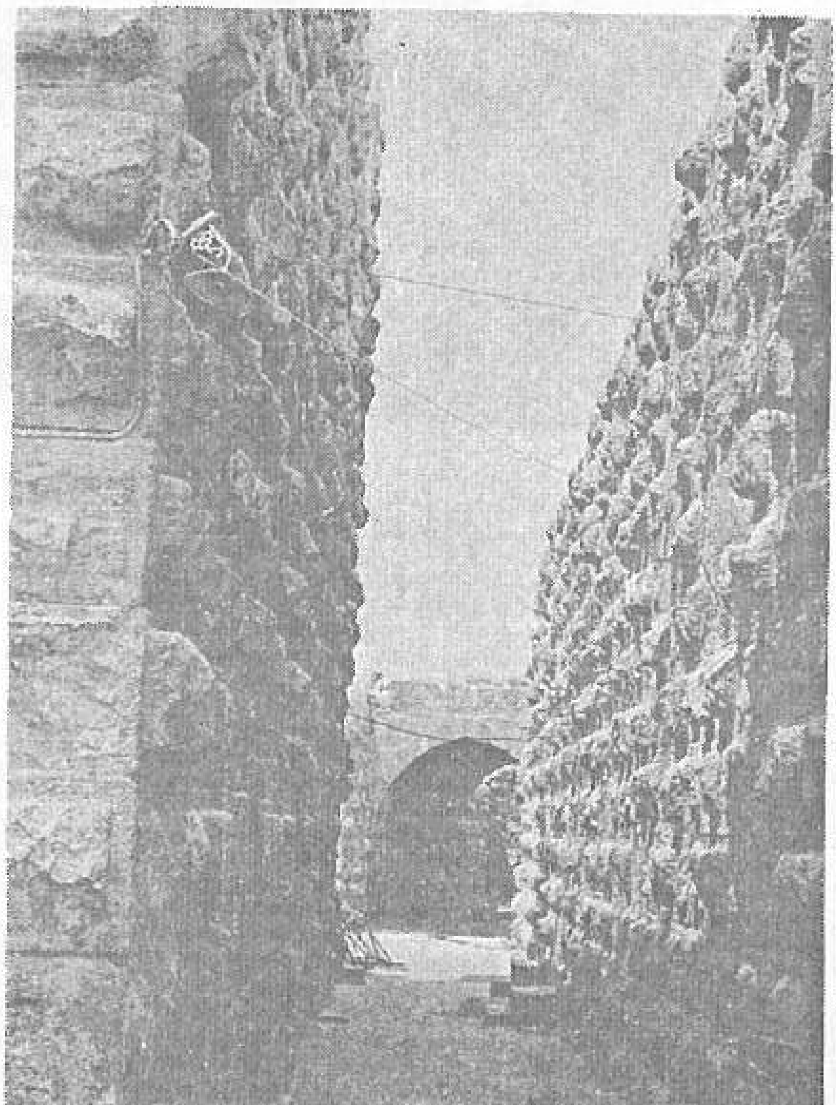
اللوحة (٥٤) البرج رقم (١١) من الداخل، ويبدو سقفه المهدوم



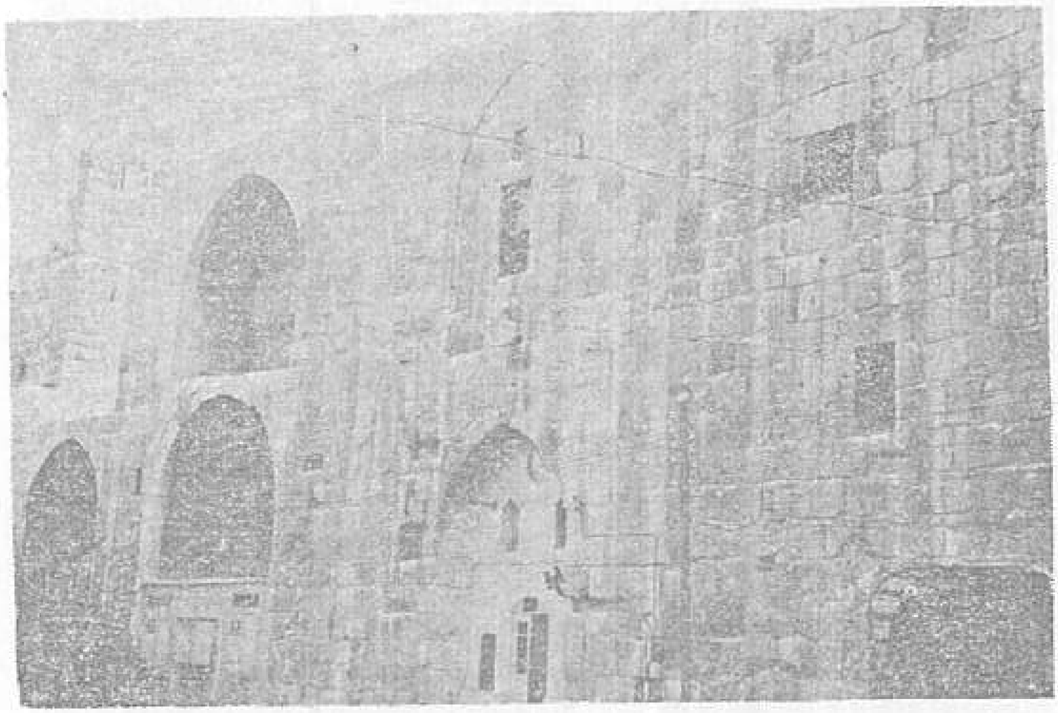
اللوحة (٥٥) الباب الشمالي للقلعة من الداخل،
وتبدو آثار اقباء المبنى رقم (١٦) المهدوم



اللوحة (٥٦) السور الشمالي، الجدار الداخلي السميك عند البدنة (١١-١٢)
منظر من الجهة الشمالية



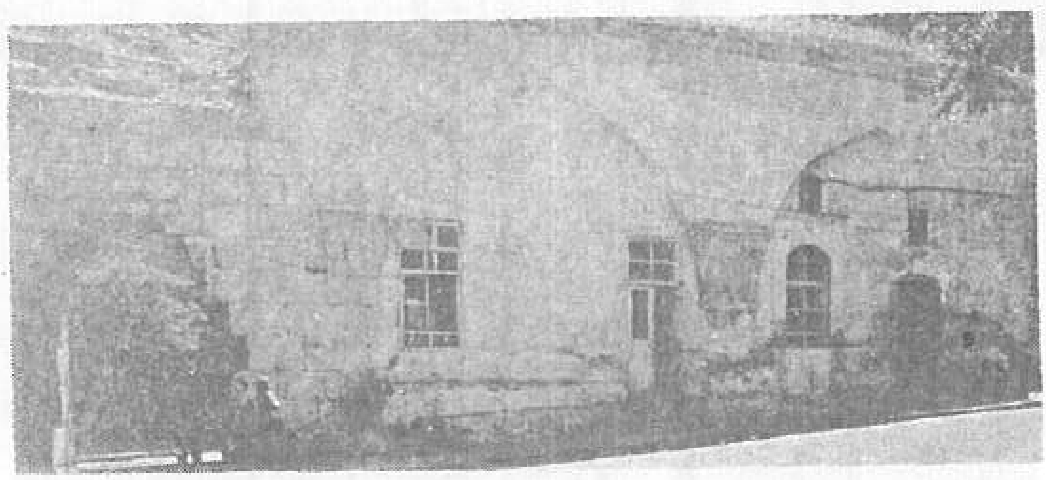
اللوحة (٥٧) الممر الدفاعي الشمالي خلف البرج رقم (٧)، الطابق العلوي



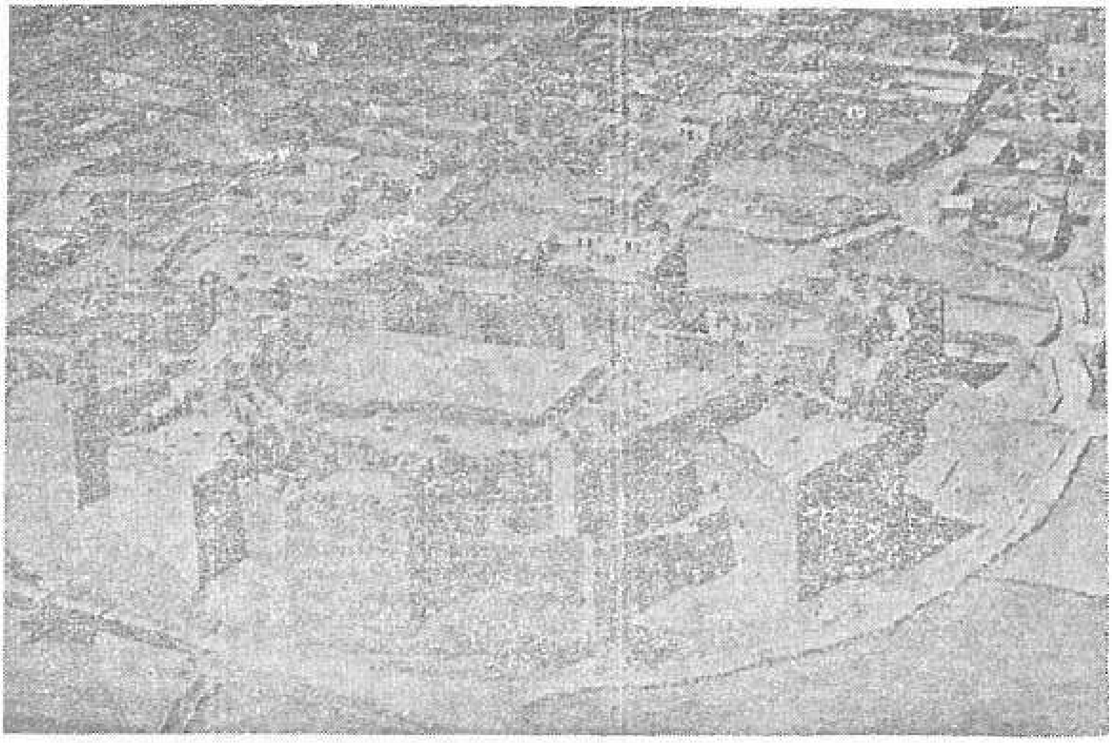
اللوحة (٥٨) المبنى رقم (١٧)
(القصر)، الواجهة الشمالية المطلة على باحة القلعة



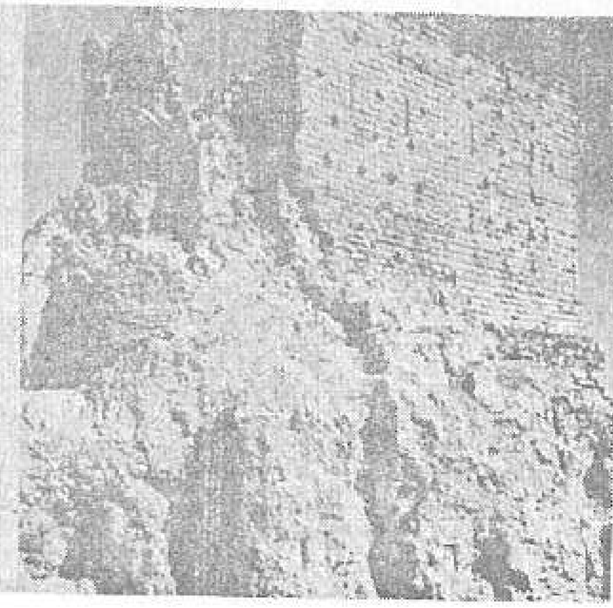
اللوحة (٥٩) أحد أبواب القصر الأيوبي (المبنى رقم ١٧)، القاعة د



اللوحة (٦٠)
بعض آثار عقود القاعة (رقم ١٦) التي تهدم نصفها الغربي



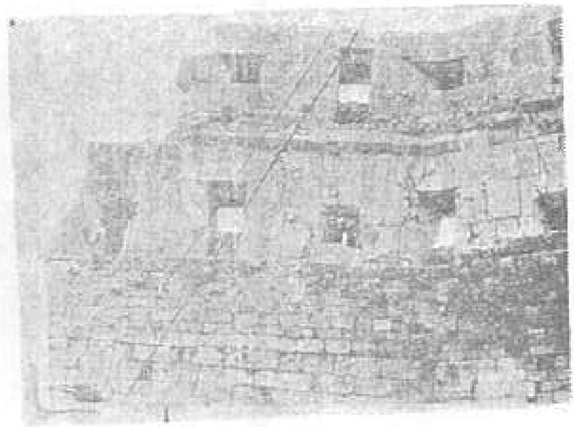
اللوحة (٦١) قلعة بصرى - صورة جوية



اللوحة (٦٢) قلعة شيزر
البرج الجنوبي والخندق



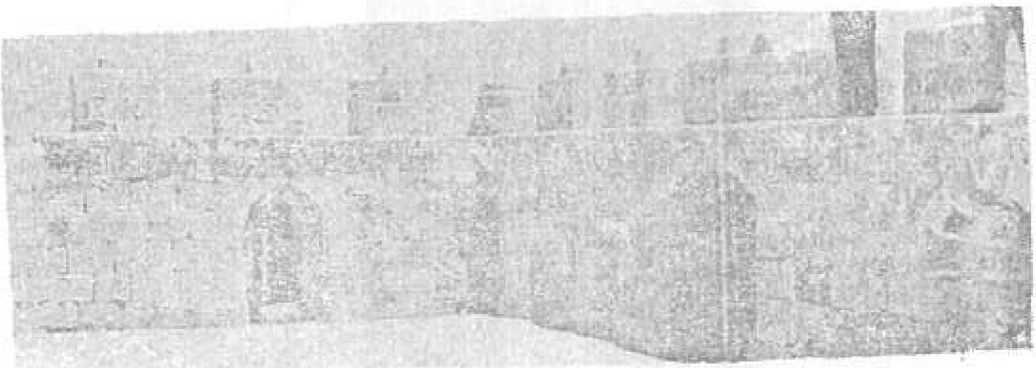
اللوحة (٦٣) قلعة شيزر
باب البرج الجنوبي



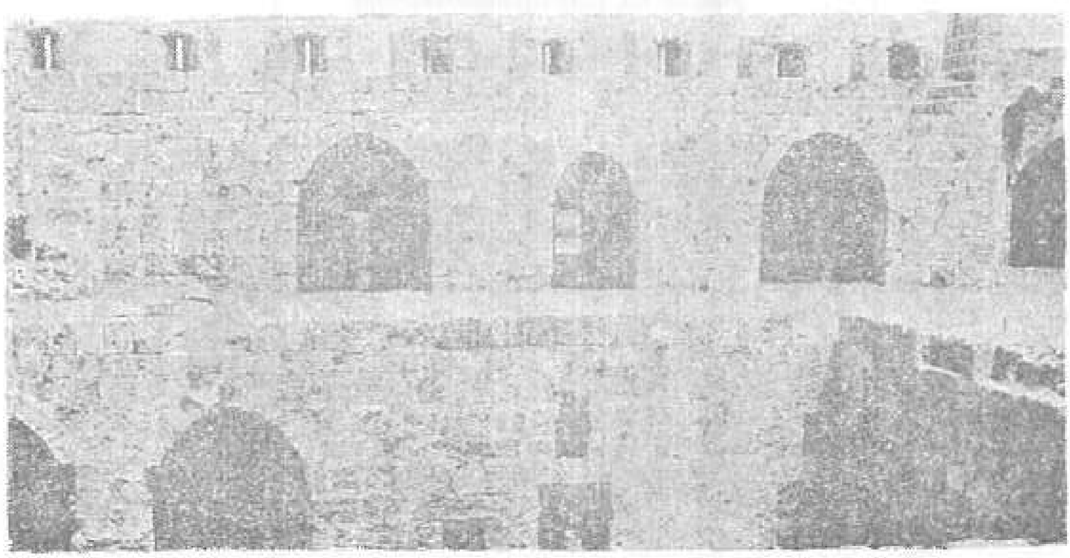


ستائر في أسوار مدينة طرطوس

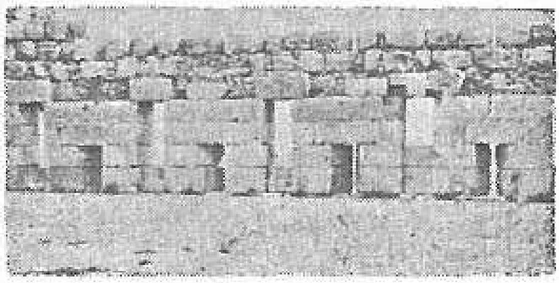
قلعة حلب - برج الخندق الجوبي



اللوحة (٦٦) ستائر في قلعة أرواد



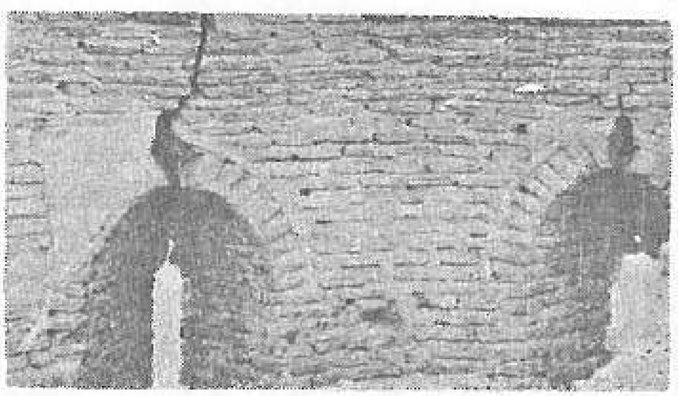
اللوحة (٦٧) ستائر في حصن أرواد



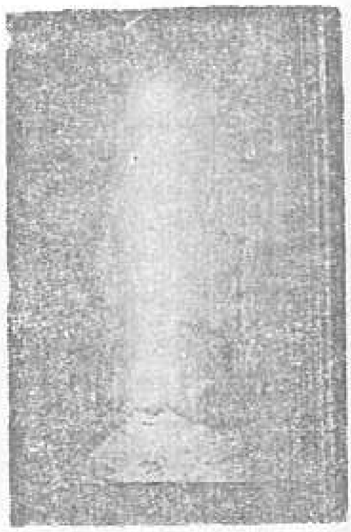
اللوحة (٦٨) ستائر في قلعة الحصن - السور الداخلي الجنوبي



اللوحة (٦٩) مرمى في قلعة حلبية



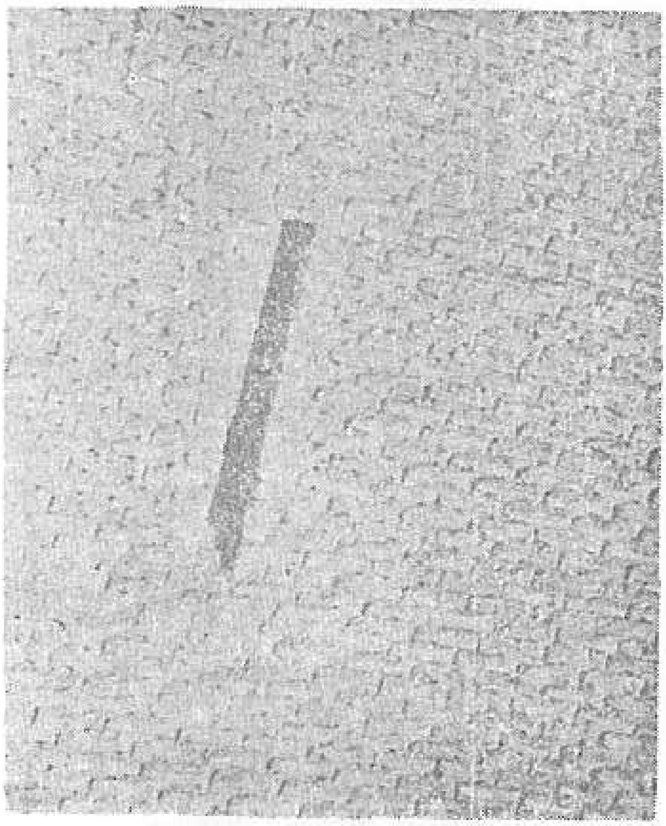
اللوحة (٧٠) مرامي في قلعة جعبر



اللوحة (٧١) مرمى في قلعة حلب



اللوحة (٧٢) مرمى في قلعة الحصن

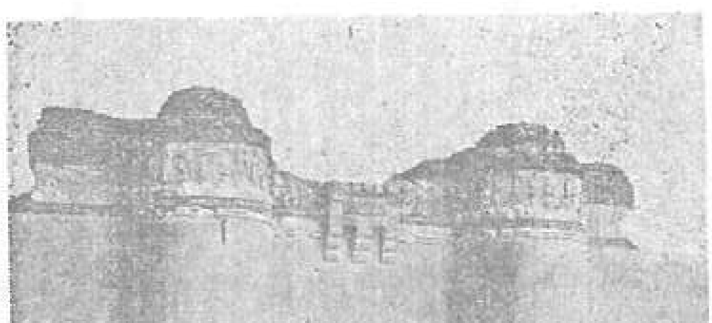


اللوحة (٧٣)

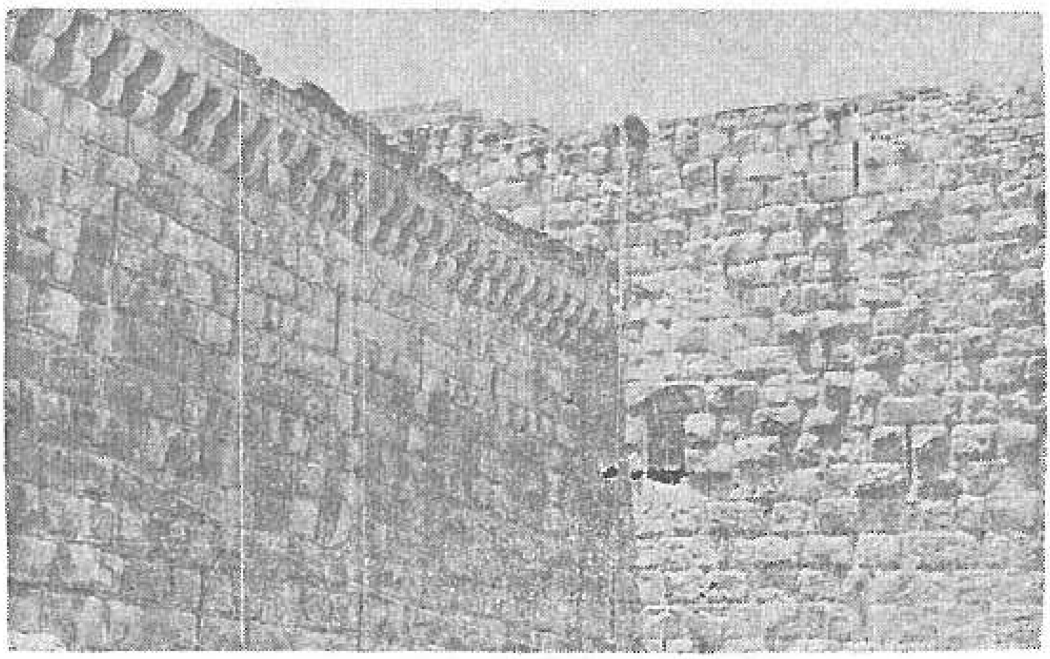
قلعة جعبر، أحد المرامي من الخارج يشاهد في اسفله الغاطس



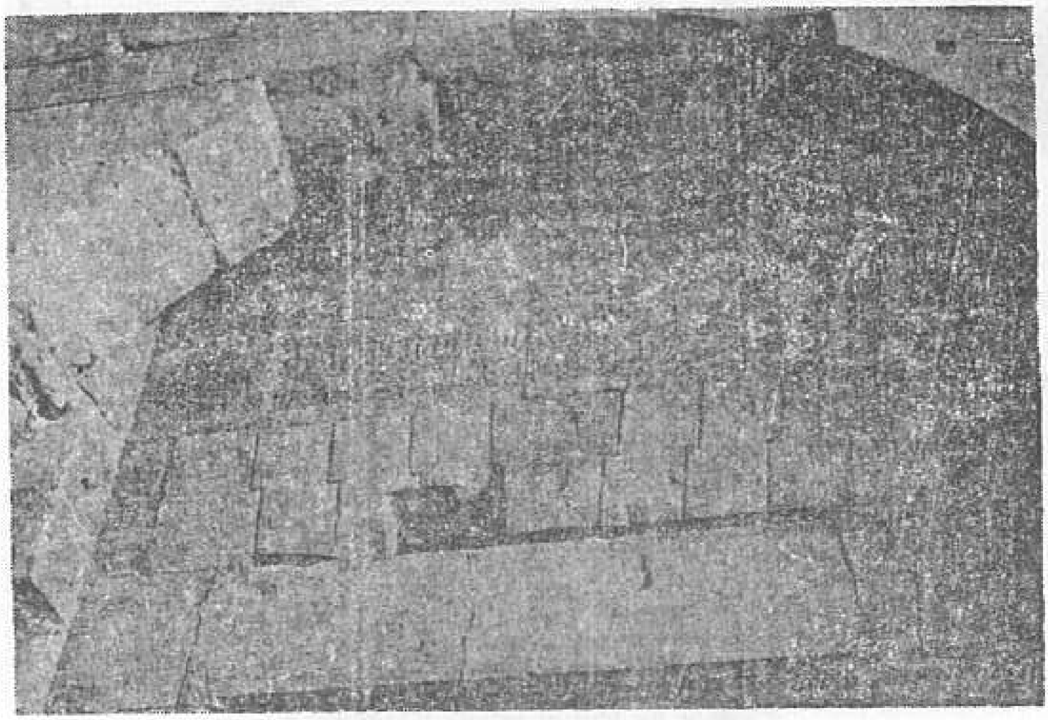
اللوحة (٧٤) مرمى في قلعة بصرى



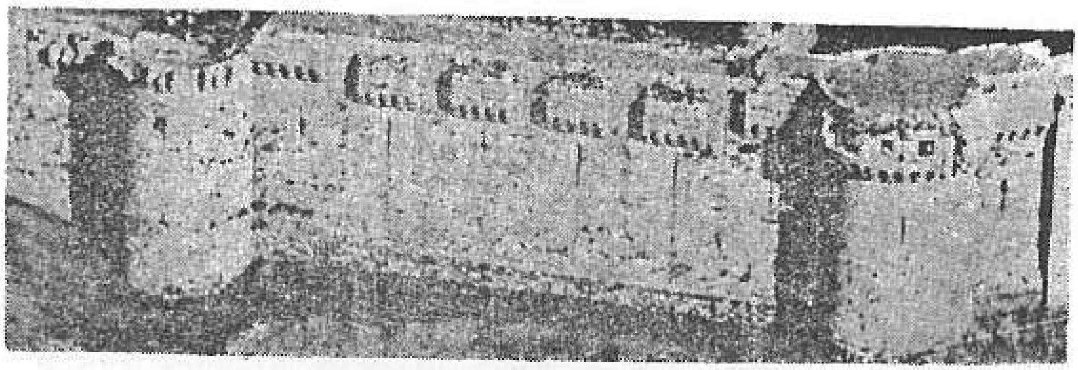
اللوحة (٧٥) روشن فوق باب قصر الحير الشرقي



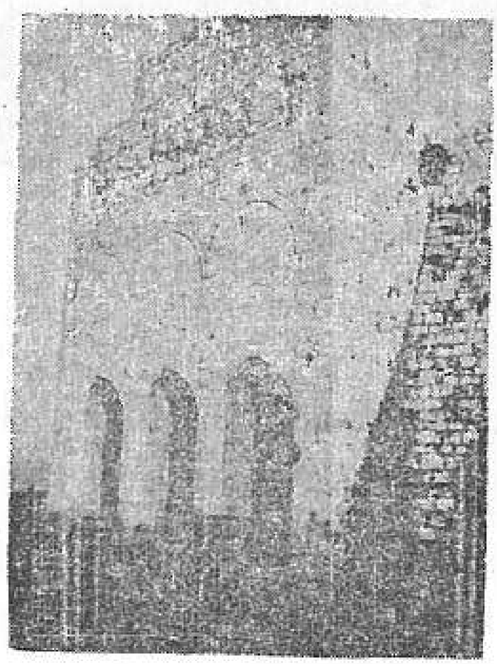
اللوحة (٧٦) قلعة بصرى - روشن ذي السقاطات المتواصلة



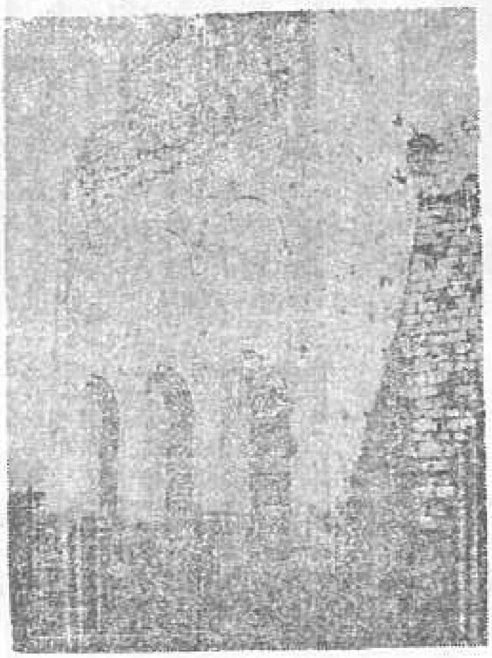
اللوحة (٧٧) قلعة نجم - سقاطة فوق الباب خلف القنطرة



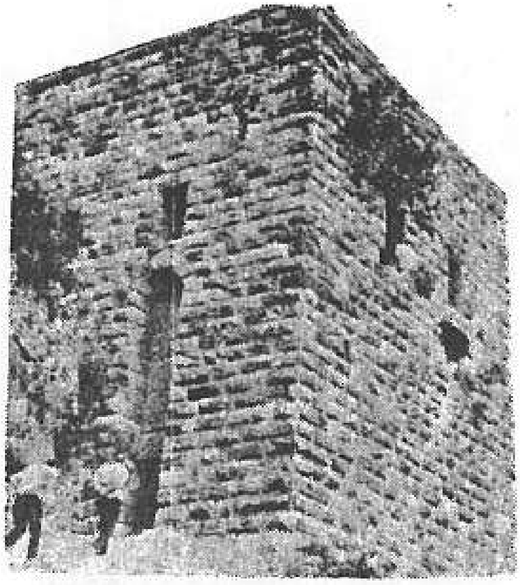
اللوحة (٧٨) قلعة الحصن، السور الغربي وتشاهد في أعلاه الرواشن المنفصلة، والرواشن ذات السقاطات



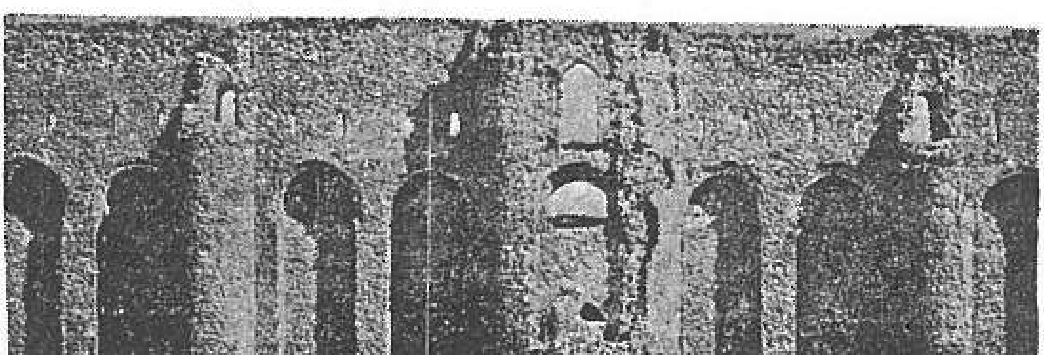
اللوحة (٧٩) منظر داخلي لروشن في قلعة دمشق



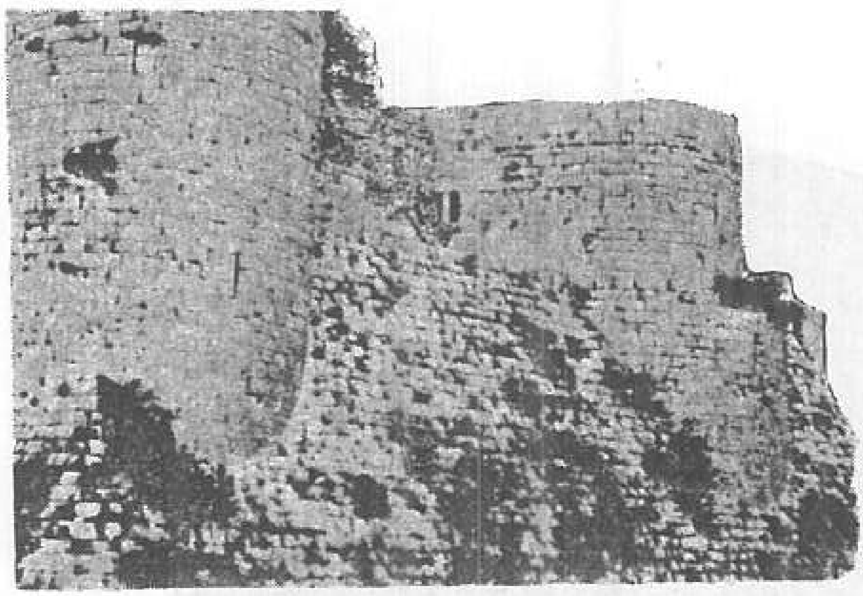
اللوحة (٨٠) برج في الحصن الداخلي في قلعة الحصن
تشاهد السقاطات وراء القناطر



اللوحة (٨١) باب قلعة صهيون الجنوبي
في أعلاه سقاطة لرمى المقذوفات خلف قنطرة الباب

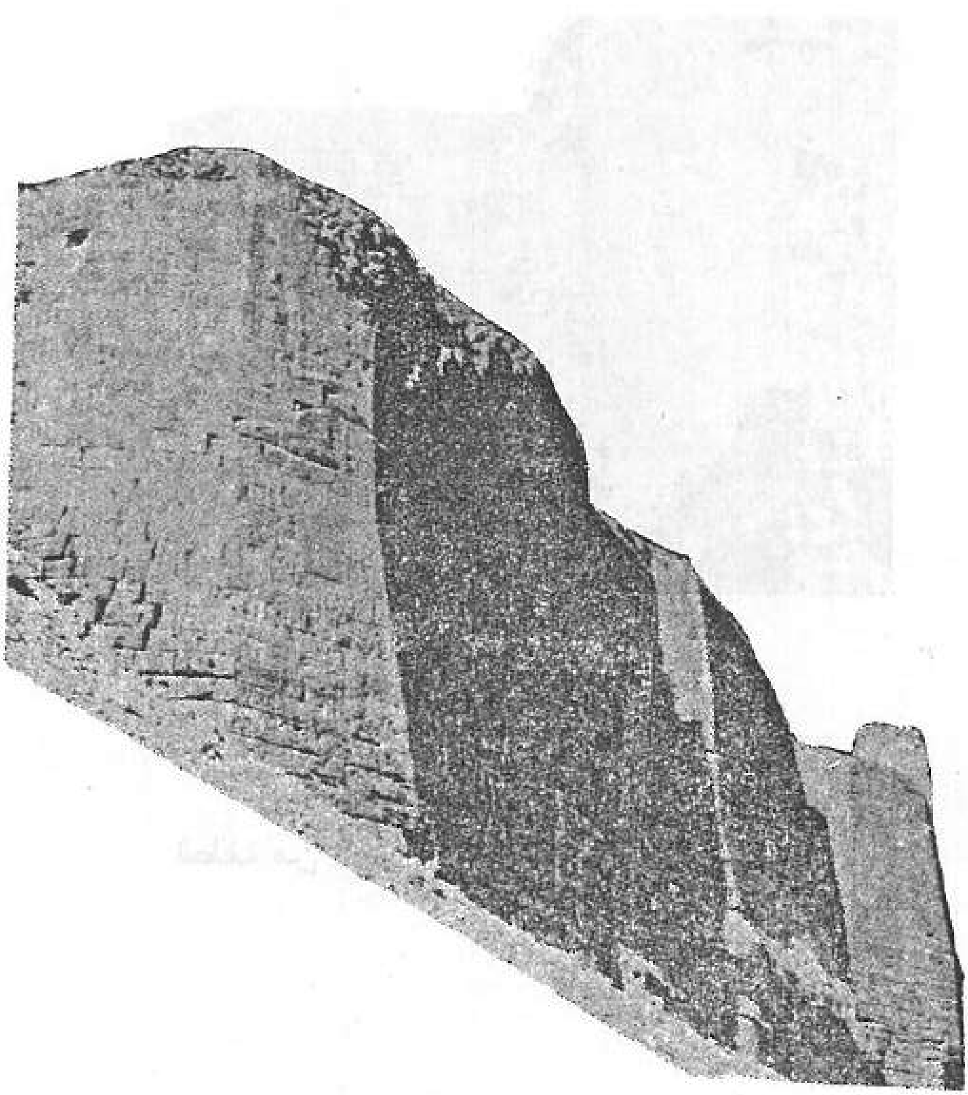


اللوحة (٨٢) قطعة من سور حصن الأخيضر العباسي،
وتشاهد السقاطات وراء القناطر (نقلاً عن كريزويل)

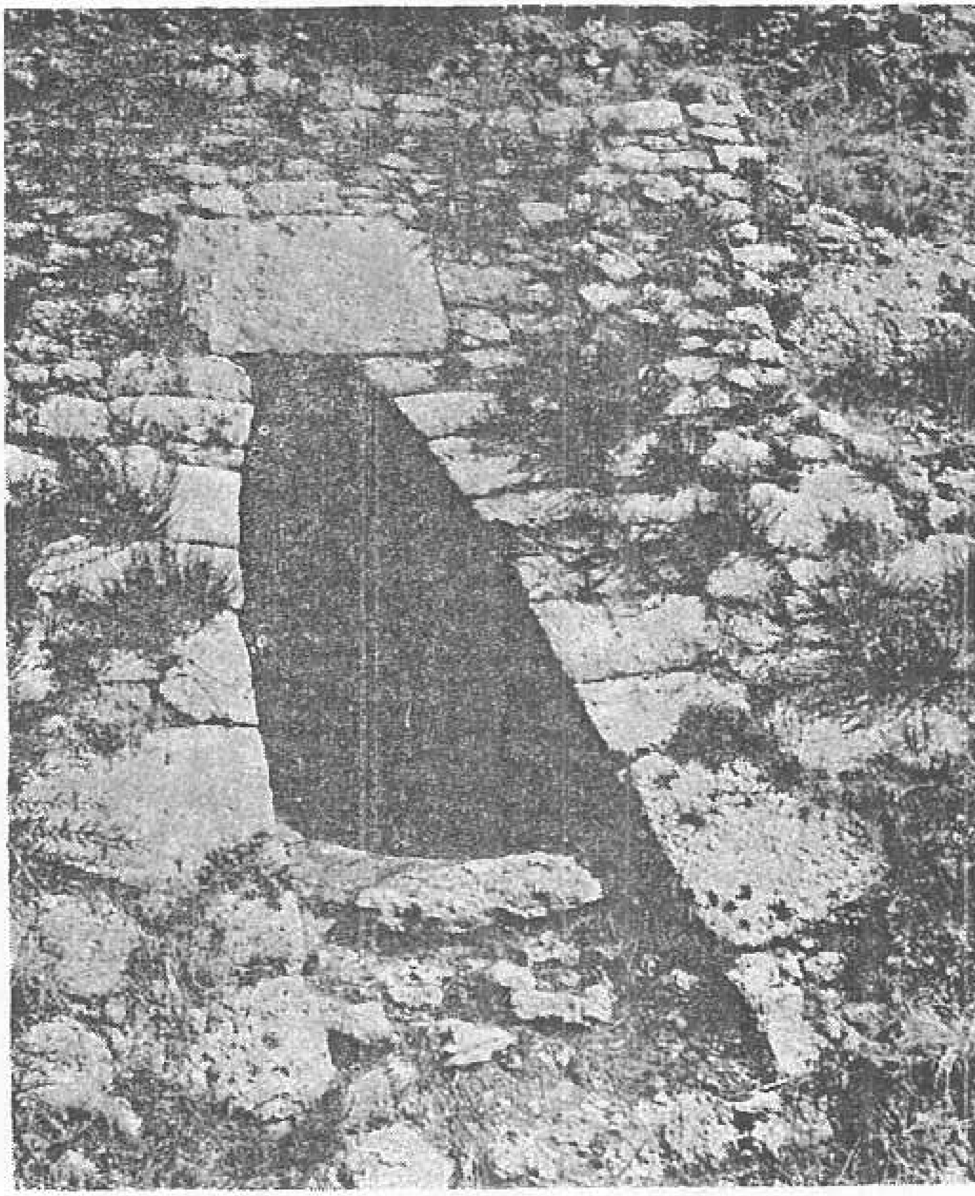


اللوحة (٨٣)

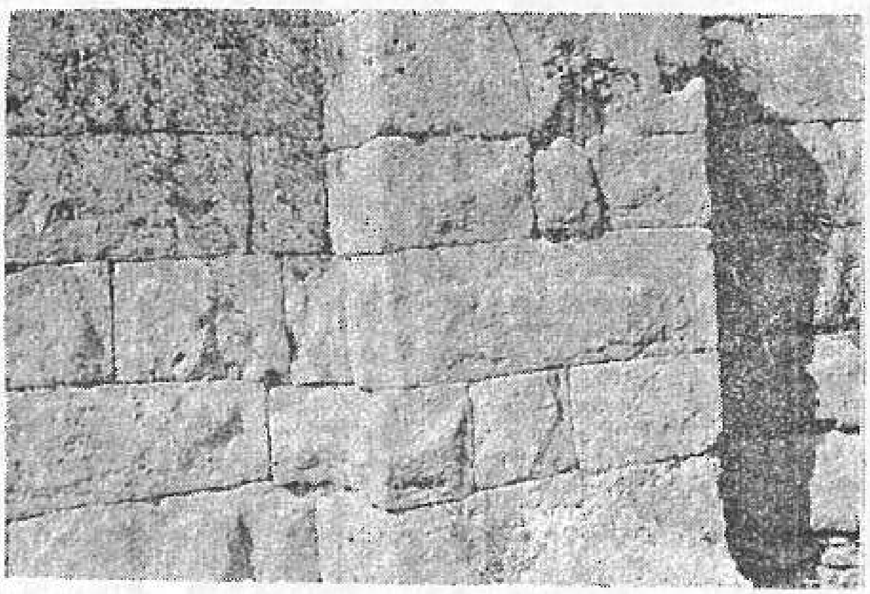
قطعة من السور الداخلي في قلعة الحصن



اللوحة (٨٤)
قلعة نجم ، سور مزود بسفوح من الحجر المنحوت



اللوحة (٨٥)
بوابة مدينة أوغاريت والجدار ذي السفح



اللوحة (٨٦)

قطعة من سور القصر في أوغاريت،

وتشاهد فيها الحجارة البارزة النحت

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

صدر من هذه السلسلة

١- الرحلة الإمبراطورية	إبراهيم الأسود
٢- سيد قريش	معروف الأرناؤوط
٣- منصور بن سرجون التغلبي	جوزيف نصر الله
٤- الدرة المضية في الدولة الظاهرية	محمد بن صصرى
٥- عجائب المقدور في أخبار تيمور	ابن عرب شاه
٦- نزهة الأنام في محاسن الشام	عبد الله بن محمد البدري
٧- نهاية المماليك (١) «الرؤية المصرية»	ابن إياس
٨- نهاية المماليك (٢) «الرؤية الشامية»	ابن طولون الصالحي الدمشقي
٩- حوادث دمشق اليومية	البديري الحلاق
١٠- دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني	ماري سركو

عدد الطبع
٢٠٠٠ نسخة

كتاب هام يعرض لواحدمن أهم معالم دمشق، إنها قلعة دمشق وأثرها الحصين.

يعرض للقلعة منذ العصر الروماني عبر لقى وجدت، وعبر الإنشاء الأولى السلجوقي، ثم الأيوبي، ثم المملوكي، وأخيراً العثماني.

كتاب يجعل من القلعة سجلاً حياً لما مر على دمشق عبر تاريخها من صمود، وانتصارات، وهزائم، وحرائق، ولكنه يختم هذا التاريخ بأن القلعة صمدت كما صمدت دمشق لتكون شاهداً على تاريخ يشبه كل التواريخ في انحناءاته وارتفاعاته.

كتاب هام وجدير بالقراءة.



مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب

٢٠٠٨

السعر (٥٠)ل.س